



الذَّكْبُورُ شَوْقٌ ضَعِيفٌ

العصر اللاتيني



تاريخ
الأدب
العربي

٦

العصر الإسلامي

تاريخ
الأدب العربي
٢

العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربي (ج ٢) □
المؤلف :	شوقي الضيف □
الناشر :	ذوي القربى □
الطبعة :	الثاني □
تاريخ الطبع :	١٤٢٧ □
الكمية :	١٥٠٠ نسخة □
المطبعة :	سليمانزاده □
شماره مجوز كتاب :	ف/ ٢٦/ ٣/ ٢٥٨٠٣ - ٨٤/ ٤/ ٣٠ □
شابك دوره ٤ جلدی :	٩٦٤ - ٥١٨ - ٠٣٥ - X □
شابك ج ٢ :	٩٦٤ - ٥١٨ - ٠٣٢ - ٥ □

مرکز التوزیع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣ - ٢٥١ - ٩٨ +

العراق - النجف الأشرف - سوق الحويش - النقال: ٠٧٨٠١٠٠٣٥٧٢

العراق - البصرة - العشار - النقال: ٠٧٨٠١٠٤٦٢١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُفْتَدِيَةٌ

هذا هو الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالعصر الإسلامي ، وقد وزعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بني أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولاً تُبَحِّثُ فيها جوانب الحياة في العصر بحثاً ترتب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبَحِّثُ فيها الأعلام النابون في الشعر والحطابة والكتابة بحثاً تُرسمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل في أشعار المخضمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق : فقد أتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يتصليون عنه في أشعارهم صدور الشدَى عن الأزهار الأرجة . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم ، فإذا هم يتحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاءً إذ أنشأوا - على هدى القرآن الكريم - آيات بدیعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضروراً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بني أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانساجهم في مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى في نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يَحْيَى في

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التي أهلها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يخضعون في كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيشية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفي هذه الأثناء كان الموالى يتعربون، وسرعان ما اتقنوا العربية وأعرّبوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب في العصر الأموي، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة برّ وتعاون وإنهاء.

والكتاب الثاني يَبَسُطُ كلَّ هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلالها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه. فقد مضى شعراء المهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو الفناض التي بشّوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية. كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والخواارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين. ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طابع تميزه، فبينما يميز مثلاً شعر الخوارج بتصوير استبسالهم في الحروب وتهاقمهم على حياض الموت مستهزئين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذرّفوا على أئمتهم المستشهدين من دموع غزار، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشرّعيين. وقد اضطرت فنون الشعر اضطراباً لا في المديح والمهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً في الغزل، فظهر فيه الغزل العنّدى بجانب الغزل الصريح، وزكا شعر الزهد، ونما شعر المجنون ووصف الطبيعة، ومدّ الرُّجَّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطُّرْدِيَّات، فهي ليست عباسية — كما كان يُظنُّ — إنما هي أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها، حتى غدّت — في بعض جوانبها — كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعلّ عصرًا عربيًّا لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الحوصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها بدؤدون عن نظرياتهم مؤلّبين الناس على خصومهم . وشغلت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعاظ والقصاص احتداماً ، استطاعوا في أثناءه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويحطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات في المراكز المنخفضة التي يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعاني وفتق الحيل للتعبير عن خفياتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهد لوضع قواعد البلاغة العربية .

ونما تدوين المعارف في عصر بني أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبويّ وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفي المثالب والأمثال والمواعظ ، وفي مسائل العقيدة من قدر وغير قدر ، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء ، ودوتوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعبرون من الوعاظ أسلوبهم الذي وصفناه ، وما زالوا يرقّون بكتابتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهديني سواء السبيل .

الكتاب الأول

في عصر صلوات الإسلام

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوي على معنى الخضوع والانقياد ، وقد ترددت في القرآن الكريم بهذا المعنى في مثل : (وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له) (وأمرت أن أسلم لرب العالمين) . ومن ثمَّ أُطلقت علماً على ديننا الحنيف في قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأنعمت عليكم نعمي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الدبانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جلَّ شأنه : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه) .

فالإسلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ماسبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل في العقيدة الإسلامية الإيمانُ بوحدة الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحدٌ الله الصمدُ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (ربُّ العالمين) رب كل شيء في الكون وخالفه (ليس كمثل شيء) (لا تُدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما في الكون (وعنده
مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تَسْقُط من ورقة إلا
يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا ذرة من شيء إلا يعلمها) .
وعلى مثال علمه الواسع قدرته التي : **بِهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** .
على زمامه (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (وَمَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) . وهو مع
قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتي وسعت كل
شيء) . (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقرن بالرحمة في القرآن الكريم
الحبة التي يُفِيضُهَا على عباده مستشعرين لجلاله وكاله المطلق (قل إن كنتم تحبون
الله فاتبعوني يُخَيِّطْكُمْ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم
ويحبونه أذلة على المؤمنين أَعِزَّة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة
إلى العمل الصالح والنهي عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله
يحب المتوكلين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله
لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه
أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم في الدارين الأولى والآخرة (رُسُلًا مبشرين
ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا
بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمتها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل
إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوفى موسى
وعيسى وما أوفى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ووراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبى ، به نوعان من الأرواح
خيرٌ وشرير ، والخير هو الملائكة الذين يتركون بالوحى على قلوب الرسل
(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين
على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوقفونهم
ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما
الأرواح الشريرة فهي الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم يَسْتَفْتُونَ غَوَايِهِمْ
فيمن ضلُّوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد
جعلنا في السماء بُرُوجاً وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

وَيُكْثِرُ الْقُرْآنَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ عَقِيدَةِ الْمَعَادِ : فَالْإِنْسَانُ حَمِيماً مَبْعُوثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِيتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُسْعَفُونَ) وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ ، كُلٌّ يَحْسَابُ عَلَى أَعْمَالِهِ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ جَمٌّ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيُرْهِقُهُمْ ذِلَّةٌ مَاهِمٌ مِنْ اللَّهِ مَنْ عَاصِمٌ كَأَنَّما غَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعَةً مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وَفَاقًا) .

وَدَائِمًا يَرُدُّ الذِّكْرَ الْحَكِيمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُشْدُودٌ إِلَى إِرَادَةِ اللَّهِ الْعَلِيِّ وَمَشِيتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَدَبَّرَ إِرَادَتَهُ الصَّغْرَى بِجَانِبِ هَذِهِ الْإِرَادَةِ الْكُبْرَى ، فَلَا يَتَّبِعْ هَوَاهُ بَلْ يَرَاقِبْ رَبَّهُ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَيَدْعُ . فَهَنَّاكَ مَشِيتُهُ مُطْلَقَةً هِيَ مَشِيتَةُ اللَّهِ الَّتِي تَسِيرُ عَلَى كُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ (وَمَا تَشَاءُونَ لَا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وَبِجَانِبِهَا مَشِيتَةُ الْإِنْسَانِ الَّتِي تَجْعَلُهُ مِثْلًا أَمَامَ رَبِّهِ عَنْ عَقِيدَتِهِ وَعَمَلِهِ وَمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ) (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَجِيْنَةٌ) (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ) .

وَتِلْكَ هِيَ أَصُولُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : وَبِجَانِبِهَا أَعْمَالُ مِنَ الْعِبَادَاتِ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَدَائُهَا ، وَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَصُولٍ : الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ وَالزَّكَاةُ . الصَّلَاةُ بِمَا يَسْبِقُهَا مِنْ طَهَارَةِ الْوُضُوءِ وَبِمَا فِيهَا مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَسْبِيحٍ وَاسْتِغْفَارٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُسْلِمِينَ كَيْفِيَّتَهَا وَأَوْقَاتَهَا : وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) (إِنْ الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) . وَالصَّوْمُ هُوَ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ تَبْتُلًا إِلَى اللَّهِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . . . شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (والله على الناس حَيِّجُ البيت من استطاع إليه سبيلاً) وهو في أشهر معلومات ، وقد بيَّن الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهي أن يُردَّ من مال الغني على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهي تُذكر في القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحشاً عليها في مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُونَ) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبة . بقول تبارك وتعالى : (عبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . . والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يُقشروا وكان بين ذلك قواماً .. ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً .. والذين لا يشهدون الزور وإذا سؤروا باللغو مروا كراماً) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن . . وآمراً بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور) واقصِدْ في مشيك واغضُضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جلَّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة . . يا أيها الذين آمنوا لا يسخَرُ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءً من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمِزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بسَّـ الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا نجسوا ولا يَغْتَابَ بعضكم بعضاً أُنِيبَ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ) .

وقد حرَّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرَّم ربِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . ومما حرَّمه تحريماً باتاً آفةُ الخمر وآفةُ القمار (إنما الخمر والميسر .. رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا في الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنيا والنقائص (ولكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس وتبذ كل الفواحش والرذائل ، ومراقبة الإنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معروف عليه يوم القيامة ، يوم يُجزَى كلُّ إنسان بما قدَّمَت يده . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه في سره وعقله ، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه .

٢

قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلَّصه من الحماقات والثرهات ، وقد مضى يحثكم إليه في معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبَّر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل في ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر في هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخلَق عبثاً وأن له صانعاً سوى كل شئ فيه وقدَّره ، يقول جلَّ ذكره : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتذكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فتننا عذاب النار) (الشمس والقمر بحسبان) (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون) والأرض قرشناها فنعلم الماهدون ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن في الإيمان بوحدة الله . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

فصله على كل ما في الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخرها لفائدته (قل أغبر الله
أبني رباً وهو رب كل شيء) (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا
للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن). وهو إله واحد يدبر السموات
والأرض (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (وما كان معه من إله إذا لذهب
كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون). وبالمثل
يحتكم القرآن إلى العقل في الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من بيعت الحياة
في الكائنات قادر على أن يردّها إليها (كما بدأنا أول خلقت نعيده وعداً علينا
إنّا كنا فاعلين) (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل
يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (وترى الأرض هامدة فإذا
أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق
وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير).

ويُنحى الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم، فيشبههم
بالأنعام التي لا تعقل، ويقول إنهم لا يمتازون في شيء عن الصمّ البكم العمى
(لم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها
أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (أم تحسب أن أكرمهم بسمعون
أو يعقلون إنهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً). وكثيراً ما تُختم الآيات بمثل
(أفلا تتذكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن في ذلك لآيات لقوم
يعقلون).

ودائماً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خلق له من التدبر،
فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثه بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة،
ومن ثم كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسياً في الإسلام، فمن أسلم عن غير
فهم وينصر كان إسلامه منقوصاً، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والاقتناع
لا على التقليد والمحاكاة للأباء والأسلاف.

ويشير القرآن مراراً إلى ما وهب الإنسان من فضيلة العقل، وأن الله أودع في
هذه الفضيلة خواص تمكنه من السيطرة على جميع المخلوقات، يقول جل شأنه:
(الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديد فيه بأساً شديداً ومنافع للناس) (هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقد رزقنا منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . فكل ما في الوجود مسخر للناس ولعقولهم كي يستغلوه وكي يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقرن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء في مثل : (قل رب زدني علماً) (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفي كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كي يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم في أي عصر من العصور ، بل تعاونوا دائماً تعاوناً مشمراً . وقد رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحث على العلم والتعلم من مثل : « طلب العلم فريضة » على كل مسلم ، و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد حمل الإسلام هؤلاء العلماء أمانة الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد في فروعه وما يطوون فيه من استنباط للأحكام يقول جل ذكره : (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . ويقول للرسول الكريم : (وشاورهم في الأمر) . وفعلاً كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ويتصنر عن رأيهم^(١) . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأي أصلاً من أصول الإسلام حين لا يوجد نص في كتاب أو سنة ، روى الرواة عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله

(١) انظر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وما بعدها .

لمصطفى عبد الرزاق (الطبعة الأولى) ص ١٤٣

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجهد رأيي لا آلو . قال : فضرب
 بيده في صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول
 الله^(١) . وقد نسما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم
 يكن الخلفاء يفتنون بأرائهم إلا بعد استشارة الصحابة^(٢) . ومُصنّرت الأمصار
 وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء في كل مصر إسلامي نحمل
 للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكمه في
 القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفى كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفع من شأن العقل
 الإنسانى إذ جعله الحَكَمَ في فروع الشريعة وحشّه على استكمال سيطرته على
 الطبيعة وقوانينها ، كما حثّه على التزوّد بجميع المعارف . وفتّح الأبواب واسعة أمامه
 كى يجهّد في مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين
 ينحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى .
 وسرعان ما شادوا صرح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم
 الذهنية في جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصله الإسلام من
 حق الاجتهاد العقلى أثر واسع في أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقاً
 أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصولٌ أُمِّتَتْ على العقل الصحيح وفسحت
 له في التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون في الجاهلية قبائل متنازلة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما
 يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها
 تعصباً شديداً ، فإذا جتّى أحدهم جناية شركته في مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

(٢) مصطفى عبد الرزاق ص ١٥٨ و١٥٩ بعدها .

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن
 عبد البر (طبع القاهرة) ٢/٥٥

أحد أبنائها هَبَّتْ للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحِلُّ محلها فكرة الأمة ، يقول جَلَلٌ ذكره : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خير أمة أُخْرِجَتْ للناس) وهي أمة يعلم فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء . ومن ثم أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توحد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن تنقل حق الأخذ بالتأثر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد التأثر — كما كان الشأن في الجاهلية — يجرُّ تأراً في سلسلة لا تنتهي ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عفاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدّم القاتل لأولى الأمر حتى يلتقي جزاءه . وقدمضى الإسلام بمحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزّ شأنه : (يا أيها الناس إننا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . » (١)

وأخذ الإسلام يُرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، بحيث بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات . وينبغي أن يعودوا إخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه . باذلاً له ولمصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع . فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة بتقديها بروحه وبماله وبكل ما أوتي من قوة . ومن ثم وُضع نظام الزكاة وعُدَّتْ — كما قلنا — ركناً أساسياً في الدين ، فواجبُ كل شخص أن يقدم من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم في مال الغني ، يؤديه إليه راضياً . ومدَّ القرآن الكريم هذا الحق : إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق في سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة في حسن المثوبة ، يقول جلَّ وعزَّ : (من ذا الذي يُقرض الله قَرْضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . .) . مثلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حسنةٍ بربرةٍ أصابها وابلٌ فأتت أكلها ضاعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطُلَّ والله بما تعملون بصير . . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمنوا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تُخمسوا فيه واعلموا أن الله غني حميد . . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردَّ الغني بعضَ ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقاً دينياً . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته ويرتبط معها ترابطاً اقتصادياً كما يرتبط في وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها في سبيل الله ، ويؤثرون عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعتي مالٌ ما نفعتي مالٌ أبي بكر »^(١) وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به : فقد جهَّز عثمان جيش العُسرة في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمَّ الألف بخمسين فرساً^(٢) ، وكثر مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قدَّم عليه في إحدى تجارته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها في سبيل الله^(٣) . ولم يُعن الإسلام فقط بتنظيم العلاقة بين الغني من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عني أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٢١٢ . (٢) سير اعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف)

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله . وأوجب على التاجر أن لا يستغل الناس بأى وجه من الوجوه . سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جلّ شأنه :
 (وأوفوا الكيلَ إذا كيلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس .. وأحلّ الله البيع وحرم الربا .) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قيّومها العدالة .

وقد نظّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية . فردّ إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (ولن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً لمن مثل ما للرجال من السعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) . وكان كثير من غلاظ القلوب يبتدون بناتهم خشية العار ، فحرم ذلك القرآن ، يقول جلّ ذكره : (وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشره أيمسكه على هون أم يدسه فى الترابِ ألا ساء ما يحكمون) . وحرم البغاء وشدّد فى التكبر عليه حتى القتل . ونظّم الزواج وجعله فريضة عبّية إلى الله ونعمة من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن لئسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يؤطشن فرشكم غيركم وأن لا يدخن أحدكم بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تفضلوهن وتهجرهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلّ شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن نكرهوا شيئاً ويعمل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاقَ بَيْنَهما فابعثوا حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها إن يريدَا إصلاحًا يوفِّقَ الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تُفَصِّمُ العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يُسَرِّحَهَا بإحسان وأن لا يُمَسِّكَ عنها شيئاً من صداقها، بقول جلّ وعز: (وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتُم إحداهنَ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) أناخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكلّ ذلك كفّل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرضاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحريم الذي شاع في العصر العباسي ، فإن الإسلام يُجِلُّ المرأة ويرفع قدرها ، حتى لراها في الصدر الأول من العصر الإسلامي تشارك في الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين في حروب على وطلحة والزبير ، وكانت هي نفسها مصدرًا كبيراً من مصادر الحديث النبوي وهَدَى الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً، وهو ارتقاء من شأنه أن يسمو بإنسانيته . إذ حرّره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلاً من أن يشعر أنه مسخّر لعوامل الطبيعة تنقذنه كما تنهوى نَبْهَهُ إلى أنها مسخرة له ولنفعته، ودعاه لأن يستخدم في معرفة قوانينها عقله ويُعَمِّلَ فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً، وهبّاه حياة روحية وعقلية سامية ، كما هبّاه حياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبر والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة في الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه في المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يُفَضَّلُ سائر المخلوقات فقد خلُقَ في (أحسن تقويم) ، وسُويَ وعدُل ورُكِّبَ في أروع صورة ، وهب من الخواص الذهنية ما يُعْجِل به كل عنصر في الطبيعة إلى خدمته ، يقول جلّ شأنه : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) . ويذكر القرآن في غير موضع أن الإنسان خليفة الله في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة) (وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض) فالإنسان خليفة الله في أرضه ووكيله فيها ، خلّقه ليسودها ، ويُخَفِّضُ كل ما في الوجود لسيطرته .

وقد مضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل في جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغّب في ذلك ترغيباً واسعاً ، فأنبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكّون رقاب الرقبى بشرائهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرر تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحقّ الكامل في أن يكتب مولاه ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاთبواهم . . وآثروهم من مال الله الذي آتاكم) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاه ، حتى إذا مات رُدَّتْ إليها حريتها . وكانوا في الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كأباؤهم .

وسّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها في الدين نفسه إذ نصّت آية كريمة على أن (لا إكراه في الدين) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام ، بل يُشْرَكُون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الديني ، يقول تبارك وتعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تكفّر الناس حتى يكونوا مؤمنين) . وحققاً اضطرّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعنوان ، يقول جلّ وعز : (وقاتلوها في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

المعتدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلاً إلى السلم والسلام في مثل قوله تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) لذلك لانعجب إذا كانت نحية الإسلام هي « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة ، ومن تنمة ذلك ما وضعه من قوانين في معاملة الأمم المغلوبة مسلماً وحرباً ، فقد أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين في حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة ، وعهده^(١) النصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن المعاملة لأهل الذمة ، فقد أمر أن لا تُمسّ كنائسهم ومعابدهم وأن تُترك لهم الحرية في ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتلون به في معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . . . لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُستقصر منها ولا من حيزها ولا من صليبيهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم »^(٢) . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التي عقيمت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هي التي فتحت الشام ومصر إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند ، فقد كفّل للناس حريتهم لا لأتباعه وحدهم ، بل لكل من عاشوا في ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة النوع الإنساني ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبي)

٢٣٩/٤ وما بعدها و ٢٤١/٤ وما بعدها .
وقارن بفتح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة

المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري (طبع طبعة الاستقامة
بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ١٠٥/٣ .

الفصل الثاني

القرآن والحديث

١

نزول القرآن وحفظه وقراءاته

افتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنْجِماً في ثلاث وعشرين سنة . حتى تهيأ النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهي (وقرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُتٍّ وَنُزِّلْنَاهُ نَتْرِيلاً) . وكان أول نزوله في شهر رمضان وفي ليلة معلومة منه هي ليلة القدر (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وظلَّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربي بليغ (وإنه لتنزيل رب العالمين نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) (نزله روح القدس من ربك بالحق) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذي اختاره لتبليغ آخر رسالته إلى الناس كافة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبيين مثل علي وعثمان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب . ومضى كثير من كتبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعوّلوا على كتابته فقط ، إنما عوّلوا أولاً على حفظه وأخذوا شفاهاً عن الرسول الأُمِّي ، الذي كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سُنَّتِهِ يَتَحَفَّظُونَهُ ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتلين له ترتيلاً .

ونصوصُ القرآن صريحة في أن سورة وآياته جميعاً رُنِّبَتْ بوحى من الله إلى رسوله . يقول جبلُّ شأنه : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (إن علينا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) . فالرسول لم

يُرْفَعُ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ترتيب القرآن وآياته وسوره ترتيباً كاملاً . وتلقاه عنه الصحابة بهذا الترتيب ، وكان حفظه يسمون بالقرءاء . ولا استحرّ القتل بهم في يوم البجامة لعهد أبي بكر خشي عمر بن الخطاب أن يستحرّ بهم في مواطن أخرى ، فيذهب قرآن كثير ، فدخل على أبي بكر لستين من خلافته ، فقال له : إن أصحاب رسول الله يتهافون في المارك ، وإنّي أخشى أن تأتى عليهم . وهم حَمَلَةُ القرآن فيضيع وينسى ، فلوجمعه ! ولم يزل عمر يراجع حتى شرح الله صدره للفكرة ورأى رأيه ، وحينئذ عهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحي الأبرار - بجمعه ، فجمعه من العُسب والأخاف وصدور الحفظة المشهود لهم بالإتقان من مثل أنى بن كعب وعثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وطلحة وحذيفة وأبي هريرة وأبي الدرداء وأبي موسى الأشعري وتحرياً في الدقة ومبالغة في الحيلة أمر أبو بكر أن لا يقبل من حافظ شيء حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كُتِبَ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا جُمع المصحف حفظ في بيت أبي بكر ، ولا توفي وخلفه عمر انتقل المصحف إليه ، وبعد وفاته انتقل إلى حفصة ابنته أم المؤمنين .

وحدث في عهد عثمان أن أخذ القرءاء في الأمصار البعيدة يختلفون في بعض الأداء ، ولم يكن بين أيديهم مصحف أبي بكر ليرجعوا إليه ، فأقرع ذلك حذيفة بن اليمان الذي كان بغزو في فتح أرمينية وأذربيجان فهُرِعَ إلى عثمان قائلاً : إن الناس قد اختلفوا في القرآن حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف . فهم عثمان الأمر ، وأجمع رأيه على أن يكتب للمسلمين إماماً يرجعون إليه . وبعث إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخ منه نسخاً ، ثم نرده إليك ، فأرسلت به إليه . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقال عثمان للرهط القرشيين ، وهم الثلاثة الأخيرون : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فلما نزل بلسانهم ، فصدعوا بأمره . ورد عثمان مصحف أبي بكر إلى حفصة وطلابت

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرَّاء إلى الأمصار ، ويُقرئوها الناس على حَرَفِها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحرق ماسواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم في صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القُرَّاء في العالم الإسلامي يُقرئون الناس القرآن على حَرَفِ هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف ، وهي المعروفة بالقراءات ، وقد وقع لإجماع المسلمين على سبع منها ، وهي قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبي عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائي .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه عافطة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها . وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونّها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً ونهاراً ، وسرعان ما جمعه أبوبكر في مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره في العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولاً وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهي تبلغ عدا البسمة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمَتْ تسهيلاً لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهي أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلت كثرة السور بمكة ، ومن ثم كانت السور إمامكية وإما مدنية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الخفيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبّى نداء ربه . على أن بعض السور تمتاز فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جلّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصوصه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهي لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً في المعاني التي تدور عليها . أما السور المكية فلإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده وتبذّ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عن صالحه الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر في خلقت السموات والأرض ، فإن من تدبر في هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فلإنها تفصل القول في العمل الصالح الذي ينبغي على المسلم أن يقوم به ، ومن ثمّ كان يكثر فيها التشريع الديني وكذلك التشريع الاجتماعي بكل ما يتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق وبيّر الوالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحریم . وفي نضعيف ذلك تذكّر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبين لهم بعض الآيات ، يقول جلّ ذكره : (وأنزلنا إليك الذّكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ويقول : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهيّاً ، فهو المفسر الأول . وتدل الآية الثانية على أن في القرآن آيات تحتاج تأويلاً ، وهي تصرّح بذلك في وضوح .

وفي مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه مُسَمَّح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسروا للناس أى الذكر الحكيم ، وهم الذين يسميهم الله عز وجل باسم الراسخين في العلم . ومحدثنا السيوطي في كتابه « الإتيقان ^(١) » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدونها في كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » . وقد اختصره في كتاب طبع في ستة أجزاء سماه « الدر المنثور في التفسير بالماثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وابن عباس ^(٢) ، ويصرّح بأن الرواية عن أبي بكر وعمر وعثمان نزرّة ، أما على فقد روى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير . أما أبى فله سند في الطبرى عن طريق أبى العالية . وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كوّن في أثناءها مدرسة في الكوفة حتملت عنه تفسيراً كثيراً ، وسنده الجيد هو السدّي الكبير عن مرّة الحمداني . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبى طلحة . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير فهو الذى تنهجه ووضع أصوله : واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم في تفسير بعض الألفاظ ^(٣) . وقد حتمل ابن جرير الطبرى في تفسيره الكبير ما أُنْزِعَ عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة في تفسير هذا النبع الإلهي الذى لا تنفى كنوزه .

(١) انظر النوع الثامن والسبعين في هذا
الكتاب .
(٢) انظر في ابن عباس ودوره في التفسير
كتاب مذاهب التفسير الإسلامى لجوليه تسير
(ترجمة عبد الحليم النصار) ص ٨٣ وما بعدها .
(٣) راجع النوع الثمانين .

القرآن في اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يُنسخ لأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب . سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله . أو عن خلقه للسموات والأرض ، أو عن البعث والنشور : أو حين يشرع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين : الأولى والآخرة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم : سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه . فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألد خصومه سمعه يتلو بعض آي الذكر الحكيم . فتوجه إلى نفر من قريش يقول لهم : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمشر وإن أسفله لمغدق^(١) . وواضح أنه أحسن في دقة أن آي القرآن تباين كلام الإنس من فصاحتهم كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كههاتهم . إنه ليس شعراً موزوناً ، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم . ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كههاتهم وغيرهم من خطبائهم ، إنما هو نمط وحده فُصِّلَت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس : وتجدها فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعدوبة . إنه نمط باهر ، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته ، يقول جلّ ذكره : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . ومعلنا عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً . فمضوا يجرّدون سيوفهم ويُعْمدون ألسنتهم . ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت ،

(١) انظر تفسير الزمخشري و

سورة المدثر . مدق : كثير المياه .

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هيا لانقلاب واسع في تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونجمل ذلك إجمالاً . فإن تفصيله لا يتسع له كتاب فضلاً عن صحيف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جتمع العرب على لهجة قريش ، وحقاً كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية في الجاهلية . غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً : أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلاً أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعَمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكسال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلونّه أثناء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعم بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثّ الإسلام على حفظه وترتيله ، بقول عزّ شأنه : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) ونخشره يوم القيامة أعمى قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آباءنا فنسيها وكذلك اليوم تُنسى . وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظة للقرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورووس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تُحَفِّظ أيضاً وتظل على مرّ العصور جديدة عِصَّةً لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوباً - لا حصر لها - لسانها . فأصبح هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي . فكل من عاشوا في هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذ حلّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذي حفظ العربية من الضياع ، ونشرها في أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثاني آثاره أنه حول العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلّ فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والتفان والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود . وغير ذلك من كلمات الدين الخفيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب . إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد . له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلقت السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعى من عظات ومن تاريخ الأكتياء وما يحمل من غير ، ومن تقرير البعث والنشور وبسط صور الثواب والعقاب مستعنياً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالعقول وتمييزها وما ينبغى أن يتبها لها من صواب الرأى . وإنه ليرقى دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرع للناس ما ينبغى أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أسرهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يتبدل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه : أخوة لأسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى نزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تعدّ ابتداء ، بعباراتها ومعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين : إنما هو من فيض القرآن ومعينه التفسير .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قلنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإتيقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامته وخاصه مما هيا لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته . فهو الذى هيا بقوة لهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكنى أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لئرى كيف أنه حقاً اختط أسلوباً جزلاً ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشفاف . وما لا شك فيه أن القرآن هو الذى ابتدع هذا الأسلوب المحكم ، بل هذا الأسلوب السهل الممتنع الذى يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصفى إليه ، هذا الأسلوب الذى يميز عربيتنا ، والذى استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفافة . وقرأ في قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفي ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطرداً في جودة الإنهام وروعته مع سهولة اللفظ ومثاقته وصلاحته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبعثون : (ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصِيعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَفُتِحَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتَأَبُوا بِأَبْوَابِهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنَزِّلُونَ عَلَيْكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) . وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلّ وعز لرسوله في سورة الضحى : (والضحى والليل إذا سجى ما ودّك ربك وما قلى وللآخرة خبير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يعلمك يتيماً فأرى وجهك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالة وعذوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التي تغذى العقول برحمتها الصافي وتنشئ القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره ، فعلى هذبه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بدبياجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب — ولا يزالون — يتحفظونه ، فهو معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هذاه ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع أى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والركة وسكس الموقع . وقال الميّم بن عدى : قال عمران بن حِطّان : إن أول خطبة خطبها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأعجب بها الناس وشهدها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن »^(١) . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نظمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتي في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر نضى ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوم ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

الحديث النبوي

الحديث هو كل ما حُكي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جسيمة أقوالاً له ، بل منه ما يسمى باسم

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خلقه أو عمله أو في شأن من شؤنه .
 وضم إليه الرواة كثيراً مما حكى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ
 كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعالهم عملاً بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ويقول الجاحظ : « كانوا يكرهون أن يقولوا سُنَّةَ أبي بكر وعمر ،
 بل يقال : سنة الله وسنة رسوله »^(١) . وفي ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :
 « اجتمعت أنا والزُّهري ونحن نطلب العلم فكنّا نكتب السُّنن ، قال : وكتبنا
 ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن
 الصحابة فإنه سُنَّةٌ ، قال : قلت إنه ليس بسنة . فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم
 أكتب ، فأنجح وضيّعت »^(٢) .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي
 وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها ، فالقرآن مثلاً لم يذكر
 تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله
 تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وفصل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها ،
 كما فصل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها . وهذان
 أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذي بيّن
 أحكام الشريعة وصوّرها عملياً كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية
 التي جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملًا للقرآن . وخاصة حين تُجْمَل أحكامه
 أو يَسْتَبْهم المراد من معنى بعض آياته ، فقد روى عن علي بن أبي طالب أنه لما
 أرسل ابن عباس ليحاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه
 حَسَالٌ أوجه ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السُّنَّة فلا يحدوا منها
 مخرجاً^(٣) .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان
 هو نفسه يحثهم على ذلك ، فمن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلقاً قلنا

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الخلو)

ج ٢ ف ٢ ص ١٣٥ .

(٢) نهج البلاغة (طبعة بيروت) ١٤٦/٢

٢٣٦/١ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا)

يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس^(١) . وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر ، وتكرر في خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يرسل في القبائل رسله ليعلموهم القرآن وسنته . ومراً بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تنقضي؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد؟ قال : فبسنة رسوله . فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته في الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفى الرسول وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أمهاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما روى عنهم في هذا الباب مثل أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالمحدث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . ومن ثم تكون سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رواته ، تلك السلاسل التي تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرق الصحابة في الأرض ، وبذلك تعددت طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعي أن يسمى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوي ، وهو يسمى أيضاً السنة : وهي في اللغة العادة ويراد بها العادة المقدمة التي رويت عن النبي وصحابته . وهي تستعمل في القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التي حكيت عن الرسول وصحبه .

وما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُون في حياته ، وخاصة تلك

(١) انظر في هذا الحديث مقدمة الفسطاط على البخارى .

الخليفة (٩٩ - ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء في حاشية^(١) الزرقاني على موطأ مالك : « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع في العلماء (من حفظاً لها) الموت ، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزبي (والي المدينة) فيما كتب إليه : أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه . وقال مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة أو نحو هذا فاكتبه لي فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علقه البخاري في صحيحه ، وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه . وتوفى عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد . وأول مدون للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهري^(٢) المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف في الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تابعت صحاحه مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .

وإنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبعاً أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى يهجو نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا في عبارته وقدموا في كلماتها وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بالفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتاجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونها ، لأن الأحاديث لم تكن تُروى بالفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت تُروى غالباً بمعانيها ، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

١/٧١ • تهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٤٥

وتذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٠٢ والمعارف

لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/٧٧ .

(١) انظر الحاشية ١/١٠ .

(٢) انظر في ترجمته كتاب الأنساب

للإسماعلي ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق)

على أن طائفة من الأحاديث رويت روايةً تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نصَّ عليه العلماء بأنه رُويَ بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوفى جوامع الكلم .
 وحققاً ما يقوله الجاحظ من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويُسّر بالتوفيق »^(١) ويضرب الجاحظ لبيان الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذي قُلَّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، فمن ذلك قوله للأَنْصار :
 « أما والله ما علمتكم إلا لتقلُّون عند الطمع ، وتكثرُون عند النزاع » وقوله
 « المسلمون تنكأوا دماؤهم ويسمى بدمهم أذانهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم » ،
 وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها ١٠ لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرمًا » ،
 وقوله « المستشار مؤتمن » ، وقوله : « إن أحبَّكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطَّئون أكنافاً الذين يَأْلَفون ويؤْلَفون .
 وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثَّارون المتشفيقون : » ،
 وقوله « لا تَجْنِ يمينك على شمالك » وقوله : « بما أملتُ تاجر صدوق » وقوله :
 « رَحِيمَ الله عبداً قال خيراً فغمَّ أو سكت فسلم » وقوله : « إن الله يَرْضَى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يَرْضَى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تُنْاصِحوا من ولَّاه الله أمركم ، ويكره لكم قيلَ وقالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقوله : « يقول ابنُ آدم : مالى مالى ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفئيت أو لبست فأبليت أو وهبت فأمضيت » وقوله : « إن قوما ركبوا سفينة في البحر فافتسموا فصار لكل رجل موضع ، فنقَر رجل موضعه بغأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع به ما شئتُ ، فإن أخذوا على يديه نجاً ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وقوله : « حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله أن يجرم لحمه على النار » وقوله : « أوصاني ربي بتسع : أوصاني بالإخلاص في السرِّ والعَلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ، وأعطى من حرمي ، وأصيل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبراً » وقوله : « إن الأحاديث متكررة

بعدى كما كثرت على الأنبياء من قبل، فاجاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله
فاوافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله . . . ويذكر الجاحظ طائفة من
أقواله التي دارت بين الناس دوران الأمثال والتي تُعدُّ ذخيرة أدبية رائعة
من نحو قوله صلى الله عليه وسلم^(١) :

يا خيل الله اركبي - مات حتف أنفه^(٢) - لا تنتطح فيه عثران - الآن
حسي الوطيس^(٣) - كل الصيد في جوف الفراء^(٤) - هُدنة على دخن وجماعة
على أفناء^(٥) - لا يُلْسَع المؤمن من جُحْر مرتين . ومن أسأله أيضاً : إن
الْمُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى^(٦) - يا كم وخضراء الدمن^(٧) - الناس
كإبل مائة لا تجد فيها راحلة^(٨) .

وإذا كنا قد عرضنا في غير هذا الموضع لأثر القرآن في اللغة والأدب فإن
للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه
في البلاغة ، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأنصحهم . ويمكن أن نلاحظ
أثره في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وفي حفظها وبقائها ،
وكان له أثر أيضاً في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقية
لم تكن تُستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص . وقد أقبل العلماء في
مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسونه ويحفظونه
ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقاً أن كثرة رُويت بالمعنى . ولكن
هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور في عصور سبقت
عصر فساد اللغة . وهي من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالي هي
كثر ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكثر في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف
إليها - على مر العصور - رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

-
- (١) انظر اتبيان والتبيين ١٥/٢ راجع
كتب الأمثال .
(٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .
(٢) الوطيس : انتنور . يضرب مثلاً في
اشتداد الحرب .
(٤) الفراء : حمار الوحش . يضرب مثلاً
في ففاسة الشيء أو الشخص .
(٥) دخن : من أسرع بنافته حتى
هلك فم يقض ما يرمى من حاجة أو من سفر .
(٦) الدمن : البحر المتلبد . يضرب مثلاً
لتفكير المرأة الحسنة تشأ في منتهى .
(٨) الراحلة : الصالحة لأن ترسل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذي أبدل فيه آل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من أمبير أمصيام في أمستقر » ، أى ليس من البر الصيام في السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء في غريبه كتباً . من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا في السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً في تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب في أن المسلمين أشد الأمم عناية بتاريخ رجالهم على نحو ما نعرف في مثل طبقات ابن سعد وأُسْدُ الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبي . فالحديث هو الذى فَتَحَ باب الكتابة التاريخية وهيئاً لظهور كتب الطبقات في كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه ، مما بعثَ على نهضة علمية رائعة .

الفصل الثالث

الشعر

١

كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظم من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة ، نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهي دعوة اضطرت به إلى حمل السيف للديار عنها ، وانقسم العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحسن إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلاً على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام في الجزيرة ، غير أن أقواء ارتدوا لعهد أبي بكر ، فحاربهم ومثل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح : فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عُمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على معاوية من جهة ثانية ، فتعلت أصوات الشعراء وتصابحوا بأشعارهم في كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون في هذا العصر لأمع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهدى به الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر ، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه . وقرأ في كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبرى وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، وقرأ في

المفضليات والأصعبيات فستجد المفضل الضبي والأصمى يحتفظان في كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوذهم البارعين :

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهراً في صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقّف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول في ما منه : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنزوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخسروا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقرّ ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى في تحريم الشعر وحفظه وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حيثنذ إلى دينهم منه ^(١) . » . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحى لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشَفَّعُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرفهم عن الشعر - إن صح - إنما كان لمدة عامين أى إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله في أول كلامه بما قاله في آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذاثنين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وحتى في العامين الأخيرين من حياته غمى الوفود كان كل وفد يتقدّم معه خطبائه وشعراؤه ، وبمجرد أن يمشّوا بين يديه يتحدث خطبائهم ويُسّند شعراؤهم ويردّ عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه ^(٢) .

ولعل الذي دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلام وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلّت عن الشعر العرب وتشاغلوا

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) . (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٦/١

وما يملها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثُر
الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنَّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم
يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألغَوْا ذلك وقد هلك من العرب
من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ شيء ذهب عليهم منه كثير^(١) .
وابن سلام إنما يقول ذلك ليدلّ على أن شعر عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن .
وكان يكفي ما قاله من أنهم لم يدوّنوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية
إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل .
أما قوله بأن العرب لمت عن الشعر وشغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب
الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم
عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : (والشعراءُ يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَر
أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وذكروا الله كثيراً واتصروا من بعد ما ظلموا) . وأوضح من نفس هذه الآيات
أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويشطّون عن
دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه
كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذي قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلئ
جوف أحدكم قتيحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً »^(٢) أما بعد ذلك فإن الرسول كان
يُعجّب بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن
من الشعر لحُكماً أو حكمة »^(٣) ، وكان يحضّ حسان بن ثابت وغيره على نظمه
ويشبههم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه
عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذي أحفظه بأشعار
مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قدّم عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصلح
عن إساءته ، فتهلّل وجهه بشراً وخلع عليه بُردته^(٤) .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (٣) المدة ٩/١ .

(٢) (طبع دار المعارف) ص ٢٢ .

(٣) أغاني (طبعة السامى) ١٥/١٤٢ وابتدأ .

(٤) المدة لابن رثيق (الطبعة الأولى) ١٢/١ .

والحق أن الإسلام لم يرد^١ العرب عن الشعر ونظمه ، وسرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذهُ سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وقع نبئله عليهم أشد من وقع الحسام^(١) . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم^(٢) ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد^(٣) . وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدوها هو متعجباً مستحسناً^(٤) ، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مَرُّ مَنْ قَبِلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »^(٥) ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^(٦) .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُسَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الخطيئة معروفة : فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزبير بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهده على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء^(٧) . واتبع عثمان سنة عمر في التشديد على من يسلطون المسلمين بالسنة حداد ، وقصته مع ضابي بن الحارث البُرجمي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعاً أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات^(٨) .

٢٧٠/٥ وغزاة الأدب للبندادى ٢٩٢/٢ .

(٥) المدة ١٠/١ .

(٦) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٥/٢ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر في ترجمة

ضابي أيضاً الشعر والشعراء ٣٠٩/١ والإصابة

٢٩٧/٣ والغزاة ٨٠/١ والكامل للبردة (طبعة

رايت) ص ٢١٩ .

(١) المدة ١٢/١ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السيفة

وكتاب عثمان إل على حين حوصره ، وانظر ابن

سعد ٥٧/١ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أودبا) ج ١ ص ٢

ص ٩٥ - ٩٦ والفاقي للزحشرى ١/٢٥٧ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٩/٨ ،

٢٨٨/١٠ والمقد الفريد (طبعة لجنة التأليف)

ولكن هاتين القصتين شيء . ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة في هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض ، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كَفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان يُنشدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لأعلى خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين والمتردين أو في الفتوح أو في معركة على مع خصومه في العراق . ولعلنا لا نبالي إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حَلَّتْ من عَقْدِ الألسنة وأُنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعترف بالجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً .

٢

الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فاتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثم كُنَّا نخرج دُرَيْدَ بن الصَّمَّةِ والأعشى وأمية ابن أبي الصلت والأسود بن يعفر التَّهَمَلِيَّ وأضرابهم من سِلْكِ المخضرمين وننظمهم في سلك الجاهليين ، لأن الموت أدرَكهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادثت الله ورسوله حين بُعثت مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب في جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفؤوا حوله في المدينة في جانب آخر . وبمجرد أن

اشبكت السيوف أخذ الشعراء في الجانبيين المتناقضين يسلون أنفسهم ، ولم تكن مكة في الجاهلية - كما قدمنا - تُعرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنسبُ لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فئتيها مثل نُبَيْتِه ومساقر اللذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزُبَيْرِ وضرار بن الخطاب الفِهْرِيُّ وأبي عَزَّةَ الجُمَحِيُّ وهُبَيْرَةُ بن أبي وهب المخزومي ، وقد أخذوا يسدّون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعز ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونَه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله بما يتدبّع من شعرهم في القبائل العربية ، فقال لأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلامهم أن ينصروه بأنفسهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرُّني به مِقْدُولٌ بين بُصْرَى وصنعاء^(١) وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . وقرأ في سيرة ابن هشام فستجده يتقلع عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد في السنة الثالثة وغزوة الخندق في السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك في فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغي أن نشك في كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق - كما يقول ابن سلام - كان يَحْتَمِلُ كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجَّته^(٢) ، ونرى ابن سلام يقول في ترجمته لأبي سفيان بن الحارث : « لسا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم^(٣) » . على أن ابن سلام نفسه يثبت لأبي سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها في يوم أحد كافية^(٤) كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر^(٥) ، وقد

(١) أغاني ١٣٧/٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) ابن سلام ص ٨ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزبير قصيدته التي قالها في نفس اليوم^(١)، والتي يقول فيها :

لبت أشياخي ببدر شهدوا ضَجَرَ الخَرْجِ من وقعِ الأَسْلِ^(٢)
حين أَلَقْتُ بِقُبَاهِ بَرَكَمَا واستحَرَّ القَتْلُ في عبدِ الأَسْلِ^(٣)
فقبلنا النُصْفَ من سادتهم وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل^(٤)

وأيضاً فإنه أثبت لأبي عَزَّة ميمية يمحُض فيها بُنى كنانة^(٥)، وقال عن هيرة بن أبي وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذي يقول في يوم أحد^(٦) :

قُدْنَا كنانةً من أكتافِ ذِي يَمَنٍ عَرَضَ البلادَ على ما كان يُزجِها^(٧)
قالت كنانةٌ : أنى تذهبون بنا قلنا : النخيلَ ، فأمرها وما فيها^(٨)

وكان في الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : وهو كثير الشعر جيده ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدثى بها أبا سفيان بن الحارث^(٩) :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجَزَاءُ
فلأن أبي ووالده وعرضي لِعَرَضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ
أنهجو ولستَ له بكفؤ فشرُّكما لخيرُكما الفِداءُ

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركي

قريش . الأسل : الرماح .

(٣) قباه : موضع بضواحي المدينة . أَلَقْتُ

الحرب بركمها : حسي وطمها . استحَرَّ القتل :

إشتد وكثر .

(٤) قبلنا النصف : انصفتنا من قتلناه منهم

لقتل بدر .

(٥) ابن سلام ص ٢١٢ .

(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .

(٧) الأكتاف : النواحي . فويزن : موضع

قريب من مكة . يزجي : يسوق ويلغ .

(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرته فيها .

أموها : قصدوها .

(٩) أغاني ١/١٢٩ والاستيعاب لابن عبد البر

ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أُحُدٍ في كلمة :

فَجَنَّا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطِهِ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَابِيسٌ وَمُقَنِّعٌ^(١)
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيبُهُ ثَلَاثُ مِثَالَيْنِ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعٌ^(٢)
فَرَاخُوا سَرَاعًا مُوجِفِينَ كَأَنَّهُمْ جَهَامٌ هَرَأَتْ مَاءُهُ لِلْمَرْيَحِ مُقْلِعٌ^(٣)
وَرُخْنَا وَأَخْرَانَا بِطَاءٍ كَأَنَّنَا أَسْوَدٌ عَلَى لَحْمٍ بَيْيْشَةٍ ظُلْعٌ^(٤)

وَقَالَ فِي أَيَّامِ الْخَنْدَقِ :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ بَرْغِيلٍ بَقَعُهُ بَعْضًا كَمَقَمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُخْرِقِ^(٥)
فَلَيَّاتٍ مَأْسَدَةٍ تَمْلُ سِيوفُهَا بَيْنَ الْمَذَادِ وَبَيْنَ جَزَعِ الْخَنْدَقِ^(٦)

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْنِ إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مُؤْتَةَ وأُثبت له من هجائه لقريش قوله^(٧) :

نَجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ فَنَأْسِرُهُمْ فِينَا النَّبِيُّ وَفِينَا تَنْزِلُ السُّورُ^(٨)
وَقَدْ عَلِمْتُمْ بَأَنَا لَيْسَ غَالِبَنَا حَتَّى مِنَ النَّاسِ إِنْ عَزَّوْا وَإِنْ كَثُرُوا
يَا هَاشِمَ الْخَيْرِ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلًا مَالَهُ غَيْرُ^(٩)
فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتِ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا^(١٠)

القارئ القصب . الأباء : أجرة القصب .
يصف أصوات المعركة .

(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد :

موضع بالندبة . جزع الخندق : منطله .

(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .

(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم

لا يبالون من يضربون .

(٩) غير : تغيير .

(١٠) يقصد الرسل .

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا
عند جبل يسمى حبشيا . الحاسر : الذي لا بيضة
له عكس القنص .

(٢) النصبة : الخيار والأشراف .

(٣) موجفين : مسممين . الجهام : الصحاب
أفرغ ماءه .

(٤) بيشة : سبحة في واد كثير الشجر .

ظلع : من الظلع وهو المرج . يكنى بذلك عن سيرهم
الطير المطمئن .

(٥) يرمل : يمزق . المصمة : صوت لها

وفي الأغاني أن حسناً وكعباً وكانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام ولما أثر وعبرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة^(١). ومن المؤكد أن حسناً وكعباً كانا يرميان قريباً عن بصيرة حين غلبت على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة، لأنها هي التي كانت تؤذي نفوس القرشيين المكتئين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزون بها، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا في الأحساب والأنساب، وعبراسادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير. وطبيعي لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم في ذم المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والظعن في الأعراض والأحساب، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مبيدة تأتي على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يتوبون إلى عقولهم ويدخلون في دينه الخفيف.

وكان يَشْرِكُ شعراء قريش في التأليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من المودعة وحقوق الجوار^(٢) وأخذوا يهجونهم والمسلمين ويخذلون عنه قريشاً والعرب، يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رده وسهم في هذا الفساد كعب بن الأشرف^(٣)، وقد بلغ من سوء فعله أن كان يشبب بنساء الرسول ونساء المسلمين، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله في رهط من الأنصار^(٤). غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سراً وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلالهم عن المدينة: حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر وأبنائه ببصيرته النافذة يأمر بإجلالهم عن الجزيرة.

(١) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية

٥٤/٣ وما بعدها.

(١) أغاني ١٣٨/٤.

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٤٧/٢.

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٠٦/١٩.

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها وعرضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت ، ورتاؤه لقتلى بدر مشهور ^(١) ومثل الأسود بن يعفر الذي أشاد بانتصارها في يوم أحد ^(٢) ، وقد ماتا في أثناء هذا الصراع . وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التي لما تدخل في الإسلام . وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة منوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر ^(٣) :

قَصَبْنَا مِنْ نِيْهَامَةٍ كُلِّ وَتَرٍ وَخَيْبَرٍ ثُمَّ أَحْجَمْنَا السِّيفَا ^(٤)
نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا ^(٥)
فَلَسْتُ لِحَاصِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مَنَا أُلُوفَا ^(٦)
فَنَتَنَزَعُ الْعُرُشَ بَبْطَيْنَ وَجٍّ وَنَتْرِكُ دَارِكُمْ مَنَا خُلُوفَا ^(٧)
وَنُرِيدِي اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَوَدَا وَنَسْلُبُهَا الْقَلَانِدَ وَالشُّنُوفَا ^(٨)

وَتَفْتَحُ مَكَّةَ فِي السَّنَةِ الثَّامَةِ لِلْهَجْرَةِ، وَلَكِنْ تَظَلُّ لِلصَّرَاحِ بَقِيَّةً فِي شِعْرَاءِ هَذِهِ بَيْتٍ، عَلَى نَحْوِ مَا يُمَثِّلُهُمْ أَبُو خِرَاشٍ الْهَذَلِيُّ فِي بَكَائِهِ لِدُبَيْتَةِ سَادَنِ الْعُزَّى حِينَ قَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ^(٩). وَتَظَلُّ بَقِيَّةً أُخْرَى فِي ثَقِيفٍ وَمَعَارِكِهَا مَعَ الرَّسُولِ فِي حُسَيْنٍ. عَلَى أَنَّهُ بِمَجْرَدِ أَنْ دَخَلَتْ مَكَّةَ فِي الْإِسْلَامِ أُدْجِجَتِ الْجَزِيرَةُ كُلُّهَا فِيهِ، وَأَخَذَتْ وَفُودَهَا تَفْدٍ عَلَى الرَّسُولِ مَعْلَنَةً اعْتَنَاقَهَا الدِّينَ الْخَنِيفَ. وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ نَجَدٌ كَثِيرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ شِعْرَاءُ قُرَيْشٍ يَفْرَعُونَ إِلَى سَاحَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ

-
- (١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١٠ .
(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .
(٣) ابن سلام ص ١٨٤ .
(٤) الوتر : الثار .
(٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تغزلان بالطنائف .
(٦) الحاصن : المرأة المغيفة .
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم .
وج : الطائف ونواحيها . والحي الخلوف :
التي تافقه الرجال ، يقصد أنهم سببهم .
(٨) نردى : نهم . اللات والعزى وود :
أصنام . القلانيد : السموط . الشنوف : جمع
شنف وهو القرط .
(٩) نهران الهذليين (طبة دار الكتب)
١٤٨/٢ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ٢٤
وما بعدها .

يطلبون عفوه ، وقصة كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ،
ومثله أنس بن زبم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم تاب إلى رشده ، فقدم عليه
معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول في تضاعيفها^(١) :

وما حملتُ من ناقةٍ فوق رَحْلها أبرُّ وأوفى ذِمَّةً من محمدٍ
ونظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرة يأسى فيها على ما فرط في جنب
الله ورسوله على شاكلة قوله^(٢) :

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لتغلبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ محمدٍ
لكالمُدْلَجِ الحَيْرَانِ أعظم ليلهُ فهذا أوانُ حين أهدى وأهتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم
في ذلك شعراء المدينة ، وتُنسَبُ إلى الأعشى قصيدة في مدحه^(٣) لا شك أنها
منحولة ، وتُنسَبُ لأبي طالب قصيدة ملحه بها يقول فيها :

وأبيضُ يُنْسَقَى الغمامُ بوجهه ربيعُ البتاي عِصْمَةٌ للأرامل
ويقول ابن سلام : « قد زيد فيها وطؤٌ »^(٤) وتُنسَبُ إلى عباس بن مرداس
فارس بنى سليم أشعار كثيرة يملحه بها من مثل قوله^(٥) :

نبيُّ أُنانا بعد عيسى بن ساطقٍ من الحق فيه الفضلُ منه كذلكا
أميناً على الفرقان أول شافعٍ وآخر مبعوثٍ يعجب الملائكا

ونظم كثير من المراثي في قتل المسلمين والمشركين ، وراثه قَتِيلَةٌ
لأبيها النضر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه
الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رثى به قصيدة حسان التي يسئلهما بقوله^(٦) :

ما بالُ عيني لا تنام كأنما كُحِلَتْ مَاقِيها بِكُحْلِ الأَرَمَدِ

(١) الإصابة لابن حجر ٦٩/١ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٠٥/١٤ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٥/٩ .

(٦) ديوان حسان (طبعة مرشفيهد) ص ٥٨ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكنى أن فرجع إلى سيرة ابن هشام فسترى سبيله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصنّفُ حين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون في صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

عُثِمَت أضرأء الإسلام في الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن في الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قُضِيَ على الوثنية في أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكذب بتسلّم أبو بكر الصديق مقابله الخلافة حتى طفت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شأنهم وبعيرهم ، فاستشار الصديق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخيراً من السماء فتخطفني الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأبي هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعوني عيلاً بلجاهدتم عليه » ثم نزل فوجّه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبى ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حسن إسلامهم في القبيلتين أن يردوها عن غيبتها ، ولم يلبث أن التى بهما خالد عند بئر بُرْأخة ، فنكّل بهما تنكيلاً شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد تَوّاً إلى تيمم ومنتبتها سجاج فلم تلبث بعد مناقشات صغيرة أن أذعن له ،

وقُتِلَ حينئذ مالك بن نويرة سيد بني يربوع ، ولأخيه متم فيه مراث رائعة^(١) .
واتجه خالد بجيوشه نحو بني حنيفة في البجامة ومتنبهاً مُسَبِّلَةً ، فالتقى بها في
« عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحر فيها القتل ، غير أن الدوائر لم
تلبث أن دارت على بني حنيفة ، فسقط متنبهاً في ميدان المعارك ، وأعلنت
استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزرًا لدين الله ، وسرعان ما دانت « البحرين »
بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ،
حيث التف الناس هناك حول متنبى يسمى الأسود العنسي ومتنبى آخر يسمى
قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت
ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هي الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها
كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبني
عامر^(٢) :

بني عامرٍ إن تَنْصُرُوا اللهَ تَنْصُرُوا وإن تَنْصَبُوا للهَ والدينَ تُخَذَلُوا
وإن تُهْزَمُوا لا يُنْجِكمُ منه مهربٌ وإن تثبتوا للقومِ واللهُ تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول
أوس بن بجير الطائي في موقعة بَرْزَاخة^(٣) :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنا وما تَخْتَلِي من أذْراعٍ ورقابٍ^(٤)
ألم ترَ أن اللهَ لا ربَّ غِيره يصبُّ على الكفارِ سَوَاطِ عذابٍ
والمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم^(٥) .

(١) الإصابة لابن حجر ٥٥/٢ وراجع

في أشعار أخرى الإصابة ١/٢٧٤ ، ٢/٣٢٠

٢/١٥٢ ، ١٢٢/٥

(٢) الإصابة ٥٥/٢

(٣) تختل : تقطع .

(٤) تاريخ الطبري ٢/٤٩٤ والإصابة ٢/١٢٥

(١) انظر في مضمون وراثته لأخيه الأغاني

(طبعة السامى) ٦٣/١٤ والشعر والشعراء

(طبع دار المعارف) ٢٩٦/١ والخزانة

٢٣٤/١ ومعجم الشعراء لمرزبان (طبعة الحلبي)

ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف)

ص ٢٦٣ ، ٢٧١

ورُئِبَ الصَّدْعُ وعاد الحق إلى نصابه ، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كي ينشروا الإسلام في آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجهدين في سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبي العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان في فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرتابون في موقعة أجنادين كما انتصر في موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولي على حمص . ويتوفى أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى الله ورسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوْفَّنِي مسلماً وألحقني بالصالحين »^(١) ، وبكاه كثير من الشعراء^(٢) ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت^(٣) :

إذا نذكرتَ شَجْراً من أخى ثقةً فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التالى التالى الثانى المحمودَ سيرته وأولَ الناس منهم صدقَ الرسلا
وثانى اثنين في الغار المُنيف وقد طاف العدو به إذ صعدَ الجبلا
وكان حِبُّ رسولِ الله قد علموا خَيْرَ البريةِ لم يعْدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف في الحق لومة لائم . وهو أول من دوّن الدواوين ورتّب الناس فيها على سوابقهم ، وأول من رتّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمر المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره في ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش في الشام وولّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمّ يعاقبه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص يبحشه ففتح مصر . أما في الشرق فكانت المعركة

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين

(١) الطبري ٢/٦١٥ .

(٢) الطبري ٢/٦١٧ والاستيعاب ص ٣١٢ .

٣١٢/٣ .

حامية الوطيس . وقد أمدَّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسرّ الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفى المثنى فخلقه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، وسُنى الفرس بهزيمة شديدة ، وقُتل قائدهم رستم فى المعركة . وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدرجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرن وتوفى فخلقه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدرجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان من قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ونحيل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسَّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الخفيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البرقي بن عياض الهذلى ، إذ يقول ^(١) :

وإن أميس شيخاً بالرجيع وولدةً وتصبح قوى دون دارهم مضر ^(٢)
أسائل عنهم كلما جاء ركبٌ مقبلاً ملاحٍ كما رُبط البئر ^(٣)
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم بسنة أبيات كما نبت العتر ^(٤)
وكان عمر ينتهى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برأهم ، ويروى أن الهذيل السعدى جزع جزعا شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنَّ وضعف ، فاقتد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب)
٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢
حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً مماثلة .
(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .
(٣) أصلاح : موضع . البحر : الجدى الكبير .
(٤) المتر : شجر له ورق صغار .
خلاصهم : يعلمهم .

إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى ؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيان أن لن يعقني تعقُ إذا فارقتني وتُحِبُّ^(١)
فرقٌ له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل
عنده حتى مات^(٢) . وليس المحبِّل وحده الذي فزع إليه يشكو هجرة ابنه ، فقد
فزع إليه أيضاً أمية بن حُرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب
الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشدا كلاباً كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا^(٣)
إذا هتفتُ حمامةً بَطْنِ وَجْ على بَيْضَانِها ذَكَرَا كلاباً
تركتُ أباك مُرْعَشَةً بداه وأمك ما تُسبِّحُ لها شراباً
فأمر بلشخاصه إليه^(٤) . ومن فزع إلى عمر أيضاً في ذلك أبو خراش الهذلي
حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه
وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته^(٥) .

ولعل في هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد
في سبيل الله ، ومع هذا بأبي المستشرقين إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء
الدنيا والغنائم^(٦) لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان من خير ما يرد عليهم
قول النابغة الجعدي لامرأته ، وقد أظهرت تأثرها لهجرته في فتوح فارس^(٧) :

يا ابنة عمي كتابُ الله أخرجنِي طوعاً وهل أمنعنُ الله ما فعلا
فإن رجعتُ قَرَبُ الناس يرجعني وإن لحفمتُ بربي فابتغى بدلا
ما كنتُ أعرجُ أو أعمى فيعذرني أو ضارعا من ضنني لم يستطع حيولا^(٨)

(٦) راجع تاريخ الدولة العربية للهلوزن

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥

والعقيدة والشرعية لمجولة تسير ص ١٣٧ .

(٧) الشعر والشعراء ٢٥١/١ وقد ظلت هذه

الروح مسيطرة على الفاتحين في العصر الأموي ،

انظر الطبري ٤١٣/٥ .

(٨) ضارعا : ضاويًا نحيلًا . ضنى : مرض .

(١) تحوي : تأثم .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٠/١٣ .

(٣) يقصد ما في كتاب الله من رعاية الآباء

والبر بهم .

(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والمخرانة ٥٥٥/٢

(٥) أغاني (سامي) ٦٩/٢١ ودويان الهذليين

١٧٠/٢ وانظر في حالات مشابهة الأسالي

٣٠٩/٢ وذيله ص ١٠٩ .

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعا للعدل والتقوى والزهد في الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبي لؤلؤة المجوسى الآثمة في الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال يقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين وتشيجهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جرّاه بن ضيرار أخى الشياخ^(١) :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللهِ فِي ذَلِكَ الْأَدِيمِ الْمَزْقِ^(٢)
فَمَنْ يَسْمَعُ أَوْ يَرَكِبُ جَنَاحِي نَعَامٍ لِيُذَرِّكَ مَا حَاوَلْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقُ
قَضِيَّتْ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقُ فِي أَكْصَاهَا لَمْ تَفْتَقِ^(٣)

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى في سنة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فضى بفد سياسة عمر في إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقر معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزّل عمرو بن العاص عن مصر ولأها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما فصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنترة على عثمان في الكوفة يقودها الأشتر النخعي وفي مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملاهم مودة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خمس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالفتىء وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يسلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفاهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ١٥٩/٩ (٣) البوائق : الدوامى . تفتق : تشق .
والبيان والتبيين ٣/٣٦٤ .
(٢) الأديم : الجلد .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يشتركوا الدولة ؛
 الفىء ، ولكن صوته لم يرتفع فى عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان
 عهد عثمان بدأ الذمر يشتد ، وتطورت الظروف : فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا
 أدّى إلى قتله فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من
 شعراء الصحابة (١) ، من ذلك قول أيمن بن خزيمة (٢) :

ضَحُوا بِعثمانَ فى الشهر الحرامِ ضَحَى وأى ذَنبٍ حرامٍ لهم ذبحوا
 إن الذين تولّوا قتله سفهاً لا قوا ثاماً وخُسراناً فما ربحوا
 ماذا أرادوا أضلُّ الله سعيهم سَفَحِمَ للدم الزاكى الذى سَفَحوا

وكان على بُعد أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته
 المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرضَ طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة
 أم المؤمنين ، فأعلنوا سحقهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستغفرين الناس
 ضده ، وتبعهم على ، فقتل فى الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ،
 وسرعان ما انتصر على فى موقعة الحَمَل المشهورة ، وقتل طلحة والزبير وانسحبت
 عائشة إلى المدينة . وكان على قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ،
 فلم يصدخ لأمره واعتبر نفسه وليّ دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى
 معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . صار إليه على بجموعه ، فالتقوا
 على الحدود العراقية السورية فى صيفين الراقعة على الضفة اليمنى للفرات ،
 واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يُكتسبَ لعلى ، غير أن معاوية
 عمد — بمشورة عمرو بن العاص — إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده
 ترتفع المصاحف على أسنة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن وقَفَ هذه الحرب
 الميرة للمسلمين ، وتبى على لا الحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وقْف القتال
 والدخول مع معاوية فى مفاوضات . وافق الفريقان على اختيار حكمين ،
 هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبى موسى الأشعرى عن على ليحكم بينهما
 على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقنّع أباً موسى بخلع على ومعاوية

٣/٤١٧ وما بعدها .

(١) انظر الانساب ص ٤٩٣ والكمال

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والانساب ص ٩٣ :

المبرد (طبعة رابطة) ص ٤٤٤-٤٤٥ والعلوى

معاً . ولم يلبث مركز على أن تزعزع في العراق فلان طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرع منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها في حروراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وصعباً حاول إقناعهم بخطئهم ، ولم ير أخيراً بداً من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة الشَّهْرَوَان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذي تحيَّين منه فرصة ، وقتله غيلة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه^(١) ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي إذ يقول^(٢) :

أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خيرَ من ركب المطايا وخيَّسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راق الناطرينا
لقد علمت قريش حيث حلت بأنك خيرُها حبيباً وديننا

وقد كَثُرَت الأشعار في هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عُثْمَانَ ، فقد كان بعض التأثيرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم في أشعار كثيرة^(٣) ، ويُقتل عُثْمَان ، ويبيكه كثيرون وخاصة من بنى أُمية . وقد ذهبوا يتواعدون علياً ويهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بنى هاشم^(٤) :

وإنا وإياكم وما كان منكم كصَدْع الصَّفَا لا يَرَأْبُ الصَّدْعُ شاعِبُهُ
هم قتلوه كى يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرابِئُهُ
وقد مضى يحرّض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة^(٥) . وتطورت

(١) انظر في مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ - (٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٠/٥

٤٨٦ والطبري ١١٦/٤ . والكامل للبدر ص ٤٤٤ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢ (٥) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

والطبري ١١٦/٤ وخيَّسها في البيت الثاني : ١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢

ذلقها . والطبري ٤٤٩/٣ .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .

الأمر . ونشبت وقعة الجمل بين علي وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوت في هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة^(١) من مثل قول القائل^(٢) :

نحن بنو ضَبَّة أصحابُ الجَمَلِ نَنعَى ابنَ عَفَّانٍ بِأَطرافِ الأَسَلِ
ننازلُ الموتِ إذا الموتُ نَزَلَ والموتُ أَشهى عندنا من المَسَلِ

والتقى علي بمعاوية في صفين ، وحمى وطيس المارك ، وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون . وكلُّ يعتقد أن الحق في جانبه ، من مثل قول أبي الطُّغَيْلِ عامر بن وائلة يصف بعض أنصار علي :

كهولٌ وشبانٌ وساداتٌ معشرٍ على الخَيْلِ فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهمُ سِباً للنبيِّ ورايةٌ بها انتقمُ الرحمنُ ممن يكيدُها
وردَّ عليه خزيمَةُ الأسدِ يعصفُ جيشُ معاوية^(٣) :

ثمَّانونَ ألفاً دينُ عثمانَ دينهم كَنائبُ فيها جِبْرِيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمُتْ فني النارِ سُقياءُ هناك صديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبية القبلية^(٤) ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن في تاريخ الطبري وفي كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفي لبيان ما انزل على الألسنة من أشعار ملتهبة^(٥) . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين علي والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يستعمل له أوار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربي إذكاء وأشعلتها إشعالاً .

(١) تاريخ الطبري ٥٢٢/٣ وما بعدها . نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ١٣٢ ،

(٢) الطبري ٥٢٧/٣ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٩ / ١٥ .

(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد رن) .

(٥) انظر الطبري ١٦/٤ وما بعدها .

شعر الفتح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي
الفرس والروم . قففسوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام
ومصر . وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتمتعون
فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن
نعرّض كل ما نظسوه في مواقعهم المختلفة ، إنما نلّم بطرف منه . ولنقف
قليلا عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية : وفيها يلسع اسم
أبي سحتجن الثقفي^(١) ، وكان مولعا بالحر فحبسه سعد بن أبي وقاص ، حتى
إذا احتنمت المعركة توسّل إلى سلمي زوج سعد أن تطلقه - على أن يعود إلى
قيده - ليسمّهم في شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسنا ، وعاد
إلى سجنه وهو يشند^(٢) :

لقد علمت ثقيف غير فخر بآنا نحن أكرمهم ميوفا
فإن أحبس فقد عرفوا بلاني وإن أطلق أجزعهم حوتوا
وكان حول أبي سحتجن فرسان كثيرون نصفوا الفرس وأطاحوا برؤس أبطالهم ،
وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ، منهم عمرو بن سديكرب الزبيدي^(٣) . وكان
من أبطال الجاهلية وقرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك
ونهاوند ، ومن شعره^(٤) :

والقادسية حين زاسم رستم كنا الحماة بين كالأشطان^(٥)
الضاربين بكل أبيض مخدّم والطاعنين مجامع الأضغان^(٦)

٤٦٠/٣ ومعجم الشعراء المرزباني (طبعة
الخليج) ص ١٥ ومعاذ التنصير ، ٢٤٠/٢
والعيني ٢٧٩/١ .

(٤) ذيل الآمال ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة

(٦) الأبيض : السيف . المخدّم : الفاعل .
مجامع الأضغان : القلوب .

(١) انظر في ترجمة أبي سحتجن الأغاني (طبع
الساق) ١٢٧/٢١ والنشر والشراء ٢٨٧/١
والإصابة ١٧٠/٧ والخزانة ٥٥٠/٣ وما بعدها
والاستياب ص ٦٨٢ .
(٢) أغاني ١٤٠/٢١ .

(٣) انظر في ترجمته كتب الإصابة وأغاني
(دار الكتب) ٢٠٨/١٥ والنشر والشراء ٢٣٢/١
وذيل الآمال ص ١٤٥ والخزانة ٤٣٢/١ .

ومنه بشر بن ربيعة الحنصلي، وله بصور بلاءه وبلاء قومه في مواقع القادسية^(١) :

تذكرُ - هداك الله - وَقَعَ سِوْفُنَا بَابُ قُدَيْسٍ وَالْمَكْرُ عَمِيرُ^(٢)
عَشْبَةً وَدُ الْقَوْمِ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُعَارِ جَنَاحِي طَائِرٍ فِيطِيرُ
إِذَا مَا فَرَعْنَا مِنْ قِرَاعِ كَثِيبَةٍ دَلَفْنَا لِأُخْرَى كَالْجِبَالِ تَسِيرُ^(٣)
تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا وَاجْمِينَ كَأَنَّهُمْ جَمَالٌ بِأَحْمَالٍ لَهْنُ زَفِيرُ^(٤)

ومن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح المرادي ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذي قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك، وله بصور ذلك^(٥) :

جَلِبْتُ الْخَيْلَ مِنْ صَنْعَاءَ نَرْدِي بِكُلِّ مَدْجَجٍ كَاللَيْثِ سَامِي^(٦)
إِلَى وَادِي الْقُرَى فِدْيَارِ كَلْبٍ إِلَى الْبَرْمُوكِ قَالِبِ الدَّشَامِي
وَجِئْنَا الْقَادِسيَّةَ بَعْدَ شَهْرٍ مَسُومَةً، دَوَابِرُهَا دَوَامِي^(٧)
فَنَاهَضْنَا هُنَالِكَ جَمْعَ كَسْرَى وَأَبْنَاءَ الْمَرَاذِيَةِ الْكَرَامِ^(٨)
فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ الْخَيْلَ جَالَتْ قَصَدْتُ لِمَوْقِفِ الْمَلِكِ الْهَمَامِ
فَأَضْرَبُ رَأْسَهُ فَهَوَى صَرِيحاً * بِسَيْفٍ لَا أَفْلُ وَلَا كَهَامِ^(٩)
وَقَدْ أَبْنَى إِلَهُهُ هُنَاكَ خَيْرًا وَفَعَلُ الْخَيْرِ عِنْدَ اللَّهِ نَامِي

ومن حضر القادسية الأسود بن قُطَيْبَةَ، وله فيها أشعار كثيرة^(١٠)، وعمر بن

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٤٣/١٥ .
(٢) قديم : يريده القادسية أو موضع بجانبها .
(٣) دلفنا : تقمنا .
(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم الفم .
(٥) فتوح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة المصرية بالأنهر) ص ٢٦١ .
(٦) نردى الخيل : ترحم الأرض بحوافرها .
(٧) مسومة : مطعة . الدوابر : المراقب .
(٨) المراذية : رؤساء الفرس .
(٩) أفل : مثل . كهام : كليل لا يقطع .
(١٠) الإصابة ١٠٨/١ .

شاس الأسدي^(١)، وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام، وله يذكر قتل
رستم^(٢) :

قتلنا رُستمًا وبنيه قسراً تشير الخيلُ فوقهم الهبالا^(٣)

وفراً الهرمزان ولم يحاي وكان على كنيسته وبالا^(٤)

شهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله^(٥) :

برزت لأهل القادسية معلماً وما كلُّ من يَغشى الكربةَ يُعلم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي^(٦)، وقد ختم

الملاحظ كتابه «الحيوان» بأبيات له يذكر فيها بلاده حيثند، يقول فيها^(٧) :

وشهدت معركة الغيول وحولها أبناء فارس بيضها كالأعبل^(٨)

مُتربلي حلق الحديد كأنهم جُربُ مقارفة عينية مهمل^(٩)

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج في أغانيه، وهو فيها يتحدث بجانب

صنيعه في تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسن

صاحبه الصبح، ونحن نعرف أن الإسلام حرّم الخمر، ومن ثم كنا نقطع

بأن القصيدة تتألف من جزئين قيل أولهما في الجاهلية، وقيل ثانيهما في

الإسلام، وسرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين ن ترجم

له في الفصل التالي. ومن ذلك قصيدة لعبيدة^(١٠) بن الطيب، وهو من الشعراء

المجيدين الذين أبلوا في حروب القادسية والمدائن، ونراه يستهلها بقوله^(١١) :

(١) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب)

(٢) دار الكتب ١٩٦/١١ والشعر والشعراء

(٣) ٣٨٩/١ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب

ص ٤٥٤ وصحبه الشعراء لمرزباني ص ٢٢

(٤) الطبري ٥٠/٣

(٥) الحيلال ما ينال من انتصار

(٦) المرزبان : الكبير من حكام الفرس

(٧) الأغاني (طبع السامي) ٥١/١٦

(٨) انظر ترجمته في أغاني (ساس) ٩٠/١٩

والشعر والشعراء ٢٧٩/١ والإصابة ٢٢٠/٢

الخرقة ٥٦٦/٣

(٩) الحيوان (طبعة الحلبي) ٢٦٣/٧

(١٠) البيض : الخوذ . الأعبل : حبر أبيض

(١١) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من

الغراف وهو داء يقتل البعير . تغنية : طلاء

لجرب ، وأراد نفس الإبل الجربي . والمهمل :

الذي يحمل الإبل في الرمي .

(١٢) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة السامي)

١٦٣/١٨ والشعر والشعراء ٧٠٥/٢٠ والإصابة

١٠١/٥ والمؤنذ ص ٧٥

(١٣) انظر القصيدة في إفضليات (طبعة

دار المعارف) ص ١٣٥

هل حبل خَوْلَة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
ويعنى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رموس العُجم صاحبة منهم فوارس لا عَزْل ولا مِيل^(١)
ويعدلنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضل رب سببه حسن وكل خير للبه فهو مقبول
ولكننا نصدّم في آخر القصيدة بوصفه المسب لمجلس شراب ، ومن ثم كنا
نقطع بأن القصيدة أصلاً قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلون من
خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة في سبيل
الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجتمع كثيراً من الأشعار التي نُظمت في
كل معركة ، سواء مع الفرس أو مع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة
مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبري وكتب الأدب مثل
الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب في الفتوح
ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مرث رائعة لبعض
من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كثير بن الغريزة التميمي يرى بها من
أصيبوا في معارك الطالقان وجوزجان لمهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول^(٢) :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ مصارعَ فتية بالجُوزْجانِ
وما بي أن أكون جَزَعْتُ إلا حنينَ القلب للبرق الباني
ورُبُّ آخرِ أصاب الموتُ قبل بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكاني

وحبروا في أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهلهم . ويجانب هذا الحنين
والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم في المغازي بعامة ، على نحو

حيث سرد أبو الفرج القصيدة في ترجمته وانظر
فيه الإصالة ٣١٨/٥ والخزاعة ١١٨/٤ ومعجم
الشعراء ص ٢٤٠ .

(١) يقارعون : يضاوبون . العجم : الفرس .
العزل : جمع أمزل وهو من لا سلاح معه .
الميل : جمع أيل وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل .
(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٧٨/١١

ما نجد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازي الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين^(١) ويروون أنه كان لأوس^(٢) بن مخرّاء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم في الفتح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمّد خيرٌ من يمشى على قدَمٍ وكان صافيةً لله خلصاناً
ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما اتّسموا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصّعق . فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الخراج ، يقصُّ عليه كيف أثروا نراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها وما يأخذون لأنفسهم من المغازي . وفيها يقول^(٣) :

نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غَزَوْا فأنّى لهم وفّرٌ وليس لنا وفّرٌ
وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه في فتوحهم من المعازل والحصون والحيوان كالفيل .
وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين^(٤) .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المثانة مبلغ الأشعار التي نُسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجهولين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً ، لسبب بسيط وهو أنه من عادة الجنود . ومن ثمّ اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يرسل الراوي الشعر لإرسالاً بدون نسبته إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبري على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يُعرَف من نظمهما ، ويعقب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

(١) طبري ١٠٨/٣ . مواضع متفرقة والموضح ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة) (٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

دار الكتب ٨/٥ والشعر والشعراء ٢٠/٦٦٨ (٤) الحيوان ٤/١٣٧ والإصابة ٣/١٤٤/٦٠/٥٠١٤٤
والإصابة ١/١١٨ وابن سلام ص ٤٤٥ وف

ذلك في عامة بلاد العرب^(١) . وكان طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب . فناظمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا أو مجملوا بل إنه لا ينبغي أن يذكروا أو يمجّلوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود في هذا الشعر الإيجاز : فهو شعر اللوحات السريعة والمواقف الحاطفة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصلره دون معاناة أو مكابدة ، ويرى به في سرعة كما يرى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لهيئة القصص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا يشتدونه في كل موقف وكل معترك ، مقصدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون

ومدى تأثيرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصلون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها ونخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القيدح المعلن في هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوريين لهدية الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله ^(١) :

شهدتُ بأن وعد الله حقٌ وأن النار مَثْوَى الكافرينا
وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار ثم عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صيرمة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بدیعة ^(٢) :

ونعلم أن الله لا شيء غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا
وقول أبي الدرداء ^(٣) :

يريد المرء أن يؤتَى مناهُ ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومسالى وتقرى الله أفضل ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢ .

(٢) الاستيعاب ص ١٤ : ٣٣١ .

وتحول شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا في دين الله يكفرون عما
قدَّمْت ألسنتهم بأشعار ، يعتنرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن
الزُبَيْر^(١) :

يا رسولَ الملِك إنَّ لسانِي راتقٌ ما فتقْتُ إذ أنا بُور^(٢)
إذ أجارني الشيطان في سَنَنِ اللَّـهِ مِنْ مالِ مَيْلَةٍ مَثْبُورُ^(٣)
أَمِنَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ بما قَدْ ماتَ فَنفسي القِداً وَأَنْتِ التَّنْذِيرُ
وقد حَسُنَ إِسلامهم ، ومضوا يصلدون عنه في أشعارهم ، حتى إذا انتقل
الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجَّعون عليه ، على شاكلة قول
أبي سفيان بن الحارث^(٤) :

لقد عظمتْ مُصِيتُنَا وجَلَّتْ عَشِيَّةٌ قِيلَ : قد قُبِضَ الرَّسُولُ
نَبِيٌّ كانَ يَجْلُو الشَّكَّ عِنا بما يوحى إليه وما يقولُ
وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبادي وجدنا بينهم
كثيرين يَتَقَبَّسونَ من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل
الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظَلُّوا في الجزيرة ولم يُتَبَّعْ لهم تقدم سبهم شرف
الاشراك في هذا الجهاد .

ونحن نعطف عند مشهورهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من
الشهرة ، ولعل أول من ينبغي الوقوف عنده عبدة بن الطبيب الذي تحدثنا عنه
في شعر الفتح ، فقد رَوَى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه في شطر
كبير منها يوصي أبناءه بتقوى الله و"بير" الوالد والحلر من النمام الذي يترزع
الصفائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول^(٥) :

أوصيكمُ بتَقَى الإِلهِ فَإِنَّهُ يعطى الرغائبَ من يشاءُ ويمنعُ
وَيُزِيرُ والدكم وطساعةٍ أمره إنَّ الأَبْرَّ من البنين الأَطْوَعُ

(١) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رثق اللفق : خاطه . بور : خال هالك .

(٣) سنن : طريق . مَثْبُور : هالك خالع .

واعصوا الذى يُزجى النمام بينكم متنصحا ذاك السام المنفع^(١)
 يُزجى عقاربته ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخذع^(٢)
 وهو القاتل فى رثاء قيس بن عاصم^(٣) :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ . ورحمته ما شاء أن يترحمها
 فلم بكُ قيسٌ هلكهُ هلكَ واحدٍ . ولكنه بنيانُ قومٍ تهدما

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سويد^(٤) بن
 أبى كاهل الشكرى فسرى المفضل الضبي يروى له قصيدة^(٥) يفخر فيها فخراً
 جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم به عليهم
 من نعيمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدُ له سعةَ الأخلاقِ فينا والفضلُ^(٦)
 وإبائه للذنباتِ إذا أُعطِيَ المكثورُ ضيماً فكُنَّسَ^(٧)
 وبناءُ للمعالي إنمّا يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وضعُ
 نعمُ اللهُ فينا ربُّها وصنعُ اللهُ ، واللهُ صنعُ^(٨)

ويعضى فيعرض للحصم دنى النفس كان يفتابه ، وزراه يصفه وصفاً
 يستلهم فيه الآية الكريمة (ولا يفتب بعضكم بعضاً أحبُّ أحدكم أن يأكل
 لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول :

-
- (١) يزجى : يدفع ويسوق . السام : السهم .
 المنفع : القاتل .
 (٢) الأخذع : حرق فى المتق إذا ضرب
 أجابته العروق .
 (٣) الشعر والشعراء ٧٠٥/٢ .
 (٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٣٨٤/١
 والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠٢/١٣ وابن
 سلام سر ٢٨ والإصابة ١٧٢/٣ والخزانة
 ٥٤٦/٢ وحديث الأربعماء لله حين
 (طبعة الحلبي) ١٩٠/١ .
 (٥) المفضليات ص ١٩٠ .
 (٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
 (٧) المكثور : المغلوب . كنس : خضع .
 (٨) رجاها : أتمها . صنع : صفة ، لافعل ،
 أى قادر على أن يصنع .

بَشَسَ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وَدَاءٌ يُدْرَعُ^(١)
وَيَحْيِينِي إِذَا لَا قِيَّةَ لَهُ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَنَعُ^(٢)
وَمَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي سَنٍ كَبِيرَةٍ الْخَصَيْنِ^(٣) بِنِ الْحُمَامِ سَيْدِ بَنِي مَرْءَةِ الذَّبْيَانِينِ،
وَلَهُ أَبْيَاتٌ تَطْرُدُ عَلَى هَذَا النَحْوِ^(٤) :

وَيَوْمَ تَسْعُرُ فِيهِ الْحُرُوبُ لَبَسْتُ إِلَى الرُّوعِ سِرْبَالَهَا^(٥)
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا التَّقَى وَنَفْسٌ تَعَالَجُ أَجْسَالَهَا
أُمُورٌ مِنْ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَادِيرُ تَنْزَلُ أَنْزَالَهَا^(٦)
أَعْوَدُ بَرِيٍّ مِنَ الْمُخْزِيَا تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ أَعْمَالَهَا
وَخَفُ الْمَوَازِينُ بِالْكَافِرِينَ وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآي الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى :
(وَاتَّقُوا اللَّهَ) (فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (فَمَنْ آتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ) (إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعْمِلُونَ) (هُوَ الَّذِي
يَعْبُدُ وَيَجِيءُ فَلِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
لَا أَعْتَدْنَا خِزَانَتَهُ وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) وقوله عَزَّ شَانُهُ : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
زِلْزَالَهَا) (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ
هََاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ) (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِمَا يَفْعَلُونَ) .

وافرق في التفسير^(٧) بن تَوَلَّى ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد حَلَّتْ سُنْمُهُ ،

-
- (١) وخم : غير مرى . يدرع : يلبس .
(٢) رنع : أكل بينهم .
(٣) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢٠/٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب)
١/١٤ وما بعده ما والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد
الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٢/٧
(٤) أغانى ١٤/١٤ .
(٥) تسعر : تنقد . سربال : الثوب .
(٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع
مواقعها .
(٧) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ج ٧
في ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨
وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩/١٥٧
والموشح ٧٨ والخزانة ١/١٥٢ والاستيعاب
ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ .

فَسَرَى فِي شِعْرِهِ آثَاراً مِنْ تَلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ ^(١١) :

وَمَتَى نُصِيبُكَ خَصَاصَةً فَارْجُ الْغَنَى وَإِلَى الَّذِي يُعْطِي الرِّغَابَ فَارْغِبِ
وَهُوَ الْقَاتِلُ ^(١٢) :

أَعِزَّنِي رَبُّ مِنْ حَصَرٍ وَعِزِّي وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالَجُهَا عِلَاجَا
وَمِنْ حَاجَاتِ نَفْسِي فَاعِصِمْنِي فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَّفْسِ حَاجَا ^(١٣)
وَأَنْتَ وَلِيِّهَا فَبِرْتُ مِنْهَا إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجَا ^(١٤)
وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَنْشَدَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصِيدَةً قَالَ فِيهَا ^(١٥) :

لِلَّهِ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ الشَّمْسُ وَالشُّعْرَى وَآيَاتُ أُخْرَى
وَمَرْتُ بِنَا اسْتِجَارَةً الْمُخْتَلِ ^(١٦) السَّعْدِيُّ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ هَاجَرَابَنَهُ
لِلْغَزْوِ وَكَيْفَ رَدَّ عَلَيْهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي تَهَايَةِ قَصِيدَةٍ لَهُ رَوَاهَا الْمُفَضَّلُ الْقُضَيْبِيُّ ^(١٧) :

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشَدُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ

وَكَانَ فِي الشَّيْخِ ^(١٨) شَرِكْكِيرَ ، وَهُوَ مِمَّنْ شَارَكَوا فِي مَعْرَكَةِ الْقَادِسِيَّةِ وَمَعَارِكِ
أَنْدَرِيْجَانَ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَجِدُ فِي دِيْوَانِهِ شَيْئاً وَاضِحاً عَنْ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
وَكَأَنَّمَا عَنَى الرِّوَاةُ بِشِعْرِهِ الْبِدْوِيَّ وَإِحْسَانَهُ فِيهِ لَوْصَفِ الْقَوْسِ وَحِمَارِ الْوَحْشِ ^(١٩) ،
وَمَا يَتِمَثَّلُ بِهِ مِنْ شِعْرِهِ ^(٢٠) :

لَيْسَ بِنَا لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ بَاشٍ وَلَا يَصْفُرُّ الْبَرُّ مَا قَالَ النَّاسُ

- | | |
|--|--|
| (١) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والأغانى ١٦١/١٩ . | (٧) المفضليات ص ١١٨ . |
| (٢) الأغانى ١٦٢/١٩ والحيوان ٣٠٥/٢ . | (٨) راجع في ترجمته ابن سلام ص ١١٠ |
| (٣) ساج : جمع حاجة . | والشعر والشعراء ٢٧٤/١ والأغانى (طبع |
| (٤) علاج : اعتراض . | دار الكتب) ١٥٨/٩ والحزاة ٥٣٦/١ |
| (٥) أغانى ١٥٩/١٩ . | والإصابة ٢١٠/٣ والموضح ص ٦٧ . |
| (٦) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٨٣/١٠ | (٩) انظر ترجمته في المراجع السابقة وراجع |
| والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٨٩/١٣ | الحيوان ٧٩/٥ . |
| بالإصابة ٢١٨/٢ والحزاة ٥٣٦/٢ والموضح | (١٠) الشعر والشعراء ٢٧٧/١ وبأس الأول : |
| ص ٧٥ . | شجاعة . |

وقد أنشدنا في الفصل السابق أبياتاً من مراثية أخيه جَزْءَ لعمر بن الخطاب ،
 واشتهر أخوهما مَزْرُودٌ^(١) بهجائه وخاصة للأضياف ، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن
 الهجاء . كما يدل على ذلك قوله^(٢) :

تَنْزَلْتُ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بِنَسْوَبةٍ إِلَى اللَّهِ مَنِي لَا يَنَادِي وَلِيَدَهَا
 وَمِنْ شِعْرَاءِ هَذَيْلِ الْبَارِعِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَبُو ذُوؤَيْبٍ^(٣) الْهَذَلِي . وقد قدم
 المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكنين قائلاً
 من أبيات^(٤) :

كُفِيتَ لِمَصْرِعِ النُّجُومِ وَبَدَّرَهَا وَتَزَعَزَعَتْ آطَامُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
 وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلُّهَا وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُفْدِحِ
 وَهُوَ فِي دِيْوَانِهِ يُعْنَى بِوصف النَّحْلِ ، مثله في ذلك مثل شعراء هذيل ،
 وقد خرج يغزو في سبيل الله ، ونراه في جنود عبد الله بن سعد بن أبي سرح
 الذين فتحوا قرطاجنة ، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين
 له بفتحها . وعاد إلى مصر ، ولكن حدث أن توفي له - قبل وفاته بعام -
 خمس بنين في وباء ، فرتاهم بعينته المشهورة وفيها نحسُّ رضاه بقضاء الله مع
 التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله^(٥) :

أَوْدَى بَنِي وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَعِبْرَةٌ لَا تُقْلِعُ
 فَفَبَرْتُ بَعْدَهُمْ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالٍ أَنِّي لَأَحَقُّ مُسْتَتَبِعٍ^(٦)

وساعد التنصيص ١٩٤/١ ومعجم الأدباء .
 لياقوت (طبع مصر) ٨٢/١١ وشرح
 شواهد المعنى ١٠ والاشتقاق (نقرة الخالجي)
 ص ١٧٨

(١) الاستيعاب ص ٦٦٦ .
 (٢) نظير ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب
 المصرية) ١/١ وما بعدها .
 (٣) غيرت : بقيت . ناصب : متعب .
 مستتبِع : تابع .

(١) راجع في ترجمة مزرد الشعر والشعراء
 ٢٧٤/١ والخزاعة ١١٧/٢ والإصابة ٨٥/٦
 ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ وساعد التنصيص
 ٢٠٢/١ .

(٢) الإصابة ٨٥/٦ .
 (٣) انظر في ترجمة ابن سلام ص ١١٠
 والشعر والشعراء ٦٣٥/١ والأغاني ٢٦٤/٦
 والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٦٣/٧
 والخزاعة ٢٠٣/١ وأسد الغابة ١٨٨/٥

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْقَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَقَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلْبِي تَقْنَعُ
وَرَوَى الرَّوَاةُ أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ يُخَاطَبُ ابْنُ أَخٍ لَهُ بِسْمَى
أَبَا عَبِيد^(١) :

أَبَا عُبَيْدٍ وَقَعَ الْكِتَابُ وَاقْتَرَبَ الْوَعِيدُ وَالْحَسَابُ
وَأَشَاعَ الْإِسْلَامُ فِي نَفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ بَرَاءً وَرَحْمَةً بِأَهْلِيهِمْ وَأَقْرَبَائِهِمْ .
وَيَشْتَهَرُ فِي هَذَا الصَّدَدِ عَمْرُو بْنُ شَتَّاسٍ الَّذِي سَبَقَ أَنْ عَرْضْنَا لَهُ فِي شَعْرِ الْفَتْوحِ ،
فَقَدْ كَانَ لَهُ ابْنٌ مِنْ أُمِّهِ سَوْدَاءُ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تُوْذِيهِ وَتَسْتَخْفِ بِهَ فَعَانَبَهَا
بِقَطْعَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ^(٢) :

أَرَدْتُ عِرَارًا بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدُّ عِرَارًا لَعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ
وَكَانَ يَنْحُو هَذَا الْمَنْحَى مَعْنَى^(٣) بَنِ أَوْسِ الْمُزَنِيِّ فِي عَتَابِهِ لِابْنِ عَمِّهِ الَّذِي
أَسَاءَ إِلَيْهِ إِسَاءَةً كَبِيرَةً . وَظَلَّ يَسِيءُ إِلَيْهِ وَهُوَ بِوَالِي أَشْعَارِهِ فِي صَفْحِهِ عَنْ
زَلَاتِهِ بَرَاءً بِهِ وَبِقَرَابَتِهِ مَعَ تَجَنُّبِهِ عَلَيْهِ وَتَجَرُّمِهِ : يَقُولُ^(٤) :

وَذِي رَجِمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضِفَّتَيْهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
فَمَا زِلْتُ فِي لَبْنِي لَهُ وَتَعَطُّفٍ عَلَيْهِ كَمَا تَخْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
وَمَنْ غَيْرُ شَكِّ كَانَ يَسْتَهْدِي فِي ذَلِكَ آيَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى
الْبَرِّ بِالْأَقْرَبَاءِ وَالصَّفْعِ الْجَمِيلِ . وَبِمَرَضِ عَمْرُو^(٥) بَنِ أَحْمَرَ الْبَاهِلِي فَيَتَوَجَّه
إِلَى رَبِّهِ دَاعِيًا^(٦) :

-
- (١) أغاني ٢٧٩/٦ ومجموع الأدباء ٨٩/١١ .
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ . والشعر والشعراء ٣٨٩/١ .
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥٤/١٢ والإصابة ١٧٩/٦ والخزانة ٢٥٨/٢ وانظر فهرس البيان والخبير والنجاة لمرزوق ومجموع الشعراء ص ٣٢٢ ومعاذ المنصبين . وقد نشرت أشعاره في لبزج .
(٤) أغاني ١٢/٦٠ وديوانه (طبعة لبزج) .
(٥) ص ٣٦٠ .
(٦) (٥) راجع ترجمته في ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ٣١٥/١ والإصابة ١١٤/٥ والخزانة ٣٨٢/٣ ومجموع الشعراء ص ٢٤ والموضح ص ٨٠ .
(٦) الشعر والشعراء ٣١٦/١ . وقد روى له ابن سلام قطعة سكية يقول فيها :
والحمى كالميت ويبق النقي
والعيش فنان فلول ومير

إليك إله الحق أرفع رغبى عياداً وخوفاً أن تُطيل صَمَائِيَا^(١)
 فإن كان بُرءاً فاجعل البُرءَ نعمةً وإن كان قَبْضاً فاقض ما أنت قاضيا^(٢)
 ومن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل^(٣) بن حيرى فى مرانيه لأخيه
 مالك ، وكان قد قُتِلَ بصِفَتَيْنِ ، ومن قوله فى إحداهما^(٤) :

أَناسُ صالحون نشأت فيهم فأودوا بعد ألفٍ وانساقِ
 أرى الدنيا ونحن نعبثُ فيها موليَّةٌ نيساً لانطلاقِ
 أعاذلَ قد بقيتُ بقاء قيسٍ وما حى على الدنيا بباقي
 وكان بجانب من قد منّا شعراء عُرِفوا بركة دينهم ، ومع ذلك فعجن نعنقب
 شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر فى نَسْجِهِ من حين إلى حين ، منهم
 عَبْدُ^(٥) بنى الحسحاس ، وكان يتنزل غزلاً مفتحاً جعل قومه يقتلونه لعهد
 عثمان ونراه يقول :

عَمِيرَةٌ وَدَّعْ إن تجهزتَ غازيا كنى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا
 ويُرَوَى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك
 مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشي^(٦) قيس بن عمرو ، الذى حدّثه على بن
 أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد نهجى مع كثير من الشعراء وعلى
 رأسهم نعيم بن أُبَيّ بن مقيّل العَجَلانى ، وفيه وفى قبيلته يقول :

إذا الله عادى أهل لؤمٍ ودقةٍ فعادى بنى العَجَلانِ رهط . ابن مِقْبَلِ^(٧)
 قبيلة لا يغلدون بلحمةٍ ولا يظلمون الناس حبةً خردلٍ

والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة
 ١٦٣/٣ والخزاعة ١/٢٧١ وشرح شواهد المنى
 ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .
 (٦) راجع فى ترجمة النجاشي الاشتقاق
 لابن دريد (نشرة الخافى) ص ٤٠٠ والشعر
 والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزاعة
 ٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاه على بنى العجلان ، ورواه
 أن النجاشي ، ويهيم بأن أحاسنهم لثمة غصية .

(١) النجاشي : ما يصيب الإنسان فى جسده
 من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥

والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠

والإصابة ٦/٢٦٨ والخزاعة ١/١٤٧ .

(٤) أمال المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحسحاس فى

أغانى (ساسى) ٢٠/٢٠ وما بعدها والشعر

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثاني، فإن الإسلام يُجِلُّ الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية. وكان ابن^(١) مقبل على شاطئ البحر، يقول ابن سلام: «إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكر» ابن الجاهلية^(٢) ومع ذلك ندت على لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله^(٣):

هل الدُّفْرُ إلا تارتان فمئهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكلدح
وكلناهما قد خُطَّ لي في صحيفة فلا الموتُ أهوى لي ولا العيش أروحُ
وهو يتصلر في البنتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) وما يروى له قوله^(٤):

النَّاسُ هَمُّهُمْ الْحَيَاةُ وَلَا أَرَى طُولَ الْحَيَاةِ يَزِيدُ غَيْرَ خَبَالٍ
وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذِّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ دُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وَمَنْ يُسَلِّكْ فِي هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ الَّذِي عُرِفُوا بِرَقَّةِ دِينِهِمُ الْحَطِيئَةِ، وَسَرَى عَمَّا قَلِيلٍ أَثَرُ الْإِسْلَامِ فِي شِعْرِهِ.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية^(٥)، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون في طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولييد والحطيئة والنايفة الجعدي، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام، ولندل في وضوح على أن هذا التأثير لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو ما سرى عند لييد والنايفة الجعدي.

- | | |
|---|--|
| (١) راجع في ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء | (٢) الحيوان للجاحظ ٤٨/٢. |
| ١٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة | (٤) طبري ٢٩/٥. |
| ١٩٥/١ والخزافة ١١٣/١ وزهر الآداب | (٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من |
| ١٩/٢. | الجاهلية حتى عصر بني أمية لتالينو (طبع |
| (٢) ابن سلام ص ١٢٥. | دارالمطارف) ص ٩٥. |

حسان^(١) بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حزام الخزرجي من سادة قومه وأشرافهم ، وكانت أمه « القريرة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله^(٢) وهو يسئلك في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى ، وهي سن^٣ تقريبيه ، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين . وهو ليس خزرجياً فحسب ، بل هو أيضاً من بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

وفراه قبيل الإسلام يتردد على بلاط الفساسة ، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ، وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، ومن ثمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت^(٣) . ويقال إنه عرض شعره على النابتة بسوق عكاظ ، وقدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجده^(٤) .

وبهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فدخل حسان في الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أيدِّه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لم يقل : « لهذا أشدُّ عليهم من

المغنى ص ١١٤ والخزانة ١٠٨/١ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوق وفي تونس والمندوبيروت ، وسنتمتع في المراجعة على طبعه ليدن .
(٢) انظرها في ابن سعد ٢٧١/٨ .
(٣) انظر أغانى (دار الكتب) ١٢/٣ .
والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة .
(٤) أغانى (دار الكتب) ٣٤٠/٩ .

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغانى (دار الكتب) ١٣٤/٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٥٧/١٤ و (طبعة الماسي) ١٢/١٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٦٤/١ والموضح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن حساكر ١٢٥/٤ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٨/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبعة دار المعارف) ١١٥/٢ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد

وقع النبل ، ، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشقي واشتقى . » ومراً بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوم بالأيام التي هزموا فيها ويميرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعي لأنهم كانوا مشركين فعلاً ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهنأهم وجبريل معك » (١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يملحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تَزُنُّ بِرَيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنْ لَحُومِ الْفَوَاقِلِ (٢)
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلَا رَفْعَ سَوَطِي إِلَى أَنْامِلِ
ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل أثاروه في هذا الحادث ، حتى وجدوا جنداً شديداً ، فقال :

أَمْسَى الْجَلَابِبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْفَرِيعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ (٣)
على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد ، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بميزة رفيعة ، حتى ليروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطعمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يتقسم له في الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهى أم ابنه عبد الرحمن . وكان

(١) انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته

في كتب الصحابة والأغانى ١٣٧/٤ وما بعدها .

(٢) حسان : حفيضة . رزان : ذات وقار .

تزن : تنهم . غرنى : جائنة . يرهدها أنها لا تقتات

النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً

لشأنهم . البلد هنا : التمام . وفي المثل هو أذل

من بهضة البلد لأن التمام يترك يمشي فليحت غيرهم .

الخلفاء الراشدون يَحْلُونَهُ وَيَفْرُضُونَهُ فِي الْعِطَاءِ . وَيَقَالُ إِنَّهُ وَفَدَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَأَنَّهُ تَعَمَّى بِأَخْرَجَةٍ .

وَبِحَقِّ سَمِيِّ حَسَانِ شَاعِرِ الْإِسْلَامِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ، فَقَدْ عَاشَ بِنَاضِلٍ عَنْهُ أَعْدَاءَهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْيَهُودِ وَمَشْرِكِي الْعَرَبِ رَامِينَ لَهُمْ جَمِيعاً بِسَهَامٍ مُصْنَعَةٍ . وَقَصَتْهُ مَعَ الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ الْمُتْرَى حِينَ قُتِلَ فِي جَوَارِهِ دَاعٍ مِنْ دَهْمَةِ الرُّسُولِ مَشْهُورَةٍ ، فَقَدْ قَالَ فِيهِ وَفِي عَشِيرَتِهِ :

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْعَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالْعَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبَرِ^(١)
وَبَكَى الْحَارِثُ مِنْ هِجَاثِهِ لَهُ بَدْمُوعُ غَزَارٍ ، وَاسْتَجَارَ بِالرُّسُولِ مُتَوَسِّلاً إِلَيْهِ
أَنْ يَكْفِيَهُ عَنْهُ . وَقَدْ مَضَى حِينَ قَدِمَ عَلَى الرُّسُولِ وَفَدَ بَنِي تَمِيمٍ يَرُدُّ عَلَى شَاعِرِ هَذَا
الْوَفْدِ الزُّبَيْرِقَانَ بْنِ بَدْرِ مَادِحاً لِلْمُهَاجِرِينَ مَدْحاً رَائِعاً . يَقُولُ فِي تَضَاعِيفِهِ :

إِنْ الذَّوَائِبُ مِنْ فِيهِمْ وَإِخْوَانُهُمْ قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ^(٢)
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ مَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبْتِي لِأَذْنِي سَبَقَهُمْ تَبِعُ
أَهْدَى لَهُمْ يَدِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فَمَا أَرَادَ لِسَانُ حَائِكُ صَنَعُ

وَمِنْ الْمُحَقِّقِ أَنَّهُ كَانَ شَاعِراً بَارِعاً ، وَقَدْ اتَّفَقَ الرُّوَاةُ وَالنَّقَادُ عَلَى أَنَّهُ أَشْعَرُ
أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي عَصْرِهِ وَأَنَّهُ أَشْعَرُ الْيَمَنِ قَاطِبَةً . وَقَدْ حَلَّفَ دُبُوناً ضَخْماً رَوَاهُ ابْنُ
حَبِيبٍ ، غَيْرَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الشُّعْرِ الْمَصْنُوعِ دَخَلَهُ ، يَقُولُ الْأَصْمَعِيُّ : « تُنْسَبُ
إِلَيْهِ أَشْيَاءٌ لَا تَصَحُّ عَنْهُ »^(٣) وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ : « قَدْ حُمِّلَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يُحْمَلْ عَلَى
أَحَدٍ ، وَلَمَّا تَعَاظَهْتَ (تَشَانَمْتَ) قُرَيْشٌ وَاسْتَبْتَّ وَضَعُوا عَلَيْهِ أَشْعَاراً كَثِيرَةً
لَا تُنْقَى »^(٤) . وَكَانَ مِنْ حَمَلٍ عَلَيْهِ غُثَاءٌ كَثِيراً ابْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِي ، وَلاَحِظْ
ذَلِكَ ابْنُ هِشَامٍ وَهُوَ يَتَرَوَّى عَنْهُ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ، فَكَانَ يَرْجِعُ إِلَى الْعُلَمَاءِ بِالشُّعْرِ
وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ رَاوِيَةُ الْبَصْرَةِ الْمَشْهُورُ بِسَالِمٍ عَنْ صَحَّةِ أَشْعَارِ حَسَانَ

(١) السخبر : شجر ، ومن أشالهم : ركب
فلين السخبر إذا غدر .
(٢) الاستحباب : حب .
(٣) ابن سلام : ١٣٠ ص .
(٤) الذوائب : الأعالي في الشرف . فهو :

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُشَبِّتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد بردُّها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكره مثبته في رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليعلم مدى ما وُضِعَ على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهل العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »^(١) ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك^(٢) ونسب ثالثة إلى عبد الله^(٣) بن الحارث السهمي ورابعة إلى معقل^(٤) بن خويلد الهذلي وخامسة إلى ربيعة بن أمية اللدلي وقيل بل هي لأبي أسامة الجُشَمي^(٥) . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن^(٦) . وإذا مضينا نبحث في مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهي في رثاء نافع بن بُدَيْل^(٧) ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهي في رثاء عثمان^(٨) ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصّ الرواة على أنها لصِرمَة^(٩) بن أبي أنس الأنصاري ، ونُسب له بيتان في التفخر بالأزد وهما لسعد^(١٠) بن الحصين الأنصاري ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهي لبشير^(١١) بن سعد بن الحصين . ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجاء قريش ،

- (٦) السيرة النبوية ١٩٩/٤ والديوان ٥١
وراجع الديوان ١٠٨/٣ حيث تشكك الجاسط
في مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى
ابنه عبد الرحمن .
(٧) انظر الديوان ص ٣١ وقابل بالاستيعاب
ص ٣٠٥ وابن هشام ١٩٨/٣ .
(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب
ص ٤٩٢ .
(٩) راجع الديوان ص ٢١-٢٢ والاستيعاب
ص ٣٢٤-٣٢٥ .
(١٠) انظر الديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني
(طبع الساسي) ١٢٠/١٤ .
(١١) راجع الديوان ص ٤٢-٤٣ وقارن
بالأغاني ١٢٠/١٤ .

- (١) انظر ابن هشام في مقطوعة حنية ٥٦/٣
وفي قصيدة حنية ١٤٩/٣ وما بعدها وقابل
بالديوان ص ٧٦ وهي في رثاء حمزة ، وانظر حاتية
في رثاء حمزة ١٥٩/٣ ومقطوعتين في رثاء حبيب
١٨٦/٣ وقابل بالديوان ص ٨٤-٨٦ وكذلك
مقطوعة يائية في ١٩٢/٣ وقابل بالديوان
ص ٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية في مروين ود في
٢٨١/٣ وقابل بالديوان ص ٤٦ .
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٣
وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣٦٢/٣
وقابل بالديوان ص ٦٣ .
(٣) السيرة النبوية ٢٠/٣ والديوان ص ٢٩ .
(٤) السيرة النبوية ٨١/٣ والديوان ص ٨٤ .
(٥) السيرة النبوية ٢٨٢/٣ والديوان ٥١ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجى النجاشي الحارثي ويذم قومه بني الحارث بن كعب وعشيرته بني الحماس ذمّاً قبيحاً^(١) ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه^(٢) . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قَتلة عُثْمَانَ ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون^(٣) ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبوسفیان وغيره من رؤسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير^(٤) بن العوام وعبد الله^(٥) بن العباس ، وكان الأحزاب السياسية لعبت دوراً في وَضْع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامي كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاقة وهلهلة ، لا لأن شعره لأن وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة^(٦) ، ومن رابع هذا الشعر ميمته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْفَرُيْلَمَنُ بِالْفُصْحَى وَأَسْيَافُنَا يَقَطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

ولاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بِيضُ الْوَجْهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابِهِمْ شُمُّ الْأَنْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغي أن نُبعد منه ما اتهمه الرواة وأن لا نقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقناع بالأيام والأنساب ، ومن ثمّ "كنا نرتضى ميمته (تَبَلَّتْ فُؤَادَكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيلَةً)" التي يعبر فيها الحارث بن هشام المخزومي بفراقه في يوم

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان في هجاء بني الحماس الحارثيين

قوم النجاشي ص ٨١، ٤٧ وكذلك انظر مقطوعة

رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٤٩٢

حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في وفاء

عُثْمَانَ أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى همران بن حطان .

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه

أشعار في هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر

الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١/ ٣٠

(٦) انظر الأغاني (ساسة) ١٤/ ١٢٥-١٢٧ .

بلر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النومَ بالعشاء المومومُ) التي بهجوتها ابن
الزُبَيْرِي ويفتخر بقومه فخر أعينفا ، ومن نطهها لاميته (أهاجك بالبَيْدَاءِ رَسْمُ
المنازل) . وبهذا التباسُ نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان
ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام^(١) . ومثلها مقطوعته الدالية التي يسئلها
بقوله :

وإن سَنَامَ المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبدُ^(٢)
ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلك من قريش كمال السُّقْبِ من رَأَى النِّعَامِ^(٣)
وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الحمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ
وهو يسئلها بذكر منازل صاحبه مشبهاً بها ومستطرداً إلى ذكر الحمر
على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين :
جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام^(٤) . وهو يمتد في الجزء الثاني
متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة . وتختلط في هذا الجزء
المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية إذ يتعرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم
ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه : من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كِفَاءُ^(٥)
وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة
يعبرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتَّبِعُهُ حتى الممات ونصراً غير محدودٍ
مستعصمين بحَبْلِ غير مُشْجَمٍ مُستحَكِمٍ من حبالِ الله ممدودِ^(٦)

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : غاطلة بنت عمرو الخزومي

(٣) انظر الاستمباب ص ١٢٩

(٤) كفاء : كفة ونظير .

(٥) منقطع : منقطع .

(٦) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : غاطلة بنت عمرو الخزومي

وهي أم عبد الله وأب طالب والزيبر بن عبد المطلب .

(٣) السبق : ولد الناقة . الرأى : ذكر النعام .

وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .
وله مرث في الرسول الكريم تنضح فيها المعاني الإسلامية انضاحاً على نحو
ما يلقانا في مرثيته التي رواها أبو زيد الأنصاري والتي يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقد
وقد مرّت بنا في الفصل السابق مرثيته البديعة لأبي بكر الصديق ، ومن
قوله في عمر حين توفّي على إثر طعنة فيروز المجهوسي

وفجّعنا فَبِرُوزُ لا دَرٌ دَرُهُ بِأَبْيَضٍ يَنْثَلُو الْمُحْكَمَاتِ مَنِيبٌ^(١)
وعلى هذا النحو انتشت بعض أشعار حسان الإسلامية بأصواء الدين
الحنيف وهديه الكريم .

٣

كعب^(٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبي سُلمى من فحول الشعر في الجاهلية . وهما من قبيلة
مزينة ، ولكنهما يوضعان في عِدَاد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أحواله
بنى مُرّة الذُبْيَانِينَ . وقد تلقى كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بُجَيْبِر
ومثل الحُلَظِيَّة . ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه
من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى
تنضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ،
فيُلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُبيّره^(٣) تمريناً له وتدريباً . على صَوغ

والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الناقة ٢٤٠/٤
والإصابة ٣٠٢/٥ ومسمم الشعراء للبرزباني
ص ٢٣٠ والخزافة ٣٧٥/١ ، ١١/٤ .
وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية تطلب .
(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٤١/١٥ وأغاني
المرتضى (طبع الحلبي) ٩٧/١ .

(١) لا در دره : اللز : اللحن وكثرته ، يدعو
عليه بأن لا يتركو عمله . المحكمات : آيات
الذكر الحكيم . وكفى ببياض عمر من نقاء صحفته .
(٢) راجع في ترجمة كعب طبقات فحول
الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر
والشعراء لابن قتيبة ٨٦/١ وأغاني (طبعة الساسي)
١٤٠/١٥ وابن هشام ١٤٤/٤ وما بعدها

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الحطيئة . يدل على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرة وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع »^(١) ، فقال كعب قطعته التي يقول فيها :

فَمَنْ لِلْقَوَائِي شَانَهَا مِنْ يَحْكُوكَهَا إِذَا مَا تَوَى كَعْبٌ وَفَوْزَ جَرَوَلُ^(٢)
ومعروف أن كعباً ويجبراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بجبر ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء أذى رسول الله بمثل قوله^(٣) :

أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتُ وَيُحْكُ هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأْسًا رَوِيَّةً فَأَنْهَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ^(٤)
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء . ويوب غيرك ذلك^(٥)
على خلقي لم تُلَفِّ أُمًّا وَلَا أَبًا عليه ولم تذكر عليه أختاً لكَ
ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بجبر فيما أجابه به بقوله^(٦) :

مَنْ مَبْلَغُ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بِاطْلَا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعَزَى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمَفْلُتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهَرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ
وما زال كعب على وثنيته حتى فُتِحَتْ مَكَّةُ وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه يجبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغاني (طبع)

دار الكتب (١٦٥/٢) .

(٢) ثوى وفوز : مات هناك . جرول : الحطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغاني (سأى)

١٤٢/١٥ والسيرة ١٤٤/٤ والانتخاب

ص ٢٢٦ .

(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبي بكر .

القليل : الشرب الأول . الطل : الشرب الثاني .

(٥) ويب غيرك : ملكك هلاك غيرك ،

ويوب بالنسب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ١٤٥/٤ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم: ودعاه أن يتقدم على رسول الله ثانياً. وشرح الله صدره للإسلام: فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه: فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو مثلث بعمامة، فقال: يا رسول الله! هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده، فحسّر كعب عن وجهه، وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير. فتجهمت الأنصار وغلظت له، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحببت المهاجرة أن يسلم ويؤمته النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنته رسول الله^(١)، وأنشده مدحته الخالدة:

بانت سعاد فقلبي اليوم مَنبُولٌ منيَّمٌ إثرها لم يُفدَ مَكْبُولُ^(٢)

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم برُدة اشتراها معاوية من أبنائه عشرين ألف درهم، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين^(٣). وقد اكتسب بها كعب حُلَّةً مجد لا تبلى، ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة. ونراه يستلها بالغزل، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتين عندها فليس له فكاك، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده^(٤):

وفارقتك برهني لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غَلِقَا^(٥)

ويُلبح في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالحر، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة، كما تأثره في الحديث عن إختلاف صاحبته لوعدها. ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل. وما زال ينعت ناقته حتى قال يصورُ خوفه وفزعه من رسول الله:

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١٠٦/١٠٧
وانظر الأغاني ١٤٢/١٤٣
(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية) ص ٦. ومقبول: مفرم.
(٣) ابن سلام ص ٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦/١٠٧
والإصابة ٣٠٢/٥
(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٣٣.
(٥) غلق الرهن: لم ينفك أبداً.
وبانت: فارقت. ومكبُول: مقه.

وقلت خَلُّوا طريقي - لا أبا لكم - فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالَّتْ سلامتهُ يوما على آلهِ حَذَباءُ محمولُ
أُنبِئتُ أَنَّ رسولَ الله أوعدني والعَفْوُ عندَ رسولِ الله مأمولُ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً إِلَّا قَرآنَ فِيهَا مَوَاعِظُ وَتَفْصِيلُ
لَا نَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوِشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبُ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِي الْأَقَاوِيلُ
إِنَّ الرِّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي عُصْبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ

ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرُ يَعْقِصُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ^(١)
يَعْرِضُ بِالْأَنْصَارِ لِقَلْظِهِمْ - كَانَتْ عَلَيْهِ - فَأَنْكَرْتُ قَرِيشَ مَا قَالَ ،
وَقَالُوا لَمْ نَمُدَّحِنَا إِذْ هَجَوْتَهُمْ . وَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ يَذْكُرُ الْأَنْصَارَ :
مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ فِي مِقْسَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ^(٢)
الْبَاذِلِينَ نَفْسَهُمْ لِنَبِيهِمْ يَوْمَ الْهَيَاجِ وَسَطْوَةِ الْجَبَّارِ
يَنْطَهَرُونَ - كَأَنَّهُ نُسْكٌ لَهُمْ - بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الْكُفَّارِ^(٣)
صَلَعُوا عَلِيًّا يَوْمَ بَذْرِ صَدْمَةٍ دَانَتْ لَوْفَعَتِهَا جَمِيعُ نَزَارِ^(٤)

عن حمزة ومن يستنبط به .

(١) الزهر : البيض . حرد : نكل وجبن .

التنايل : القصار .

(٢) المقتب : جماعة الخليل والفرسان .

(٣) علقوا : قتلوا .

(٤) يريد بعل بنى علق بن مسعود وهم بنو كنانة .

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد اخذ

وهو غير السيوف .

(٢) زولوا : هاجروا .

(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضمير .

الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذي ينكشف

في القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان .

حمازيل : جمع مزال وهو الذي ينزل في الحرب

ورثوا المباداة كابراً عن كابرٍ إن الكرام هم بنو الأخيار
وحَسَنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر في شعره عن مواعظ وحكم يستهدى
فيها الذكر الحكيم، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سَعَى الفَتَى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأُمورٍ ليس يُدركها والنفس واحدةٌ والهمُّ منتشِرُ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ
وزناه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم
الذى يَنْفُضُ عليهم . وهو الفتى الحميد ، يقول :

أَعْلَمُ أَنى مَتى ما يَأْتَنِى قَدَرى فليس بِخَبْئِهِ شُعٌ ولا شَفَقُ^(١)
والمرء والمال بَنَى ثم يَذْهَبُهُ مَرُّ الدهور وَيُفْنِيهِ فَيَنْسَحِقُ
فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى فَضْلَ الذى بِالْغِنَى من عنده نَشَقُ
إِنْ يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا وَمَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق
وهو فى ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر
أشخاص منهم فى رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغفر .
وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها فى الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر
مع من يصطفيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأَقْسَمْتُ بِالرَّحْمَنِ لا شَيْءَ غَيْرِهِ يَمِينَ امرئٍ بَرٍّ ولا أَنْحَلُ^(٢)
لَأَسْتَشْمَرَ أَعْلَى دَرِيْسَى مسلماً لوجه الذى يُخَيِّ الأَنامَ وَيَقْتُلُ^(٣)
هو الحافظُ الوَسْطَانُ بالليل مَيْتاً على أَنه حَيٌّ من النوم مُنْقَلُ^(٤)
من الأَسودِ السارى وإن كان ثائراً على حَدِّ نَابِيهِ السَّهْمُ الْمُثْمَلُ^(٥)

(١) شفق : خوف .

(٢) لا أنحل : لا أشتى .

(٣) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير

(٤) الدريس : الثوب البالى . كفى بذلك من

لهلا . الثائر : الطالب بأثر . المثل : الجمع

حسن إسلامه وتركه على الله الذى يحيى ويميت .

وهي تَمَّ عن ولائه لدينه الخفيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظم الذي يكلاً عباده ويقيم الأذى ، ولعلَّ في ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام في نفسه وفي شعره . وديوانه يدل - كما يدل تأخره في إسلامه - على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخرأ متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معاني الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى نراه في الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه بصفح الصفح الجميل ، سائفاً له ، لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفَّ أذاه عنه ، يقول ^(١) :

إن كنت لا ترهب دُعَى ما تعرف من صَفْحِي عن الجاهل
فاخشَ سكوتي إذ أنا منعتُ فيك لسموع خَنًا القائل
فالسامع الذامُ شريكُ له ومطعمُ المأكول كالآكل
مقالةُ السوءِ إلى أهلها أسرع من مُنَحَدِرِ سائل
ومن دعا الناس إلى ذمِّه ذمَّوه بالحق وبالباطل
ولا تَهْجُ إن كنت ذا إِرْبَةٍ حَرَبَ أَخِي التَّجْرِبة العاقل ^(٢)
فلئن ذا العقْل إذا هجته هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خايل

فهو ينهأ أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا ينجي على نفسه ما هو أقيح أثراً وأبى وسماً ، ويقول إن الذين يسطون ألسنتهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءً أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو في ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التصريح لمن يهجوهُ بدلاً من الطعن في الأعراض سنَّهم القديمة .

ليد^(١)

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوهريرة وأعمامه الطفيل وأبو براء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثمّ "لقّب" : « ربيع المُقْتَرين » وقد قتلته بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغوراً وهو أبو عامر المشهور الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقّب بملاهب الأسنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقّب بمعوذ الحكماء . وأم لبيد تامة بنت زبياع العبسية .

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأجدادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها وفداتها على أمراء الحيرة ويقصّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل - إن صحّ - بأول ما كان من يتفظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حدثاً ، فهم يروون أن وقدأ من قومه على رأسه عمه أبو براء وقد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وقدأ من بني عبّس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العباسيين وبني عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطلما ، وأخذ الربيع يلدس على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط لبيد غضباً ، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز

والمعمر بن ص ٦٠ والخزانة ١/٣٣٤ وقد طبع الخالدي جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبع في ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إسماعيل هلس ونشرت في الكويت سنة ١٩٦٢ .

(١) انظر في ترجمة لبيد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ٢٣١/١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٣٦١/١٥ وطبعة الساسى ١٥/١٣٠ وطبقات ابن سعد ٢٠/٦ وأسد الغابة ٤/٢٦٠ والموضح ص ٧١ وأما ال المرتضى (طبعة الحلبي) ١٨٩/١ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٤/٦

مقدع : فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامرين . وسواء
أصح هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه
في الفخر بعشيرته والاعتداد بها بالغا . ويقال إنه كان يكتبه في أول
الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَّتْ الدِّيارُ محلَّها فقامها » أخذ يظهره .
وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته
النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه ^(١) ، فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم
يؤمن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته : حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم في دين الله . وكان ابن عمه
حامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شرًّا فعصمه
الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله : أما
أربد فترلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء
حارًّا .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة وأنار
ويقرا لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خَطَّ عمر الكوفة فترتها وأقام بها إلى أن توفاه
الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه
حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلا . ويصورون ذلك فيقولون إن عمر
أرسل إلى المغيرة بن شعبه واليه على الكوفة : أن استشد من قبلك من شعراء
مصر ما قالوا في الإسلام . فلما سأل لبيدا عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة
في صحيفة : ثم أتاه بها . وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ،
فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاء خمسمائة وكان ألفين .
ومضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتا واحداً ويختلفون فيه ^(٢) .
فن قائل هو قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجسلي حتى كسائي من الإسلام سِرَ بالآ

(طبعة دار الكتب) ١٤/٣٦٩ وانظر الاستيعاب
ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتا ثالثا .

(١) أغاني (طبعة السامي) ١٥/١٣١ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغاني

ومن قائل ، بل هو قوله :

ما عائبَ المرءَ الكريمَ كَنَفِسه والمرءُ يُصلِّحه الجليْسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء . بل يمضى مفاخرأ فخرأ عنيأ بأبائه وفتوته معتدأ اعتدادأ لأحدأ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثم وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن علاثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطَبة النزارى^(١) وأقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخرأ بقومه وشجاعتهم وبلائهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجنَّه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لِداته ، وكيف يفامر ليظعم الجائع المحروم . وكثيرأ ما يهجم في قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع في معلقته . إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الطاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأنان وحشية . استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها . وخرج من ذلك إلى تشبيهها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها . ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه . وبفخر بقومه وكثرة ساداتهم وما سنَّه لهم أبائهم ، يقول :

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا ليزأُ عظيمةٌ جَشَامُها^(٢)
ومقسَّمٌ يُعطى العشرة حَقَّها ومُعَذِّمٌ لحقوقها هَضَامُها^(٣)
فَضْلاً ، وذو كرمٍ يُعين على الندى سَمَحٌ كسوبُ رَغائبِ غَنَامِها

(٢) منفرد لا يملأ . هضام هنا . يملأ
قوياً ويحرم الآخرين .

(١) أغاني (ساسي) ٥٢/١٥ .
(٢) الزاز : الملازم لشيء ، جشامها :
من التجسم وهو يكوب الخطر

من مَعَشَرٍ سُنْتُ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
فَبِنَا لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
فَاقْتَنَعَ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَّائِقُ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

وشعره الجاهلي دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آيائه ومفاخره
ووصف راحلته وتشبيهها بالأثان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ،
وقد يتحدث عن المطر . وهو في ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد في لفظه ،
حتى لميس قارنه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها .
واقراً ما لم نَرَوْه من المعلقة قبل هذه الأبيات التي أنشدناها فإنك ستجده مفرغاً في
ألفاظ متناهية في الإغراب . ومن ثم وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال :
إنه رحي بَزْرٍ^(١) ، يريد أنه خشن لا يحسن في السمع ، وقال الأصمعي ، شعر
ليبد كأنه طيلسان طبراني أي أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم
تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلاوة ، ومن ثم يقول فيه ابن
سلام : « كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق »
ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أربد . فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفي
معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وأرجع إلى عينيته فستجد جمال السبك
والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكلة
قوله^(٢) :

بَلَيْنَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالِغُ وَتَبَقَّى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ^(٣)
فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلَّ فَنَى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّبَارِ وَأَهْلُهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوْهَا ، وَغَدَوْا بِلَاقِعُ^(٤)

(١) بلائع : جمع بلقع وهو الأرض القفر .
وغدوا : غدا .

(٢) الموشع للرزباني ص ٧١ .
(٣) الدوران بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .

(٤) المصانع : الأبنية الضخمة .

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يَحُورُ رَمَادًا بعد إذ هو ساطع^(١)
وما البر إلا مُصْمَرَاتٌ من النُقى وما المال إلا عارباتٌ ودائعُ
وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ
الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغفل الإسلام في ضميره . فاتجه في
أشعاره إلى ربه منيباً إليه . والوجل بملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ،
يقول في قصيدة له^(٢) :

إنما يحفظ التقي الأبرارُ وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله ترجعون وعند الله ورُدُّ الأمور والإصدارُ
كلُّ شيءٍ أحصى كتاباً وعِلماً ولديه تجلَّتِ الأسرارُ
إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أُنْذِرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ^(٣)
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الأبرِّ أم إلا يَرَمَرَمُ ونِعَارُ^(٤)

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس
معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحصى كل شيء في كتاب وأن الموت
حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره . وينصى في
طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوفاً
من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا
ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى في لاميته التى تؤمن بأنه نظمها
في الإسلام ، وفيها يقول^(٥) :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهَسَةٌ تصفرُّ منها الأناملُ^(٦)

(١) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء

(٢) ديوان لبيد ص ٤١ والحيوان ١٦٣/٧ .

(٣) الديوان ص ٢٨/٥ .

(٤) يرمم بالوحيية الموت .

(٥) يمحور : يصير .

(٦) ديوان لبيد ص ٤١ والحيوان ١٦٣/٧ .

(٧) الديوان ص ٢٨/٥ .

(٨) يرمم ونمار : جيلان في نجد .

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقة الموت) أما البيت الثالث فاستمدّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور) . واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه^(١) وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم ، ومن ثمّ مضى يتحدث عن الفساسة وأصحاب الرّسّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله^(٢) :

لله نافلة الأجلُّ الأفضلُّ وله العلا وأنثى كل مؤثِّل^(٣)
لا يستطيع الناس مخوَّ كتابه أنى وليس قضاؤه بمبدل
وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزى بما سجّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلُّ شئٍ أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضى ليبد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العمالق ولقمان وتسرّه وأبرهه وأمراء المناخرة والفساسة من ريب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته^(٤) :

من يَسْبُطِ الله عليه إضْبَعاً بالخير والشر بآى أولعاً^(٥)
مِلّاً له منه ذنوباً مُتَرَعّاً وقد أباد إرماً وتبعا^(٦)
والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثّرت في نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسب إليه منها يدل على أن

(٤) الديوان ص ٣٣٧ .

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .

(٥) الإصبع : الأثر الحسن

(٢) الديوان ص ٢٧١ .

(٦) ذنوباً متراً : دلوأ متراً .

(٣) أنثى : موطأ عظيم . مؤثِّل : مؤثِّل ،

ويوصف به الملك والمجد .

الإسلام نعمت روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، ففضى بحيلها أبياناً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها^(١) :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٍ^(٢)
أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا يَدُّ لَهُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ
مِنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمِنْ شَاءَ أَضَلْ
فَاكْذَبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا إِنَّ صَدَقَ النَّفْسَ يُزْرَى بِالْأَمَلِ
غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبْنَهَا فِي التَّقَى وَاخْشَرُهَا بِالْبِرِّ ، اللَّهُ الْأَجَلُ^(٣)

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربد ويبكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشره الإسلامي متمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

٥

الحطيطنة^(١)

اسمه جرّول . ولُقِّبَ بالحطيطنة لقصره أولدامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضَّرَاء ، كانت لأوس بن مالك العبّسي . ونشأ في حجره مغموراً في نسه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تفتحه العيون . ولم يكن فيه

والأغاني (طبع دار الكتب) ١٥٧/٢ والإصابة
٦٣/٢ والخزانة ٤٠٨/١ وحديث الأربعماء
له حسين (طبعة الحلبي) ١٥٣/١ وما بعدها .
ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جونث تسچر
والشنقيطي ، وكذلك نشره فهان أمين طه بمطبعة
الحلبي ، وسنتمتع على نشرته .

(١) الشعر والشعراء ٢٣٨/١ والديوان
ص ١٧٤ وما بعدها .
(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .
(٣) اغزها : سبها واقهرها .
(٤) انظر في ترجمة الحطيطنة ابن سلام
ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٠/١

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في « عيسى » على نحو ما صنع
عنترة من قبله . ومن ثمَّ نشأ شعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب
في غلبة المهجاء عليه .

ولا تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزِمَ زهير بن أبي سُلمى يعلمه لإحكام
صنعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومربنا أن الخطيئة كان يَروى
شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوّه به ، حتى يدور على الألسنة
ذكره . ومعنى ذلك أن الخطيئة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصفله
وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تُعنى بالمعاني ودقها .

ويضيء الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة
هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة
كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفى الرسول الكريم . ونراه
يسارع إلى الردّة ، مُعينا بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى
ليقول :

أطلعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فبا لعبادِ الله ما لأبي بكر
أبورها بكرة ، إذا مات ، بعده فثلك ، وببيتِ الله ، قاصمةُ الظهر
على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره^(١) . وقد عاد مع المرتدين
إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور في المديح والمهجاء ، ويقول الأصمعي : « كان الخطيئة
جشعاً مسؤولاً ملحفاً ذئب النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المنظر ،
رثاً الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما نشاء أن نقول في شاعر من
عيب إلا وجدته ، وقبلما نجد ذلك في شعره »^(٢) . وقد يكون الأصمعي بالغ
في نعتة بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في
الجاهلية من أمثال عُبَيْيَةَ بنِ حِصْنِ الفزاري وزيد الخليل ، وكان يتورط فيها

(١) انظر الطبري ٢/٢٧٧ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/١٦٣ .
الخطيب مقارن بالديوان ص ٢٢٩ والأغاني ٢/١٥٧ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف في صف عينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبَّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن حُلثة حين نافر عامر بن الطفيل^(١). وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى وليد يقفان في صف عامر . وقد تكون حادثة مع الزُّبرقان بن بدر هي التي شوهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يوم المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلَّه على داره حيث زوجه وعشيرته ، فنزل بأهله ، ووزع بنو أنف الناقة - إذ كانوا يناصون عشيرة الزُّبرقان - حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزُّبرقان ، وكانت قد تراخت في استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالعوافي إكرامه ، وانطلق يُشقي عليهم ثناء راعياً ممرضاً بالزُّبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرَحَّلْ لُبَيْتُهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٢)
ورفع الزُّبرقان أمره إلى عمر ، فحكَّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاء حبه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَّخٍ زُغِبِ الحواصل لا ماء ولا شَجَرٌ^(٣)
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ في قَعَرٍ مُظْلِمَةٍ : فاغفرْ عيبك سلامُ الله يا عَمْرُ
ولان له قلب عمر . ففعا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(٤).

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزُّبرقان وجدناه لا يُقنَّع في هجائه : إنما يحسُّه على نحو ما رأينا في بيته السالف برفق ، حامداً إلى التَّهْكُم والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفَّف من حدة لسانه ، ونراه يصرِّح بذلك إذ يقول^(٥) :

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .
(٢) يرید المضموم المكسور .
(٣) ذورخ : واد بالهجاز . الأفراخ :
سنفل الطير شه بها أولاده . زغب الحواصل :
(٤) انظر في القصة الأغاني ٢/ ١٧٩ وما بعدها .
(٥) الميولان ص ٩٨ .

ولم أنمدا أن مدحتُ القمرَ قلتم هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ
ألم أكن مسلماً فيكون بيني وبينكم المودةُ والإخاءُ
ولم أنتمم لكم حساباً ولكن حدوتُ بحيث يُستَمعُ الحداءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذم بها ، ويقول إنه حين مدح بني أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمّاً لهم وهجاءً ، لمدحه خصوصهم . وزاد يولّى وجهه نحو علقمة بن عُلّانة ، لينشده إحدى مدامحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيجزل له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عتبة واليه على الكوفة ، ويدود عنه حين يظعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلقه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لهاوية على المدينة (٤٩ - ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجتمعون له من أموالهم خشية معرفة لسانه . والمظنون أنه توفي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يسمّى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « خبر الشعر الحولى المحمكك » فهو من كان يتأتون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يكثر من المقطعات ، وزاد في مطولاته يشب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشي والآبف . ومدائحه لا تقل عن مدائع زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والنجد
أولئك قومٌ إن يتنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وكانوا يعيرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال مرصّاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنف والأذنبُ غيرهمُ ومن يُسوى بأنف الناقة الذنبا

حتى أصبح القلب فخرًا لهم . وَثَرَوَى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي
ضيافته . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لي وجها شوه الله خَلَقَهُ . ففُتِّحَ من وجهه وَفُتِّحَ حَامِلُهُ
أما بخله الذي أشار إليه الأصمعي والرواف ، فقد غشله بكثرة مديحه للكرم ،
وبقصيدته « وطاوي ثلاث »^(١) وفيها بصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف ، وعياله
من حوله يتصورون جوعاً ، فهم أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عَنَّتْ له أتان
وحشية ، فصاها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم
العربية .

والحق أن الرواف بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا في
اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يشتره في
الجهاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه في مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لممدوحه
على ما يقدم له من بيرة على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِرْهُ اللهُ خَيْرًا من أَخِي ثَقِفْ وَلِيَهْدِهِ يَهْدِي الخيرات هاديتها
وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله :

الحمد لله إني في جوار فتى حامي الحقيقة نفاعٍ وضرارٍ
وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تغل العرب بيتاً قط أصدق من بيت
الخطيئة^(٢) :

من يَفْعَلِ الخير لا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لا يذهب العرفُ بين الله والناسِ
ولعل في ذلك ما يدل على أنه حَسَنٌ إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على
ذلك قوله في وصف التقي والعمل الصالح^(٣) :

ولستُ أرى السعادةَ جمع مال ولكن التقي هو السعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزاد دُخْرًا وعند الله للأنبياء مزيدُ

(٣) أغال ١٧٥/٢ والديوان ص ٣٩٣ .

(١) الديوان ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) أغال ١٧٣/٢ .

فالسعادة في رآيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هي في الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذي لا ينال إلا بالتقوى ، فهي السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الخطيئة ، بل أخذ يرسل فيها مثل هذه الإشاعات النبوة .

٦

الناطقة^(١) الجعدى

هو عبدالله^(٢) بن قيس من بنى جعددة العامريين ، ولد بالقأج جنوبى نجد ، ولما شب اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تنجّر على لسانه . فسمّى الناطقة لنبوغه فيه بأخرة . ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام .

والناطقة الجعدى في جاهليته مثل لبيد ينهى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخاه في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التي يؤبّنه فيها بقوله^(٣) :

فَتَى كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوُّ الْأَعَادِيَا

ويقال إنه كان يغد بشعره على اللخميين في الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تغد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنة إسلامها وفد عليه مع قومه ستة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

تاليف أشعاره ونشرها في روما سنة ١٩٥٣ .
(٢) اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله
ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حيان بن قيس .
(٣) الشعر والشعراء ٢٥٢/١ والديوان
ص ١٢٣ .

(١) انظر في ترجمة الناطقة : الشعر والشعراء
٢٤٢/١ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغاني
(طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الناطقة
٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨
وأمل المرتضى ١/٢٦٣ والممحررين ص ٦٨ والخزانة
١٢/١ والمؤشع ص ٦٤ . وقد جمعت ما رآها

بَلَّغْنَا السَّاءَ مَجْدَنَا وَجَدَدُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . وإعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَغْتَضَّرُ الله فاك^(١) .

وَيُظَنُّ أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ : بَلْ أَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْفَتْوحُ خَرَجَ مَعَ الْعَرَبِ مِيصِمًا نَحْوَ الشَّرْقِ وَالْقُرُومِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَشَرَ الدَّعْوَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ . وَقَدْ أَخَذَ يَضِيفُ إِلَى رَائِعَتِهِ الَّتِي أَنْشَدَهَا الرَّسُولُ آيَاتًا كَثِيرَةً ، تَصُورُ حَيَاتِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَابْتِغَاءَهُ رِضْوَانَ اللَّهِ بِمُجَاهَدِهِ وَتَقْوَاهُ جَمِيعًا يَقُولُ^(٢) :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيتلو كتابًا كالمجرة نَبِيرًا^(٣)
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أُجِسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلًا إِذَا مَالَحَ نُسْتُ غَوْرًا^(٤)
أَقِمِ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِي بِفِعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَوْجَرًا^(٥)

وعاد إلى المدينة وتشقق إلى منازل قومه في البادية ، فاستأذن عثمان في الإلزام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين علي ومعاوية وجدناه في صفوف علي بصيفين ، يَرَجُزُ بِمَحْصُومِهِ وَيَنْظُمُ الْأَشْعَارَ فِي مَدِيحِهِ وَهَجَاةٍ مُعَاوِيَةَ مِثْلَ قَوْلِهِ^(٦) :

قَدْ عَلِمَ الْمِصْرَانِ وَالْعِرَاقُ أَنْ عَلِيًّا فَحَلُّهَا الْعُنَاقُ^(٧)
إِنَّ الْأَلَى جَارَوْكَ لَا أَفَاقُوا لَهُمْ سِيَاقُ وَلَكُمْ سِيَاقُ
قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَمُ الرُّفَاقُ سَقَمْتُ إِلَى نَهْجِ الْهُدَى وَسَاقُوا
إِلَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ فِي مِلَّةٍ عَادَتْهَا النُّفَاقُ^(٨)

(٥) أوجر : خائف .

(٦) أغاني ٩/٥ والديوان ص ١٣٣ .

(٧) المصراعان : الكوفة والبصرة . العناق : الكرم .

(٨) التي ليس لها عراق : التي لا تعرف لها عراق .

(١) أغاني ٨/٥

(٢) أغاني ٩/٥ والديوان ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) الهجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر

ضوئها فيرى كأنه بقعة بيضاء .

(٤) غور النجم : غاب .

ولعل هذا هو الذى جعله يصطدم بكعب بن جَعْتَل شاعر معاوية .
ويُروى أنه لما قُتل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على
المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .

وفراه يقف دائماً مع قومه ، حتى أَيْضُظَرَ أبو موسى الأشعري
والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصيته
الجاهلية . ولا نشك في أن هذه البقية فيه هى التى دفعته إلى الاصطدام بأوس
ابن مَثْرَاء ، ويقول ابن سلام إنه غلب عليه ولم يكن إليه في الشعر ولا قريباً .
ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوَّار بن أوفى القشيري ،
وتصدى له زوجه ليلي الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا
إليه في الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام في نفسه أثر في تلك الهزائم ،
إذ كان يتخرج من المضى في الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل
هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه في أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم
عليه في مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها ^(١) .

حَكَيْتَ لَنَا الصُّدِّيقَ لَمَّا وَلَيْتَنَا وَعُمَانَ وَالْفَارُوقَ فَارْتاحَ مَعْدُمُ
وَسَوَّيْتُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّيْلِ مُظْلِمُ

وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلاً . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن
توفى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن
الرواة بالغوا في ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبياني وأنه عمَّرَ مائة وثمانين
سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله ^(٢) :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذَرِ بْنِ مُحَرَّقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفَرَا
وَالْمُنْذَرُ بْنُ مُحَرَّقٍ هُوَ الْمُنْذَرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي قُتِلَ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ مَعَ
الْفَاسَانَةِ سَنَةَ ٥٥٦ لِلْمِيلَادِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ مُصْنُوعٌ عَلَيْهِ .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آتاء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبر في غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله ^(١) :

مَنْعَ الْغَدْرِ فَلَمْ أَهْمَمْ بِهِ وَأَخُو الْغَدْرِ إِذَا هُمْ فَعَلُوا
خَشِيَةَ اللَّهِ وَأَنْتَى رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ يَكْنَسُ بِقَبْلِ ^(٢)

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول ^(٣) :

عُمِرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى وَفُورِعِ تَنْتَلَى مِنَ الْقُرْآنِ
وَلَبِسْتُ يِلَّ الْإِسْلَامِ ثَوْباً وَاسِعاً مِنْ تَسْبِ لا حَرَمٍ وَلَا مَنَانٍ ^(٤)
وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام ألياناً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهي تطرد على هذا الخط ^(٥) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمًا
الْمَوْلُجَ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ لِي نَهَارًا يُفْرَجُ الظُّلُمًا
الْخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءَ عَلَى أُلُ الْأَرْضِ وَلَمْ يَبَيِّنْ نَحْنُهَا دَعْمًا ^(٦)
الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمَصُورِ فِي أُلُ الْأَرْحَامِ مَا هُوَ حَتَّى يَصِيرَ دَمًا
مِنْ نُطْفَةٍ قَدْهَا مَقْدَرُهَا يَخْلُقُ مِنْهَا الْإِنْسَانَ وَالنَّسَاءَ
ثُمَّ عِظَامًا أَقَامَهَا عَصَبٌ ثَمَّ لَحْمًا كَسَاهُ فَالْتَمًا
ثُمَّ كَسَا الرِّأْسَ وَالْعَوَاتِقَ أَذُنًا شَارًّا وَجِلْدًا تَخَالَهُ أَدَمًا ^(٧)

عطاء . حرم : مناع .

(٥) الشعر والشعراء ٢٥٣/١ وانظر الديوان

ص ١٠٢ .

(٦) دم : دعائم ومعد .

(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الديوان ٥٠٤/٣ .

(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .

(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمال المرتضى ٢٦٦/١ .

(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب :

وَالصُّوْتِ وَاللَّوْنِ وَالْمَعَايِشِ وَأَلْ
 تُمِتَ لَا بُدَّ أَنْ يَجْمَعَكُمْ
 فَأَنْتَحِرُوا الْآنَ مَا بَدَأَ لَكُمْ
 فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى
 أَمْسُوا عِبِيدًا يَرْغَبُونَ شَاءَ كُمْ
 أَوْ سَبَبًا الْحَاضِرِينَ مَارِبًا إِذْ
 فَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَفُوا
 وَبَدَّلُوا السُّدْرَ وَالْأَرَاكَ بِهِ
 أَخْلَاقَ شَتَّى وَفَرَّقَ الْكَلِمَا
 وَاللَّهُ ، جَهْرًا ، شَهَادَةً قَسَمًا
 وَاعْتَصَمُوا إِنْ وَجَدْتُمْ عِصْمًا
 عِصْمَةً مِنْهُ إِلَّا لِمَنْ رَحِمَا
 فَارَسَ بَادَتْ ، وَخَلَّهَا رَغِمَا^(١)
 كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلُمًا
 يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا
 هُونَ وَذَاقُوا الْبِاسَاءَ وَالْعَدَمَا^(٢)
 خَمَطَ وَأَضْحَى الْبُيَّانُ مُنْهَدِمَا^(٣)

والنابغة في مطلع هذه العظة يُشَنِّي على الله بما هو أهله ، مقررًا إيمانه
 بوجدانيته وأنه لا شريك له ، ونحس أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو
 يستهل قوله بكلمة الحمد لله ، ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إِنْ أَفْلا
 يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث في البيت الثاني عن
 نظام الكون النبوي ، عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ،
 مستعيراً من القرآن نفس لفظه في قوله جلَّ وعز : (قُلِ اللَّهُمَّ الْمَالِكُ الْمَلِكُ . . .
 بِيَدِكَ الْخَبْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) .
 وفي البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
 تَرَوْنَهَا) . ويخرج في البيت الرابع من خَلْقِهِ للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم
 مثل قوله جلَّ وعز : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي
 قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا
 فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) . وهو
 يمضي فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محملاً مخوماً . وما يلبث أن يتحدث عن

(٣) السدور والأراك : شجر لا ينتفع بشره . الخمط :

شجر الأراك أو هو نبت مر .

(١) رغم الحد : كناية عن اللذل .

(٢) اعترفوا الحق : هربوا .

القرون والأمم البائدة مكملًا بذلك العظة والعبرة ، بالضغط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد انضح انضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبادية كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوه وتألفت أصدواؤه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواضع خالصة ينفرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفاني ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

النُّر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من بلغاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما بصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حتى عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جَناباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدّمت يده ولو كان مثقال ذرّة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حلّت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهنائه .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، ونحتفظ كتب الحديث بما اتخذته فيها من سنن وتقاليد^(١) ثبتت إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد ، وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو تنشر من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا . ويُقبل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويُؤثر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له^(٢) . وعادة يتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى يستلهمها في موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقاك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى في غمرة ، ولا تأخذنى في غيرة ، ولا تجعلنى مع الغافلين^(٣) . ولا تفتتح خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتح بالتكبير ، فيكبر الخطيب في أولهما سبع تكبيرات وفي ثانيهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سجع الكهّان الذى كان يرتبط بدنيهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تفيد عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطار بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخرأ بقومه ،

(١) انظر في صلاة الجمع والعيدين كتب
(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .
(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .
الحدث مثل صحيح البخارى ومسلم .

وقد نَدَّب له الرسول ثابت بن قيس بن الشَّاس، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله^(١).

ونغضى في عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلبت فيها براعة هؤلاء . كوقوف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السنة . فقد ذرأ في الموقعين جميعاً الشَّعَث الذي كاد يُودى بالجماعة ، وكذلك ، وقفه حين ارتدَّ كثير من العرب وامتنوا عن أداء الزكاة . وكم من خطيب وقف حينذاك يحضُّ قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قد منّا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحملونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحضُّ على الجهاد ونشر الدين الحنيف في أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاشين الجند على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده بيانته وبلاغته مالا تملكه الدنيا بخذاً غيرها . ولا تغلو إذا قلنا إن بلداناً من بلدان القرم في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتَحْ إلا بعد أن فتحت خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شُعْبَةَ في القادسية^(٢) وخالد بن الوليد في اليرموك^(٣)، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلَّة، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول^(٤) :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولَّتْ حذاء^(٥) مدبرة ، وقد آذنت أهلها بصُرم ، وإنما بقي منها صِباة كصباة الإناء يصطبها^(٦) صاحبها : ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبي بكر

(١) البيان والتبيين ٥٧/٢ .

(١) تاريخ الطبري ٣٧٨/٢ .

(٥) حذاء : سريعة الإدهار .

(٢) الطبري ٣٧/٣ .

(٦) يصطبها : يشربها . والصبابة : بقية الماء .

(٣) الطبري ٥٩٢/٢ .

في استشارة أصحابه في كل مهم ، وكل ما يجدر من تشريع ، وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو الخطابة في العصر . إذ كان الحكم ديمقراطياً ، وكان من حق كل شخص أن يخاطب مصوراً وجهة نظره . وفُتِّح عمر الخطابة الوفود في مجالسه ، تستمع لأقوالها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه^(١) .

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة . فقد أخذت تحل مع المسلمين في كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها ، إذ تكاثرت من يردونها ومن يحسنون حديثها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعقلون الناس به من مواعظ حسنة . على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة^(٢) :

« أصدق الحديث كتابُ الله . وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملّة إبراهيم . وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألّى . . . خير الفنى غنى النفس . الحمر جُذَاع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . . . سياب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمة معصية . . . مكتوب في ديوان الحسين من عتاق عفى عنه . السعيد من وعظ بغيره . . . أحسن الهدى هدى الأنبياء » .

وفي هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحفص على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه في الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشتر النخعي في الكوفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولى على بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . وبفصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيُضطَرُّ على أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٥٦ .

(١) انظر البيان والتبيين ٢/ ١٤٤ .

المشهوره ، وفيها ينتصر على ^٢ ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقيل هذه الواقعة في أثناءها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفي تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، ومن يذكرهم بين من يُبسطوا الناس عنه أبو موسى الأشعري^(١) ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعي وزيد بن صوحان وأخوه سبيحان .

وانتدب على^٢ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صفين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف على وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوهاً . وكان يجيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى بن حاتم الطائي وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعي^٣ . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعسا تجاول الوفود لم^٤ الشعث ، ويُفضي الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرصاً أصحابه . ومن رهوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص . وتستمر المعركة وترجع كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً ، فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكمين يستهدون بآيه . ويُغمِد القُرءاء في جيش على^٥ سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم على : فيهدونه بأن يُصبح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُختار أبو موسى الأشعري عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفي أثناء رجوع على بجيشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ، ويتأوّمون عليه لأنه قبل انتحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبّي التحكيم ومنفّر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه ويتزلون معسكراً خاصاً بهم في حَرّ وراء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذي جمعهم فهو الخوارج .

ويحاول علي^١ وعبد الله بن العباس أن يردَّاهم إلى سواء السبيل، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات في مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث، وبذلك يَعْرِف هذا العصر المناظرة الشفوية، بل إنها لتنفجر تنفجراً. ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لم مما احتفظ به الطبري، وهو يجرى على هذه الصورة^(١):

« راجعهم ابن عباس، فقال: ما نقسم من الحكمين، وقد قال الله عزَّ وجل: (إن يريدوا إصلاًحاً يوفق الله بينهما)^(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟. فقالت الخوارج: قلنا أمّا ما جتعلل حُكْمُهُ إلى الناس وأمره بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به، وما حُكْمُ فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حُكْم في الزاني بمائة جلدة وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)^(٣). فقالوا له: أو تجعل الحكم في الصيد والحدّ يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟! . وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيتنا وبينك، أعدّلْ عندك ابنُ العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلنسا بعدول ونحن أهل حُرِّيه، وقد حَكَمْتُمْ في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عزَّ وجلَّ حُكْمَهُ في معاوية وحزبه أن يُقَتَّلُوا أو يرجعوا^(٤) وقبل ذلك ما دعوناكم إلى كتاب الله عزَّ وجل فأبوه. ثم كتبت بينكم وبينه كتاباً، وجعلت بينكم وبينه المودعة والاستفاضة^(٥). وقد قطع عزَّ وجلَّ الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الإلّا من أقرّ بالجزية. ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضْطُرُّوا على إلى حربهم، وفنك بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان. وكانوا يظهر ون استبسالا شديداً، يدفعهم إلى ذلك

(١) الطبري ٤٧/٤.

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين وتامها: (وإن عظم شقاق بينهما فامشوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما).

(٣) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم، وتامها: يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تزول إلى أمر الله فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل).

(٥) الاستفاضة: المودعة.

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبدالله بن وهب الراسبي . وحترقوص بن زهير السعدي والمُسْتورد بن علفة ، ومن يرجع إلى خطيبهم يجدها تنقد حماسة وحبية من مثل قول ابن وهب في بعض خطبه (١) :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنْبِئُون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها والركون إليها والإيثار لإياها عناء وتَبَار (٢) - آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإن مَنَّ (٣) وَضُرَّ ، فإنه من يَمُنَّ وَيُضَرَّ في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل والخلود في جناته » .

وينتهي التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أبدى الخوارج إليه في الظلام ، فقطعت طعنة تَجَلَّاء ، وَيُسَلِّمُ الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، وييايحه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قلنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معاني القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهي معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد . معاني هذا الدين الحنيف الذي بعث لغتنا ونشّرها بمثل جديد ، والذي مرتها وذلّلها لكي تتردى الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضيء به في كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم ويلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سُنَّة في كل خطبة : حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسَمِّونَ كل خطبة تخلو منه بَشْرَاء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهَاء (٤) .

(١) من : قطع ومجر .

(٢) البيان والتبيين ١/٢ .

(٣) الطبري ٤/٥٤ .

(٤) تبار : هلاك .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يلقيونه على الناس . حتى لقد رُوي ذلك عن عمر بن الخطاب ^(١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذي يريد أن يصبه في نفوس سامعيه صبراً . على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار ^(٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التاريخ للأدب العربي غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تتقدم على الخلفاء . يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة » ^(٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ البجاة . ويقول الجاحظ إنه « عدّاً على القرآن فلسبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » ^(٤) . وما يروى له - إن صحَّ - قوله ^(٥) :

« سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع - ولا زال أمره في كل ما سرَّ نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحيّاًكم ، ومن وحشة خلتكم ، ويوم دينه أنجاكم . فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار . يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبار ، رب الغيوم والأقطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع في خطبته ، وكان ينفر منه حين يلهج به أحد محدثيه ^(٦) ، كراهية لتثبته بالكهانة في سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاباً العبدي حين قدم عليه من غزو مكران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابته : « أرض سهّلها جبل ، وماؤها وشل » ^(٧)

(١) الطبري ٤٥٦/٢ وقارن بكلمة لمعان

ابن صفان في البيان والبيان ٣٤٥/١ وصيون

الأخبار ٢٢٥/٢ .

(٢) صحيح مسلم (طبع الآشنة) ١١١/٥

وسطاً ماك (طبع سحر بالقاهرة) ١٩٢/٢ .

(٣) وشل : قليل .

(٤) زهر الآداب ٣٢/١

(٥) البيان والبيان ٢٩٠/١ .

ونعمرها ذَقْل^(١)، وعدوها بطل، وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل .
 إن كثُر الجند بها جاعوا، وإن قَتَلُوا بها ضاعوا . وقد أنكر عمر عليه هذا السجع
 فقال له : أَسَجَّاعُ أنتَ أمْ غَير^(٢) . وكان الخلفاء بعد عمر يُنْكِرُونَ السَّجْعَ
 على محمد بنهم . وأمامنا خطب القوم ، وهى تخلوخلو تاماً من السجع إلا ما جاء
 عفواً في الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فلأنهم لم
 يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كانَ همَّ كل خطيب أن يحسن قوله
 وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحظُ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ،
 فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل
 أقوال متناثرة لا رابط بينها ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع
 واضح يحول فيه الخطيب ويصل ، إذ يحدث الناس واعظاً ، أو يعرض
 عليهم حدثاً محددًا من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة
 أصبحت ذات موضوع ، تلمُّ بأطرافه وتفصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة
 ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من
 معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولِّدون ويفرِّعون . ونحن نقف
 قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي
 وسَّعت جَسَبَاتِ النثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب
 البلاغة الوافرة .

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه ينحطب في العرب
 ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوفى من اللسن

والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(١) ذقل : ردى .

(٢) انظر في هذا الخبر الطبري ٢ / ٢٥٧

والفصاحة ما مَلَكَ به أزمَّةُ القلوب، وكأَنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصنِّى له الأفتدة. وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة، ليَجْزِي بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، حتى إذا انتقل إلى المدينة فُرضت الخطابة— كما قدمنا — في صلاة الجمع والأعياد ثم في مواسم الحج. وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تُدِيم. وفي أخباره أنه كان يطبل الخطبة أحياناً إلى ساعات^(١) غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خُطْبِهِ وعصر التدوين فضاغت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة.

وأكثرُ هذه البقايا مما خُطِب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه، إذ نراه تارة واعظاً، وتارة مشرعاً، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع. ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة، وهي تمضي على هذه الشاكلة^(٢):

« الحمد لله أحمدد وأستعينه وأستغفره وأشهد به وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودُور من الساعة وقرب من الأجل. مَنْ يطلع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غَوَى وفرط وضل ضلالاً بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكر. وإن تقوى الله، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عَوْنٌ صِدْق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من

أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره
 وذخيراً فيها بعد الموت حين يغفر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك
 يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد .
 والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خائف لذلك ، فإنه يقول عز وجل :
 (ما يُبَدِّلُ القولَ لدى وما أنا بظلام للعبيد) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ،
 في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفر الله عنه سيئاته ويضعف له أجراً) . ومن
 يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى
 سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا
 بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله
 ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا
 أعداءه ، (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم) ^(١) ومما حكم المسلمين
 (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكثروا
 ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفبه الله
 ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه .
 ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

والخطبة موعظة رائعة ، يستلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه
 أممٌ نعمته على الناس بإرساله إليهم كي يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة
 ويدخلوا في رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة
 والوسط المشقى على الهلاك ويجمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروا في السر
 والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكن في الصدور ، وليقدموا من خشية
 وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا
 في جناته . إنه يوم ما بعده مستعيب ، فلما الجنة وشقيعها العمل الصالح ،
 ولما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعا إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوة
 الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، لينشروها
 في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهي تقف

منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضيء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى يتابع الضوء التي تفجرت منها ، إذ كانت تسيل في نفسه ، بل كانت تشع بعماني نورها ، كما يشع نور الشمس في السماء . وكان أحياناً ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير . وهو خير تطبّع عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجري على هذا النمط ^(١) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهتد الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبيعن لكم ، فإنني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عاى هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم . كتحريمكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع ^(٢) . وإن أول رباً أبدأه ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة ^(٣) والسقاية ^(٤) . والعمد قود ^(٥) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يشس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

(١) البيان والبيان ٢١/٢ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٢٥٠/٤ .
 (٢) السدانة : حكمة الكعبة .
 (٣) السقاية : سقاية الحاج .
 (٤) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القتائل بمن قتل .
 (٥) موضوع : ساقط ومحرم .

من أعمالكم . أيها الناس ! (إنما النسيء ^(١) زيادةٌ في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يَحْلُوهُنَّ عاماً ويَحْرُمُونَهُ عاماً ليوافقوا عدة ما حَرَّمَ الله فيحِلُّوا ما حَرَّمَ الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلَقَ الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فترُدُّ . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جُمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق : لكم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ غيركم ، ولا يُدْخِلْنَ أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فلن الله قد أذن لكم أن تَعْضَلوهن ^(٢) وتَجْرُوهُنَّ في المضاجع وتَضْرِبوهن ضرباً غير مبرح ^(٣) . فإن اتَّهَمْنَ وأدَّعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإِنما النساء عندكم عَوَانٌ ^(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلَّتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد : أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحلَّ لامرأةٍ مسلمٍ مالٌ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كفراً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلُّوا بعده : كتابَ الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن رَبَّكُمْ واحد وإن أباكم واحد : كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله اتقاكم . إن الله عليم خبير . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراس وللأماهر الحجر ^(٥) ، من ادَّعى إلى غير أبيه أو تولَّى غير مِوَالِيهِ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

(٤) عَوَان : جمع عانة وهي الأسيرة ، أي من عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٥) الفرّاش : أي لصاحبه ، ولأماهر الحجر : أي أن هذا مقضى به رغم أنها أر لعله يشير إلى وجها .

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلُّونه عاماً آخر إن أرادوا الإفاضة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويحلُّونه .

(٢) تَعْضَلُون : تغيثوا عليهن .

(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ^(١) ولا عَدْلٌ^(٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
 وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكذب بل يُلِمُّ بالحمد لله والشهادة
 والوصية بالتقوى حتى انتقل بين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها
 الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد
 كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونبياً للأموال .
 وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يَبْغِي بعضها
 على بعض . ولكي يقضى على كل سبب للحرب بينهم رَدَّ دم القتل إلى الدولة
 فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ
 بالثأر القديم ، وحرمَّ النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيهِ بإعلان أن دماء المسلمين
 وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردّها على صاحبها ، وأن على
 كل مسلم أن يترعى أخاه في ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرّم
 الرِّبَا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب
 المدنيين له رِباهُ . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية : فليس لمسلم
 أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن
 عبد المطلب . ولم يبق من ما ثأر الجاهلية شيئاً سوى خلعمة الكعبة وسقاية الحجيج ،
 وأوجب في قتل العمد القمّود ، ولكن الدولة هي التي تقوم به . وبذلك قضى
 الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير .
 كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوثام .

ويحذر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ،
 واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حرّم : ذو القعدة
 وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاقاتها بزوجها ،
 فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما
 يحفظ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلى التعاطف بينهما والراحم والتعامل برفق
 وإحسان .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهدٌ من نفعه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابد وتفاخر . فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عذنانى ولا عربى قحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى . فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل . وبلغت الرسول سامعه إلى ما قرره القرآن فى الميراث وأنصبت . وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرسى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر : فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً . فحرّم ذلك تحريماً باتاً . وبذلك قضى على نيالة النسب من جهة الختلة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبين فى خطابه حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقي الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابه ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللوزين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برّاه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعفوه وقوى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء . وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابه أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التقيب ^(١) ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع التقصير ، وهجر الغريب الوحش » ،

(١) التقيب : التقدير وهو التكلم بأتى

ورغب عن المهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد . ويسترب بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وعشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زُلَّتْ له قَدَم ، ولا بارت له حجة ، ولم يتقَسَّم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبدؤ الخطب الطوال بالكلم القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يخرج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفتلج^(١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لنظماً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فَحْوَى^(٢) ، من كلامه صلى الله عليه وسلم^(٣) . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذي رَسَمَهَا ، وفجَّرَ بناييعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحِسٌّ دقيق نتييهما فيما روى عنه من قوله : « لا يقولن أحدكم خَبَثْتُ نفسي ولكن ليقُل : لَقِيتُ نفسي »^(٤) كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البريء من كل ما يُستَكْرَهُ ، اللفظ الذي يجبُّ إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقائه .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى في النروة من الفصاحة والبلاغة : إذ سَرَى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(٣) البيان والتبيين ١٧/٢ .

(٤) الحيوان ١/٣٣٥ ولقت النفس : غشت .

(١) الفلج : القوز .

(٢) فحوى : دلالة .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحب رفيق إلى الرسول
والمصطفى أصحابه به ، وقد نوه القرآن بذكره . فقال جل شأنه : (فأمّا من أعطى
واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير
من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم
ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من
معاني الإسلام وقيمه الروحية . وقد أثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة
على شدة شكيمة في الدين ويقظته وصدق حسّه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب
رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه - لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب
الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمّت - أقبل
فكشف عن وجهه ، فقيل له ، وقال : بأبي أنت وأمي طيبت حياً وطبت ميتاً . وخرج
من عنده فبدر الصحابة بخطبته المشهورة ^(١) التي قال فيها : « من كان يعبد
محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت » ، ثم أخذ
في بيان غلط من كذبوا موته محنجا عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميتٌ وإنهم
ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو
قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كل نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كل
شيء هالك إلا وجهه) . فثاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدكم .
ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عباد في سقيفة ^(٢) بني
ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراع ذلك وخشى على الأمة من
الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وبيعه عمر
وأبو عبيدة في نفر من المهاجرين . وهناك خطب في الأنصار ، فأثنعهم أن
يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن
حمّد الله وأثنى عليه وقال ^(٣) :

« أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن رأيتموني على
حقّ فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدّوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ،
فلذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ

(١) الطبري ٢/٤٤٤ وزمر الآداب ٣٠ . (٢) دعوى الأنصار ٢/٢٣٤ والطبري ٢/٥٠٠ .

(٣) الطبري ٢/٤٤٥ وما بعدها .

الحق له : وأضعفكم عند القوى حتى آخذ الحق منه : أقول قول هذا وأستغفر الله لي ولكم .

وأخذت تتجلى موافقه العظيمة وآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة : ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قبيل لنا بحرب العرب . فاقبل الصلاة منهم وأترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منوني عيالا^(١) مما أعطوه النبي لجاهدتهم عليه ، . وجاهدتهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم . وإذا أخذنا نقرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظما يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول : على شاكلة قوله في خطبة له^(٢) :

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم الله من أعمالكم نطاعة أتيتوها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدتوها ، وسكف قدمتموه . من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم . فتلك مساكنهم خاوية : وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً^(٣) . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون . وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .

واستن بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو في وصاياه يتصبر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمشلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا

(٣) الركز : الصوت الخفى .

(١) المقال هنا : كناية عن الجبر .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

لأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول ^(١) :

« أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخزنوا ولا تتخلّوا ^(٢) ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة . ولا تنقشروا ^(٣) ، لا تنخلّوا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثّلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن يلهج بسجع : إما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب : فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجاب : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر بما يوحى ظاهر اللفظ إذ قد يُظنّ أن النبي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، عافاك الله » ^(٤) .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختباره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صفيّ رسول الله . وقد أعزّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله : وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرّ به منه ويتخذ موضع مشورته ، حتى توفّي وخلفه أبو بكر : فكان له نعم الظّهر والمعين . ولما أسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً . وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدة عزم ، مجتهداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتأمّ ففتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكألى والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أى شيدّ فيه شاء ^(٥) : فما هو إلا

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٦١ .

(١) الطبرى ٢ / ٤٦٣ .

(٥) البيان والتبيين ١ / ٦٢٢ .

(٢) نملوا : تخزنوا في القمى .

(٣) تقمروا : تتناصّلوا وتنتقموا .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يتهدر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفي بقوله في إحدى مواضعه^(١) :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، وزرركم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نعمٌ عمٌ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم . وليس من تلك النعم نعمٌ وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أنعمهم شكرها ، وفلاحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَخْلَقُونَ في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمود مع الفتح العظيم في كل بلد . . . فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمداورة إلى مرضاته . »

وسار سيرة أبي بكر في تشجيع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد، حتى يتشر الدين الخفيف في أقطار الأرض ، وهو أن ينتشر إلا بالقوة التي تُعزِّز الحق وتُعلّي سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن ترث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يُبشِّر هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق ، ويعصبوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب^(٢) :

« أين الطُّرَّاء^(٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ ما يروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) والله مظهر دينه ، ومُعزُّ ناصره ، ومُؤلِّ أهل موارث الأمم ، أين عباد الله الصالحون ؟ . ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد ، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

(٣) الطُّرَّاء : الذين خرجوا عن ديارهم .

(١) الطبري ٢/ ٢٨٣ .

(٢) الطبري ٢/ ٦٣١ .

في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث (١) الذي يعرف الفرصة والكف .

وتوفي عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه أُرْتِج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يبعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتِجُ عليه دائماً ، فقد كان يطلب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين يابيه أهل الشورى والناس (٢) :

« إنكم في دار قُلُوعَةٍ (٣) وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتِيتُمْ ، صُبْحْتُمْ أو مُسَيِّمٌ . ألا وإن الدنيا طُوبِتْ على الغرور ، فلا تفرغكم الحياة الدنيا ، ولا يفرغكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جيدوا ولا تنفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعسروها وسعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مُقْتَدِراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) .

وامتحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُخَدِّثُوا فِتْنَتَ هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطِرَهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤثرون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم .

(١) المكث : الرزين المتبصر في الأمور . (٢) قلعة : انفلاق أى أنها لا تدوم .

(٣) الطبرى ٢/٣٠٥ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صِغْبِينَ . ثم كانت خُدُعة التحكيم . وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو في كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً مفوهاً لا يَشُقُّ غُبَارَهُ ، ومن مواظله قوله ^(١) :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وأذنت بoudاع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضممار ^(٢) اليوم والسباق غدأ . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمه قبل حضور أجله فقد نفعه عمله : ولم يضره أمه ، ومن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمه ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب في أصحابه حائثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة ^(٣) له بأخيرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغبر على أطراف العراق :

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه أبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع التصف ^(٤) . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قول ، واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شئت عليكم الغارات ... فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ... حتى صرتم هدفاً يرمى ويتنهب ، يغار عليكم ولا تغبرون ، وتغزون ولا تغزون .. قد ورثتم ^(٥) صدرى غيظاً ، وجبر عثموني الموت أنفاساً ^(٦) ، وأفسدتم على رأبي بالعصيان والخذلان . »

(٥) . رريم : ملائم ، وأصله من وري القبح

جوفه إذا أكله .

(٦) . لأنفاس : جمع نفس بالتحريك ،

وهو الجرعة من الماء ونحوه .

(١) . البيان والتبيين ٥٢/٢ .

(٢) . المضمار : الزمن الذي تفسر فيه الخيل

السباق وكذلك الموضع .

(٣) . البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤) . النصف : الإنصاف .

وقد خُلف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر لما يُنسب إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرة وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون ^(١) ، واختلفوا في وضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفي أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفي الثاني سنة ٤٠٦ . ومن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان ^(٢) الاعتدال وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان ^(٣) . وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى ^(٤) ، وأقرّ هو نفسه بذلك . إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسّمه باسمه : نهج البلاغة ^(٥) ، وذكر ذلك أيضاً في كتابه « مجازات الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على عليّ قديم . فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن له أربعمائة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس ^(٦) .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعول على شيء منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كآلهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة . وقد أخذت مياديتها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

(٤) كتاب الرجال (طبع بروما)

ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التزئيل للشريف

الرضي (طبع النجف) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد)

ص ٢٢ ، ٢١ .

(٧) مروج الذهب (طبع باريس) ٤٤١/١ .

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن

خلكان ، وراجع مرآة الجنان لهاضي ٥٥/٢

وشلوات الذهب لابن الهادي ٢٥٧/٣ .

(٢) ميزان الاعتدال (طبع لكهنو)

٢٠١/٢ .

(٣) لسان الميزان (طبع حيدرآباد)

٢٩٣/١ .

تشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونى .

٤

الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفَضَّلَهَا منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلَّ شأنه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلَقَ الإنسان من عَلَقٍ ، اقرأ وربك الأكرم الذى علَّمَ بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القَسَمَ بالقلم فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وبالكتاب فى قوله سبحانه : (والطُّور وكتاب مسطور فى رق منشور) . وتتردَّد فى القرآن كلمات الأوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) ، وقوله : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس) وقوله : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة^(١) ، وقد حثَّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، بقول عزَّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليحمل الذى عليه الحق) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقله كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفَّظوه .

(١) طبقات ابن سعد ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتاب يكتبون آياته - كما قدمنا - بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن غمر ، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياهم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحَضْرَى . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقب الكاتب^(١) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستخدَم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع مواعيقه وعهوده ، كذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد قدم لها ببحث عن مقدار الثقة بها ، وجمهورها مما لا يرقى إليه الشك . وهي تفتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطورها للنثر الكتابي عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطَوَّر فيهِ من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغي عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهي أمة

(١) الوزراء والكتاب الجهشيارى (طبعة الحلبي)

يعلموها سلطان الله الذي بُردَ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شره .

والكتاب بذلك كله برينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التي تربط بين أفرادها ، وهو يوضح هذه العلاقات في داخل العشائر كدفع الدية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التي يُشرف عليها الله ورسوله ، وهي علاقات وثقتها روابط الدين وثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الديني الجديد ، الذي يُلغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالكأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل في القتل وغير القتل .

ونعني في تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التي كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية^(١) والتي نصّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسائه ، ومن دعاه النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وتمرثا وولاية شرق الجزيرة من قبل كسرى ، وكذلك جنوبها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا ما هدته مع أهل نجران^(٢) ، وفيها يبين ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتنا جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيّر أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية .. ومن سأل منهم حقاً فينبهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبي بكر وعمر التي كتبها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم في

القبائل وفي اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه^(١) إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فُرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأغنام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحت تؤدى تعاليم الدين الخفيف ، وكل ما أقامه لصالح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعقده .

ويتولّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتد كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفّ وعمل صالحاً قُبِلَ منه وأُعِين عليه ، ومن أبى فلن يُعجز الله وقولن حتى يُقرّ بالحق . وأُتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمّنه نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يرأسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد^(٢) . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّ وعدل فلذلك علمي به ورأيت فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغييب : والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيّ متقلب ينقلبون » .

ووكّيت عمر ، فتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفتَح كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني

عن مراسلتهم في كل ما يهيم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول^(١) :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعظام أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيما وبريئا وسائر ملتها : أنه لا تُسَكَنُ كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُنْتَقَصُ منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى تَجْران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولائه في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثّر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري وإلى علي البصرة ، وهي تَمْضى في البيان والتبيين على هذا النحو^(٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حبثك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البيعة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائر بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التنادي في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشياء ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجمل للمدعى حقاً غائباً أو بيته أمدأ ينتهى إليه ، فإن أحضر بيته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنى للشك

وأجل للعنى وأبلغ في العذر . المسلمون عُدُولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدٍّ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيّاً^(١) في ولاء أو قرابة ؛ فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرا عنكم بالبينات والأيمان . ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتكرّر للخصوم في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجر ، ويُحسن بها الذخّر ، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تَرَيَّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سِتْرَهُ وأبدى فعله . والسلام عليك .

والرسالة وثيقة مهمة فيها ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُبترله الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعل للمدعى أمداً ينتهي إليه . ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً ، إلا أن تستثنى عدلته فلا تصح شهادته . ويوضح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذى بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية^(٢) للخليفة من بعده 'تعدّ دستوراً ربيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل النمة وما ينبغي أن يؤخذوا به من الرفق .

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل النمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة . وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويتدع ، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فلذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقيّاً بعيداً لم تكن مغالين . إذ وسّعت كل الحاجات السياسية التي جددت ،

(١) ظننا : منها .

(٢) البيان والتبيين ٤٦/٢ .

وكل ما أُعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت العهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلام . وخلفه علي^١ فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتِبَ حينئذ وثيقة^(١) التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيقة . وكان الرسول عليه السلام هو الذي نُذِلَّ لها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطبقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غابوا عليهم من جهة أخرى ، ولعمري من بينهم في ذلك القيدُحُ المعلّى إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

الكتاب الثاني
في عصر بني أمية

الفصل الأول

مراكز الشعر الأموي

١

المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تنحضر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت في هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة في عهد علي^(١) ثم إلى دمشق منذ معاوية فلما ظلت تحتفظ بالتراث الديني ، كما ظلت مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة ودماعة . وهيات لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع وما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالقوا في تجميلها وزخرفتها^(٢) ، وقام لهم على خلسة هذه القصور الرقيق الأجنبي الذي اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليرى عن الزبير بن العوام مثلاً أنه خلف وحده ألف عبد وأمة^(٣) . ومنذ أن دون عمر الدواوين كان يُفرض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغذون عليهم إغداقاً^(٤) ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير في الخلافة .

كل ذلك أعد لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هي الفترة التي انتفضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي (طبعة . (٣) الفخرى ص ١٢٧ والمقبول ٢٠٨/٢ باريس) ٢٠٤/٤ .
والأغاني ٢٢/٧ .

(٢) نفس المصدر ٢٠٤/٤

الانتقاض باهظاً في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة، وكأن ذلك كان سحابة عارضة في سماءها لهذا العصر، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها، ولم يكثر عليها هذا الصفو والنعيم شيء، فقد تجنبّت السياسة، وقرأ في أخبار أهلها فنجدهم ينعمون؛ لمعام المختلفة^(١) وراغلين رجالاً ونساء في الثياب الحريرية^(٢) وأنواع الطيب والعطور^(٣)، وبالغ النساء خاصة في اتخاذ صنوف الحلى والجواهر^(٤).

وطبيعى أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشباب العاطل الذى يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في لهو برىء، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو، إذ عُنِيَ بالغناء عناية بالغة، عناية استحدثت في أثنائها نظرية الغناء العربية التى نقرأ رُقمها في كتاب الأغاني تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار، وقد جعلوها ستة ضروب، هى الثقيل الأول والثقل الثانى وخفيف الثقيل والرّمّل وخفيف الرمل والهرّج، وميزوا مَجْرَى الصوت فيها بحسب الأصابع، فقالوا مثلاً: ثقيل أول بالوسطى وخفيف ثقيل بالسبابة وخفيف رمل باليشمر.

واكتمال هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبي يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بالحنان الروم والفرس، وليست المسألة مسألة اقراض فإن كبار المغنين الأولين في المدينة يؤثّر عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسي بجانب غنائهم العربي^(٥)، وكان هناك من يتشخص إلى الشام فيتعلم الحان الروم^(٦). على أنه ينبغي أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربى نُقلت نقلاً عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم، ولكنها استوت في صورة عربية مستقلة. وما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبي ولدوا في بلاد العرب جميعاً، ما عدا نشيطاً الفارسي. وكانت العادة أن يبدأوا

(١) ابن سعد (طبعة أوروبا) ١٢٦/٤.

٢٧٨.

(٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغانى ١٣/٦.

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/١،

والعارف ص ٢٧٤ والأغانى ٣١٠/١.

٣٢١/٨.

(٣) أغاني ٢٦٢/٩.

(٦) أغاني ٣٧٨/١.

(٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغانى ٢٧٣/٨.

بالغناء العربي ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غنائهم ، ويُدخلوا الخانة في غناء العرب . وما يدل على ما نزع من أكثر الآلات الموسيقية التي يتردد ذكرها في هذا العصر نديم مثل الصنّج والميزهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطنبور عُرفت في العصر الجاهلي .

على كل حال نهضت المدينة في هذا العصر بغن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها في ذلك مكة كما سئرى بعد قليل ، ولا تغلو إذا قلنا إن البلدين جميعاً لم تُبْقيا إلا قليلاً للعصور التالية كى تضيفه إلى نظريته التي استحدثتها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك في ذلك عامتهم وخاصتهم وعبيادهم وزهادهم ^(١) وقضاةهم ^(٢) ، حتى لتؤثّر عن عمر بن عبد العزيز أصوات تفتى بها في إمارته لم ^(٣) . وكان من أشرافهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقصّد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء ^(٤) ، وقد تخرج في هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة في هذا العصر طوئس وهو أول من تفتى بها الغناء المتقن ^(٥) وأول من صنع المزج والرمّل في الإسلام ^(٦) ، وصائب خائِر مولى ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربي ^(٧) وسعبد وهو إمامهم في الغناء غير منازع ، وابن عائشة ومالك الطائي وعطرّد ويونس الكاتب ويُنسب إليه أول كتاب في الغناء والأغاني ونسبها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة المسبّلة وجميلة وسلامة الفسّ وحباة وسلامة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسماع يفتد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تحفظ

(١) أغاني ٢/٢٣٨/٤٠٢٢٢/٨٠٢٢٤ . (٥) أغاني ٣/٢٩ .

(٢) أغاني ٨/٢٧٧ . (٦) أغاني ٤/٢١٩ .

(٣) أغاني ٩/٢٥٠ . (٧) أغاني ٨/٣٢١ .

(٨) المسود ٥/٣٨٥ .

بالمغنين والمغنيات ، وبَعْدُ أبو الفرج منهم في أغانيه عشرات ^(١) ، ويقصّ علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء في المدينة من رقي وازدهار ، إذ كانوا يتفنون الغناء المصحوب بالجووقات الكبيرة ^(٢) ، والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة ^(٣) . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا في المدينة فقط ، بل أيضاً في مكة ^(٤) ، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة ^(٥) .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة في هذا العصر لفن الغناء تنميّة وترقيه ، ورقيةً إنما هو رمز لما أصاب مجتمعها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرّفعة والنعيم . وكان يلتقى في هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشعب ، وكان ماهراً في إضحاك معاصريه لابنته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتطفّع كتب الأدب بدعاباته وفكاهاته ^(٦) .

ولم في هذا المجتمع كثيرات من النساء قدنّ المرح فيه والظرف وعلمن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سَكِينَة بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج في أغانيه ترجمة ^(٧) ، صور فيها جمالها وبهاءها وقارها وأخذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرِفَتْ بتصنيف الجمّة شعرها كانت النساء يقلدنّها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها في جُمُئها . وكانت ظريفة مزاحمة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تنفّس في مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن بلزّام مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المهذب . ولنا الآن نفهم

(٦) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الساسي)

٨٣/١٧ .

(٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٧/١٤

وما بعدها .

(١) أغاني ١٨٦/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢١٨/٨ ، ٢٢٧/٨ .

(٣) أغاني ٢٢٦/٨ .

(٤) أغاني ١٨٨/٨ ، ٢١١/٨ .

(٥) أغاني ٢٠٩/٨ .

حزن أبي قَتَيفة الأموى على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكى بلدته في شعر مؤثر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول^(١) :

القَصْرُ فالتَّخْلُ فالجَمَاءُ بينهما أَشْمَى إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَبْوَابِ جَبْرُونَ
ويقول^(٢) :

أَقْطَعُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِاِكْتِثَابٍ وَزَفِيرٍ فَمَا أَكَادُ أَنْأَمَ
إِلَى أَشْعَارِ كَثِيرَةٍ^(٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لفته على الحياة المنبثة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .
وفي هذا الجو الرقيق الذي زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار ومن هاجر إليهم من قريش وغيرهم ومن تعرب في بلادهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تاماً . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، ومن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسري بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقيين المشهورين عروة ابن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أُرطاة وابن هزيمة . ومن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١ ، (٢) أغاني ٢٩/١ .
والقصر الذي بناه قصر سعيد بن العاص بالمدينة ،
(٣) انظر ترجمته في الأغاني ١٢/١ وما بعدها .
الجماء : أرض بها . جبرون : دمشق .

وإذا أخذنا نقرأ في شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يَجْرَى في الحب والغزل ، وهو شيء طبيعي ، دفعت إليه حياة الشباب المترف في المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقاً بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة^(١) ، ولكن هذه المعركة تنتهي بهما ، ولا تبقى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بنى أمية طلباً لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأخوص^(٢) وموسى شهورات^(٣) ، وأخيه إسماعيل بن يسار^(٤) . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفي الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغي أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما في المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذي كان يتفق وترف البيئة والذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثمَّ طبع هذا الغزل بطوايع غنائية قوية ، إذ كان في حقيقته أغاني تَصَحَّبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوايع في جوانب كثيرة من حيث الكم ومن حيث الكثيف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر لزماءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا — تحت تأثير الغناء — إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنيين والمغنيات أن يحملوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد متضاً يضع لحناً ويطلب إلى شاعر أغنية يوقعها عليه^(٥) ، وكان بين الشعراء من يُحَسِّنُ وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذينة^(٦) ولا فصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المضين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد وسلامة القسّ ، وقد ترجم لهما صاحب الأغاني .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها في كل ما وصفناه من

(١) أغاني (س) ١٣/١٤٤ . (٢) أغاني ٤/٢٠٨ .
 (٣) أغاني (دار الكتب) ١/٢٩٧ و ٤/٢٤٨ . (٤) أغاني ٢/٢٣٨ وطبعة لاس ٢١/١٠٧ .
 (٥) أغاني ٣/٣٦٥ . (٦) أغاني (س) ٢١/١٠٩ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الجديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل . وكانت مثلها تفرق في ثراء واسع ورثة الشبان عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان في حجورهم من أموال التجارة في العصر الجاهلي ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحل محل قناة السويس في عصرنا ، إذ كانت تنقل السلع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فرض لأهلها من أعطيات ورواتب في دواوين الخلافة وما قسم فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يبنى عليهم كل سنة بما يسدُّ خِلَّة كل محتاج .

فكرة لم تكن نقل^١ في هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التي تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبَتْ « بالرقط » لاختلاف ألوانها أحضرها بنائين من القرس^(١) ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوئاً لزاء بعض قصورها الأخرى^(٢) . ومعروف أنه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته^(٣) . وقد عسى كثير من الخلفاء ومن ولاتها الذين أثروا في الفتوح باستنباط العين فيها وغرس النخيل والأشجار في ضواحيها^(٤) من ذلك ما يروى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يجمع فكتب إلى خالد القسري عامله عليها أن يجرى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة في أصل « نسير » بحجارة منقوشة ، وأسأل منها الماء إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص انتهى بغوارة تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم^(٥) .

ولم تشرق مكة في دور وقصور وحين فحسب ، بل لقد أخذت تفرق إلى آذاتها في الترف والتعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة^(٦) ، ونفر يلبسون مقطعات الخمر^(٧) والسندس والديباج والحلل المشاة

(١) أغاني ٢٨١/٣ .

(٢) أغاني ٢١١/١ .

(٣) الأزد ٣٩٢/١ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جيتون)

ص ١٦٤ و الأزد ٤٤١/١ وما بعدها .

(٥) البحتري (طبعة أوروبا) ٣٠١/٢ .

(٦) أغاني ٦٦/٥ .

على كل لون^(١)، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم^(٢). وبالغ النساء في ذلك كله وفي اتخاذ الحلي وصنوف الجواهر^(٣).

واكتظت مكة - كما اكتظت المدينة - بالرفيق الأجنبي الذي نهض بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم. وكان من أهم ما نهض به الرفيق فن الغناء، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة وأصحابه في المدينة، فهم دائماً يلتقون، حتى ليخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلديتين صاحبة للأخرى. وكل مغنٍ يقول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفة من ألحان الفرس والروم، ومن مقدميهم وكبارهم في مكة ابن مسجع الذي اشتهر بأنه أول من غنى الغناء المتن، وأنه نقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً، وتعلم الضرب، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم، وألقى منها ما استقبحه من الثبرات التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب، وغنى على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده^(٤). وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات في مكة، ومن أنجبهم وأشهرهم ابن محرز، وهو أول من غنى الرمل^(٥)، وابن سرينج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طوبس وغيره من مغنيها^(٦)، وكان أول من ضرب على العود الفارسي بالغناء العربي، والغتريض وكان لا يسلح حق في الندب والنياحة، والأبجر، والمُندلي. ومن مغنيات مكة سُمَيَّة، وبغوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبي ربيعة. ومكة إن لم تُعرف بدار كبيرة كدار جميلة في المدينة فلان دار كل مغنٍ فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادي الغناء.

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشغفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(١) أغاني ٦٤/٥ .

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ ، ٤٧/٣ .

(٣) أغاني ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨/٨ وانظر ابن

سعد (طبعة أوربا) ٢٤٣/٨ .

(٤) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٥) أغاني ٣٧٩/١ .

(٦) أغاني ٣٢١/٨ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء^(١) بن أبي رباح وابن^(٢) جُرَيْج وقضائهم من مثل الأوقص^(٣) المخزومي . وتبع ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي . كان خفيف الروح . وفي كتاب الأغاني ترجمة^(٤) طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريقات كان لمن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل : الشُّرَيَّا^(٥) بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعَقَّدُ فيه ندوات يؤمُّها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلاً ، إذ كانت الثريا مولاةً للغنويض وبجي قبيل وسمية .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غيرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كل ليلة على أوتار العيذان والطناير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعد هذا كله شعراء مكة لأن يجرى جمهور شعرهم في الغزل والحب . وربما كان أهم شاعر مكّي تعلق بالمهجاء والمديح عبيد الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذ مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافع عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّاحيه ومداحي أخيه عبد العزيز وإلى مصر . ولكن حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غراره المترحى . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة . ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تُطرب القرشي فغنه غناء ابن سُرَيْج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرَقِّصه »^(٦) .

وكل ما قلناه عن تأثير غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصب أنصباً على غزل أهل مكة . وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غلب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

(٥) أغاني ١/١٣٢ . ٢٠٩/١ وما بعدها

وفي مواضع متفرقة .

(٦) أغاني ١/٢٨٤ .

(١) أغاني ١/٢٥٧ .

(٢) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) أغاني ٢/٣٦٧ .

(٤) أغاني ٣/٤٥٠ .

استولى عليه استيلاءً بحكم ما أُتبع للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تمادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحرص وأقرانه ، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحرص وعمر ونظرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشسي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

وما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يُروى عن العرجي الشاعر المكي من أنه كان ينزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى القيند^(١) . ويلقانا هناك شاعران كلفا بالغزل هما محمد بن عبد الله النخعي وبزيد بن ضبة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يقدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر^(٢) الوادي .

٢

نجد وبادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجداً وبادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرعي وطلب الكلاء ، فهي تعيش — كأسلافها في الجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشطَظف .

وفي هذه المعيشة ظلت المناقسات القبلية على المرامي ، وظل تربص القبائل

(٢) أغاني ٨٥/٧ .

(١) أغاني ٣٩٣/١ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحاد الذي كان عليه القوم في الجاهلية ، بسبب نهى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحول حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة : وكان ولاية بنى أمية في نجد وبادي الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زجّوا به في السجون . غير أن بقية من الشر والشجار بقيت ، وهي بقية استتبت ظهور بعض قسّطع الطرق من أمثال طهّمان^(١) بن عمرو الكلابي الشاعر ، كما استتبت غير قليل من شعر الفخر والمجاء ، على نحو ما نجد في مهاجاة^(٢) شبيب بن البرصاء الذبياني لعقيل بن علفقة وأرطاة بين مهيّة ، ومهاجاة^(٣) ابن ميادة الذبياني للحكم الخضرى .

ودفع شظف المعيشة في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاة في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثم كانوا يرددون بين البدو والخضر . ولا نُسعد إذا قلنا إن شعراء شرق الجزيرة من ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تنقّذ به رحلاته إلى خراسان .

ومرّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرّدّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الدينى راضية مرضية . ويظهر أن بعض عُمل الصدقات كان يقسوفى جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثم ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموى تشكو منهم شكوى مرة^(٤) .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إمانة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سحّرت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبيات ، وحقاً هو لم يمت ذلك نهائياً ولكنه قلل من حدّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجر وا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظر في أخبار الصومس السكوى ١٠٠ . (٢) أغاني ٢٩٨/٢ .
(٣) انظر جبهة أثمار العرب (طبع المطبعة
الرحمانية) ص ٣٠٥ .
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧١/١٢ .
وما بعدها .

بِرمَّتْهَا . على أن هذا أحدث حزناً في نفوس كثيرين سبق أن وصفناه في عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن في هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعفاً في مجال الفخر والمجاء فإنه قوى قوة واسعة في مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بني عُدْرَةَ وبني عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُروَةَ بن حزام وقيس ابن ذَرِيع ، ووقف طويلاً عند مجنون ليلى وشكٍّ في حقيقته ، وهو يصورُ بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبياً ، وكان عرب نجد وبوادي الحجاز أفرغوا فيه وفي أفرادهِ صور البطولة التي فقدوها في حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربي ، لما أشاعوا فيه من نبل وصبر وطهارة ونقاء . وعادةً ينسب الأدباء والمؤرخون إلى بني عُدْرَةَ ، لكثرة ما أنتجت فيه ، فيقولون غزل عُدْرِي وهو غزل يسمح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائهم وأهلهم ، ودائماً يَصْنُقُ الحزن النفس وينقيها ويعدّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجَى حقاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالفاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادي الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْمٍ تنزح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها البنية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة . ويكون ذلك بسبب خصام قبل واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية في الرعي وغير الرعي كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها البنية موالية لبني أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعياً أن تغف قيس في الصفوف المعادية حين تواتها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَنَحَتْ حين بدا انهيار بني أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن اثيرير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حطَّبت قيس في حبَّله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس في الشام وزُفر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا بالجزيرة . وتوالى الأحداث وانفق الأمويون وقبيلة كلب بزعاذة ابن بَحْدَل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . واثارت قيسُ الشام ، وأوقعت بها كلب وقبائل قضاة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة في مَرَج رَاهِط ، قُتل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان في الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرة ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْسِر بن أَلْجَبَاب السُّلَمي ، وأخذ عمر بن عبد العزيز غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل : يوم الغَوِير ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان^(١) . ووالى قيس غاراتها على تغلب ، ونكّل بها عمر بن عبد العزيز في غير موقعة ، وخاصة يوم ماكسين^(٢) وكان بين من أسرته قيس فيه القطامي ، فلما عرفه زفر خلّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامي ينوه بمأثرته عليه طويلاً^(٣) ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ في إحدى غاراته عليها بالخشك إلى جانب نهر الثرثار . ويثار له زفر في موقعة مَرَج الكُحَيْل حيث فنك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك في هذه الأثناء يده عن قيس الجزيرة رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفي ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبد الملك أن ينتظر رجاء أن يُفنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالمهجوم ، ونراه يفلح في جذب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمناً اقتحم بجيوشه العراق وقتل مصعباً سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة ففرض عليه . وبذلك أنقذت تغلب من مغالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الجعاف بن حكيم السُّلَمي فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائلي الجعاف هل هو ناثرٌ يقتل أُمَييَّت من سُلَيْمٍ وعامر^(٤)

(١) انظر الأغانى (طبعة الساس) ١٢١/٢٠ (٢) أغانى ١٢٨/٢٠

وما بعدها . (٣) يريد الأخطل اليوم الذي تلت فيه بنو

تغلب هزم عمر بن الجعاف السُّلَمي . (٤) أغانى ١٢٧/٢٠

وكان الجحاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الحباب . وقد ظل
يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نعم سوف نبكيهم بكل مهني
ونبكي عميراً بالومح الخواطر^(١)

ومضى الجحاف ، فأغار بقومه بني سليم سنة ٧٣ على تغلب عند موضع
يسمى البشير ، فنكّل بها تنكيلاً فظيماً ، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبشّر بطون
حواملهم . وكان ممن قتله ابن للأخطل . أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير
أنه موّه على بني سليم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلقوه وهم لا يعرفونه .
ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم
خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوصل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمته ،
غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البشير فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألّه
الجحاف بعد ذلك ونسك^(٢) .

ولما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جدّة بين
قيس من جهة وكتب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح
فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع في كل مكان النار ولا العار ، واشتطوا
في القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودة العصبية القبلية على هذا النحو هيأت في قوة لعودة أشعار الفخر
والهجاء ، ففي كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالويل والثبور ،
ويقضي الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري بأشعارهم ، ونجد
من ذلك آثاراً في الطبري ينشدها مع الأحداث في موقعة مرج راهط^(٣) وغيرها .
وآثاراً أخرى كثيرة في كتاب الأغاني^(٤) ، فقد تراص شعراء كلب من أمثال جمرّاس
ابن القحططل وعمرو بن إلتحلة ومنذرين حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل :
كما تراص شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجتهم

(١) خطر الريح : اهتز في يد فارسيه .

(٢) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢ / ١٩٨

(٣) أغاني ١٢ / ١٩٨ وما بعدها .

وما بعدها و (طبعة الساسي) ١٧ / ١١١

(٤) الطبري ٥ / ٤١٨ .

وما بعدها ٢٠٠ / ١٢١ وما بعدها .

القشيري وابن الصفار المحاربي ، وأخذ كل فريق يرش سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد : فالتهب الهجاء والفخر الثباب .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للذوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والقطامي وأعشى تغلب وأعشى بنى شيبان ونابعهم . وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بئاقب بصيرته أن يبني لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية : حتى يظل اتصالهم بالجزيرة : وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد حُطِّطت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية في شريقها والعدنانية في غربها ، ولم تلبث أن حُشِدَت حسب أنسابها في سبع خيطة : خطة أو سبع لكثانة وحلفائها وجديلة ، وخطة أو سبع لقضاة وغسان وبجيلة وخثعم وكندة وحضر موت والأزد . وخطة أو سبع المذحج وحمير وهمدان وحلفائهم : وخطة أو سبع نعيم وسائر الرُّباب وهوازن ، وخطة أو سبع لأسد وغطفان ومخارب والنَّسِير وضبيعة وتغلب ، وخطة أو سبع لإياد وعكّ وعبد القيس وأهل هجر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع^(١)

(١) طبرى ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سبب في كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طي* ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هي الأخرى ذكراً في الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليدخل القبائل بعضها في بعض .

وكان يَكْنُفُ الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة والتجف والخوَرْنق والسدير والغريبان ومنتزهات وديرة كثيرة^(١) . وبمجرد أن نزلها العرب نزلها معهم بقايا الجيوش الساسانية التي انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان نقيبهم يسمى دَيْلَم ، فسبوا إليه ، وُسِّمُوا حمراء ديلم^(٢) ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التي خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبي طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة ، ووقعت بين البلدين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة على والكوفة . وبدخل أهل البصرة في طاعة على ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ في صدورهم إحساناً لأهل الكوفة . ويخرج على يحمشه إلى لقاء معاوية في صفين ، وتحدث الموقعة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفتيين المتحاربين . ويكون التحكيم . ويخلص الأمر لمعاوية فيولّي على الكوفة المغيرة بن شعبة . ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفون من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المستورد ابن علفمة الخارجي حين ثار عليه ، فأنبروا لقتاله وقصوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونهم وجماعته^(٣) به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلقه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضيق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطُرَّ حجر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، ف وقعت مناقشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة في معجم البلدان لياقوت .
(٢) فتح البلدان للبلاذري (طبعة المطبعة
المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .
(٣) طبري ١٤٣/٤ وما بعدها .

ارتفع فيها صوت الشعر^(١) ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله في نفر منهم إلى معاوية ، فقتله في ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس في الكوفة ضد الحكم الأموي ، واعتبر الشيعة حُجْرًا وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم^(٢) . وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضة شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطحب بصبيغة التشيع ليعلى وبنه . ويتوفى زياد في سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحاك بن قيس النهري ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ثم النعمان بن بشير ، ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضتها إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة . ويأبى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم يابن عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم في الطريق أن ابن عمه اضطر إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخلّوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله . وكان أول قتيل لبني هاشم صلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضي إلى غابته فيقتل وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكرّ بلاء على نهر الفرات في العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفى يزيد بن معاوية ويضطر عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم في حق الحسين ونفورهم عن نصرتهم ، ويرون أنه لا يفصل عارهم إلا حرب من قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسموا التوابين ، ولثوا أمرهم سليمان ابن صرد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب وانجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا في عيّن الوردية (رأس العين) في وسط الجزيرة بم جيش أموي على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان في المعركة ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعي إلى الكوفة ، وانتهز المختار الثقفي الفرصة ، فدعا محمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من وإلى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

ينكّل بمن كان هواهم مع بنى أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكانهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همام السلّولى (١) :

دَعَا يَا ثَارَاتِ الْحُسَيْنِ فَأَقْبِلْتُ كَتَائِبُ مِنْ هَمْدَانٍ بَعْدَ هَزِيمٍ (٢)
وَأَبَ الْهُدَى حَقًّا إِلَى مُسْتَقَرِّهِ بِخَيْرٍ لِأَبَابِ آبَةٍ وَرَجُوعٍ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ الْمُهَنْدِي الْمُهَنْدَى بِهِ فَتَحَنَ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمُطْبِعٍ
وَلَا اسْتَجْمَعَ الْأَمْرُ لِلْمَخْتَارِ أَعْدًا جَيْشًا بِقِيَادَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْثَرِ لِحَرْبِ أَهْلِ
الشَّامِ ، فَالْتَقَى فِي سَنَةِ ٦٦ بِجَيْشٍ عَلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فِي «خَازَر» بَيْنَ الْمَوْصِلِ
وَالرَّبْرِ ، وَدَارَتِ الدَّوَائِرُ عَلَى جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَقَطَ فِي الْمَعْرَكَةِ . وَيُوَلِّي ابْنُ
الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ أَخَاهُ مُصْعَبًا سَنَةَ ٦٧ وَتَنَشَّبَ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخْتَارِ ،
وَتَعْلُو كُفَّةُ مُصْعَبٍ ، فَيُقْتَلُ الْمُخْتَارُ وَتَدْخُلُ الْكُوفَةُ فِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ .

ونعني بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك في ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج وهي ليست ثورة شيعية ، وإنما هي ثورة أهل السيادة والشرف في الكوفة على بنى أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية (٣) . وكان سادة هذه البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم ولادة بنى أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة وخاصة الحجاج ، وأتيحت الظروف لواحدهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه كثير من الموالى والقرءاء . وتنازله الحجاج في وقائع كثيرة أهمها وقعة دبر الحمامج وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل في هروبه ، حتى وصل إلى ملك الترك مستجيراً ، وقُتل أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوي الذي يخلصهم من الأمويين وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن علي بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة منشأً نظرية شيعية جديدة نُسبت إليه ، هي نظرية الزيدية . وما زال به شيعته يستعملونه على بنى أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج في سنة ١٢١ وما كاد

زُرارة بن عدس التميمي وبيت الأشعث بن قيس

الكندي وبيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت

في الجديين الشيباني .

(١) طبري ٥١٠/٤ .

(٢) الهزيم : نحر ثلث الليل .

(٣) من بيوت الشرف العربية في الكوفة بيت

القتال يستحضرُ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلاً منهم
ثبتوا معه حتى قُتلوا عن آخرهم ، وقُتل زيد ، وصُلب بسوق الكُناسة في الكوفة .
وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى في سنة ١٢٥
إلى نفس المصير .

وأهل في كل ما قلنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئلاً للشيعه في
هذا العصر وأن ساداتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكتفون بغضاً لبني أمية
وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور في الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها
شاعراً مشهوراً هو الطرِّمَّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة
السياسية إلى الزهد وتقوى الله . وكان يجوارهم من يقبلون على اللهو والخمر .
أمثال الأقيشر الأسدي ، وتكاثروا بأخيرة من العصر على نحو ما هو معروف
عن مطيع بن إلياس وحلَّته .

ولم تتورط الكوفة في العصبية القبلية ، ولذلك كان حفلها في شعر الفخر
والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها . فقد أخرجت شاعراً
من أكبر المهجائين في العصر هو الحكم بن عُبَيْد . وقد مضى كثير من شعرائها
يُعنى بمديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبني
أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأسدي .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطط حوالى سنة ست عشرة للهجرة
معسكراً للجيش المقاتلة في الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم
البطائع الذي تكثر مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روى فيها كما روى
في الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعها القبائل خططاً ،
خمساً كبيرة : خطة تميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر
وخطة للأزد . وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن
قاسط ببكر . ولأذ أهل هجر بخطة عبد القيس . ولاذت ضبة والرباب بخطة
تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة . هي سوق الميربد ، وقد تحوات في هذا
العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم . ولكل شاعر حلقة .

ونزلنا مع العرب كثير من الرقيق الفارسي الذي جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزيد جرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل في حلف تميم ، ودخل أيضاً في حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الرظ والسيابجة والإندغار . ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصهبانيين وأخرى من الحبش^(١) . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهياً دائماً لأن يزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهياً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هي الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل الأنهار الكثيرة التي اشْتُقَّت من دجلة ، وخاصة نهري الأبلَّة ومَعْقِل .

وأخذ نَزَلَهَا من العرب المجاهدين في سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشْخُون بقيادة الأحنف بن قيس التميمي لعهد عمر بن الخطاب في أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتنازع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان^(٢) . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان^(٣) . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير . وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم^(٤) ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلى ، يتقدم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بيصفتين ، وظلت والية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة في العصر الأموي . ونراها تُدْعَى لمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ في اجتراح العصبية القبلية القديمة ، وكان مماهياً لذلك قيام حلفين كبيرين بها . هما حلف تميم وقيس وحلف الأزدي وبكر وعبد القيس . وبذلك تكثرت قبائلها في حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزد عثمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغل هذه العصبية في توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشْغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شُغِلَت الكوفة ،

(١) انظر تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبري .
(٢) طبري ٣/٣٥٨ وما بعدها .
(٣) طبري ٣/٥١٠ - ٥١١ .
(٤) انظر تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٤١ وما بعدها والطبري .
٢٦٥/٤ ، ١٧٨ ، ٤٩ : وفتاوى جبر .
والفرزدق ٧٣٧ .

فقد كانت كثرة أهلها عبثاً الهوى ، إنما الذي شغلها حقاً هو الخصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن في الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم بآسَرهم إلى غزو خراسان^(١) ، حتى يتخلص من عناصر الشعب في البلدين .

وتبعه ابنه عبيد الله في سياسته من ضَرْب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويبيع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضطرُّ عبيد الله أن يرحلها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أزره قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب في الناس ، فتغضب نعيم ونهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد ونيهم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُسنكته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير دبة كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفتيين طوال العصر .

وتتبعُ البصرة ابن الزبير ، ويولى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفي في الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجهُ إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجهز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبني أمية عقب مقتل مصعب ، وهي تتغلى بالعصبيات القبلية . ووليَّها الحجاج الثقفي لأكثر من عشرين عاماً ، وفي عهده عتلا شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها . فجنحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له في الثورات الصغيرة التي كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الحارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يعتزل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها فتية

ابن مسلم الباهلي . ونراه يولّى على الجيوش الغازية في الهند محمد بن القاسم الثقفي .
ومعروف أنه كان يُنِيب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي . ويولّى
على أصبهان خنثته مالك بن أسماء الفزاري . ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها في
البصرة لعهد الحجاج . ويتوفى سنة ٩٥ ويتوفى بعده الوليد بن عبد الملك ، ويخلفه
سليمان أخوه ، فيولّى على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب ، فيعظم شأن قبيلة
الأزد .

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص
منها ، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبية بينها ، لما يستتبع
من المغامرات السياسية في تولي الوظائف وغيرها . وولى الخلافة عمر بن
عبد العزيز ، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب ، ويولّى عليها عدى بن أرطاة
الفزاري ، فعادت إلى قيس مكانتها . ويتوفى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك ،
فيثور عليه يزيد بن المهلب ، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعه بينما تقف
تميم وقيس بجانب ابن أرطاة . ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش
الشام على المسرح ، ويقضى على ابن المهلب ، ويتبع فلول جيشه هلال بن
أحوز المازني التميمي فيقضى عليها وعلى من بقى من المهالبة قضاء مبرماً . ويولّى يزيد بن
عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة ، إذ سرعان ما ولّى عليه عمر بن هبيرة
الفزاري ، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً ، ولم يُشِرْ عليه الأزد وربيعه
وحدهما ، فقد أثار عليه أيضاً تيمماً وشاعرها الفرزدق . وبلى الخلافة هشام
ابن عبد الملك ، فيعزل ابن هبيرة ، ويولّى خالداً القسري لنحو خمسة عشر
عاماً ، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً ، فاضطرب الخليفة آخر الأمر أن
يعزله ويولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي ، وبذلك رفعت قيس رأسها ،
وعادت إلى سابق مكانتها . ومن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
وكان آخر ولايتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسي .

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبية القبلية ،
ومن ثم كانت انحور الذي دار عليه شعرها ، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته
مصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل . ولم يقف الشعراء عند الحصومات

بين الحليّفين اللذين تحدثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعة ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكون من حزازات حديثة ، بحيث لم تبقى عشيرة إلا وطأ شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والقرزق .

ولم تُنمَّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد يمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الخوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حِطَّان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كي تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون في صفوف بني أمية ضد معارضتهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير . وبلغنا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن يتنظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، ومن اشتهروا منهم يزيد بن مفرغ الحميري . وبلغنا أيضاً شعراء يتغنون بالبحر مثل حارثة بن بدر الغدّاني الحميري ، وإن كان من الحق أن مرجحها لم تنسج في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسحت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

٤

خراسان

مرّ بنا أن جُنُود البصرة هم الذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهده عثمان . فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبية القديمة . وكان مما زادها

صراوة في نفوسهم أن قواد الجيوش المحاربة كانوا يكافأون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التي يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسندُ إليه ولاية يخص قبيلته بالفئسم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهى موجدة أدت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تملو فيها القبيلة كما كان يعلو النار على كل شيء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان في نفس الموتف الذي كان عليه أسلافهم في الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقاً كانوا يُشغلون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلاً عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهى حرب عادت فيها العصبية جِدَّةً .

وقد بدأت هذه العصبية تستتعر هناك في نفس الوقت الذي بدأ استعمارها فيه بالبصرة ، أى بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزدي وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لم قيس وتيمم بزعاة عبد الله ابن خازم السلمي القيسى . واستطاع أن يجمع السلطان في يده هناك معلنًا ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يَدْخُل في طاعته على أن يُطعمه خراسان سبع سنين ، وأتى ابن خازم ، غير أن نائبه في مرو : بكير بن وشاح التيمي ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية في طاعة بنى أمية ، وولّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولى أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى . وضمها إلى الحجاج ، فولّى عليها في سنة ٧٨ المهلب الأزدي بعد قضائه على الأزارقة ، فقدّمها يصحبه شاعره كعب الأشقرى الذى طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن عتبة التيمي ونهار بن تَوْسعة اليَشْكُرى البكرى وزباد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفى المهلب سنة ٨٢ ، فيولّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان نجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً ، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه في فرغانة حوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويعزله الحجاج لعصبية الشديدة للأزدي

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولئ أخاه المفضل ، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولي قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً ، فضى يفتح في طخارستان وأرض السغد وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو في أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك ولي الخلافة بعد أخيه الوليد ، وكان حانقاً على الحجاج وعماله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعهم تميم ، لأنه كان قتل منها نفرأ من آل الأهم ، وأساء معاملته بطلها وكيع بن أبي سود . وترغم وكيع حربه ، وانضمت إليه الأزد ، وكانت مفيضة منذ عزل المهالبة وانضمت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالى بقيادة حسيان النبطي ، وأخيراً خذله قيس إلا نفرأ من عشيرته باهلة ، فلى حنفة سنة ٩٦ للهجرة . وولى سليمان مكانه وكيع بن أبي سود ، فأخذ الناس بالعنف ، فزله ، وولى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق . وقد مضى يتبع سياسة قبلية جاعة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملأ بها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر في الغنائم . وتوفى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحجبه لتأخره في أداء الفىء ، وكان قد بالغ لسليمان في بعض كتبه ، فقال إن الفىء في بعض حروبه كان قناطير من الذهب ، وزعم أن خمسه بعد أن أخذ كل عارب حقه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفي رواية سنة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أداءه حجبه حتى يؤدى ما عليه للدولة ، ولم يكنف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزديين ، وبذلك سقط أو هوى نجم الأزد ، وقد ولى عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكيم . ودخلت في عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يظلمها عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبغ تابعة لحالد القسرى والى العراق . وكانت فيه عصبية شديدة ليس ، فارفع شأن الأزد . ورواه ينيب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه في سياسته ، فالتهمت العصبيات القباية الهاباء ، وامتنعت الحسام الكتلان الكبيرتان نعيم من جهة الأزد وأحلافها

من جهة أخرى وقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وتوالت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليا الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليا أشرس بن عبد الله السُلَسي القيسي ، وخلفه عليا الجعفي بن عبد الرحمن المُرِّي سنة ١١٢ وعُزل عنها في سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الحلال ، وفي عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيج وكان يرى رأي المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالي ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمي هذه الفرقة . واستفحلّت الثورة إذ انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالي . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل في سنة ١١٧ وولى مكانه أسد التَمَسِي للمرة الثانية فضيَّق الخنّاق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد في العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفي ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفي عهده اشتدت العصبية اشتداداً مروّعاً واشتد معها الشجار والقتال في كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقُتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراساني . وعشياً يصيح نصر بن سيار يمجّده أن يتداركوا الأمر^(١) وتكون نهاية بني أمية .

ويفيض تاريخ الطبري بأشعار الشعراء في هذه العصبية التي احتلّت هناك وفي وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط في خراسان نشاطاً عظيماً ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مقيمة ؛ وجيهاً وجدت المصريين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن معبدان الأشقرى ونهار بن تومعة وثابت قطنة والمغيرة بن حسان . ولعل من الطريف أن نعرف أن من هؤلاء الشعراء من كان فارساً مقداماً مثلي ثابت قطنة وكعب بن معبدان ، وكان من هؤلاء الشعراء الفرسان من يقع في حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتنزّل بهن ، على نحو ما نرى عند أبي جليدة الشكري^(٢) ، وأعشى همدان^(٣) . وكان بين المحاربين كثيرون ينجسّون إلى ديار

(١) طبري ٣٦/٦ وما بعدها والآثار الطوال (٢) أغاني (دار الكتب) ٣١٩/١١-٣٢٥

للهنوزي ص ٣٦٠ (٣) أغاني ٣٢/٦ وما بعدها .

قومهم في الجزيرة، وخاصة حين يُلم بهم ومن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الريب في مرضه مشهورة^(١). وكان يحدث أحياناً أن يُتحقق بعض البدو بالجزيرة العربية في حبسهم ، فيرحلوا إلى الثفور ، وينظّموا شعراً يضمنونه جهم اليائس، وهو شعر يفيض باللوعة المفضّة على نحو ما نجد عند الصّفة القُشَيري^(٢) الذي مات غازياً بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر في الشام لهذا العصر إلى ما انبث منه في خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت في جمهورها قبائل يمنية ، وهي لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبثه بيئة الشام في هذا العصر هو عدى بن الرفاع العاملي ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح ، واصطلحت مصالحه كما قلنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء في موقعة مَرَج راحط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعمة طارئة على الشام ، فلو لا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

وبما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعرُ الشعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين يملحونهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الهجائيين الذين أكرموا الوفود عليهم ابنُ قيس الرقيّات ونصيب الأحموس وكثير وإسماعيل

(١) أغاني (س) ١٦٢/١٩ قبل الأمل (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/٦ وما بعدها ص ١٣٦ .

ابن يسار النسائي وطُربُج الثقفى ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن التجديدين الرَّاعى والعُجْبَر السُّلُول وأرطاة بن سُمَيَّة وعقيل بن عُلْفَة وابن ميادة ومن العراق جرير والفَرزدق والأخطل ومسكين الدارمي وعبد الله بن الزَّبير الأسدي وأعشى شيبان وثابت بن ربيعة وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا في الشام ، إنما كانوا يلمتون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهلهم يُبجِّروا الحفائب . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر في هذه البيئة هي العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره في موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثم لا نغفل إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامية شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة في حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر في هذه الحروب ، غير أن نفرأ من المضرين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصابحوا به في بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبي العيال الهذلي حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم ^(١) واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً ^(٢) .

وعلى هذا النحو كان الشعر في الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان في جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموي القرشي نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

معصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصي مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وحدنا العناصر اليمنية

تغلب عليها ، وهي من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المصرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر البينية ، وأخذت تتقدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر في تلك الديار ، فكان طبيعياً أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة في الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسة الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارة للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذي لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تنفس في جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها منبرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تهض في هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر البينية على العرب النازلين فيها . وحقاً نجد فيها أشعاراً كانت تستظم من حين إلى حين في الأحداث التاريخية واليومية ، وهي مبنوثة في كتاب الولاة والقضاة للكندي ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبي ززمة الذي عاصر عبد العزيز بن مروان في ولايته على مصر (٦٥ - ٨٥ هـ) وأشعاره المنسوبة إليه لا ترقى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى في الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه في جملته شعر وافتد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان يمدحونه لأخذ نواله . وكان بمرأ فياضاً ، وغبثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوب أمثال كثير وابن قيس الرقيات ونُصَيْب وجميل وأبشمن بن خُرَيْم وعبد الله بن الحجاج الثعلبي . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فصر لم يكن بها نشاط قوى للشعر في هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسي ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها
وال على شاكلة عبد العزيز بن مروان ، يرحل إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك
الشأن في الأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحتها قبائل
يمنية ، ومن ثم لم يزدهر الشعر بها ، بل ظل ذاوياً ذابلاً إلى نهاية العصر .

وطبيعى أن يكون النشاط الشعرى في اليمن خامداً ، لأنها لم تُجَلِّ فيه من
قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبية والثورات التى تدلّع السنة الشعراء على نحو
ما مرّ بنا في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان يتزها بعض الشعراء
للمديح ولاتها على شاكلة أبى دَهْبَل الجهمى الذى اشتهر بمدحيه ابن الأزرق
المخزومى وإلى ابن الزبير^(١) . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر
هذا العصر أخذ الشعر يجرى على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر
مناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدى الذى ترجم له ياقوت
في معجمه^(٢) .

الفصل الثاني

مؤثرات عامة في الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرُّبها وأثر ذلك في اللغة

انلغ العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام ونعاليمه السمحة في أقطار الأرض ، ففتحوا العراق ولبان وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة في جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركروها في الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتحوه في العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرُّب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرَّب الأقطار الأخرى التي لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يعد اللسان العربي خاصاً بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ بشيع في شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هباً لتعرُّبها نظام الولاء الذي أخذ به العرب أنفسهم في فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا وبق الحروب في ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كي يدخلوا في هذا الولاء ويتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن نمت الفتوح أخذ العرب والموال جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى في المدن التي اختطها الفاتحون لمسكراتهم مثل البصرة والكوفة والقسطاط : فإن العرب اختلطوا فيها وفي غيرها من المدن بالأجانب الذين قد ملوا لهم خلعهم في الحرف والآراء ، واتجارتهم ، وغصت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدمهم في حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إماءهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسراري والبحار . وظهر أثر ذلك في أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهمات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالي زواجاً وولاء لم يكن تأثر الموالي به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا في التعرّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة في المغرب والأندلس اللاتينية وفي مصر والشام اليونانية والسريانية وفي العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من السنة أصحابها لتحل محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عَشِيَّة وضُحَاها ، فقد أخذ التعرّب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفي أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن نُحِيت إلى حد كبير - بفضل القرآن الكريم - ولغته القرشية - فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هي اللغة العامة التي يتخاطب بها العرب مضريين وبمزيين في كل مكان ، وإن ظلت من الماضي آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالي تطور ثان في لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسطة ، حتى يفهم عنهم الموالي ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفي أثناء ذلك كانوا يستعربون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعرّبونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويَعْرَض علينا الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التي جرت على السنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فن ذلك أنهم كانوا يسمّون المسحاة « بال » والحلوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «ازار» والقِشَاء «خيياراً» والمجدوم «وَبَذَى»^(١) . وكانت الفارسية شائعة في البصرة ويتضح ذلك في دخول مقطع «آن» الفارسي على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران»^(٢) . لعمر بن عبيد الله بن معمر و«سُوَيْدَان» لسويد بن منجوف السدوسي و«خالدان» لخالد بن أسيد و«مهلَبَان» لآل المهلب . وما يدل على شيوع الفارسية في البصرة ما يُروى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله . . . زياد في ولايته عليها سقاء نيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مفروناً إلى هيرة وخزير ، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المزرية ، فتجتمع حوله الصغار يسألونه بالفارسية أين جيت ؟ أي ما هذا ، فكان يجيبهم بلسانهم^(٣) :

آبَ اَسْتِ نَبِيذِ اَسْتِ عَصَارَاتِ زَبِيْبِ اَسْتِ
سُمِيَّةُ رُوسِيِ اَسْتِ

واست : من أفعال الكينونة ، وآب : ماء . وسمية : أم زياد . وروسبي : الخنزيرة . أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية الخنزيرة ، ويريد البغوي . ويلاحظ الجاحظ أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس ، ولذلك سمو البطيخ «الخربز» والسميط «الرزق» ، وطعام الموصى وهو لحم يتقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء^(٤) .

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة البوّة ، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجريّر اللذين عاشا في البصرة ، إذ نجد أهما يستخدم كلمة «البِذْق» والبياذق «المعروفة في لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يسميها البَيْسَلَق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً ، يقول مخاطباً جريراً^(٥) :

- (١) البيان والتبيين ١٩/١ وما بعدها .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٣ وما بعدها .
(٣) نقائص جرير والفرزدق (طبعة بيغن) ص ٧٨٧ .
(٤) البيان والتبيين ١٩/١ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١٤٣/١ .

ونحن إذا عَدَّتْ نَمِيمٌ قَدِيمَهَا مَكَانُ النَّوَاصِي مِنْ وَجْهِ السَّوَابِقِ
مَنْعَتُكَ مِيرَاثَ الْمَسْكَوكِ وَتَاجِهِمْ وَأَنْتَ لِدَرْعِي بَيِّنَةٌ فِي الْبَيَازِقِ
فَهو يَجْعَلُهُ بَيِّزًا غَيْرَ مُتَقَدِّمٍ جَرِيرًا يَسْتَعْدِمُ فِي إِحْدَى أَهْجِيهِ
لِلْفَرَزْدَقِ كَلِمَةُ «الرَّوْذِقِ» الْفَارَسِيَّةُ لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ الْمُنْتَوَفِ وَبَرَهُ بَعْدَ سَلْقِهِ ،
وَيَسْتَعْدِمُ مَعَهَا كَلِمَةُ «الْبَيِّزِ» الْفَارَسِيَّةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الشَّيْءِ النَّافِهِ . إِذْ يَقُولُ فِي
جَعِشَتِ أَخْتُ الْفَرَزْدَقِ (١) :

٧ خَيْرٌ فِي غَضَبِ الْفَرَزْدَقِ بَعْدَمَا سَلَخُوا عَجَانُكَ سَلَخَ جِلْدِ الرَّوْذِقِ
سَبْعُونَ وَالْوَصْفَاءُ مَهْرُ بَنَاتِنَا إِذْ مَهَرُ جَعِشَتِ مِثْلُ حُرِّ الْبَيِّزِ

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا
كان ابن مفرغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه
شعراء من الزنج مثل رباح (٢) ومن الهند مثل أبي عطاء السندی .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكُنَاتِ هؤلاء الموالى ، فإن
كثيرين منهم كانوا يخلطون عسراً في نطق بعض حروف العربية التي لا توجد
في لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ في البيان والتبيين صوراً مما كان يجري على
ألسنة عامتهم من هذه اللُكُنَاتِ ، حتى لتُفْسِدَ العبارة العربية لإفساداً ، فن
ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جُنْدِ السُّلْطَانِ ؟ فأجابه :
« شر يكاننا في هوازا وشر يكاننا في ملداينها ، وكما تجيء تكون » . ولم يفهم
الحجاج ما يقول فقال له وبلك ما تعني ؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع
الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شر كاؤنا
بالأهواز وبالمداين بيعتون إلينا بهذه الدواب » ، فنحن نبيعها على وجوهها (٣) ،
ومن ذلك أن أم ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجرزدان في عيجان أمكم »

رياح أو سنج بن رباح . انظر العربية ليوحان

فك هاشم ص ٣٦ .

(٣) البيان والبيان ١/١٦١ .

(١) القافض ص ٨٤٥ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان عل البيضاء

لجاحظ وأمال ابن الشجرى (طبعة كرنكو)

١٩٤/١ وقد اختلف في اسمه هل هو رباح أو

فأبدلت الذال من الجرّذان دالاً ونطقت العجّين عجناً . وقال بعض الشعراء
في أم ولد له يذكر لُكْنَتَها :

أَوَّلُ ما أسمع منها في السَحَرِ تذكيرُها الأُنثى وتأنيث الذكر
والسوءة السوءة في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر^(١) . وكانت آثار من هذه اللكنات تجرّى على
السنة فصحاء الموالي ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربي . حتى
أصبحوا لا يقلّون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلصّ ، نذكر من
بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكْنَةَ فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين
همزة والطاء تاء والسين شيناً^(٢) . ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتَى زاده السُلطان في الودّ رفعةً إذا غيّر السلطانُ كل خليلي
فقال : « زاده الشلتان^(٣) » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً
ينشد شعره^(٤) . وكان أبو عطاء السندی وهو ممن عاشوا في العشرين :
الأموي والعباسي يبدل الحاء هاء والجيم زايا والسين سينا ، ودفعه ذلك أن يستهوب
مملوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبي غلاماً ينشد شعره^(٥)

ولم تجرّ هذه اللكنات على السنة الموالي وحدهم ، فقد تسربت منها بعض
الآثار إلى السنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ،
على نحو ما يحدثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد وإلى العراق ، إذ استبقاه
أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شبرويه » فكان يبدل الحاء هاء
والقاف كافاً . فإذا قال : أَحَدَرَوِيْ أَنْت ؟ قال : أهروري أَنْت ؟ وإذا قال
قلت لك قال : قلت لك^(٦) . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سُلّوا
سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجوه بقوله^(٧) :

-
- | | |
|--|---|
| (١) البيان والتبيين ٧٣/١ . | (٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٩/١٣ . |
| (٢) البيان والتبيين ٧١/١ والأغاني (طبعة
قاسم) ٩٩/١٤ . | (٥) الشعر والشعراء ٢/٢٠٧ وراجع الأغاني
(طبعة قاسم) ٧٩/١٦ . |
| (٣) البيان والتبيين ٧١/١ والكمال للبرد | (٦) البيان والتبيين ٢/١ . |
| (طبعة رايت) ص ٣٦٦ . | (٧) البيان والتبيين ٢/٢١٠ . |

ويوم فتحت سيفك من بعيدٍ أَصَغَتْ وكلُّ أمرِك للضَّباعِ
ويُرَوَّى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكنته :
« إن ابنك كما وصفت ولكن قَوْمٌ من لسانه »^(١)

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك في مراكز الشعر
الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث في العراق من هذه
اللكنات كان يحدث في المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقترن بهذه اللكنات
الحن كثير بسبب ضعف السلاق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غادر ولا رائحُ

وكان القياس أن يقول : « ليس غادياً ولا رائحاً »^(٢) . ويظهر أن اللحن شاع
على ألسنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عني خلفاء بني أمية بتأديب أولادهم
ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، وما
يروون من لحنه أنه نطق يوماً بكلمة « لصر » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين
قُتل أبو فديك الخارجي : « يا أمير المؤمنين قُتل أبي فديك » وقال مرة :
« يا غلام ردّ الفرسان الصادق عن الميدان »^(٣) .

واتسع هذا اللحن في الكوفة والبصرة حتى لرى الخجاج المعروف بفصاحته
ولسنة ونشأته في البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يعتمر : أسمعني
الحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الخجاج : عزمتُ عليك أسمعني
الحن ؟ قال : حرفاً . فقال الخجاج : أين ؟ قال : في القرآن ، فقال : ذلك
أشنعُ له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : نقول : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب .
وكانه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتداء به . فقال الخجاج : لا - نحر - لا - مع
لى لحناً أبداً^(٤) . وكان خالد القسري مع ما اشتهر به من فصاحته لحناناً ، ويُرَوَّى

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبينون فلأنا رمضانينون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل ^(١) :

وألحنُ الناس كلَّ الناس قاطبةً وكان يُولعُ بالتشديق في الخطبِ
ويُروى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن
أبي بُردة وإلى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبع الإعراب وجعل
الرجل ينظر إليه ، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّ هذا أحبُّ إليه
من ترك الإعراب فلا تشاغلُ به واقصد لحجتك ^(٢) ، ومن عُرِف في خراسان
باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم ^(٣) ، وكان سليمان بن عبد الملك
في دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخّم اللحن كما يفخّم
نافع بن جبير الإعراب ^(٤) .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة
منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرّد جماعة من العلماء وخاصة في
البصرة لتنقية العربية عما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض
لفصحاء الشعراء ينقدّم نقداً نحويّاً ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك القافية ،
واشتهر في هذا الجانب عبد الله بن أبي إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق
فما كان يُحمدنه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجعهم حتى قال فيه
بيته المأثور :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكنَّ عبد الله مولى مواليا

فتعرض له ابن أبي إسحق قائلاً : كان يحسن أن تقول : مولى موال ^(٥)
على أن الفرزدق لم يُعرف بضعفٍ في الحسِّ اللغوى لأنه نشأ في البادية ، وإنما الذى
عُرِف بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا في المدن مثل الطرمّاح والكُمَيْت . ويسجل
الرواة على الطرمّاح أنه كان يستخدم الألفاظ البدوية الغريبة في شعره استخداماً
غير دقيق ^(٦) وأنه كان يتكلّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين في شعره ^(٧) . ولم

(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .
(٦) الموضح ص ٢٠٩ والأخاني (طبعة دار
الكتب) ٣٦/١٢ .
(٧) الموضح ص ٢٠٨ .

(١) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢١٨ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٢١٧ .

يكن الكميّ يسلّك في أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يَشْرِكُ الطرماح في ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية^(١) ، ويُرَوِّى أنه أنشد ذا الرُّمّة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيَه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما تقدر إنسان أن يقول لك فيه أصبَتْ أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تحيى به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقنع الكميّ بوجهة نظره واعتلّ^٢ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له^(٣) ، ولذلك كان الغريون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح في اللغة^(٤) .

وعلى هذا النحو أخذت السلاطنة تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم في الحضر ولم يتغلّذوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسي حتى يضع الغريون خطاً فاصلاً بين الشعر القديم الجاهلي والإسلامي والشعر العباسي الحديث الذي سموه شعر المولدين وهو خط فصلوا به فصلاً تاماً بين الشعر الفصيح الذي يمكن الاستشهاد به في اللغة والشعر الذي لا يُعتدّ به في هذا الاستشهاد . وقد اعتدوا^٥ بشعر الجاهليين والحضر من دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نفرأ من العرب أمثال الطرماح والكمي متخذين النشأة في الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصفى والمعيّب والسليم .

٢

الإسلام وأثره في موضوعات الشعر

طبيعى أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموى ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يلجئون في مختلف الأجواء عبّير وعظّمهم ونُسكهم ، سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

(١) الموضع ص ١٩٢ والألفاظ (داود الكتب) (٢) ألفاظ (سلي) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموضع ص ١٩١ ٢٠٨ .

والتواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزل بتأثير الإسلام من براءة وطهر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادي الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة . مما هيأ لظهور الغزل العذري بل لشيوعه ، وكأنا أضفت الإسلام على المرأة وعلاقاتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الجلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا في احتياط ، بل إذا هو يرى دونها صعباً أى صعباً ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشف عن آله وعذابه في حبه ، وفي شكوى بتضرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جميل^(١) :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبها ولا بد من شكوى حبيب يروى
ألا تنفين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعاً بتضرع
فيارب حُببني إليها وأعطيني الـ حودةً منها أنت تعطي وتنع
ونرى الغزلين جميعاً عذريين وغير عذريين يستلهمون في غزلهم بعض الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران . يقول عمر بن أبي ربيعة^(٢) :

فدبتك أطلقي حبلى وجودي فإن الله ذو عفو غفور
وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم في القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ، ونرى الفرزدق يفصل هذه الفكرة تفصيلاً في إحدى مقطوعاته ، فيقول^(٣) :

يا أخت ناجية بن سامة إنني أخشى عليك نبي إن طلبوا دى
فإذا حلفت هناك أنك من دى لبريشة فتحلل لا تأثني^(٤)
فلئن سفكت دما بغير جريرة لتحلدين مع العذاب الألام

بيت ٥ .

(٣) ديوان الفرزدق (طبعة الناصري) ٧٧٨/٢ .

(٤) تنحلل من الجين : تثنى .

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار

ص ١١٧ .

(٢) ديوان عمر (نشر شواتر) رقم ٤٠

ولئن حملت دى عليك لتخجلين ثَقَلًا يكون عليك مثل يَلْمَمٍ^(١)

وإذا كان الفرزدق توسّع في فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليقين وما ينتظر القاتل في غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمن يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخّص في اللّمْ ، يقول^(٢) :

إذا قلت يوماً نَوَّلْنِي تَبَسُّمْتُ وقالت معاذ الله من فعل ما حَرُمَ
فما نَوَّلْتُ حتى تضرعتُ عندها وأعلمتها مارخص الله في اللّمْ

وواضح أنه يقصد باللم النظره وما يماثلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذي كان يخالط قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره نمتج بمعاني الحب وألفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عراه ، قضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية في الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغي أن يتحلّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بني أمية أن نفذوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار ديني لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثلاً حقاً للحاكم الأموي التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يُطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُثَيْبٍ^(٣) :

وصدقتَ بالفعل المقالَ مع الذي أتيتَ فأمسى راضياً كلُّ مسلمٍ
وقد لَيْسَتْ لِنَسْرِ الهَلُوكِ ثيابها تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومِعْصَمٍ
ونومض أحياناً بعيني مريضة وتبسمُ عن مثل الجُمان المنظَّم

(١) يللم : جبل عل مرحلتين من مكة . (٢) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ١٢٢/٢ .

(٣) أغاني ٣٢٨/٦ .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مُشْمِزًا كَأَنَّمَا سَقَتَكَ مَدُونًا مِنْ سِهَامٍ وَعَلَقَمَ^(١)
 تَرَكْتُ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مَوْنًا وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيٍ مَصْمُومٍ
 وَأَضْرَرْتُ بِالْقَانِي وَشَمَّرْتُ لِلذَى أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٍ
 وَهُوَ لَا يَصُورُ فِي عَمْرِ التَّقْوَى فَحَسْبُ ، بَلْ يَصُورُ فِيهِ أَيْضًا الزَّهْدُ
 وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الدُّنْيَا وَفَتْنَتِهَا وَمَتَاعِهَا الزَّائِلُ الَّذِي يَغُرُّ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ . وَتَسَعُ
 هَذِهِ الصُّورَةُ فِي مَدِيحِ الشَّيْعَةِ لِأَتَمِّهِمْ عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدُ فِي هَاشِمِيَّاتِ الْكُتُبِ
 وَفِي شَعْرِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ خُرَيْمٍ إِذْ يَقُولُ فِي بَنِي هَاشِمٍ^(٢) :

نَهَارَكُمْ مَكَابِدُهُ وَصَوْمٌ وَلَيْلَكُمْ صَلَاةٌ وَاقْتِرَاءُ
 وَلَيْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزَكُّي فَاسْرِعْ فِيكُمْ ذَاكَ الْبَلَاءِ

وَعَلَى نَحْوِ مَا تَأَثَّرَ الْمَدِيحُ بِالْإِسْلَامِ وَمِثَالِيهِ الرُّوحِيَّةُ تَأَثَّرَ الْمَجَاءُ ، إِذْ أَخَذَ
 الشُّعْرَاءُ يَهْجُونَ خَصْمَهُمْ بِانْحِرَافِهِمْ عَنِ الدِّينِ ، فَاطَالُوا فِي وَصْفِهِمْ بِالْفُسُوقِ
 وَالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ كَقَوْلِ جَرِيرِ بْنِ أَلِ الْمُهَلَّبِ^(٣) :

أَلِ الْمُهَلَّبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَفَرُوا كَمَا فَسَلَتْ غَمَدُ فَبَارُوا
 وَدَائِمًا يَرَى شُعْرَاءُ الشَّيْعَةِ الْأُمَوِيِّينَ بِالظُّلْمِ وَانْتِهَاكِ الْحُرُمَاتِ وَتَعْطِيلِ أَحْكَامِ
 الدِّينِ وَابْتِدَاعِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ مِنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُمَيْتِ^(٤) :

لَهُمْ كُلُّ عَامٍ بَدْعَةٌ يَحْدِثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
 كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنْ اللَّهِ مُنْزَلٌ
 تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلِ

وَاشْتَدَّ لُبُّ الْمَجَاءِ — كَمَا قَدَمْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ — بِتَأْثِيرِ الْعَصِيَّاتِ ،
 وَلَمْ يَكْدُ يَسْتَجِبْ مِنْهُ خَلِيفَةُ وَلَا وَاوِلٌ وَلَا شَرِيفٌ ، بَلْ حَتَّى الْقُرَّاءُ كَانَ يَتَرَضُّ لَهُمْ
 الشُّعْرَاءُ ، وَخَاصَّةً إِذَا رَأَوْهُمْ يَدَاجُونَ أَوَّلِي الْأَمْرِ ، فَكَانُوا يَرْمُونَهُمْ بِالْفِتَاقِ وَأَنَّهُمْ

(٢) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٢١٩ .

(٤) هاشميات ص ١٢٣ .

(١) مدوناً : مزيجاً .

(٢) أغاني (سلي) ٦/٢١ .

لبسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة
ساخراً من إحدى طولانهم ^(١) :

أما النبذ فلا يدْعرك شاربُهُ واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قومٌ يُوَارُونَ عما في صدورهم حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداء
مشترين إلى أنصاف سُوقهم همُ اللصوص وهم يدْعُونَ قُرَاء

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن شعر الحماسة كأن أقوى في تأثيره بالإسلام من
شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنظَّمُ أكثره في الجهاد ، ومعروف أنه كان
دائماً في صفوف المحاربين قصاصاً ووعاظ يحثونهم على الاستشهاد في سبيل
الله ، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثم تحولت بعض القطع الحماسية التي نُظمت
في خراسان إلى مواعظ خالصة . كقول نصر بن سيار ^(٢) :

دَع عَنْكَ دُنْيَا وَأَهْلًا أَنْتَ تَارِكُهُم مَا خَيْرُ دُنْيَا وَأَهْلٍ لَا يَدُومُوا
وَكَثِيرُ نَفْسِي اللَّهُ فِي الْأَسْرَارِ مَجْتَهِداً إِنْ التَّقَى خَيْرُهُ مَا كَانَ مَكْنُونَا
وَاعْلَمْ بِبَلَّتِكَ بِالْأَعْمَالِ مُرْتَنَهُنَّ فَكُنْ لَذَاكَ كَثِيرُ الْهَمِّ مُحْزُونَا
وَامْنَعْ جِهَادَكَ مَنْ لَمْ يَرْجُ آخِرَةَ وَكُنْ عَدُوًّا لِقَوْمٍ لَا يَصِلُونَا
فَاقْتُلْهُمْ غَضَباً اللَّهُ مُنْتَصِراً مِنْهُمْ بِهِ ، وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَفْتُونَا

وواضح أن نصراً يزهده في الدنيا ومتاعها القاني بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو
إلى التقوى في السر والخفاء مذكراً باليوم الآخر وما ينبغي أن يتخذ له من ذخيرة
الجهاد والذب عن دين الله ، وبيع النفس في محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة : أما هم فآمنوا بأنهم على
الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغي جهادهم حتى
يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم
ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُفَسِّسُ غمساً

(١) ديوان ذو الرمة (طبعة كبريج) (٢) طبري ١٢٣/٥ .

في العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفي سبيلها ، ونحسر كأنما غاية كل خارجي أن يُقتلَ حتى يُكْتَبَ في سجل المستهدين .

وكان شعر من حاربهم يسيل بالدعوة للاستبسال في الحرب وجهاد هذه الفرقة التي زاعت في رأيهم عن طريق الهدى ، وس خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقر في ملحمة الطويلة التي وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم ^(١) :

إنا اعتصمنا بحبلى الله إذ جحدوا بالمُحكّمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ديننا بخالف ما جاءت به النذُر
وكان كثير من يُقتلون في هذه الحروب : فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً ،
مازجين نديهم بما ينتظرون من نعيم الخلد . كقول الضحاك بن قيس يرقى بهلولاً
الصُفْرِي الذي خرج لعهد هشام بن عبد الملك وقُتل ^(٢) :

يا عَيْنُ أَدْرِ دموعاً منك نَهْنَانَا وابكي لنا صُحْبَةً بانوا وإخوانا
خَلُّوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا
وتعمُّ هذه الروح الدينية في مرائي من قُتلوا من العلويين منذ على بن أبي
طالب ، وقد تحوّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان
من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح في مرائهم ، كقول جرير في عمر بن
عبد العزيز ^(٣) :

حُمِلَتْ أُمراً عظيماً فاصطبرت له وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
بل لقد طُبع الرثاء عامة بطوايع هذه الروح وما يُطَوَّى فيها من التسليم لله
والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت . وهو حتمٌ في رقاب العباد . وعليهم
أن يتنزعوا لئلاّ به الصبر الجميل .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر في نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذى الرمة أحسنا أن قلبه يمتلئ بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثر به الإسلام في الشعر الأدي ، فإنه فجر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على ألسنة بعض الشعراء . ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه في هذا العصر . ونقصد ينبوع الزهد وما يُطَوَّى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسرى في غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا ينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة في شعرهم . بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة في إبليس الرجم^(١) . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جاره الرجز في هذا الاصطباغ حتى لنجد رجلاً كثيرين يبدؤون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمحضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثر أثراً واسعاً في نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظاً يعظون الناس ويذكرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرجه من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصورين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والحياة ، والتحلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والجود والأمانة .

٣

السياسة

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدينية سيطرة تهفّس على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر . وبذلك فَرَضَ الإسلام على كل مسلم أن يشترك في الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسي ، وهو نشاط ينبغي أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا - في غير هذا الموضع - كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فَوَلَّى عَلَى ، ونُشِبَ بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نُشِبَت معركة صِفِّينَ بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتِلَ ، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموي وأصبحت وراثية في هذا البيت . وكان الأمويون في نظر كثيرين لا يمثلون الحكم الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عَادُوا الإسلام في أول ظهوره ، وبذلك كانوا يُعَدُّون متعصبين للخلافة . وزاد في الحُتُّقِ عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن عُصَمَاءَهُم ظلموا الناس . ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القُرَّاء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكونوا حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط في الناس ، واشترك منه نفر في بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقم بثورة منظمة . على أنه ينبغي أن نشير إلى ثورة المرجئة في خراسان بقيادة الحارث بن سُرَيْج ، وسنعرض لها في حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التي نشأت فيها المعارضة لبني أمية ، وقد بدأت معارضة الحجاز لم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذ البيعة على ذلك من أهل الأمصار ، فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولي الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشدَّ دَعْلَى هؤلاء الثلاثة في أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رُخْصَةٌ ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفَرَّ الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته ، فخرج وقُتِلَ بكريلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعادَ بالبلد الحرام الذي لا يحلُّ فيه القتل وسفك الدم ، ولما يش يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبير على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلَح هذا الجيش في مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفي هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرفائها ، ولما مثلوا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قلعنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطناير وتضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرَّاب والفتيان ^(١) » . وثار أهل المدينة وباعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المرُى ونسبت بين الفريقين معركة الحرة المشهورة التي استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وقد بكأها من الشعراء كثيرون ^(٢) . ولَّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الحوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفى مسلم في طريقه ، فخلفه الحصين بن نمير السَّكُونِي ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءت بوفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكَّ الحصار وعاد إلى الشام .

وحيثُ ذلك لأن تنسح دعوة ابن الزبير ، فإن الأمصار اضطربت على ولاية بني أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولائها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت في طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفي دعا لابن الحنفية (أحد أبناء علي من سيدة من بني حنيفة) في الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذي انتقم منه بحبس ابن الحنفية في سجن عارم بمكة ، ولَّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُبَاع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفي وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول في طاعة ابن الزبير . وتلقانا في هذه الأحداث أشعار كثيرة مبثوثة في الطبرى .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس في موقعة مَرَّج واهط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لمروان بن الحكم . وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلقه ابنه

معجم البلدان لياقوت .

(١) طبرى ٣٦٨/٤ .

(٢) طبرى ٣٧٠/٤ وراجع كلمة حرة في

عبد الملك. فترث في القُدوم على مصعب بجيشه : حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفي . وسُئِلَ مصعب بعد المختار بالخوارج ، وسَقَدُمَ عبد الملك فيقضى عليه ، وُسُـرِلَ الحجاج إلى ابن الزبير بمكة ، فبهزمه ومقتله في سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شجاعاً ، ومن ثم هجاء فضالة بن شريك هجاء مرأً^(١) . أما مصعب فكان جواداً ممدحاً ، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر^(٢) :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير في مكة دخل الحجاز في طاعة بني أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الخوارج وخاصة في البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة في الكوفة ، وكان فيه كثير من أشرف العرب الذين كانوا يعدُّون بني أمية غاصبين للخلافة . وسَرَّ بنا في غير هذا الموضع انتفاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتفاض يزيد بن المهلب . وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً ، مرة في عهد المغيرة بن شعبه وإلى الكوفة^(٣) ، ومرة ثانية في عهد مصعب ، ومرة ثالثة في عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجَّل ذلك بعض الشعراء في أشعارهم^(٤) .

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس في شيء إلى ثورات الخوارج التي امتدَّ لها إلى أركان كثيرة في العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وعمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين علي ومعاوية وما كان من رضا علي به ، فقد تنادى فريق من جيشه : لا حُكْمَ إلا لله ، وبذلك شقوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدَّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلوا هاجروا إلى حَرَّوراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية . وسمُّوا أيضاً الخوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لعلهم هم الذين سمُّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

(١) أغاني ١٥/١ وانظر ٧١/١٢ وما بعدها . (٢) الجعفي ٢/٢٦٢ .

(٣) انظر الأغاني ٣٣/٦ وابن سلام ٥٣٠ . (٤) طبري ٥/٣٣٨ وما بعدها .

والطبري ١/٩٢٢ ، ٩/٥٠ وما بعدها .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). وسمّوا أنفسهم الشُّرَأة أخذاً من قوله جَلَّ وعز : (ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاءَ مرضاة الله). وكان الذي أثارهم أنهم رأوا عليّاً ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عتيفة اعتبروها جهاداً في سبيل الله وسبيل دينه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا عليّاً ، ولكنه نكّل بهم في موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجَم المرادى أن قتله لينال رضا امرأة منهم^(١) . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فأرأوا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغي أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهي ليست حقّاً لقريش ، إنما هي حق لله وينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشياً . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التي ارتضت الأمويين وما ثبتوه من نظام الوراثة للخلافة في بيّتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السحر في كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالي والأتقياء . وزارهم يُغتمدون سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج في الكوفة بقيادة المستورد بن علفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقَصَّى عليهم . وتهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظُبَيَّان وينتظروهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور في الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان في البصرة ، وهي لذلك تُعدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عتيفاً اضطروا معه إلى الاستتار . وخلّعه ابنه عبيد الله فضى في سياسته ، وعُنف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أَدِيَّة ومن نسايتهم البتائجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمي عداده ألفان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة فكرياء عند « أسك » فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة^(٢) :

(١) الكامل للبرد (طبعة رايث) ص ٥٤٩ . (٢) طبري ٢٢٢/٤ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

ألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة بُنصرُونا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرْعَة بن أسلم العامري ، فلم يكن
حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة
فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركة أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجي وقرمه لقاؤه
فقتلوه غيلةً . وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبي بلال في خروجه
شعراً^(١) وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سَيُـبْر لابن الزبير
في مكة . فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام .
وتوفى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضَّ الخوارج من حول ابن الزبير .
إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفي مقدمتهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق
وعبد الله بن الصَّفَّار وعبد الله بن إياض . وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا بدُّعون
لحاربة السلطان ، وساعدهم في شغبهم فرار عبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد
إلى الشام وانتفاض تميم وحلفاءها على الأزدي ومن آزرها . وانتَهز نافع بن الأزرق
الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمَّال ابن زياد ،
وتخلف عنه نجدة بن عامر وابن الصَّفَّار وابن إياض ، إذ رأوه يغلو في آرائه .
وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب
تحريم ذبائحهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نساءهم وأطفالهم ،
وسلك ابنُ الأزرق معهم القعدةَ من الخوارج . وخالفه في كل ذلك الثلاثة
الذين سميتهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفارَ دينٍ تمسكهم بالتوحيد
والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثمَّ يحل التزوج منهم كما يحل التوارث
بينهم وبين الخوارج ، وحقاً يجب جهادهم ولكن لا يصعُّ قتل أطفالهم . وأجمعوا

على أن القعدة منهم ليسوا كفاراً^(١). ومضى نجدة بأصحابه الذين يسمون بالنجيدات نسبة إليه فنزل البامة، وأعلن هناك الجهاد، أما عبد الله بن الصفار الذي تنسب إليه الصمشرية؛ لصفرة وجوههم من أثر العبادة^(٢) فإنه لم يُعَنَّ الخروج، ومن أجل ذلك شاع القعود عن الجهاد بين أنصاره^(٣).

وقد انضم إلى نافع بن الأزرق كثير من جموع الخوارج الذين دانوا برأيه، وهم يسمون الأزارقة نسبة إليه، وكان من بني حنيفة؛ إلا أن أكثر أنصاره كانوا من بني تميم، ولم يلبث أن جهَّز جيشاً كبيراً اتجه به إلى البصرة فخرج إليه مسلم بن عُبَيْس في جيش ضخم، وما زال يدافعه حتى كانت وقعة دولاب على نهر دُجَيْل في الأهواز وفيها قُتل نافع ومسلم معاً، وتوالت وقائع أخرى قُتل فيها عبد الله بن الماحوز خليفة نافع. وتصدَّى لهم المهلب في سولاف ثم في سِلْيَ وسَلْبَرى، وانسحب الخوارج إلى الجبال بقيادة الزبير بن الماحوز، وهزمهم عمر بن عبيد الله بن معمر عند سابور، فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان وتعقبهم هناك عتاب بن ورقاء وقتل أميرهم الزبير فولَّوا عليهم قَطْرِيَّ بن الفُجاءة وتقدَّم بهم إلى العراق. فوجهَّ إليهم مصعب المهلب، فصدَّهم وما زال يناوئهم حتى قُتل مصعب. وتحوَّل الأمر إلى بني أمية، فأرسلوا إليهم قواداً حالقهم الخزائهم، حينئذ وجهَّ إليهم بشر بن مروان المهلب عدوهم اللدود، وما زال يخضد من شوكتهم في رامهرمز وسابور وكرمان، وتعقبهم إلى جيرفت، ولم يلبث أن دبَّ الخلفاء بينهم. وتصارفوا، إذ خرج على قطري جماعة كبيرة من صفوفه بزعامة ابن عبد رب، وكان أكثرهم من الموالي. ورأى قطري أن ينسحب بجموعه إلى طبرستان، وبذلك قضى المهلب سنة ٧٨ على عبد رب وأصحابه قضاء مبرماً، وتعقب جيش آخرى قطر ياً وصاحبه عبيدة بن هلال، وكلَّت جهودها بالنجاح،

(١) الكامل ص ٦١٠ - ٦١٥ وانظر الفرق بين الفرق لعمادى ٢٢ وما بعدها والنهرستان (طبعة لندن) ص ٩٠، ٩٣، ١٠٠، ١٠٢ - ١٠٢ ص ١٠٢.
(٢) الكامل ص ٦١٥
(٣) نفس المصدر ص ٦١٤ والنهرستان ص ١٠٢ وما بعدها حيث تمت تعميلاً لآراء هـ الفرق.

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التي استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير ^(١) .

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى البصرة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وُعمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة في عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه في اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره . فولّوا عليهم أبا فُدَيْك سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم في سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قَضَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُفْرى في الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرّح ، وكان من وعّاظهم . فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم في سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتل في إحدى الوقائع . فهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غزالة وأمه جَهينة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسة قواد أرسلهم إليه واحداً بعد واحد . ودخل في بعض غاراته مع زوجته غزالة على الحجاج في الكوفة ، فهزّج إلى قصره ، وتحصّن به منه ، وبذلك جعله بالعار . وفي إحدى حروبه نفّر به فرسه ففرق في نهر دُجَيْل سنة ٧٧ غير أن ذكره بتميت خالدة في ذاكرة الخوارج . وظل صُفْرى الموصل بعده لا يهدأون فقد تجدد خروجهم في عهد يزيد بن عبد الملك بتيادة شَوَذِب . وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده في عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسرى ، وكان آخر ثُوَّارهم الضحّاك بن قيس الذي استولى على العراق في سنة ١٢٧ وبإيعاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلياً خلفه فقال شُبَيْل بن عَزْزَةَ الصُّبَيْمِي ^(٢) :

ألم تر أن الله أظهر دينه وصلّت قريش خلف بكر بن وائل
وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نذله بنفسه فقضى على ثورته .

(١) انظر الكامل للبدر ص ٦١٧ - ٧٠٣ . في مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك

(٢) البيان والبيان ٣٤٣/١ وانظر في الأحداث الطبرى الكامل للبدر .

وظل أنصار عبد الله بن إباح المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه في سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق في حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجمهز جيشاً بقيادة أبي حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويّاً لقيه في وادي القرى وهزمه هزيمة ماحقة ففرّ على إثرها إلى مكة ، وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش ففضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بني أمية جهراً ورسراً ، وكان مركزهم الكوفة كما قلنا ، ويُسقطرُ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا في غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقبل الحسين فلا يخفوا إلى نجدته ، ويُقتل في كربلاء ، ويتحوّل قتله في نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلاً وحرّاً لا ذعة^(١) . ثم تكون حركة التوابين بزعامه سليمان بن صُرَد ، ويُفضى عليها ، ويبكيهم أعشى همدان في قصيدة طويلة كانت من المكتّمات في أيام بني أمية^(٢) .

ويتول المختار بعد سليمان بن صُرَد قيادة الشيعة في الكوفة ، فيخرج عنها وإلى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن لعلي بن أبي طالب من امرأة من بني حنيفة . وصرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كَيْسَان ، وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية في الأسس التي قام عليها التشيع ، وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلي ، فهي ليست مفوضة للأمة ، بل هي تنتقل بالوصية في علي وأبائه المعصومين من الأئمة انتقالاً طريقه النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

(١) انظر الطبري في حوادث سنة ١٦١ ومقاتل ص ١٢٦ .

الطالبيين لأبي الفرج الأصماني (طبع الحلبي) (٢) طبري ١٠٢/١ .

ص ١٠٦ . بعدها ومعجم الشعراء قمرزباني

يغلو في تصور على^١، حتى لقد زعم أن به قسماً إلهياً ورثه عن الرسول، وهو ينتقل من بعده في الأئمة واحداً تلو الآخر، وبذلك أشاع فكرتي الحلول والتناسخ، وأيضاً فقد زعم أن علياً سيمود فيملاً الأرض عدلاً وعلماً ونوراً، وبذلك وضع أسس فكرة الرّجعة. ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيّبات.

وكل هذه الأفكار انزلت إلى الكيسانية^(١) وزاد المختار عليها شعوذات^(٢) كثيرة، من ذلك أنه كان يقول بالبّداء على الله أى أن له أن يعدّل في الأحكام كلما بدا له التعديل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحى إليه، فكان إذا وعد أصحابه بحدث شيء، فإن حدث جعله دليلاً على صدق دعواه، وإن لم يحدث يقول: قد بدا لربكم. وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر الذي يخلص العالم من شروره، وكان يتكهن بالأسجاع، واتخذ لأشباعه كرسياً غشاه بالديباج وقال لهم: إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبي طالب، وهو منكم بمنزلة الثابت في بنى إسرائيل. وكان يكثر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء، وفي ذلك يقول سُرّاقة^(٣) البارقي وقد فُتر عنه^(٤):

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيت البلق دُهْمًا مصمّات^(٥)
كفرت بوخيكم وجعلت نذرًا على فتالكم حتى المات

الطوال لدينورى ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه في القاهرة بتحقيق حسين نصار .
(٤) طبرى ٥٢٧/٤ وأغانى ١٣/٩ .
(٥) البلق : الحمامات . مصمّات : لا يخالط دهمها لون آخر .

(١) انظر الفرق بين الفرق للبندادى ص ٣٤ والمحلل والنحل لشهرستانى ص ١٠٩ .
(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ - ١١١ .
(٣) انظر في ترجمة سُرّاقة الطبرى ٥٢٦/٤ وما بعدها والأغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٨ ، ٦٨ ، ١٣/٩ وابن عساكر ٦٩/٦ والأخبار

ويقول أعشى همدان^(١).

شهدتُ عليكم أنكم سَبِيَّةٌ وَأَنى بكم با شُرْطَةُ الكُفْرِ عارفُ
وَأَنضم ما كَرِبْتُكم بِسَكِينَةٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ لُقِّتْ عليه اللِّفَائِفُ^(٢)
وَأِنْ لُبْسُ التَّابُوتِ فُتِنَا وَإِنْ سَمْتُ حَمَامٌ حَوَالِهِ وَفِيكُمْ زَخَارِفُ^(٣)

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هي فرقة الزيدية أنباع زيد بن علي الذي ثار في الكوفة سنة ١٢١ لهمد هشام بن عبد الملك ، وقُتل كما مرَّ في غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته في الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص في الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوزُ إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جَوَّزَ إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، وذهب إلى أن كل فاطمي عالم زاهد سخي شجاع قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للدطالة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية في نشأتها - من أكثر فرق الشيعة اعتدالاً^(٤) ، وشاعرها الأول الذي عاش يردُّ نظريتها الكُفِّيت . وهاشميانه مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غاية . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقُتل . غير أن روايات الشيعة لا تلبث أن تقدِّم من خراسان ، وتكون نهاية بني أمية .

ومن المحقق أن هذه الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية لعصر بني أمية وما جرَّرت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تُشغَلْ بها لفتحت أكثر العالم وتُعبِّرُ وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تحارب وتتناحر في سبيل

(١) المهيوان ٢٧١/٢ .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة التي كان يقصدنا

(٣) فتن : جمع فتان وهو النشأ .

المختار في اتخاذ كرسىه : (وقال لهم نعيم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سَكِينَةٌ

(٤) أنظر في الزيدية ومعتقدهم المال والنحل ص ١١٥ .

الحكم ومطامعه ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمي أو من البيت الأموي أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حنّداً أداً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهلوا التكبير في المصلحة للعامة للشعب وما ينبغي أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون في الخلافة ومن أحقُّ بها من سواء ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُنفك من أجلها الدماء .

وفي كل الأحداث التي قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعه والخوارج وثوراتها وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين ترى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجرى على كل لسان ، وانخذله الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

٤

الحضارة

رأينا في الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا في نعيم الحضارة ، بما صَبَّ فيهما من أموال ورقيق أجنبي وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصر والامصار وزلوا في بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون تأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلئ بأموال الفتيق وغنائم الحرب وما رُسِم لهم في دواوين الدولة من رواتب ثابتة . سرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما تُسرفوا ، إذ ابتنوا القصور ، وطعموا في أواني الذهب والفضة مختلف الأطعمة . ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة ، وتعمطوا بالمسك وغيره من أنواع الطيب . وكان الموالى من ورائهم يبيتون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف : إذ اكتظت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخلموا بناتهم وأبنائهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة . فقد حكى أنه قدّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا

على الكافور في خزان كسرى فاستعملوه في عجبتهم . فلما استبعدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في ميهنتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المتهرة في أمثال ذلك والقتومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفتن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وصائر الماعون والخمر^(١) فأتوا من ذلك وراء الغاية^(٢) .

وقد ورث العرب في الشام المدن هناك ولم يمسروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا في نفس المدن والدور والقصور التي كانت قبل الفتح تتنفس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً في سرعة تحضرهم ، إلا من أثر منهم العيش في البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التي أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قُطر ، ثم توزعها في الناس من أهل الشام أولاً ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنَّ لهم ذلك معاوية الذي كان يتردُّ بالناس على أرجاء وادٍ رَحْبٍ^(٣) ، ويؤثر عنه أنه كان يقول إننا نمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً^(٤) . ويظهر لثم هذا النعيم في ابنه يزيد الذي عُرف عنه كما قدما أنه كان « يشرب الخمر ويتعزف بالطناير ويتعزب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناءؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك لا في قصورهم التي كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها الفسيفساء وصفائح الذهب وتراعى في أفنيائها النافورات فحسب ، بل أيضاً في بيوت الله ، وعناية عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبته التي تعدت إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموي في دمشق وزخرفته بالرخام والفسيفساء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها^(٥) ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسط هذه العناية على المسجد الحرام في مكة ، فأحاله تحفة رائعة^(٦) . وما يُذكر له من مآثر أنه عَمَّ بعبائنه المجدبين وقال لهم : لا تسألوا

(١) الخمرى : أثنى البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البية (٥) الحيوان لجاحظ ٥/١ .

(٦) يعقوب ١/٣٤٠ .

بصر) ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٤/٢٩٨ .

الناس، وأعطى كل مُتَمَعِّدٍ خادماً وكل ضريح قائداً^(١). وتفنن الناس لعهدده في بناء الدور والقصور، وخلقه سليمان قصباً عنايته على الملابس والمطاعم وتأثره الناس لعهدده تأثراً واسعاً^(٢). وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإياضى : فقال : إنه « يشرب الخمر ويلبس الخلّة قُومَتْ بألف دينار... حَبَابَةٌ عَنْ يَمِينِهِ وَسَلَامَةٌ عَنْ يَسَارِهِ تَغْنِيَانِهِ حَتَّى إِذَا أَخَذَ الشَّرَابَ مِنْهُ كُلَّ مَا أَخَذَ قَدَّ ثَوْبَهُ، ثُمَّ التَفَّتَ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَ : أَلَا أَطِيرُ »^(٣) وقد أرسل في طلب مغنى الحجاز ، فجاءه منهم كثيرون .

ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق ، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمول الجواهر والآلئ كما يحدثنا الجهشيارى^(٤) ، ويتروى الطبرى أن يوسف بن عمر حَمَلَ إلى هشام بن عبد الملك لآلئ حَبَّهَا أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف : قُومَ بثلاثة وسبعين ألف دينار^(٥). وقد بلغ الترف أقصاه في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء ، حتى تحول قصر الخلافة في عهده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو ، ويقولون إنه « كان يلبس حول عنقه قلانة ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ، ويغيرها في اليوم مراراً كما تغير الثياب شغفاً »^(٦) .

ومن المؤكد أن أفراد العرب في الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه في هذا الترف الآثم ، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أترفوا ، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية . وبالمثل تحضر من نزولوا في القساطر والقيسروان والأندلس ، وكانت كثرتهم من عرب الشام ، الذين أصابوا حظاً من الحضارة قبل الفتح لنزولهم قديماً في تلك البيئة المتحضرة .

ولإذا ولّينا وجهونا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرّون تحضرّاً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبيتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس ويقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحوّلت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقسّم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب^(١) ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذري في فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة فهو له كثرة القطائع التي تملكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وثبّير وز حصين وحسّان النبطي . وكانت الحمامات تدرّ في البصرة لهذا العصر أموالاً كثيرة ، حتى ليُروى أن بعضها كان يُغلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يملكها العرب وحدهم ، بل كان يملكها أيضاً الموال . وما يذكره البلاذري من حماماتهم حمام آعّين مولى سعد بن أبي وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسواري .

فرى العرب والموال جميعاً يتنافسون بالبصرة في بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذري منها قصر زربى مولى عبد الله بن عامر وقصر أبي نافع مولى عبد الرحمن بن أبي بكر وقصر ابن الأصهباني وقصر شيرويه الأسواري الذي سُمّي «هزارد» لأنه اتخذ فيه ألف باب . وما يدلّ على مبلغ الثائق في بناء هذه القصور ما يروى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يعينه في بناء داره باثني عشر ألف جِدْع^(٢) ، وكذلك ما يروى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التي سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتساوير الحيوانات^(٣) ، وفي نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدايق والبساتين^(٤) .

وتبع ذلك كله الرّفعة والثرف في المطعم والملبس ، حتى لفرى نفرّاً من الأتقياء يلبس اللديباج والقلائس^(٥) ، ونراهم يتكسّون عن هذا التحول في حياتهم بأنهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ . (٢) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان

والتبين ٨٢/٢ .

(٣) راجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة (٤) ابن سعد ١٣٩/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٧ في

١٥٣/١ .

البيضاء وانظر الطبخي ٤٠٢/١ .

طعموا الحَرْدَقَ ولبسوا التُّمْرُقَ^(١). وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَلُ إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُرَوَى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس «ابعث إلى بعمل من عمل خَلَّار^(٢)، من النَحْلِ الأَبْكَارِ، من الدَّسْفِثَارِ^(٣)، الذي لم تَمْسَهُ النار^(٤)». وما يصور هذا الرفة في العيش والتنعيم ما يُرَوَى من أن عبيد الله بن زياد هباً لأبيه حين توفى ستين ثوباً ليكفنه فيها^(٥) ، فلم يعد الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكنى الكفن الواحد .

وطبيعي أن يُعْمَرُوا في ثيابها هذه الحياة الرغيدة بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل^(٦) والمصيد^(٧) والقنص ولعبي^(٨) الشطرنج والردوسرى أن كثيرين تورطوا في إثم الخمر. وقد أخذت الكوفة تُعْنَى بالفناء ولم تكف بمن نشأ فيها من أمثال حُنَيْن^(٩) الحيرى وأحمد^(١٠) النَّصْبِي : فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار^(١١) ابن رامين . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى ، إذ نجد في القسقاط ابن أبجر^(١٢) مغنى المدينة .

ونعصم العرب في خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفيه الغنائم ، وفي كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ في أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إني قد رُت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم^(١٣) ، ويُرَوَى أن مصعب بن الزبير في ولايته على العراق جاءه من هناك نخلة مصنوعة من الذهب ، عتاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

-
- (١) طبرى ٥/٢٨٠ . والمحرق : مفرد نمارق
وعى الطنافس
(٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعمل
النحل .
(٣) الدسفثار : كلمة فارسية معناها
المصور باليد .
(٤) البيان والبيان ٢/١٠٣ .
(٥) طبرى ٤/١١٥ .
(٦) البيان والبيان ٣/٢٥٧ .
(٧) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ والشعر
والشعر ٢/٥٨٨ .
(٨) نقائص جرير والغزقي ص ٧٨٧ .
(٩) أغاني (دار الكتب) ٣٤١/٢ .
(١٠) أغاني ٦/٣٣ .
(١١) أغاني (دار الكتب) ٦٠/١٥ .
(١٢) أغاني ٣/٣٤٦ .
(١٣) الجعشارى ص ٢٩ .

وأخضر ، وقد قومت بالني ألف دينار^(١) . ويُروى أن الإصبهيد في طبرستان صالح يزيد بن المهلب في بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتي ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرْس ، وعلى البرنس طليسان والحام من فضة وسرقة (شقة) من حرير^(٢) . ويُقال إن الجراح الحكمي واليها لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقْرًا يملؤها ذهباً وفضة ويوزعها على من يدخل عليه من أصحابه^(٣) . وكان الأمراء والدهاقين يتقدمون على ولاية خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قومت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسري بألف ألف ، وكانت قصرين : قصرًا من فضة وقصرًا من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة^(٤) . وكان الولاية بيد ورهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُروى أن نصر بن سيار أعدّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارغة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الطباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب^(٥) .

وسط هذه الأمواج من الأموال تحضر العرب في خراسان ، بل أترفوا ترفاً شديداً ، حتى نرى بعض الولاية يقول إن فسيء خراسان لا يني بمطبخي^(٦) ! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خيوان يُطعم عليها الناس^(٧) . وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلعوا هناك ، فلبسوا السراويل والطيالسة والفلانس القصيرة والطويلة^(٨) ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلقوا إلى سماع الطبول والمزامير^(٩) ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضطّر بعض الولاية لتفشيته في الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل^(١٠) .

وفي كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفي كتاب الأغاني تراجم كثيرة لمن كانوا يُسرفون على أنفسهم في شراب الخمر لا في خراسان فقط ، بل أيضاً

(١) الجهمياري ص ٤٤ .

(٧) طبري ٢٨٨/٥ .

(٢) طبري ٢٩٥/٥ .

(٨) لم يقف هذا القيس عند حرب خراسان ،

(٣) بلاذري ص ٤١٥ .

فقد شاع بين حرب العراق وزمادهم . انظر ابن

(٤) طبري ٤٦٥/٥ .

سند ٢٥٥/٦ ، ٢٠٢/٦ ، ٣٩٢/٥ ، ١٣٩/٥ .

(٥) طبري ٥٣٣/٥ .

(٩) طبري ٤٣٧/٥ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٨١/١٤

(١٠) طبري ٢٨٣/٥ .

وطبري ١٣٢/٥ .

في العراق وفي الحجاز ، ولم تكن الخمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت في المدينة طائفة من الخنثيين ، كانوا يتشبهون بالنساء في ثيابهن وعاداتهن من مثل تضيف الشعر وتصفيفه وصيغ الأظافر بالحناء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن ينزل بهم عقاباً صارماً^(١).

وطبعي أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهن في قلوب الرجال ، فتفنن في زينهن تفناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سكينه بنت الحسين. ويروى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حبات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولا دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدّمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة : لقد كان النوم أحبّ إليّ^(٢). ويروى الأغاني أن عائكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته في الحج فقال لها : ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائكة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضفطها وفرّق جماعها ، فقالت : أرى هذه عائكة بنت طلحة ، سألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائكة ، عائكة ، فضفطهم ، سألت عنه ، فقالوا : هذه ماشطها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى ستنيتها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهواذج ، فقالت عائكة : ما عند الله خير وأبقى^(٣).

٥

الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية في هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلي و جدول إسلامي و جدول أجنبي . فأما الجدول الجاهلي فيبدو في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليده الجاهلية ، وقد

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٧١/٤ وما بعدها. (٢) أغاني ١٨٨/١١ .

(٣) أغاني ١٨٢/١١ .

أقبل العرب يعبون من هذا الجدول عباً ، وكأنما صُفُوا عليه صفوا ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْد بن شَرِيَّة رَاوِيَة الْأَخْبَار الْيَمِينِيَّة ، وَدَعْفَل بن حنظلة النَّسَابِيَّة وَالتَّخَار بن أوس العُدْرِي وَزَيْد بن الْكَيْسِ الْقُمَرِي وَشِهَاب بن مَذْعُور وَبْنِي الْكُؤَاء وَغَيْرَهُمْ كَثِيرُونَ . وَفِي أَهْلِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ يَقُولُ مَسْكِين الدَّارِي (١) :

وَحَكْمٌ دَعْفَلًا وَارْحَلٌ إِلَيْهِ وَلَا تُرِحَ الْعَطِيُّ مِنَ الْكَلَالِ
تَعَالَ إِلَى بَنِي الْكُؤَاءِ يَقْضُوا يَعْلَمُهُمْ بِأَنْسَابِ الرِّجَالِ
هَلُمُّ إِلَى ابْنِ مَذْعُورٍ شِهَابٍ يُنَبِّئُ بِالْمَوَافِلِ وَالْعَوَالِ
وَعِنْدَ الْكَيْسِ النَّبِيرِيُّ عِلْمٌ وَلَوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّمَالِ

وَأَمَّا الْجَدُولُ الْإِسْلَامِيُّ فَيَبْدُو فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَحَدِيثِ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِيرَتِهِ وَغَزَوَاتِهِ . ثُمَّ فِي الْفَتْوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَحْدَاثِهَا وَحُرُوبِهَا عَلَى وَجْهِهِ . وَقَدْ أَخَذَ هَذَا الْجَدُولُ بِتَشَعُّبِ شُعْبَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ : شُعْبَةً تَارِيخِيَّةً تُعْنِي بِتَارِيخِ الْإِسْلَامِ عَلَى نَحْوِ مَا يَصُورُ لَنَا ذَلِكَ أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي إِهْتِمَامِهِمَا بِمَغَازِي الرُّسُولِ . وَكَانَ هُنَاكَ مِنْ عُنَا بِمَجْمَعِ أَخْبَارِ أَهْلِ الْكُتُبِ السَّمَاءِيَّةِ مِثْلَ وَهْبِ بْنِ مَنِئِيَّةٍ . وَشُعْبَةً دِينِيَّةً تُعْنِي بِقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِ وَبِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَمَا يَنْتَهِجُ بِهِمَا مِنْ تَشْرِيعٍ وَفَقْهِ . وَقَدْ أَلَّفَ أَصْحَابُ هَذِهِ الشُّعْبَةِ فِي كُلِّ بِلَدٍ إِسْلَامِيٍّ مَدْرَسَةً كَبِيرَةً يَأْخُذُ فِيهَا الْخُلَفَاءُ عَنِ السَّلَفِ ، وَاشْتَهَرَ مِنْ بَيْنِهِمْ بِعَمَكَةِ تَلَامِيذِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَلَى رَأْسِهِمْ عَطَاءٌ وَعِكْرَمَةُ وَبِالْمَدِينَةِ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَطَّابِ وَمَوْلَاهُ نَافِعٌ وَبِعِيدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتْبَةَ وَعُرْوَةُ بْنُ أَدِيْنَةَ وَالزُّهْرِيُّ وَبِالْبَحْرَيْنِ طَاوُوسٌ وَبِالْكُوفَةِ تَلَامِيذُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعَلَى رَأْسِهِمُ الشَّعْبِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَشُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْقَاضِي وَبِالْبَصْرَةِ ابْنُ سِيرِينَ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَفَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مَعَاوِيَةَ وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ وَبِخُرَاسَانَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَرْزَاهِمٍ وَبِالشَّامِ شَهْرَبْنُ حَنْشَبٌ وَمَكْحُولٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَبِمِصْرَ الصَّامِكِيُّ وَبِزَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْبِيُّ .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى أخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين
العامين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما ينصل بهما . وكان منهم
معلمون لأولاد الخاصة^(١) من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبد الصمد
ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتاتيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج
التقى بأنه هو وأباه كانا معلمين بالطائف . ومن هؤلاء المعلمين الكُتُمِيت بن
زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة ، وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى
خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرى الطرماح ، وفيه يقول بعض من شاهده
هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء »^(٢) .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبي جاء
العرب من ملابتهم للأثم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم
من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني وطريقة
استغلال الأرض وشق الترع والقنوات : كما تعرفوا على طرق جباية الخراج
وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر
يستعينون بالأوليين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخبرين فى دواوين
مصر والشام : وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك . إذ عُرِبَت تلك الدواوين .
وقد دفعهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم
الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد
تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى
فتحوها الثقافة الهيلينية . وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة
دنية وغير دينية . وكانت تُعنى بهذه الثقافة مدرسة جُسُودِيسابور فى إيران
ومدارس أخرى فى الرها ونصيبين وأنطاكية وقنصرين وحران والإسكندرية
كما كانت تعزى بعض الأدبيرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

(١) انظر فى ملاء المدن الخاصة ومن يلهم
من معلمى الكتاتيب : البيان والتبيين ٢٠١/١ (٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٢ .
والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنبيرج) ص ٢٧١ .

في هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، ومن اشتهر منهم في هذا العصر «سويرس سيديخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوي وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعَسِّنُونَ بالمنطق الأرسططاليسي والفلسفة اليونانية^(١).

وطبيعي أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصراني وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقي الذي كان يشرف على الشؤون المالية لغير خليفة أموي بأنهم كانوا يكثر من جداله : وله مصنفات مختلفة ، منها محاوراة مع بعض المسلمين في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة^(٢) . وقد مضى العرب يطلعون الوقوف على ماعدن القوم من وجوه الاستدلال المنطقي ، حتى يستعينوا على دحض الشبهة ، ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغي أن نلاحظ أن كثيرين من حملة هذه الثقافة الهلينية المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طوبى لهذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُترجم ، فقد كان أهلها يعرفون تعريباً تاماً ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك ما يُروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومي يسمى ماريانس ليعلمه الكيمياء^(٣) ، كما استعان بأصطفى القديم : «يقول الجاحظ : «هو أول من ترجمت له كتب للنجوم والطب والكيمياء»^(٤) . ويذكر ابن النديم بعض كتبه في ذلك^(٥) . وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصري أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً في الطب للقس أهرن بن أعين^(٦) ، وقد ذكر الحكم بن

(١) انظر مقالة مايرهوف «من الإسكندرية إلى بغداد» في التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب حق (الطبعة العربية) ٣١١/٢ .

(٣) وفیات الاعيان (طبعة ديسلان)

. ٢٤٦/١

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٥) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة)

ص ٣٢٨ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ١٦٢/١ وتاريخ

الحكام (مختصر الزوزني) طبع لبيز ص ٣٢٤

وانظر نقولا من ماسرجويه في الحيوان ٣/٢٧٥ ،

. ٣٦١/٥

عبدل الكوفي أهرن وطبه في بعض شعره^(١). وُروى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك تَرَجَّم بعض رسائل لأرسطاليس^(٢). كما يروى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية^(٣).

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة في عصر بني أمية إنما هي رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الميلىنية إلى حبور العرب بكل ما كان فيها من منطق يوناني ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسي كى يتم ، أو كى تم دورته ، فقد كان كل شىء فى هذا العصر الأموى يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا أنفاً عن طريق المشاهدة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربى دُعم فى هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دُعم نجد آثاره فى ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار فى كثرة المناظرات التى نشبت بين الآراء المختلفة فى السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجع إلى أخبار الخوارج فستجدهم يثيرون الجدل فى كل مكان ، وجدالم مع على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، وُروى أن عبد الملك بن مروان ألقى برجل منهم ، فجعل ييسط له من قولم ويزين له من مذهبه بلسان طلق وأزناط بيضاء ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما بُتت الله على من الحجة وقرر فى قلبى من الحق^(٤). وهذا رجل من هاشمهم فما بالناس بزعمائهم ، وشييد المبرد فى كتابه « الكامل » بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين^(٥) ، وقد جعلهم

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وحيون الأخبار ٤/٦٢ . ص ٨١ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ . (٤) الكامل (طبعة رابطة) ص ٥٧٣ .

(٣) راجع صفحات من إيران لصاىق نشأت . (٥) الكامل ص ٥٦١ .

ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو المصرية)

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونَجْدِيَّة وصُفْرِيَّة وإِباضِيَّة، وشكازيد بن جُنْدَب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال ^(١) :

كُنَّا أَنَسًا عَلَى دِينِ فَرَقْنَا فِي الْجِدَالِ تَحَلُّطُ الْجِدِّ بِاللَّعِبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالًا ضَلَّ سَبِيلَهُمْ عَنْ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم ، ومن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن علي بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعي ، وقد تحول شاعره الكميّ بأشعاره الملقّبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة في المذهب الزيدي تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلاً في مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفاء وفي مجالسهم العامة والخاصة ، ونُروى من ذلك مناظرة ^(٢) بين قتادة والزُهري في مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى ^(٣) بين ابن شبرمة وإبراهيم بن معاوية ، تناولوا فيها نحو سبعين مسألة . ويُروى أن الشعبي الكوفي كان يجلس في مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه ^(٤) . وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أي اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السخيتاني يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف ^(٥) » ، وأدام ذلك إلى تحكيم العقل في آرائهم والتدقيق في مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُموا أهل الرأي لغلبة القياس على فقههم ^(٦) .

وقد تجادلوا طويلاً في مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام في الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل التي أثارت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار في أفعاله أو هو

(١) البيان والتبيين ١/٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢١٣ .

(٤) البيان والتبيين ٢/٩٨ .

(٥) ابن سعد ٧ ق ٢ ص ٥ .

(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

مُجْبَرٌ مَسِيرٌ ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصري يدافعون عن الرأي الأول ، إذ لو كان الإنسان مسيراً بقضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسقط وَعَدُ اللَّهِ وَعِيدُهُ .

واصطف^١ أمام القدرية أصحاب مذهب الجبر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر . وكان هذا المذهب يُرضى الأمويين ، لأنه يصرف الناس عن التفكير في ولايتهم وتدابيرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به ، ومن سَمَ نرى شعراءهم يردّون هذه الفكرة طويلاً على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان^(١) :

اللَّهُ طَوْفُكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى وَاللَّهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرَجَّعة فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة ، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل ، فال مؤمن مسلم وإن لم يؤدّ الفروض الدينية ، إذ المَعُولُ في الإيمان على التصديق بالقلب . وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جلّ جلاله ، ومن سَمَ رأوا إرجاء الحكم في أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم . وجعلهم ذلك يصطلمون بالدولة ، لما تنهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، ويلقانا منهم أبو ربيعة سنة ١٠٢ في نفر من أصحابه يجارب مع يزيد ابن المهلب في ثورته على الأمويين^(٢) . وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم في الكوفة من أمثال عتّو بن عبد الله بن عتبة الهذلي ، وناظرهم في آرائهم^(٣) . وبنى عتّو يرجع من عنده ، فيأمر منهم ، ويتضم إلى الشيعة ، مصوراً ذلك في أبيات تُنسب إليه تجرى على هذا النمط^(٤) :

وَأَوَّلَ مَا نَفَارَقُ غَيْرَ شَكٍّ نَفَارَقُ مَا يَقُولُ الْمُرْجُثُونَ
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ جَوْرِ وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ بِجَائِرِينَ
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلَالٌ وَقَدْ حَرُمَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ

(١) ديوان جرير (طبعة الصادي) ص ١٧٤ . (٢) ابن سعد ٢١٨/٦ .
(٣) طبري ٣٤٠/٥ . (٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

وواضح أنه يعصف المرجئة بأنهم يستحلون دماء المسلمين مما كان سبباً في تعقب الأمويين لهم ، وقَتَلَهُمْ أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لغَيْبِلان^(١) النمشي.

ولم يُعَرَفْ هذا المذهب في العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار في خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنَة وهو من مُرْجئة الجبيرة ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول في نضاعيفها^(٢) :

المسلمون على الإسلام كلُّهم والمشركون أشنؤا دينهم قَدَدَا^(٣)
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا مِ النَّاسِ شِرْكاً إِذَا مَا وَحَدُوا الصَّمَدَا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له رَدٌّ وما يَقْضِي من شيءٍ يَكُنْ رَشَدَا
كلُّ الخوارج مُخْطِئٌ في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على عثمانٍ فإنهما عبدان لم يُشْرِكَا بالله مَذْ عَبَدَا
ويتوقى ثابت ، ويظهر هناك جَهَنَّم بن صفوان أحد رهوس الإرجاء^(٤) ، ويضع يده في يد الحارث بن سُرَيْج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ، ويُقَضَّى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدورية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التي انبثق عنها هذا المذهب هي مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصري ومن تابعوه من القدورية يرون أنه مؤمن فاستق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالاً عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدورية ، ودفع الحسن عمرو بن عُبَيْدٍ ليجادله فيه . فأقنعه واصل برأيه^(٥) ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن ، وصُيِّبَا هما ومن

(١) انظر في ترجمته لسان الميزان ٤/٢٤٤
والحارث ص ٢٤٤ وفي هذين الكتابين أنه كان
قندياً ولكن في الفهرست ص ١٧١ والمثل والنحل
(طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم
ضداده في مرجئة القدورية . وراجع فيه المنتقى للأمل
لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

(٢) أغاني ١٤/٢٧٠ .
(٣) أشنؤا : فرقوا . قَدَا : طرائق وفرقا .
(٤) انظر المثل والنحل ص ٦٠ حيث يوضح
كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجهمية نسبة
بعض أصول مقالاتها .
(٥) انظر في ذلك آمال المرتضى ١/١٦٥ .

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ،
تسندهما في ذلك دراسة مستفيضة لآي القرآن الكريم وعقل دعوامه بالمنطق وأدله
الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر
الاعتزال وأصبح في العصر العباسي الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

وإنما أظننا في هذا الجانب لندل على أن العقل العربي في عصر بني أمية أمدت ورافدت
كثيرة ، دعمته دعماً ، مما كان له آثار بعيدة في أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندجين
في الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات ، ويسوق الرواة من ذلك
مجادلة بين ذى الرمة ورؤبة في القدر ، وكان أولهما قدرياً وثانيهما جبرياً^(١) . وتأثير
هذه المجادلات تحوّل جرير والفرزدق يتجادلان جدالاً عنيفاً في عشيرتهما
من جهة وفي قيس وتيمم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف في نقائضهما ،
وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل
النحل . وكل ذلك من آثار هذا التطور الذي أصاب العقل العربي ، والذي
جعله يتدفع في البحث والمناظرة والتدرب على جتمع البراهين والأدلة في أي
موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية
تعليمية ، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكهميت والطرمّاح يحشدون
في أشعارهم أوابد اللغة وشواردها ، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرّجّاز
وعلى رأسهم العجاج ورؤبة أن قدّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

٦

الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لا ريب في أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً في حياة الإنسان ، وبالتالي
في كل ما ينتج من أعمال وآثار . وإذا أخذنا ننظر في حياة الشعراء لهذا العصر
وجدنا للاقتصاد أثره العميق في اتجاهاتهم ، وهل يستطيع تفسير شيوع الغزل

المادى العريخ في مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف في نجد وبيئات
البادى إلا برد ذلك إلى نعومة العيش وما كان يستعظم به سكان تلك المدن من ثراء
عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبادى من شطف العيش وخشونته ، ولا
نكر أثر الإسلام في نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة
الاقتصادى ومدى عمله في النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع
المدنيخ في العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا برد ذلك إلى ظهور
طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاقاً من الحكام الذين أداروا شئون الدولة
في الخراج وغير الخراج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم
جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من
مديح ، يقول ذو الرمة^(١) :

وما كان مالى من تراث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مائمه
ولكن عطاء الله من كل رحلته إلى كل محبوب السراقد خضرم^(٢)

وقد مضى كثيرون من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو
إليه نفوسهم من صور الترف مما أدى ، وخاصة في أواخر العصر ، إلى ذبوع
شعر الخمر والمجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتمعن النزاع السياسى الحاد الذى نشب طوال العصر وتكونت بسببه
فرق الزبيريين والشيعة والخوراج ، أبناء يعود في كثير من جوانبه إلى بواهب
اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة
ينثرونها على أنصارهم ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب
الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق
إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل الجنية التى جعل لها الأمويون
معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق
إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادة ، بينما ذهب الخوراج إلى أنه لا يمكن
أن تتحقق إلا برد الأمر إلى الأمة لنتختار أوليائه الصالحين ، ومضوا يجاهدون
الأمويين جهاداً عنيفاً .

(٢) الخضرم : كبير الخيل والجود .

(١) الديوان ص ٦٢٢ .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاية بني أمية ومن كانوا يقيمهم على شئون الخراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم في جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين في ذلك إلاّ ولا ذمة ، فللهلب مثلاً حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجن لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم ^(١) ، بينما احتجن ابنه يزيد حين صرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم ^(٢) ، ويقال إن راتب خالد القسري في ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان ينصني لنفسه - بوسائل غير مشروعة - ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرج منه ومن موظفيه يوسف الثقي حين ولي بعده العراق سبعين ألف ألف ^(٣) . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لرى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة بن بدر الغداني التميمي حين ولي على سرق إحدى كور الأهواز ^(٤) :

أحارِبَ بَنَ بَذْرِ قَدْ وَلَيْتَ إِمَارَةً فَكُنْ جَرْدًا فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ
وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة في نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوّر ذلك شكوى الراعي التي وجه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجذبة أصابت قومه بني ثُمَيْر . ومع ذلك ففرض عليهم السعاة فروضاً ثقيلة ، فلما لم يؤدوها صَبَّوْا عَلَيْهِمُ السَّيَاطُ وَأَرْهَقُوهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ عُسْرًا ، ومن قوله في تلك الشكوى المبررة ^(٥) :

أَخْلَيْفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعَشَرٌ خُنَفَاءُ نَسْجُدُ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلَا
إِنَّ السَّعَاةَ عَصُولُكَ يَوْمَ أَمْرِهِمْ وَأَتَوْا دَوَاهِيَّ لَوْ عَلِمْتَ وَغُولَا
فَادْفَعْ مَظَالِمَ عَيْلَتِ أَبْنَاءِنَا عَنَا وَأَنْقِذْ شَتْلُونَا الْمَأْكُولَا ^(٦)

(١) الحيوان ١١٦/٣ والشعر والشعراء ٢٠١/٧١٥ .

(٥) سميرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي

(طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .

(٦) عيلت : أنفرت . الشلو : انضم .

(١) طبرى ١٣٥/٥ .

(٢) طبرى ٣٠٣/٥ وانظر ٣١٢/٥ .

(٣) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا)

٣٨٨ ٤٥٥/٢ .

وإذا كان هذا يحدث في نجد والبادية فما كان يحدث في العراق وخراسان أدهى وأمر ، فقد مضى الولاة وجباة الخراج يعترضون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقاً والنفوس سخطاً ووجداً ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة في الحكم لا في عهد بنى أمية فحسب ، بل أيضاً في عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همام السلولي وجه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عماله في العراق ومن أقامهم هناك على الخراج ، وهو يستلها بقوله ^(١) :

يا بنَ الزُّبيرِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَمْ يَبْلُغَكَ مَا فَعَلَ الْعُمَالُ بِالْعَمَلِ
يَا عَاوَةَ التُّجَّارِ طَعَامَ الْأَرْضِ وَاقْتَسَمُوا صُلْبَ الْخِرَاجِ شِحَاحاً قِسْمَةَ النَّفْلِ ^(٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لحيا نهم في الحكم ومطالباً بحاسبتهم على ما استخاصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحملين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن وليّ الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحطّ الجزية عن أسلموا من الموالي . وبعث على العراق وخراسان عملاً جديداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال ^(٣) :

إِنَّ الَّذِينَ بَعَثْتَ فِي أَقْطَارِهَا نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتَحْلَ الْمَحْرَمُ
طُلُسَ الثِّيَابِ عَلَى مَنَابِرِ أَرْضِنَا كُلُّ يَجُورُ وَكُلُّهُمْ يَنْظَلُمُ ^(٤)

ويناديه كعب الأشقرى من خراسان ^(٥) :

إِنْ كُنْتَ تَحْفَظُ مَا يَلِيكَ فَلْنَمَّا عُمَالُ أَرْضِكَ بِالْبِلَادِ ذُنَابُ
لَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّذِي تَدْعُو لَهُ حَتَّى تَجُلَّدَ بِالسُّيُوفِ رِقَابُ

عن فداوة نفوسهم وأنهم ليسوا أعماء . ينظلم
حقه : يظلمه إياه .

(٥) البيان والتبيين ٣/ ٣٥٨ .

(١) أنساب الأشراف ١٩١/٥ وما بعدها .

(٢) النفل : غنائم الحروب .

(٣) البيان والتبيين ٣/ ٣٥٩ .

(٤) طلس : غير ، وهو يكتى بعمرة الثياب

وَيُتَوَفَّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم. ويثور الحارث ابن سُرَيْج بخراسان في العقد الثاني من القرن الثاني مطالباً برفع الجزية عن أسلموا من الموالى ، ويتولّى هناك نصر بن سبار في العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالى مثبتاً للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالى ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعصت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يَرْعَوْنَهُمْ أَخَوْتَهُمْ في الإسلام. ويسوق المستشرقون دليلاً قوياً على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث في أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالى السّواد في العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردهم إلى قُرَاهِم ونَقَشَ أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها ^(١) وظاهر الحادث عنف شديد في الظّلم ولكن قد يكون الحجاج اضْطُرَّ إلى ذلك لتعطل الزراعة في السّواد وبالتالي تعطل الخراج الذي كان يُسْتَفَع منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التي كانت مفروضة على مسلمى الموالى ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُرَّاء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح في إنكارها إلحاحاً حتى رُفِعَتْ عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في العقد الفريد ، صوِّر فيه العرب يسيئون في المعاملة إلى الموالى لعصر بنى أمية إساءة بالغة ^(٢) . غير أن بين أبدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يَضْطَهِدُون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق في الكوفة والبصرة نَبَهَ شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف ^(٣) . أما ما يلاحظه قلهوزن من أنهم كانوا يحاربون في جيش المختار رجالة لا فُرْسَاناً ^(٤) فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد في خراسان مثل حُرَيْث بن قُتَيْبَة وأخيه ثابت وحيّان النبطي وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

(١) طبري ١٨٢/٥ وتاريخ الدولة العربية (٣) المجلد ٣٤٠ .

لقلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها . (٤) تاريخ لدولة العربية لقلهوزن ص ٢٣٧ .

(٢) العقد الفريد ٤٠٣/٣ وما بعدها .

وقد مرّ بنا في حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات
تُسَمَّى ^١ في البصرة . فهم لم يكونوا في مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعل
مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتى على الخلفاء يمدح
طائفة منهم مثل عبد الله ^(١) بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة ^(٢)
ابن سنان مولى بني مسعم وكثير ^(٣) بن سيار مولى بني سعد ومسلم ^(٤) بن المسيب
مولى بني بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجد في إحدى قصائده يفتخر
بمعد ^٥ مدخلا فيها قضاة كما يفتخر بالموالي ذاكر أنهم يتسبون إلى إسحق بن
إبراهيم عليهما السلام . يقول ^(٥) :

أنا ابنُ الثُّرى أدعو قضاة ناصرى وآل نزارٍ ما أعزُّ وأكثرا ^(٦)
وأبناء إسحاق اللبث إذا ارتدوا محامل موتٍ لابسين السُّنورا ^(٧)
فبوما سراويلُ الحديد عليهم وبوما ترى خزا وعصبا مُثيرا ^(٨)
إذا افتخروا عدوا الصَّهْبَدَ منهم وكسرى وآل الهُرْمزان وقبصرا ^(٩)

ويصرّح بأن الموالي أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب
واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا أب كان مهدياً نبياً مُطهراً

ولا تهنا صفة الأسطورة التي ردّها جرير في هذه الأبيات ، والتي تجعل
الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهنا دلالتها على ما كان يسود بين
العرب من الإحساس بأنهم والموالي شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

-
- (١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي)
ص ٢ :
(٢) الديوان ص ١٠٦ .
(٣) الديوان ص ٢٨٧ .
(٤) الديوان ص ٨٨٧ .
(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوي)
ص ٢٤٢ .
(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم
عند الثرى .
(٧) السُّنور : السلاح . وهو يصف بذلك
الفرس .
(٨) الخز : الحرير . المصب : ضرب من
التياب الغنية . متيرا : متوجهاً بالقصب وله
أعداء ووشى .
(٩) الصبغة : لقب امرأة ليران .

(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم

على الإسلام والعروية ، ونرى جريراً في نفس القصيدة بنوّه بمولى من البربر
بسمى وضاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُطْعَمًا فَأَوْرَثَ مجداً باقياً أهلَ بَرَبَرَا
والحق أن العرب اندمجوا في الموالي منذ الأيام الأولى في الفتوح . فقد
ساكنهم وتزوجوا منهم : وعربوهم عن طريق نظام الولاء الذي شرعه الإسلام .
إذ أدخلهم في عداد قبائلهم ، وكأنما أردوا بذلك أن يُلغوا جنسياتهم إلقاءً ،
فهم عربٌ ولأولادهم . واستشعر الموالي ذلك في عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نظمَ
الشعر وجدناهم يقفون في صفوف قبائلهم ذاتين عنها ومفاخرين بنفس روح
أبنائهم الأصليين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس
فقد عاش لقبائته بحامى عنها ويصول^(١) : ومثاه هرون^(٢) مولى الأزد وثروان^(٣)
مولى بني عُذْرَة وشُقْران^(٤) مولى بني سَلَامان . وكانت القبائل تبادلهم نفس
التعصب ، فإذا جنى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به في السجن لم يقرقرار لقبيلته
حتى تُردَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف البجانية من ابن مفرغ
حين زُجَّ به عَبَّاد بن زياد في سجن سجستان ، فلما ما زالت تتشفع فيه عند
الخليفة وتوصل حتى أمر بإطلاق سراحه^(٥) .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالي كأواصر الرحم ،
أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائي شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس^(٦)
فإنه يعد شذوذاً في العصر : وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التي
كان يفتخر فيها كل عربي بقبيلته مجدداً لها ومشيداً بها محالوا الغضب من القبائل
التي تعاديا ، وكان ذلك نبه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسي ، وقد لقي
جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه
يفخر بأصله الفارسي .

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٨٩/١٣ ، (الكتب) ٣٠٨/٧ .
 (٢) ٣٨٠/١٥ وما بعدها .
 (٣) الحيوان للبلاغي (طبع الحلبي) ٧٥/٧ .
 (٤) البيان والتبيين ٣/٣٠٩ .
 (٥) نفس المصدر ١٠٨/١ وأغاني (دار
 (٦) انظر ترجمته في أغاني دار الكتب
 ١١١/٤ وما بعدها .

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالى أنفسهم في هذا العصر ،
وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذى أعلن النزعة الشعبوية في
عهد العباسيين إعلاناً قوياً بفتخر في هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً
عنيفاً^(١) . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأسمائهم
الأعجميات مثل ابن ميادة^(٢) ، ومثل أبى نُخَيْلَةَ الذى يقول^(٣) :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطْتُ العَجَمُ فأنا فيما شئتُ من خالٍ وعمٍ
ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض
المستشرقين من أن العرب والموالى كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض في هذا
العصر^(٤) ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه
كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً
مشتركاً . وحققاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولائها من العرب ، ولكنها
فسحت للموالى في شئون الحراج وفي الدواوين حتى بعد أن تُرجمت وعُربت ،
على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله
عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالى لهذا العصر وأنها كانت
تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها
من وعظ وإمامة للمسلمين في المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم
لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل إنهم يبرزونهم ، حتى
لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله
أن الموالى شاركوا في الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا
يُعدُّون فعلا عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربى ، على أنه أدبهم ، فهجر وآدابهم
المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة
القرآن الكريم التى ملكت أرواحهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

(١) أغاني ١٣٩/٣ والديوان ٣١٦/١ ، (٣) البيان والتبيين ٢٢٥/٣ والشعر والشعراء
٥٨٣/٢ .
(٢) ٢٠٠/٣ ، ٨/٢ .
(٣) أغاني ٢٦١/٢ .
(٤) قلهووزن ص ٤٧٢ وفي مواضع متفرقة .

الفصل الثالث

شعراء المديح والهجاء

١

شعراء المديح

تعود العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوّهوا في أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملاً إلا إذا تغنى بنبأته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السُنّة في الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يَحْفَظَ شاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبرى لترى مصداق ذلك واضحاً ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، ونعرض لمُدّاح الأولين في الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم من لم يتعلق الشعراء بمدحهم ونثر ورود الثناء في طريقه .

وأول من يلقانا من الولاة البارزين في العراق لهذا العصر زياد بن أبيه مدوح حارثة^(١) بن بدر الغُدّاني التميمي ومسكين^(٢) الدارى ، وقد شُغِف عبد الله بن الزبير الأسدي بمدح ابنه عبيد الله^(٣) . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولّى عليه أخاه مصعباً ، وكان جواداً سمحاً ، فالتفت حوله كثير من الشعراء بمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى^(٤) همدان ودكّين^(٥) الفُقَيْمى . ويلخل العراق في طاعة عبد الملك بن مروان فيولّى عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى وهو من الأجواد الممدحين^(٦) ولا يلبث أن يعزله ويولى أخاه بشراً ، وكان من فتیان قريش سخياً ونجدة ، وكان ممدّحاً مدحه جرير^(٧) والفردق والأخطل

- (١) أغاني (سأى) ١٩/٢١ وطبرى ٤/١٦٨ (٤) أغاني ٣٢/٦ وطبرى ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .
والجرد ص ١٧٩ .
(٥) مسمم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٦ .
(٦) ابن سلام ص ٢٥٩ .
(٧) الهجر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبرى ٥/٤٥ .
(٣) أغاني (دار الكتب) ١٤/٢٢٧ ، ٢٣٥ . حيث يذكر أنه وزع عمل الناس في يوم واحد ألف ألف .

وكثير وأعشى بنى شيبان^(١) ، كما ملحه نصيب^(٢) والأقبشير^(٣) الأسدي
وأمن^(٤) بن خريم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفي ،
ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابيه من مثل جرير
والفرزدق وأعشى^(٥) بنى شيبان وحُمَيد^(٦) الأرقط وإيلي^(٧) الأخبيلية . وكانت
فيه قسوة جعلت من يتفردون ببعض الجنايات حين يقعون في يده يمدحونه
مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العدّيل بن القرح الميجليّ فيه^(٨) :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفهُ لكلِّ إمامٍ مُصطَفَى وخبيلُ
بنى قُبّة الإسلام حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسولُ
ولعل من الطريف أن مجد محمد بن عبد الله النخعي الثقفي^(٩) يهوى أخته
زينب ، وينظم فيها غزلاً كثيراً يملؤه موجدة عليه : فيطلبه ويهرب منه إلى
اليمن ويركب البحر هناك : ثم يعود إليه : وقد ضاقت به الأرض ، متوسلاً
بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب . وسنعرض لمدّاحه
عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور في عهد يزيد بن عبد الملك
ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويوليّه العراق لفترة محدودة ، ومن مدّاحه أبو
نُخَيْلَة^(١٠) وأعشى^(١١) تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزاري ، وللفرزدق

في الأغاني (سأسي) ١١/٢٠ والشعر والشعراء

١/٣٧٥ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٥ والخزانة

٢/٢٦٧ .

(٩) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب)

٦/١٩٠ ومجمّع الشعراء لفرزباني (طبعة الحلبي)

ص ٣٤٢ .

(١٠) انظر الأغاني (سأسي) ١٨/١٤٠ .

(١١) مات حل الصرافية سنة ٩٢ . انظر في

ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٠ وما

بعدها ومجمّع الأدباء لهاتوت ١١/١٣٢ ومجلة

المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

(١) ابن سلام ص ٣٧٧ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١/٣٢٤ .

(٣) أغاني ١١/٢٧٠ .

(٤) انظر ترجمة أمين في الشعر والشعراء

١/٥٢٦ والأغاني (طبع سأسي) ٢١/٢٥

والإصابة ١/٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣/١٨٧

والמושج ص ٢٢١ .

(٥) أغاني (سأسي) ١٦/١٥٦ .

(٦) طبري د/١٩٠ وانظر ترجمته في مجمّع

الأدباء ١١/١٢٢ .

(٧) أغاني (دار الكتب) ١١/٢٤٨ .

(٨) البيان والتبيين ١/٣٩١ وانظر ترجمته

فيه مدائح^(١١) ، لعله أراد أن يفضل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائح في خالده القسرى الذى ولى بعده^(١٢) ، وكأنه يكثر عن هجائه لما ببعض المدائح . ومن مدحوا خالدا القسرى جرير^(١٣) ، وأبو الشَّغْب وفيه يقول حين عُزل وصح: ^(١٤)

فإن نَسَجْنُوا الْقَسْرَى لَا نَسَجْنُوا اسْمَهُ وَلَا نَسَجْنُوا مَعْرُوفَهُ فِي الْقَبَائِلِ

وكان الذى ولىّ العراق بعده يوسف الثقفى . ونرى الكميت يمدحه بقية خوفاً من بطشه^(١٥) . وآخر ولاية هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جواداً معطاءً ، وهو ممدوح أبى عطاء^(١٦) السُّنْدَى وبشار^(١٧) بن بُرْدٍ وخلف^(١٨) بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء في العراق هؤلاء الولاة وحدهم ، فقد كانوا يمدحون أيضاً نوابهم وأصحاب شُرطتهم وعالمهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفى نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق^(١٩) وجرير^(٢٠) ومثل مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسرى . ومن مُدَّاحه الفرزدق^(٢١) ، ومثل بلال بن أبى بردة ، نائب القسرى على البصرة ، وهو ممدوح ذى الرمة^(٢٢) والفرزدق^(٢٣) وحزمة^(٢٤) بن بيشر . وكان منقطعاً إليه ، ومثل أبان بن الوائيد البجلي صاحب الخراج في عهد القسرى . ومن مُدَّاحه الفرزدق^(٢٥) . ومثل قطن بن مدركة الكلابى وإلى البحرين . وقد خصه الفرزدق

-
- | | |
|---|---|
| (١) الديوان (طبعة الصاوى) ص ٢٨٠ . | (١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ . |
| (٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ . | (١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) والبيان والتبيين ١/١٤٨ وأغانى (سالى) ٢٥٩/٣٨ والمجرد ص ٢٥٩ . |
| (٣) الديوان (طبعة الصاوى) ص ١٧٤ . | (١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ . |
| (٤) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ . | (١٤) انظر في ترجمته الأغانى (طبعة السالى) ١٤/١٥ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٨٠ . |
| (٥) أغانى (سالى) ١١٦/١٥ . | (١٥) وراجع فهرس البيان والتبيين والحيوان . |
| (٦) الشعر والشعراء ٢/٧٤٥ . | (١٥) الديوان ص ٦٦ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ . |
| (٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٤٥ . | |
| (٨) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٦٩٢ . | |
| (٩) الديوان ص ٧٣ . | |
| (١٠) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨ وما بعدها . | |

ببعض مدائمه^(١) ، وكان المهاجر بن عبد الله وإلى البحرين جواداً مدحاً ، ومن مداحه جرير^(٢) وأبو نَحْسِلَةَ^(٣) وذو الرمة^(٤) . ومن ولاية فارس الذين طار ذكركم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مسعود ، وله أحاديث كثيرة في جوده^(٥) وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم^(٦) وأبو حُرْابة^(٧) ومن ولاية الرميّ المدحّين خالد بن عتّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همدان^(٨) .

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك يَكِيلُون الأموال والعطايا للشعراء كيلاً ، وهم بدورهم يثرون عليهم رياحين مديحهم نثراً . ولعل أسرة لم تَحْظَ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن أبي صفرة الأزدي الذي قضى على الأزارقة في فارس ، ثم وليّ للحجاج خراسان سنة ٧٨ وظلّ بها إلى أن توفّي سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى أن صرفه عنها وولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر . وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البرزوخ . إذ ولّى سليمان بن عبد الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق . ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله وسجته في أموال خراج خراسان ، ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه : غير أنه لم يلبث أن قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره هلال بن أحوز المازني .

ولعلنا لا نُبْعِد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم في عصر بني أمية مقام أسرة البرامكة في عصر بني العباس ، إذ كان أفرادها يحوروا قباضة ، فنوّهم الشعراء طويلاً في خراسان والعراق جميعاً : ويؤثّر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن يشتري الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعرفة »^(٩) ونرى الشعراء مصطفين

(١) الديوان ص ٧٠٠ . (٦) أغاني (دار الكتب) ١٥/٣٧٩/٣٨٥ .

(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ . (٧) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة ساسي)

(٣) أغاني (ساسى) ١٨/١٤٥ وما بعدها . ١٥٢/١٩ .

(٤) انظر فهرس ديوانه . (٨) أغاني (دار الكتب) ٦/٥٦ .

(٥) المهر ص ١٥١ . (٩) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفي مقدمتهم كعب^(١) الأشقرى وزباد^(٢) الأعجم
وحزمة^(٣) بن بيض والمغيرة^(٤) بن حبشاه التميمي ونهار^(٥) بن توسعة ، وله يرثيه حين
توفي بمرور الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقربَ للغيِّ ومات الندى والحزم بعد المهلبِ
أقاما بمرور الروذ رهنَ ضريحهِ وقد غُيبَا عن كل شرقٍ ومغربِ
وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونوالاً غمراً ، وتوفى قبله بقليل ، فبكاه
الشعراء طويلاً على شاكلته قول زياد الأعجم في مريئة بديعة له^(٦) :

إن الساحةَ والمروعةَ ضُمَّنا قُبُراً بمرورَ على الطريق الواضِحِ
ولا يكاد يوجد شاعر في العراق وخراسان لأبام أخيه يزيد إلا ملحه ونوه
به تنويهاً بعيداً ، ومن مدّاحه الفرزدق^(٧) ونهار^(٨) بن توسعة وحزمة^(٩) بن
بيض وحاجب^(١٠) الفيل والعدنيل بن الفرخ المِجْلِيّ وفيه يقول^(١١) :

يَدَاهُ يَدٌ بِالْعُرْفِ تَنْهَبُ مَا حَوَتْ وَأُخْرَى عَلَى الْأَعْدَاءِ تَسْطُو وَتَجْرُحُ
وكان كعب الأشقرى وثابت قُطْنَةُ لا يفارقان مجلسه^(١٢) ، وفيه يقول ثابت
حين خذله أهل العراق في ثورته على بنى أمية وفرّ واعته ، فقتل قَعَصاً بالرماح^(١٣) :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَإِنْ قَتَلْتُكَ لَمْ يَكُنْ عَارًا عَلَيْكَ وَبِعُضُّ قَتْلِي عَارُ

- (١) طبري ٢٣/٥ ، ٧٧ ، ١٥٩ ، وأغانى (دار الكتب) ١٨٧/١٤ وما بعدها .
(٢) أغانى (دار الكتب) ٢٨٢/١٥ وما بعدها .
(٣) أغانى (ساسى) ٢٤/١٥ .
(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٦٧/١٠ وأغانى (دار الكتب) ٨٤/١٣ والخزانة ٦٠١/٣ .
(٥) وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء المرزبانى ص ٢٧٣ والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث يقول ابن دريد إله استشهاد بخراسان وكان شاعر عظيم في عصره .
(٦) انظر في ترجمة نهار بن توسعة وأخباره الشعر والشعراء ٥٢١/١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى ٢٧٩/١٤ .
(٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ .
(٨) النثر والشعر ٥٢٢/١ .
(٩) أغانى (ساسى) ١٨/١٥ .
(١٠) أغانى (دار الكتب) ٢٦٤/١٤ وما بعدها . وانظر فيه الشعر والشعر ٦١٣/٢ ونهارى الطبرى والبيان والتبيين والخير والامالى المرتضى (طبعة الحلبي) ١٠٥/٢ .
(١١) أغانى (ساسى) ١٣/٢٠ .
(١٢) أغانى (دار الكتب) ٢٦٦/١٤ .
(١٣) أغانى ٢٧٩/١٤

وكان أخوه المفضل مدحاً ومن أشادوا به كعب^(١) الأشقرى وثابت^(٢) قطنة ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة^(٣) بن بيزر والكميت^(٤) . وفي المهالبة وكرمهم الفياض يقول بؤكير بن الأخنس^(٥) :

نزلتُ على آل المهلب شاتيا فقيراً بعيدَ الدار في سنةٍ مَعْلٍ^(٦)
فما زال بي إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهل^(٧)

ومن ولاية خراسان المدح حنين قتيبة بن مسلم انذى ولها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبني أمية حربَ الترك ، وقد فلك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند . وقد تغنَّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة^(٨) بن حبيشة وكعب^(٩) الأشقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول^(١٠) :

وما كان مذ كُنَّا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابنِ مسلمٍ
أعمُ لأهل الشُّرك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مَغْنماً بعد مغنم

ولها لعهد عمر بن عبد العزيز الجراحُ بن عبد الله الحكمي ممدوح الفرزدق^(١١) . ومن الأجيال المدح حنين الذين ولوها لخاله القسري الجُنَيْد بن عبد الرحمن المرئي ممدوح جرير^(١٢) ، وأسد القسري وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

-
- (١) طبري ١٩٤/٥ .
(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغاني (٨) طبري ٢٤٠/٥ .
(٣) ٢٧٥/١٤ .
(٤) أغاني (ساصي) ١٩/١٥ .
(٥) نفس المصدر ١٠٨/١٥ ، ١٢٢ .
(٦) البيان والتبيين ٢٣٣/٣ .
(٧) محل : مجلبة .
(٨) الديوان ص ٢٢٨ .
(٩) الديوان ص ٥١ .
(١٠) أمالي القفال ٢٠٢/٢ والشعر والشعراء .
(١١) الديوان ص ٥١ .
(١٢) الانقياد : طلب الشيء عند غيبته كناية

به الفرزدق طويلاً^(١) . ولها ليوسف بن عمر الثقفى نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغواراً وغيثاً مدبراً ، وهو آخر ولاتها للأمويين ، ومن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق^(٢) وثابت^(٣) قُطْنَة ومن مدّاحه في ولايته أبو عطاء السُندى . ومن قُود الجيوش في خراسان هلال بن أخوز المازنى الذى أبلى في حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جتّه من صفوان متكلم المرجئة في ثورتهم بخراسان ، ومن أشادوا به طويلاً الفرزدق^(٤) وجرير^(٥) .
ويلقانا في سجستان من الممدّحين عبد الله بن الحشّرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم^(٦) :

إِنَّ السَّاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ .

ومنهم طلحة بن عبد الله الحِزَاعِي الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة في عصره غير مدافع ، ومن مدحوه أبو حُرَابة^(٨) وعُويّف^(٩) القَوَافِي والمغيرة^(١٠) بن حَبْنَاء ، ونوّّه به ابن قيس الرقيات طويلاً حتى إذا توفى رثاه بقصيدة بدیعة^(١١) ومنهم عبید الله بن أبى بكرة ممدوح الفرزدق^(١٢) وابن مفرّج^(١٣) ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبى جِلْدَة البشكرى ، وفيه يقول حنين وإفاه الموت^(١٤) :

كَنتَ الشَّهَابَ الَّذِى يُرْمَى الْعَدُوَّ بِهِ وَالْبَحَرَ مِنْهُ سِجَالُ الْجُودِ نَعْتَرُ

وَمِنْ وَلاَةِ الْحِجَازِ الْمَدَّحِينَ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَالْمَعَاوِيَةَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ يَنْحَرُ

-
- | | |
|---------------------------------|---|
| (١) الديوان ٢٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، | (٨) أغاني (سأى) ١٥٣/١٩ ، |
| ٥٣٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ . | (٩) انظر في ترجمة عويّف أغاني (سأى) |
| (٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ . | ١٧/١٠٥ والخزّانة ٨٧/٣ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ . |
| (٣) طبري ٣٩٩/٥ . | (١٠) أغاني (دار الكتب) ٨٥/١٣ . |
| (٤) أغاني (سأى) ٨١/١٦ . | (١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد |
| (٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ . | يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ . |
| ٥٧٤ ، ٥٤٨ ، ٥٥٧ . | (١٢) الديوان ص ٥٧ . |
| (٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ . | (١٣) أغاني (سأى) ٧٠/١٦ وما بعدها . |
| (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٣/١٢ . | (١٤) أغاني (دار الكتب) ٣١٣/١١ . |

في كل يوم جَزَروا بطعمه الناس^(١١)، ومن نوهوا به الحَطِيشة^(١٢) والفرزدق^(١٣). وكان ابن الأزرقي المخزومي والي ابن الزبير على اليمن جوادا معطاء، وهو ممدوح أبي دَهْبل^(١٤) الجمحي. ولعل واليا لم يُمدح كما مدح عبدالعزيز بن مروان في ولايته على مصر، وكان بحراً سيالاً من بحور العرب، ومن مدَّأحه نُصَيْب^(١٥) وابن قيس^(١٦) الرقيات وكثير^(١٧) وعبد الله^(١٨) بن الحجاج والأحوص^(١٩) وأيمن^(٢٠) بن خريم وأمية^(٢١) بن أبي عائد. ومن ولايتها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الخزين^(٢٢) الكثاني.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفي مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عَبدل^(٢٣)، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامي^(٢٤)، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عُوَيْف^(٢٥) القوافي ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير^(٢٦)، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامي^(٢٧) وأعشى شيبان^(٢٨)، وعكرمة بن ربِيعي الفياض ممدوح الأخطل^(٢٩) والعُدَيْل^(٣٠) بن الفرخ العجلي، والمندر بن الجارود ممدوح الفرزدق^(٣١) وأبي الأسود^(٣٢) الدؤلي، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر^(٣٣) الأسدي. ومالك بن مسمع ممدوح العُدَيْل^(٣٤)، وكانت قبائل ربيعة في البصرة تجتمع عليه.

-
- | | |
|---|-------------------------------|
| (١) المبر لاين حسب ص ١١٥ | (١٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٣/١٥ |
| (٢) ابن سلام ص ١٠٠ ، ١٠١ وأتاني | (١٣) أغاني ٤٣٥/٢ |
| (سأسي) ٣٨/١٦ | (١٤) أغاني (سأسي) ١١٩/٢٠ |
| (٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥ | (١٥) أغاني (سأسي) ١١٧/١٧ |
| (٤) المبر ص ١٥٢ | (١٦) الديوان ص ١٥٢ ، ١٨٢ |
| (٥) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ وما بعدنا | (١٧) ابن سلام ص ٤٥٥ |
| (٦) أغاني ٨٧/٥ | (١٨) أغاني (سأسي) ١٥٢/١٦ |
| (٧) البيان والبيان ١٢/٣ وأغاني (دار الكتب) ٣٣/٩ | (١٩) ابن سلام ص ٤١٧ |
| (٨) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ١٥٨/١٣ والبيان والبيان ٣٩٠/١ | (٢٠) أغاني (سأسي) ١٨/٢٠ |
| (٩) ابن سلام ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ | (٢١) الديوان ص ٢٢٠ |
| (١٠) أغاني (سأسي) ٧/٢١ | (٢٢) أغاني (دار الكتب) ٢٣١/١٢ |
| (١١) أغاني (سأسي) ١١٥/٢٠ | (٢٣) أغاني ٢٥٥/١١ |
| | (٢٤) أغاني (سأسي) ١٩٠ ، ١٧/٢٠ |

في الإسلام اجتماعها على كليب في الجاهلية . ومن كان لا يبارى في جوده
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وله في كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ،
ومن مدّحه ابن^(١) قيس الرقيات . وكان يجرى على مثاله في الجود بالمدينة عروة
ابن الزبير بمدوح إسماعيل^(٢) بن يسار النسائي ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير
مدوح موسى^(٣) شهوات ، وفيه يقول^(٤) :

حمزة المبتاع بالمال النساء ويرى في بينه أن قد غبن
وهو إن أعطى عطاء فاضلا ذا إخاء لم يكدره بمن

وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق مدوح الحزین^(٥)
الكناني . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح
لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نصيباً من الحجاز والقطامي من الجزيرة وكمباً
الأشقرى وزباداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْب^(٦)

شاعر حجازي نوبى الأبوین كان شديد السواد : وجعله ذلك يحنج للونه
كثيراً على شاكلة قوله في بعض شعره :

فإن يك من لوني السواد فإننى لكالمسك لا يروى من المسك ذائقة

وكان مستشرقاً لرجل من كنانة من أهل ودّان بالقرب من مكة ، وتيقظت

فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتب مولاة ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان
بمصر ، فردّ إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه . فدبّج فيه مدائح
رائعة من مثل قوله :

(١) أغاني (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ .

(٢) أغاني ٤٠٨/٤ .

(٣) انظر ترجمة موسى شهوات في الأغاني

(طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء

٥٥٨/٢ والخزائن ١٤٤/١ وسجع الشعراء للرزاني

ص ٢٨٦ .

(٤) أغاني ٣٥٧/٣ والمجرد ص ٣٦٧ .

(٥) المجر ص ١٥٢ .

(٦) انظر في ترجمة نصيب أغاني (دار الكتب)

٣٢٤/١ . راجع فهرسه والشعر والشعراء

٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن

دريد ص ١٤٦ وسجع الأدباء ٢٢٨/١٩

وشواهد النوى ٣٧/١ والموشح ص ١٨٩ .

فبَشِّرْ أَهْلَ مِصْرَ فَقَدْ أَتَاهُمْ مع النَّبْلِ الَّذِي فِي مِصْرَ نَبْلٌ
يَقُولُ فَيَحْسِنُ الْقَوْلَ ابْنُ لَيْلٍ ويفعل فوق أحسن ما يقول^(١)
وقوله :

لَعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ مِثْنٌ غَامِرِهِ
فَبَابِكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ وَدَارِكَ مَاهُولُهُ عَامِرِهِ
وَكُفُّكَ حِينَ تَرَى السَّائِلَا بَيْنَ أُنْدَى مِنَ اللَّيْلَةِ الْمَاطِرَةِ
وما زال مع عبد العزيز حتى توفي سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حاراً ،
وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه : ومن قوله فيه :

قِفُوا خَبْرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي لَمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ طَالِبُ
فَعَاجِبُوا فَأَتْنُوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَّرُوا أَنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ^(٢)
وله مدائح في يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى
أوائل القرن الثاني : وله مدائح في بعض ولادة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام
المهزومي وإلى مكة وعبد الواحد النصري وإلى المدينة ، وبعض ولاية العراق وقواده
مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بشيابه وطيبه ،
وكان كبير النفس ، فلم يتورط في هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقي
طاهر ، وهو لذلك يُسَلِّكُ في العذريين .

القطامي (٣)

لقب غَلَبَ عَلَى عُمَيْرِ بْنِ شَيْبَةَ التُّغْلَبِي ، وهو من بني القُدَادِ ومُسْ عَشِيرَةُ
الْأَخْطَلِ ، ومن ثُمَّ نَشَأَ نَصْرَانِيَا . غير أنه فيما يظهر دخل في الإسلام . وقد
اشترك في الحروب التي نشبت بين قبيلته تغلب وقيس في أثناء فتنة ابن الزبير ،

(١) ليل : أم عبد العزيز بن مروان وهو

بنت زبآن بن الأصغر الكلبي .

(٢) عاجبوا : وقفوا .

(٣) راجع في ترجمة القطامي أعالي (سأى)

١١٨/٢٠ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء .

٧٠١/٢ والخزائن ٣٩١/١ والاشتقاق ص ٣٣٩

ومعجم الشعراء للرزباني ص ٤٧ وسامع

التنصيص ١٨٠/١ والموضح ص ١٥٨ . وقد

نشر ديوانه في لندن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار

الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة هنداو .

وأسرّه أحد القيسيين في يوم ماكسين ، غير أن زُفر بن الحارث حين هربه
افتكته من الأسر ، وردّ عليه ما سُلِبَ منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله
ينوّه به وبصنيعة معه طويلاً ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثوى^(١) فقد أحسنت ، يا زُفر ، المتاعا^(٢)
أأكفر بعد ردّ الموت عني وبعد غطائك المائة الرنعا^(٣)
ولم أر مُنعمين أقلّ منّا وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا^(٤)
من البيض الوجوه بنى نَمِيلٍ أبث أخلاقهم إلا اتسعا^(٥)

وفي هذه القصيدة يتأسى للحروب الناشبة بين تغلب وقيس على ما بينها من
صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووقف هذه الحروب المبيّرة التي
لا تتوقف رحاها حيناً إلا لتعود أشدّ التهاماً لأبناء القبليتين ، يقول :

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينت انقطاعا
وكُنّا كالحريق أصاب غاباً فيخبو ساعةً ويثبُّ ساعا
أمورٌ لو تدبرها حلیمٌ إذنٌ لنهى وهيب ما استطاعا

ووفد على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له
إن الشعرا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد^(٦) بن سليمان سيبرك إن مدحه ،
فلحه ، وأضفى عليه كثيراً من يره ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطليل^(٧)

من الشيم الفاضلة .

(٥) انظر في تحقيق نسب هذا الملوح
وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو
عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص
الخزاعة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القطان في الأخاف
وبالقصيدة الأولى في الديوان .

(٦) الطليل هنا : الأزنة

(١) استلام : أن ما يلام عليه . الثوى :

الضيف المقيم . المتاع : الزاد .

(٢) يريد بالكفر كفر التهمة وجعلها .

الرناع : جمع راتمة .

(٣) المن : القصر بعمل الخير . يقول إنهم

لا يمنون بما يصنعون .

(٤) بنو قنيل : عشيرة زفر وهم من بني عامر

ابن صعصعة ، ويريد بانساع الخلق الكرم وغيره

ونراه يضمّتها نظرات في الحياة وفي الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب في ذلك من ذوق المتنبي في مدائح كما نرى في مثل قوله :

والعيش لا عيش إلا ما تَقَرُّ به عَيْنٌ . ولا حالٌ إلا سوف تنتقل
والناس من بَلَى خيراً قائلون له ما يَنْتَهِي ولَأُمُّ المخطيء الهبلُ
قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

ويُشيد في القصيدة بقريش ونُصرتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتبنيها للدعائم
الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام ، يقول :

قومٌ همُ ثَبَّتُوا الإسلامَ وامتنعوا قومُ الرسول الذي ما بعده رُسُلُ
ومن أشاد بهم ونوّه بذكرهم أسماء بن خارحة الغزاري . وله فيه أمداح رائعة
على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حِصْنٍ فلا هطلتْ على الأرض السماءُ
ولا رجع البريد بضم خيرٍ ولا حملتْ على الطُهر النساءُ
ومن أهم ما يميزه في شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة أنماظه وعذوبة أنغامه
وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفي في أوائل القرن الثاني للهجرة .

كعب^(١) بن معدان الأشقري الأزدي

من شعراء خراسان الذين برعوا في المديح ، وهو فارس شجاع له آثار
في حروب المهلب للأزارقة في فارس والترك في خراسان . وله في المهلب ووصف
حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة في حروبه للأزارقة تشبه أن تكون
ملحمة . وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً ، وروى منها الطبري ثلاثة وثمانين بيتاً^(٢)
وهو في شعره يحسن حشوكة اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب
وأبناءه :

وراجع الجزء الخامس من الطبري في مواضع متفرقة .
(٢) طبري ١٢٢/٥ .

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار
الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء
٣٩٧/١ وما بعدها ومعجم المرتزبان ص ٢٢٦

بَرَكَ اللهُ حينَ بَرَكَ بَحْرًا وفَجَّرَ منك أَنهارًا غَزَارًا^(١)
 بنوك السابقون إلى المعالي إذا ما أعظمَ الناسَ الخطارًا^(٢)
 كأنهمُ نجومٌ حولَ بَدْرِ درارى تَكمَلُ فاستدارًا^(٣)
 ملكٌ ينزلون بكل دَفْرِ إذا ما الهامُ يومَ الرُّوعِ طارًا^(٤)
 رِزَانُ في الأمور تَرى عليهم من الشَّيخِ السَّمائلِ والنَّجارًا^(٥)
 نجومٌ يُهتَدَى بهم إذا ما أخو الظُّلَماءِ في الغمراتِ جارا
 وتوفى المهلب : فلزم ابنه يزيد يمدحه ويصف حروبه مع الترك وبره
 ونائله الجزل ، ومن بديع ما قاله فيه :

يَدَاكَ إِحْدَاهُمَا تَسْقِي الْعَدُوَّ بِهَا سَمًا وَأُخْرَى نَدَاهَا لَمْ يَزَلْ دِيمَا
 ولما عَزَلَ يزيد عن خراسان لعهد الحجاج ووليها قتيبة بن مسلم الباهلي وانتصر
 على الترك انتصاراته الرائعة مضى يُشيد به ويانتصاراته بمثل قوله^(٦) :
 دَوَّخَ السُّفْدَ بِالْكَثَائِبِ حَتَّى تَرَكَ السُّفْدَ بِالْعَرَاءِ قَعُودَا
 فَوَلِيدٌ يَبْكِي لِفَقْدِ أَبِيهِ وَأَبٌ مُجِئٌ يَبْكِي لِلْوَلِيدَا
 وجره ذلك إلى التخلص من عصبية لقبيلته وصاحبها يزيد بن المهلب :
 ويقال إنه نال منه وثله . وكان قبل هذه الفترة من حياته يشتم عصبية حادة
 للأزد ، وهي عصبية جعلته يتهاجى هجاء مريباً مع شعراء قبيلة عبد القيس
 وعلى رأسهم زياد الأعجم ، كما تهاجى مع شعراء ربيعة . وكان موقفه مع قتيبة
 سبباً في غضب يزيد بن المهلب عليه غضباً شديداً ، فلما ولي العراق وخراسان
 لعهد سليمان بن عبد الملك طلبه ، فهرب إلى عُمان ، وظل بها إلى أن ثار يزيد
 على الأمويين سنة ١٠٢ فأتبعه من قتله .

(٥) رِزَانُ : جمع رزين . ويريد بالشَّيخ

المهلب . السَّمائل : الطباع . النُّجار : الأصل

والحُب .

(٦) خذرى ٢٤٤/٥ والسفد : جنس من

الترك

(١) بَرَكَ : خلَّفك .

(٢) الخطار : المراجعة .

(٣) نجوم درارى : مضئة .

(٤) الهام : الحرص ، يوم الرُّوع : يوم

الحرب والحرف .

زياد^(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه لغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحَسِّنُ قَنَّ المديح إحساناً رائعاً ، ومن ظلَّ يملحهم طويلاً عمر بن عبيد الله بن معمر وإلى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فما تَأَبَّى وأعطى فوق مُنَيِّنَا وزادا

وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنَا فأحسنَ ثم عُدْتُ له فعادا

أخُ لك لا تراه الدهرَ إلا على العِلَّاتِ بساماً جوادا

ويُروى أن ابن مَعْمَرٍ عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت ألفاً . وما زال يلزمه حتى توفى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فدح عبد الله بن الحشرج وإلى سجستان ، وتوفى فرثاه رثاء حاراً ، تمثلنا فيها سلف بيت منه ، وحدث أن مدح المهلب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حبيّاء ، فأمر لهم بمجائز ، وفضل زيادا ، ولاحظ - كما أسلفنا - لُكْنَتَهُ في قوله :

فَتَى زاده السُّلطان في الخير رفعةً إذا غيَّر السُّلطانُ كلَّ خليلٍ

إذ نطق السلطان « الثلتان » بإبدال السين شيئا والطاء تاء ، فوهب له غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وظاظ صنيع المهلب بزياد المغيرة بن حبيّاء وكعباً ، وانتدب له المغيرة ، فتأجج طويلاً . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفرق عليه في عدة قصائد يقول في إحداها هاجباً قبيلته :

قُبَيْلَةُ خَيْرُهَا شَرُّهَا وأصدقها الكاذبُ الِائِمُّ

وضيفهم وَسَطُ. أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائماً

وهاجى قتادة بن مقرَّب اليَشْكُرِي : وفي قبيلته هو الآخر يقول :

ويشكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تغدرا

ص ٣٣٣ وراجع أغاني (دار الكتب)
٨٩/١٣ وما بعدها وقيل الأمال ص ١٠ والجزء
الخامس من الطبري في مواضع متفرقة .

(١) انظر في ترجمة زياد أغاني (دار
الكتب) ٣٨٠/١٥ وابن سلام ص ٥٥٧
والشعر والشراء ٣٩٥/١ ومعجم الأدباء
٢٢١/١٠٠ والخزانة ١٩٣/١ والاشتقاق

وكان مُغَرَّرِي بهجاء الوعاظ والفقهاء والنسّاك، ويقال إن الفرزدق هم بهجائه حين رآه يُكثّر من هجاء المغيرة بن حَبَشَةَ وقبيلته نعيم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لي إن هجوته مصحاً أراه في أديم الفرزدق
وإنا وما تُهْدَى لنا إن هجوتنا لكا لبحرهما يُلْقَى في البحر بِغَرَقٍ

فتوصل الفرزدق إليه أن يكفّ عنه . وفي ذلك ما يدل على أنه كان يتغن الهجاء كما كان يتغن المديح والثناء ، وورثته للمغيرة بن المهلب من روايته . وقد توفّي في حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء المهجاء

احتدم الهجاء في هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبية القبلية التي اشتعلت — كما مرّ بنا — نيرانها في كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبية وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا — فيما يظهر — كان مثلاً أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الردّة وأُشْرِع فيها الشعراء ألسنتهم صادّرين عن روحهم القبلية ، على نحو ما يروى عن أبي شجرة السلمي وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْم ، وكان من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش . وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرماً على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون ، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين عليّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من البجائية وربيعة ، ونزاهما تتنافسان في قيادة حربه بموقعة الجمل : كما تتنافسان في موقعة صَيْفِيْن ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلُّه بصور حسن بلاه قومه في الحرب . والتفت بهذه الأصوات أصوات مُضَرِّبَةٍ كثيرة . وحدث هذا نفسه في صفوف خصومه ، مما نجد آثاره في الطبري وفي

وقمة صيفين لنصر بن مزاحم . وعيناً حاول على أن يُعلى كلمة الإسلام الذي حاول أن يحوّل الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبية ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة في جيشه بعد قبوله للحكيم أن نظرت في تولي قريش تدبير الأمور في الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشهرت سيوفها في وجهه مما اضطره أن يحاربها ويذيقها وبال انتكاسها وخرجها هل الجماعة .

وبما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية في الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحق قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التي كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهي التي تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد في استشعار العصبية في صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنتاً بنت القُرَافِصة . وتزوج معاوية من ميسون بنت بَحْلَل ، وهي أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلي بنت زَبَّان بن الأصمغ الكلبية ، وهي ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية في حربه لعل ذلك ، لأن الصَّهْر عند العرب كالنَّسب ، ووسع استغلاله ، إذ ضمَّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تَسْرَى في أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفى يزيد وجدنا العصبية تستمر بين القبائل في الشام والجزيرة وفي البصرة وخراسان . أما في الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامهما في أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفي ثانيهما بتغلب الرَبِيعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيس ابن الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروان بن الحكم ، وصل الطرفان سيوفهما في معارك حامية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالقبض ، كما كان يفتخر آبائهم في الجاهلية ويهجون .

وفي نفس الوقت نجد الحلفين الكبيرين في البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة والتميمة من جهة أخرى يستشعران العصية القبلية استشعاراً حاداً . ومرتّبنا في غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أنفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمر الأحنف بن قيس فرّق الفتن . وقد ظلت نفوس الحلفين تغلّ طوال العصر ، وظل الشعراء يتصاحجون صياحهم القبل حتى لنجد أبا نُخَيْلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفخراً بانتصارهم على شاكلة قوله ^(١) :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحى من ربيعة المراق
ضرباً يُقيم صعر الأعناق بغير أطماع ولا أرزاق ^(٢)
إلا بقايا كرم الأعراق

ولم تحتدم العصبية القبلية في البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعي ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُند البصرة ، إذ هم الذين ابتدوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كئائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعياً أن تنعكس بها نيران هذه العصبية ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالاً بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الوالى هناك يولّى عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلاً قدّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيس وتمد ، وإذا تولّى قتيبة بن مسلم الباهلي مثلاً رفعت قيس وتمد رهوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل في الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً في اكتنازها ، وأقرأ في أى شاعر ممن عاشوا هناك وترجم له صاحب الأغاني فسترأه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من موالها ، على نحو ما مرتّبنا من استعمار المهجاء بين زياد الأعجم مول

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .

(٢) العصر : الليل ، صعر الأعناق كناية

عن الكبر والظفرة ، وأصله ميل المنقر والنظر عن الناس تهاوئاً واستكباراً .

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدي ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبَّاء التميمي وقنادة بن مغرَّب البشكرى وابن عمه أبا جِلْدَةَ^(١) . وقد برتفع صوت في أثناء هذا الضجيج با عتزال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن قَوْسعة^(٢) :

أبى الإسلام لا أبَ لى سواه إذا هتفوا ب بكر أو نعيم

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع في غمار هذه العصبية التي استعلت سلطانها في العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة في جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شغلت عن العصبية القبلية بتشييعها وخصومتها للأُمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميث بن زيد الأسدي يثير معركة حامية مع حَكِيم^(٣) بن عباس الكلبي وهرون^(٤) مولى الأزدي ، وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت في خراسان والبصرة . وإذا ولَّينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يتهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموي هجاء مريراً^(٥) ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشيَّب بأخته رملة تشييباً أخفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف^(٦) :

ويلقانا في نجد هجاء كثير دار على السنة شعراء اقبائل ، وأهل من خير ما يمثله تهاجى المرار بن منقذ الأسدي ومُساور بن هند العبسي . ومن طريف ما للمرار قوله^(٧) :

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١١ .
 (٢) الشعر والشعراء ٥٢١/١ .
 (٣) أغاني (سأى) ١٢/١٥ ومجمع الأدباء ٢٤٧/١٠ .
 (٤) المجرى ٧٥/٧ .
 (٥) أغاني (سأى) ١٤١/١٣ والمبرد ٣١٨/١٠ .
 (٦) انظر في ترجمة النعمان بن بشير أغاني (سأى) ١٤٧/١٣ ، ١١٤/١٤ وما يهدما الشعر والشعراء ٥٦١/١ . وقد طبع له ديوانه المجرى في دهل وفندرة كرتنكو مع ديوان أبي بكر بن العزيز .
 (٧) أغاني (دار الكتب) ٣١٨/١٠ .

شقيتُ بنو عَبَسَ بشعرٍ مساورٍ إن الشقَّ بكلِّ حَبْلٍ يُخَنَّقُ

ومرَّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البرصاء الذبياني وابني عمه عقيل بن علقمة وأرطاة بن سُهَيْبَة ومهاجاة ابن مَيْيَّادَة والحكم الخُصْرَى : وكان في ابن مَيْيَّادَة ^(١) شر كثير جعله بهاجي كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم التميمي وشُقْران مولى بني سلامان .

وعملتُ بجانب هذه العصبية أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران المهجاة : فمن ذلك أن يتصر أحد الشعراء لزميل في تهاجيه مع زميل آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير في تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصب عليهم شواظ نار . وقد يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً في جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضول ، ويستقط بغضه على من فضله كما مر بنا في تهاجي المغيرة بن حَبَشَاء ، وزباد الأعجم . وقد يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الحزبين الكتاني عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله ^(٢) :

مواعيدُ عمرو تُرهاتُ ووجهه على كل ما قد قلتُ فيه دليلُ
جبانٌ وفحاشٌ لثيمٌ مذممٌ وأكذبُ خلق الله حين يقول

وقد يحرم ممدوح مادحاً له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن ربيعة مع المتوكل ^(٣) اللبي : وقد لا تقوم مكافأة الممدوح في

ص ٥٥١ وما بعدها وأغان (دار الكتب)
١٥٩/١٢ ومجموع الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب
البيت المشهور :

لأنه عن خلق وثائق مشله

عار عليك إذا قلت عظيم

(١) انظر في ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء
٧٤٧/٢ والمزمل ٧٤ والأغانى (طبع دار
الكتب) ٢٦١/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧
والهزاة ٧٦/١ والموضح ص ٢٢٠ .

(٢) أغانى دار الكتب ٣٣٨/١٥

(٣) انظر في ترجمة المتوكل ابن سلام

رأى المادح بما قَدَّم له من مديحه . فبهجوه ويسرف في هجوه على نحو ما صنع
الشَّعْرُ دَلْ بهلال^(١) بن أحوز المازني فارس نعيم في عصره غير مدافع . وقد
بحجب المملوح مادحه فلا يأذن له بلقائه ، فيصب عليه نار هجائه ، على نحو
ما روى الرواة عن حجب مقاتل بن مسمع بن مالك لأبي جلدلة الشكري ،
فقد تولَّى بهجوه بمثل قوله^(٢) :

قَرَى ضَيْفَهُ الْمَاءُ الْقَرَّاحُ ابْنُ مِسْمَعٍ وَكَانَ لَيْثاً جَارُهُ يَنْتَلِلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حيث
يستقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عباد بن الحصين ،
وكان على شرطة القُبَاع والي ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجة فازور عنه
فهجاء وهجا عشيرته الحَبِطَات طويلاً . وفيها يقول^(٣) :

رَأَيْتَ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبِطَاتُ شَرُّ بَنِي نَعِيمٍ

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم
والذين طالما ملحهم الشعراء يُهَنِّجُونَ كثيراً أو قليلاً ، فزياد وبنو زياد بهجوم
ابن مفرغ ، والحجاج بهجوه العُدَيْل^(٤) بن الفرخ العجلي ومالك^(٥) بن الريب
القيسي . وفيه يقول^(٦) :

وَلَوْلَا بَنُو مِرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسُفَ كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِ إِيَادٍ
زَمَانٌ هُوَ الْعَبْدُ الْمَقْرُّ بِذُلِّهِ يِرَاوِحُ صَبِيَانُ الْقُرَى وَيَغَادِي

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمال عصبيةً لقييلته نعيم

(١) أغاني (دار الكتب) ٣٥٨/١٣ . (٥) انظر في ترجمة مالك الشعر والشعراء .
(٢) أغاني ٣٣١/١١ . (٦) ٣١٢/١ وأغاني (ساسة) ١٦٣/١٩ والخزاعة
(٣) البيان والتميين ٢٧/٤ والخزاعة ٢٨٠/٤ . (٦) ٤١٧/١ وسيم الشعراء ص ٢٦٥ .
(٤) أغاني (ساسة) ١٣/٢٠ . (٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، ومن أكثر من هجائهم عمر^(١) بن هبيرة الفَرَزاري وخالد القَسْرِي^(٢) ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار^(٣) :

بَكَتِ الْمَنَابِرُ مِنْ فَرَاةٍ شَجَّوْهَا فَالآنَ مِنْ قَسْرٍ تَضْجُ وتَجْزَعُ
وكان المهالبة ممدحاً حين كما قلنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء
وعلى رأسهم الفرزدق^(٤) . ومن ولاية الشرق الذين هجاهم غير شاعر قتيبة بن
مسلم الباهلي وإلى خراسان ، وسنرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله
العشمي مهجور أبي حُرْزَابَة^(٥) . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتَّاب بن
ورقاء وإلى الرَّيِّ وأصبهان حين جَمَّاه بمثل قوله^(٦) :

وِيرْكَبُ رَأْسِهِ فِي كُلِّ وَخْلٍ وَيَعْتُرُّ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ
ويهجو أبو نُخَيْلَةَ المهاجر بن^(٧) عبد الله وإلى اليَمامة . وفي الحجاز نجد
الأحوص مشغوقاً بهجاء ابن^(٨) حزم وإلى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد
المرجى مشغوقاً بهجاء محمد بن هشام الخزوي وإلى مكة لهشام بن عبد الملك .
ونحن نقف قليلاً عند ثلاثة من المهاجرين هم ابن مفرغ البصري والحكم بن عَبدل
الكوفي وثابت قُطْنَةُ الخراساني .

ابن مفرغ^(٩)

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان
حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسْتَرْقاً للضحاك الملالى فأُتِمَّه . وكان يتقن
الفارسية كما أسلفنا في غير هذا الموضع ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه
يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميري فلعل منشأه أنه كان من حَفْدة
الفرس الذي نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبَّع .

-
- (١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ .
(٢) أغاني (سأسي) ٢٣/١٩ .
(٣) أغاني (دار الكتب) ٢٣٧/٤ .
(٤) انظر في ترجمة ابن مفرغ ابن سلام
ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ٣١٩/١ وأغاني
(سأسي) ٥١/١٧ والطبري ٢٣٥/٤ والاشتقاق
ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزاعة
٥١٤ ، ٣١٢/٢ .
(٥) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ .
(٦) أغاني (سأسي) ٢٣/١٩ .
(٧) انظر الديوان ص ١٠ ، ٢٥٢ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ .
(٨) أغاني (سأسي) ١٥٢/١٩ .
(٩) البيان والتبيين ٥٠/٤ .

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة ، وطبعي وهو قد نشأ في البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والمجاء اللذين كانا شائعين فيها على السنة الشعراء من حوله ، غير أن المجاء هو الذي غلب عليه ، وقد صبه صباً على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذي بينهما أن سعيد بن عثمان وإلى معاوية على خراسان أراد استصحابه فأثر عليه عبيد بن زياد وإلى سجستان ، وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابن مفرغ يسير معه في موكب ، فهبت ربيع ، فنفتحت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

أَلَا لَيْتَ اللَّحَى كَانَتْ حَشِيشًا فَتَغْلَفُهَا دَوَابُّ الْمُسْلِمِينَ
وعلم عباد بما قال ، فأخذ يحفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على مصعبته وتركه لسعيد بن عثمان ، وفي ذلك يقول :

إِنْ تَرَكْنِي نَدَى سَعِيدِ بْنِ عَثْمَانَ فِي الْجُودِ نَاصِرِي وَعَدِيدِي
وَاتَّبَاعِي أَخَا الرِّضَاعَةِ وَاللُّؤْمِ لَنْقُصَ وَفَوَتْ شَأْوِي بَعِيدِ
وكان على ابن مفرغ دين ، فاستعدى عليه دائنوه عبيداً ، فأمر ببيع ماله في دينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْدٌ وجارية تسمى أراكمة ، فبكاهما طويلاً بمثل قوله :

وَشَرِيتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً^(١)
يَا هَامَةً نَدَعُو صَدَى بَيْنَ الْمُشْقَرِ فَالْهَامَةِ^(٢)
الرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ^(٣)

وأخذ يهجو عبيداً وأخاه عبيد الله وإلى العراق وأباهما زياداً هجاء مقذعاً ، وكان مما وقف عنده طويلاً استلحاق معاوية نزياد : معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

(١) يقال فلان هامة اليوم أو لئله أى أنه يموت في يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .
(٢) كانت العرب تزم أن الهامة والصدى يطيران من رأس الميت . المشقر : حزن بين البحرين ونجران .
(٣) يقول إن البرق يبكي لاسماً في الغمامة .

ألا أبلغ معاوية بن حَربٍ مُعَلِّفَةً عن الرجل الياني
 أنغضب أن يُقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زاني
 وأشهد أن إلك من زياد كمالُ الغيل من ولد الأنان^(١)
 وكان أهل البصرة يتغنّون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله،
 فطلبه وألحَّ في طلبه . وحدث أن قدم البصرة وصبيد الله غائب عنها في وفادة
 على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمنذرين الجارود ، وكان عبيد
 الله مُصْهراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يترع جوار المنذر ، وأخذ ابن
 مفرغ وسجنه . ورأى أن ينكُل به ، فأمر - كما مر بنا في غير هذا الموضع -
 أن يُسْتَقْبَلُ نبيذاً ويَحْمَلُ على بعير مقرّناً إلى هيرة وخنزير ويَطَافُ به في أزقة
 البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله في طوافه يخاطبونه بالفارسية
 ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجيا عبيد الله وجدته سُمِيَّةً هجاء مقذعاً .
 وردَّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عقاباً
 ألماً ، فألحق به في غيابات السجون . وشغفت فيه التمنية عند يزيد بن معاوية .
 وألحت في شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى بهجو عباداً وأخاه عبيد الله،
 وخاصة حين خلا له الجوُّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن
 معاوية ، فقد ظلَّ يَسْتَقْط عليه بهجاء مريب . ، وقد توفى سنة تسع وستين .

الحكم^(٢) بن عَبدل

من بني أَسَد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بني أمية ،
 فلما دخل العراق في طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام ، فقدمها على عبد الملك
 وحظيَّ عنده . وله في تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته
 أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعري وليتُ ربما نفعتُ هل أبصرتُ بني القَوام قد شُملوا
 بالذلِّ والأُسر والتشريدِ إِنْهُمْ على البرية حَتَفٌ حيناً نزلوا

الأدباء ١٠/٢٢٨ وما بعدها وفهرس البيان
 والتبيين والحيوان .

(١) الإل : القراءة
 (٢) انظر في ترجمة الحكم بن عبدل أنان
 (دار الكتب) ٢/٤٠٤ وما بعدها وسبح

ولما دخلت العراق في طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصمك في بعض مدائمه، إذ نراه يصف لمملوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان^(١). وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في العصر العباسي، وكانوا سبباً في نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريري. وكان هجاء خبيث اللسان، ومن هجاء طويلاً محمد بن حسان بن سعد، وكان يتولّى خراج الكوفة، فكلّمه في شخص ليضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه فردّه ردّاً قبيحاً جعله يسأل لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رأيت محمداً شرّها ظلوماً وكنت أراه ذا ورعٍ وقصدٍ
يقول : أمانى ربى خداعاً أمان الله حمان بن سعدٍ
وذاعت القصيدة على ألسنة الكوفيين، حتى كان المكارى يسوق بغله أو حماره فيقول : عدّ، أمان الله حسان بن سعد. وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخيطبة بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وما كان حسان بن سعد ولا ابنه أبو المسك من أكفاه قيس بن عاصم^(٢)
خذى دبةً منه نكن لك عدةً وجئى إلى باب الأمير فخاصى
وكان ذلك سبباً في تقصّص هذا الصهر، إذ أنفت للفتاة عثرتها وردت ابن حسان ردّاً قبيحاً. ومن هجاء ابن عبدل عمر بن يزيد الأمدي صاحب شرطة الحجاج، وله يصف شحّه ونفثه :

جثنا وبين يديه التمر في طبقٍ فما دعانا أبو حفص ولا كادا
وولى إمارة الكوفة لمسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق عبد الحميد
بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وكان أعرج، وتصادف أن كان
مُسلّطاً مثله أعرج، فدخل عليه الحكم، وكان هو الآخر أعرج،
فأنشده في أبيات :

(١) انظر الجوهري ٢٩٧/٥ وفي مواضع مطروقة. (٢) يكنى ابن عبدل بأب المسك من نساء ابن حسان.

التي العصا ودع النخامع واتشمس عملاً فهذى دولة العرجان^(١)

فأعطاه عبد الحميد مائتي درهم وسأله أن يكف عنه ، ويقول الجاحظ :
« لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي محمد بن حسان بن سعد وغيره من
الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة : واتقوا لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم
أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته .
وبيعها مع رسوله ، فلا يُحْبَسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قَدَّرَ وأوفر
مما أُمِّل ، فقال يحيى بن نوفل^(٢) :

عصا حكم في الدار أول داخلٍ ونحن على الأبواب نُقَصِّى ونُحَجِّبُ^(٣)

وللحكم هجاء فكه في زوجة همدانية كرهها ونفر منها : ونراه يصورها
متغضنة الجللد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفي في مطالع القرن
الثاني للهجرة .

ثابت^(١) قُطْنَةُ

هو ثابت بن كعب من بني العتيك الأزدية ، وقيل بل هو مولى لهم :
ولقب قُطْنَةُ لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه في بعض حروب الترك : فذهب
بها ، فكان يعمل عليها قُطْنَةُ . وهو من فرسان المهلب المبرزين وقد علا نجمه في
ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يوليّه أعمالاً في الثغور ،
فيحسبها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرحنة هناك يمتنعون ويتجادلون
فقال إلى قومهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته في الإرجاء في تضاعيف
حديثنا عن الثقافة .

(١) النخامع : العرج .

(٢) انظر في ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء .

(٣) البيان والتبيين ٧٤/٣ .

(٤) وراجع في ترجمة ثابت الشعر والشعراء .

٦١٢/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٦٣/١٤

والخرافة ١٨٤/٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

٤٥٧/٥ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد .

وكان مولداً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن

ويلتئم في ثابت هجاء المعصيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . وزراه مع المهلب في حروب الأزارقة . ويتعرض بعض بنى الكوآء اليشكرين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبري هاجباً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدهم واليشكريون منهم ألام العرب
ويتضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً في سبيل الله . ولما ولها يزيد بن المهلب أخلص له ودّه ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صَبَّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما خالفت الأزد في البصرة كما قدمنا تعينها وتشدُّ من أزرها لا في البصرة فقط ، بل أيضاً في خراسان حين ولها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيد في بعض الأمر ، وهي تنزل مع الأزد حواليه ، فشغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تنزرو في الفساد وفي الوغى إذا راعها روعُ جمايحُ بروقي^(١)
وأنتم على الأدنى أسودُ خفيئة وأنتم على الأعداء خزانُ سملقي^(٢)

وحين ولي قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزورُ عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاءه هو وقبيلته باهلة حين هُزمت في بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

نوافتُ تميمُ في الطمان وعردتُ بهيلةُ لما عاينتُ معشراً غلباً^(٣)
تسامون كعباً في العلأ وكلاها وهيئات أن تلقوا كلاها ولا كعباً

وأهمُّ شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازني النخعي ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مدبحة فيه . فغبطه عليها ، وأساء له

(١) تنزرو : تشب . الروع : الفرع . جمع خُزُرَ وهو ذكر الأرناب وهي معروفة بالبحر .

الجمايح : ما ثبت على رموس القصب مما إذا دق تعالير . بروقي : ثبت ضميم .

(٢) سملقي : أجيعة في سواد الكوفة . خزان :

(٣) عردت : فرث . بهيلة : تصدير باهلة .

بعض القول . فهجاه حاجب : وبادله الهجاء ، ولقبه في هجائه بالليل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسمّاه الناس حاجباً الليل . وله يقول في بعض أهاجيه :

أحاجبُ ! لولا أن أضلك زَيْفُ وأنتك مطبوعٌ على اللؤم والكفر
وأنى لو أكثرْتُ فبك مقصّرُ رمتك رمياً لا يبِيدُ يدَ الدهر

وله أشعار كثيرة في مدح المهالبة ورثائهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل في معاركه مع بني أمية طويلاً ، وهو في مدحهم ورثائه لم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قوياً . وأكبر الظن أنه توفى قبل نهاية العقد الأول من القرن الثاني .

٣

شعراء النقائض

هياً استمار العصبية في البصرة وخراسان لاشتعال اهجاء طوال هذا العصر ، كما هياً لنمو فن النقائض نمواً واسعاً . وقد أعدت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فردّها إلى حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من الملامى يقطع به الناس أوقانهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبحث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلي وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلاً نهضت — كما رأينا في غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملامى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم : وقد رأينا المدينة ومكة تُقبِلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلها من التسلية واللهو . ولم تنج قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالاً شديداً . حينئذ انبرى المهجّاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاغرُ قبيلةٍ من القبائل بنظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورويتها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمع الناس من حوالهما يصفقون ويهتفون ويصيحون^(١) . وبذلك تحولت النقائص من غاية المهجاء الخالص إلى غاية جديدة هي سد حاجة الجماعة الحديثة في البصرة إلى ضرب من ضروب الملاحى .

وتدخلت في صنع النقائص بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردّها إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقيدية وفي الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائص يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً دليلاً ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهم من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائص القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان^(٢) . وكان أولهما من عشيرة كلثب البربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتهما من جهة وفي قيس وتيمم من جهة ثانية ، فإن ظروفًا كثيرة جعلت جريراً يقف في صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته البربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فانفق هوى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشع الزبير بن العوام حين لحا بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لحأت النوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجو^(٣) .

أجزاء ضخمة. ونشر الشرح نشرة فائقة بتحقيق الصاوي سنة ١٩٣٥ .

(٣) أغال (دار الكتب) ٣٢٤/٩ وما بعدها

(١) أغال (دار الكتب) ١٥٢/١٠

وطبعة ساسي ١٠٣/١٩ .

(٢) شرح أبر صيدة نقائص الشاعرين ، وسحق للشرح ونشره بيلن سنة ١٩٠٥ في ثلاثة

ونحن لا نصل إلى حكم القُبَاع وإلى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعر بن التميميين ملتجئين في تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجد في نقيضتين لهما يُعلنان تكبيرهما على هذا الوالي ، إذ أمر بهما بيتيهما لما يثيران من صفائين بين القبائل^(١) . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط البربوعية يسمى غساناً هجا جريراً فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالسبي^(٢) المَجاشعي ، فأغاثه بمثل قوله في جرير وعشيرته :

أترجو كُليباً أن يحىء حليتها بخيرٍ وقد أعيا كليباً قديمها
فانصب جرير عليه وعلى مجاشع شواط نار ، وأفحش بنائهم إفحاشاً
شديداً جعلهن يستغنن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه في الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فقسم التميميين معروفة ، وجدته عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة : فازلن به يسترنه قاتلات إن جريراً هتك عورات نساك ، وظلن يوردن عليه ذلك حتى أحفظته ، فهجا جريراً ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشعارين . وكان كثير من الشعراء يتزلق فيها متحيزاً للفرزدق على جرير ، فكان يشوى وجوههم ووجوه عشائهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الراعى^(٣) ، وكان من سوء حظهم أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبي دنا الرواحُ فيسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريراً
وهجاء بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاء بها كما هجا الفرزدق :
ويقول الرواة إنه ما زال يُعدها حتى عرف أن الناس قد جلسوا بمجالسهم

(١) شرح النفاذ لأبي عبيدة (طبعة بيلن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذري ٢٧٨/٥ .
(٢) انظر في ترجمة الهيثم ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها في مواضع متفرقة والشعر والقصائد ٣٧٧/١ وأغاني (ساسة) ١٦٨/٢٠ وفي ترجمة جرير ، وفي الخزانة ٥٠٢/١ والمهجع ص ١٥٧ .
(٣) انظر في ترجمة الراعي ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٣٤٤ وفي مواضع متفرقة والشعر والقصائد ٣٧٧/١ وأغاني (ساسة) ١٦٨/٢٠ وفي ترجمة جرير ، وفي الخزانة ٥٠٢/١ والمهجع ص ١٥٧ .

بالمربد ، وكان له مجلس ، وللفرزدق مجلس : فدعا بد هـن* (طبيب) فاد هـن
وكف^(١) رأسه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال : يا غلام أسرج لي : فأسرج له
حصانا : ثم قصد مجلس الفرزدق والراعي ، فتوجه للراعي يقول له : أبعتك
نيسوتك تكسبن المال بالعراق ، أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إليهن يميني^(٢)
يسوهن ولا يسرن^(٣) ، ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعي بيته
المشهور :

فَفُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُجَيْرٍ فَلَا كَفْأَ بَلِغْتَ وَلَا رِكْلَابَا
ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخيزي والصغار ،
واتجه توا إلى منازل قبيلته نجير في نجد ، وهو يردد : فضحنا والله جرير ، وهم
يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا في هذا الخبر لنمطي صورة عن شاعر النفاض في المربد ،
وكيف كان يحتفل بشابه وزينته : وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس
من حوله ليستهوا إلى شعره بين الصباح والليل ، وأيضاً لندل على قدرة
جرير في الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال
إنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفاً ، كانت
أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، ومن ثبت له قليلاً ثم
اندحر عمر بن بلأ التميمي^(٤) : وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريدُ
ويُقَضَى الأمر حين تغيب نيمٌ ولا يُسْتَأْذَنون وهم شهود
لثامُ العالمين كرامٌ تبم وسبيلهم - وإن زعموا - مسودُ

ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفي
مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢٠/٦٦٢ والاشتقاق
ص ١٨٥ والخزانة ٣٥٩/١ وظهرت الجزئتان
من الأغاني والمختص ص ١٢٧ وما بعدها .

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر في هذا الخبر أغاني (دار الكتب)
٢٩/٨ .
(٤) انظر في ترجمة عمر بن بلأ ابن سلام

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب. وسنعرض لذلك عما قليل . وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه ، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يتبرى نبال الهجاء المصمية ؛ وقد تبادل معه نقائص كثيرة ، وظلاستين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب في نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يحده يستعين على شرحه لما بأيام العرب . ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التي يتحدثان عنها دون أن يذكرها . فجيرير يتحدث عن أيام بربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ؛ بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس وخراسان ، إذ دفعت تهما الحوادث هناك لكي تتكلم بعبد الله بن خازم السلمي وإلى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ؛ كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلي حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ في نقائضهما ، بحيث تُعَدُّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعب على النقيضة ؛ لأنها لم تكن هجاء فحسب ؛ بل كانت أيضاً دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي كان يحامى عنها فحسب ؛ بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها ليقف على الأيام التي انهزمت فيها ؛ حتى ينشر مخازيها في الناس .

وواضح أن أساس الهجاء في النقائص كان يقوم على المصيبات القبلية ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن هذه المصيبات اختلطت في العصر الأموي بالسياسة . وهياً ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاة ؛ بحيث أصبحت لا تحتوي فخراً وهجاء فحسب ؛ بل تحتوي كذلك مديحاً ، كما تحتوي نسبياً وغزلاً . وانتاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل . وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجريز عملاً فنياً معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعاني ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

نحنُ بزوراء المدينة ناقق حَيْنَ عَجُولٍ تبتغي البوَّ رائم^(١)

وهو في غزها يستشعر الإسلام خائفاً وجلالاً من يوم الحساب . وزراه يعتذر بما قد بدّر منه من أشعار تصوّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستُ بماخوذ بلَغْوٍ تقوله إذا لم تَعْمُدْ عاقدات العزائم

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فأنتم أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) . ويمضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعِلَتْ لأهل الأرض نوراً ورحمةً وعدلاً وَغِيثَ الْمُغْبِرَاتِ الْقَوَاتِمِ^(٢)

وكان الحجاج لجّ في البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دين سليمان ، وتوفى قبل خلافته ، فنكّل بمن لجّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرأى صورته فيه طاغياً باغياً ، لقي جزاء بغيه وطفئانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل ففرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب القيل إذ ترميهم طير أبابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . ومن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهل وثورته على سليمان بنجراسان ، واقتخرباً نتما بزعامة وكيع بن أبي سؤد هي التي قفست عليه . ومضى يكيّل لقيس وشاعرها جرير هجاء مريباً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس في الجزيرة . ويتجسّم له جرير كأنه قيّس نفسها فيقول :

حقيقة .

(١) البو : جلد ولد لثافة يحشى ، ويعرض
على أمه فترامه أي تمن إليه ظناً منها أنه ولد لها

(٢) المغيرات القوام : السنوات الهبة .

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفْئِكَ جَبَلًا جَمَاعَةً وِطَاعَةً مَهْدًى شَدِيدَ التَّقَاتِمِ^(١)

ويسمى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فهم بسيف سليمان الذي ضرب الله به مشركي قريش في يوم بدر . ويعبر جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُو السيف في يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخراً عادماً بتميم وأيامها في الجاهلية وأجنادها العريقة في الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المراءغة (الأمان) فهم ليسوا فرساناً ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبى وكانت كليبٌ مَدْرَجاً للشَتَامِ
ودائماً يصف كليباً باللؤم والدناءة ، ويُفحش في التَّيْل من نساها ومن أم جرير خاصة . ولا يترك مذمة إلا ويَتَلَفَّح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِي كَلَيْبٍ نجومُ الليل ما وضحتْ لِسَارِ
ولو يُرْمَى بِلُؤْمِهِمْ نَهَارٌ لدنسَ لُؤْمُهُمْ وَضَعَ النَّهَارِ
وما يغدو عزيزُ بني كليبٍ لِيُطْلَبَ حَاجَةً إِلَّا بِجَارِ
ووقف جرير في الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التي لخصناها آنفاً ، فحُضِيَ بعد غزاهما يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذي اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتْ أُمّ الفرزدق فاجراً وجاءت بِرُوزَوَازٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ^(٢)
وما كان جَارٌ للفرزدق مسلماً لبأمن قِرْدًا لَيْلَهُ غَيْرِ نَانِمِ
أَتَيْتَ حَدُودَ اللَّهِ مَذَّأَنْتَ يَا فَعُ وَشَبَّتَ فَمَا بِنَهَاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ^(٣)
تَتَّبِعُ فِي الْمَاخُورِ كُلِّ مَرْيَبَةٍ وَلَسْتَ بِأَهْلِ الْمُحَصَّنَاتِ الْكَرَائِمِ^(٤)

(٣) الهازم : أصول الحية .

(٤) المحصنات : العقيات .

(١) المهدي هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه بالمهدي كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الروزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

ومضى يَصِمُّهُ بأخته جَعِشِينَ . وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه الهجاء . كما وصفه بأنه قَيْن ابن قَيْن : فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان بلده قيون ، فرى جدُّته بهم : كى يغيظه ويَحْفَظْهُ . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه في أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما في هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حتى جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو لبربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حواليه نطقاً من الذل . وكان الذى قَتَلَ قتيبة بن مسلم الباهلى وكيع بن أبى سُود البُوعى . فهو ليس مجاشعياً ؛ إنما هو من قوم جرير ، ومن ثم يقول له :

فَقِيرُكَ أَدَى لِلخليفة عَهْدَهُ وَغَيْرُكَ جَلَى عَنْ وجوه الأَهَامِ (١)
فإن وكيعاً حين خارت مجاشعُ كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنه المتفاقم
لقد كنت فيها يا فرزدقُ تابعا وریش الذنابى تابعُ للقوادم (٢)

وبذلك استل منه الفخر بمحادثة وكيع . وجعلها لقومه التبريعيين ، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بياهلة قبيلة قُتَيْبَةِ القيسية وأيامها في الجاهلية . وعظم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب في الجزيرة . وغير تغلب بمسيحيها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين : وكان عمر قبيل منها أن تدفع صدقة كالعرب لاجزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمى ما تدفعه جزية . ثلثاً وتعيراً . ويعود إلى أيام قيس في الجاهلية ، بعدها . ويعدد مالها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق بصحبان سليمان بن عبد الملك في أثناء حجة له . وجاءوه بأسرى من الروم . فأمر بحز حلاقهم : وأعطى لبعض من صحبوه أسيافاً يضربون بها رهوس هؤلاء الروم . وعرف بعض القيسيين أن سيطلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم ، فدسوا له سيفاً كليل لا يقطع . فلما ضرب به لم يصنع شيئاً في الروم . وانتهزها جرير . فكان يكرر له هذا

جناح الطائر ، والذنابى ما خلفها من ريشات
قصيرة .

(١) الأهاتم : من أشرف تميم
(٢) القوادم : الریشات الطويلة في مقدمة

الحادث ليضحك أهل الميربد عليه، بما يصور من خَوَره وجُبْنه، ومن ثمَّ يقول له الفرزدق في تقيضته السالفة :

فهل ضربةُ الرويِّ جاعلةٌ لكم أباً عن كليب أو أباً مثل دارمٍ
ونرى جريراً يردُّ عليه بمثل قوله :

بسيفِ أبي رَغْوَان سيف مجاشعٍ ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالمٍ^(١)
ضربت به عند الإمام فَأَرْعَشَتْ يدالك وقالوا مُحَدَّثٌ غير صارمٍ
ضربت به عُرْقُوبٌ ذابَ بِصَوَارٍ ولا تضربون البَيْضَ تحت الفماغمِ^(٢)
عنيفُ هزِّ السيفِ قَيْنٌ مجاشعٍ رفيقٌ بأخوات الفئوس الكرازمِ^(٣)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صَوَر . وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فَجَلَّلَ له جرير هذه المكرمة بعار الجبن ، فأبوه وهو إنما يضربان ، بمثل هذا السيف الذي بنا في بدءه : عراقيب الإبل لا صدور الفرسان . ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تنزع وتبلغ حين تمسك به ، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهي صناعتك .

وواضح أن جريراً لم يقف بنبوِّ السيف في يد الفرزدق ووصفه بأنه قَيْن ابن قَيْن عند حد التلُّب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق . واستخرج من الوصف الأخير أحياناً مضحكة كثيرة تدلُّ أبغ الدلالة على ما أصاب العقل العربيَّ عند جرير من قدرة على التوليد في المعاني ، كما نرى في مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدُوا أبانَ المُعْرِفاتُ من الميرابِ^(٤)
فأورثك العَلاءَ وأورثونا رباطُ الخيلِ أَقْنِيَةَ القِيَابِ^(٥)

(٣) أخوات : جمع خوت وهو التنب و أهل الفأس . الكرازم : الفئوس نسخة تروس .

(٤) المعْرِفات : المهجنات التي لا يخلص نسبها . الميراب : الأصيلة والمروية .

(٥) العلاء : سندان الحداة .

(١) ابن ظالم : هو الحادث بن ظالم المرو أحد فرسان قيس في الجاهلية .

(٢) الثاب : الناقة المسنة . البَيْض : خيول الحارثيين . التهاغم : أسرات الخيول . جمع غنمة .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القَيْنِ لا قَيْنَ مثله لَفَطَحِ المساحي أو لِيَجْدُلِ الأَدام^(١)

وقوله :

ورَقَعَ لَجَدُكَ أَكْبَارَهُ وَأَصْلَحَ مَنَاعَكَ لَا تُفْسِدِ
وَأَذِنِ الْعَلَاةَ وَأَذِنِ الْقَدُومَ وَوَسَّعَ لِكَبْرِكَ فِي الْمَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصر من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصراني ضده ، فأخذ يُضحك عليه سامعيه في المربد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهماً على دين نصرانيةً لتنصراً

وقوله :

يحبُّكَ يومَ عيدهمُ النَّصارى ويومَ السَّبْتِ شِيعَتُ الْيَهُودِ

ولعل في هذا ما يدل أكبر الدلالة على أن التناقض عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقصدُ بها قبل كل شيء إلى تسلية الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية . ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهي مناظرة كانت تقاطع بالهليل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلاً جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلاً من هذه الأشكال لشهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق في قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فناً يُفصِّلُ به إلى إمتاع الناس في البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين . ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية^(٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادَّين لا متخاصمين متباغضين . فهما يجتمعان

ومع الفيد .

(١) فطح المساحي : تدويرها وتدريضها

(٢) أنان (مطبع دار الكتب) ٧٦٠٣٧/٨ .

المبدل أيضاً : التورية . الأدام : جمع آدم ،

عند الخلفاء والولاة ، وها يرسلان إلى دمشق سويًا ، وإذا نزلت بأحدهما شدة أو حترَبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يَدَ العون ، فإذا طُلِبَ جرير لحرب الأزارقة تشفَّع له الفرزدق ^(١) ، وإذا هجا الفرزدق خالدًا القسريَّ وجبه تشفع له جرير عنده ^(٢) ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلبس له قلبه ويطلقه ^(٣) . ونراه حين يُلَبِّيُّ القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتُ بعد الفرزدق حُرَّةً ولا ذاتُ حَمَلٍ من نِفايسٍ تعلتُ ^(١)
هو الوافد المَحْبُوبُ والرائقُ الشَّائِ إذا النملُ يومًا بالعشيرة زلتُ ^(٢)

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر في عصبية القبايل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر في عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية في آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم في أثناء ذلك صداقتهم . وواضح مما قلنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسدُّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاهران أن حققا لم كل ما كانوا يبغيون من ذلك ، إذ تحولوا بفن المهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التي استضاء فيها بقدرة العقل العربي الحديث على الجدال والتوليد في المعاني . وارجع إلى أى فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قَتِينٌ أو فكرة ذل بنى كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التي يقف عندها في صور كثيرة ، إذ ما يزال يولد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرِّع ويشعب ، وكأنما يريد أن لا يبقى فيها بقية . وانظر في أى نقیضة يردُّ بها أحدهما على خصمه ، فسراه يقف بلزاه كل بيت قاله صاحبه ويردُّ عليه صنْع المتناظرين من أهل اللُدَّة والحصوة في المسائل العقيدية : فهو يحاول جاهدًا أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه في هجائه وأن ينقضها نقضًا . ومن ثمَّ كُنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق فن جديد ، وهى ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقها مقلدات في العصور

(١) أغاني (ساسي) ٢٨/١٩ .

(٤) تعلت : تطهرت .

(٢) أغاني ٤٢/١٩ .

(٥) الثألى : القصاد والصف . زلت : عثرت .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين في صورة جديدة ، وهي صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاهيمها ومثالبها . كما اعتمدت على استيعاب روح الإسلام وما شاع في العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة في انجاء القديم . وهي ظاهرة التندير على المهجو وقبيلته . حتى تُضحك المستمعين في المربد . وحتى تدمم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصباح والصغير والتصفيق . ومن ثم لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك في خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق في جرير :

يُهْدِي الوعيدَ ولا يحوطُ حريمَهُ كالكلبِ يَنْبَحُ من وراء الدار
أو يقول في كليب عبيرته :

يستيقظون إلى نُهاقِ حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار^(١)
أو يقول :

أَتَعْدِلُ أَحساباً لثاماً أدقُّ بأحسابنا إني إلى الله راجعُ
وكان جرير يلغاه بمثل قوله :

زَعَمَ الفرزدقُ أن ميقتلُ مَرَبَعاً أبشِرْ بطولِ سلامةِ يا مَرَبَعُ
وقوله :

خذوا كُحْلاً ومِجْمَرَةً وعِطْراً فلمن يا فرزدقُ بالرجالِ
وهو يتنوق على الفرزدق في هذا الجانب نفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقط الظروف الأخطل شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قبس ومحاميا المتأصل عنها . وكان الأخطل - كما قدمنا - يهاجى قياً في الحروب التي

(١) الأوتار : جمع وتر وعر التار .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرَج راحط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردون عليه ، فَيُنْجِمُهُم بِأَهاجِيهِ المَقْدَعَةِ .

وَشَاءَتِ المَقَادِيرُ أَنْ يَلِمَ بِالْعِرَاقِ فِي وِلَايَةِ بَشَرِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَاصْطَلَمَ هَذَاكَ بِجَرِيرٍ ، وَيَقُولُ الرِّوَاةُ إِنَّهُ أَحْفَظُهُ إِذْ فَضَّلَ الْفَرَزْدَقَ عَلَيْهِ ^(١) وَطَبِيعِي أَنْ يَفْضَلَ الْأَخْطَلَ الْفَرَزْدَقَ وَيَنْحَازِلَهُ ضِدَّ شَاعِرِ قَيْسِ بْنِ يَجْجَلْبَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ مَشَأَ التَّفْضِيلِ الْحُكْمَ الْقَيُّ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، إِنَّمَا كَانَ مَنَظَرُهُ الْخُصُوصَةَ الْعَنِيفَةَ بَيْنَ تَغْلبِ وَقَيْسٍ . وَسِرْعَانِ مَا اسْتَطَارَ الْمَهْجَاءُ بَيْنَ الشَّاعِرَيْنِ . وَإِذَا هُمَا يَخْلُقَانِ طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنَ النِّقَاطِصِ ، جَمَعَهَا أَبُو تَمَامٍ ^(٢) . وَقَدْ ظَلَا يَنْظُمَانِهَا مِنْذُ سَنَةِ ٧٣ إِلَى أَنْ تَوَفَّى الْأَخْطَلَ حَوَالِي سَنَةِ ٩٢ . وَهُوَ يُعَدُّ مَعَ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ فَحَوْلَ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ . يَقُولُ الْجَاهِظُ : « وَالَّذِينَ هَجَوْا فَوْضَعُوا مِنْ قَدَرٍ مَنِّ هَجْوِهِ ، وَمَدَحُوا فَرَفَعُوا مِنْ قَدَرٍ مَنِّ مَدَحُوا ، وَهَجَاهُمْ قَوْمٌ فَرَدُوا عَلَيْهِمْ . فَأَنْحَمُوهُمْ ، وَسَكَتَ عَنْهُمْ بَعْضُ مَنِّ هَجَاهُمْ مَخَافَةَ التَّعَرُّضِ لَهُمْ ، وَسَكَتُوا عَنْ بَعْضٍ مِنْ هَجَاهُمْ رَغْبَةً بِأَنْتَسَهُمْ عَنِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ إِسْلَامِيُونَ . جَرِيرٌ وَالْفَرَزْدَقُ وَالْأَخْطَلُ » ^(٣)

وَجَمِيعُ الظُّوَاهِرِ الَّتِي لَاحِظْنَاهَا فِي نِقَاطِصِ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ نَجْمُهَا بِجَسْمَةِ فِي نِقَاطِصِ جَرِيرٍ وَالْأَخْطَلِ ، فَهُمَا جَمِيعاً يُعْنَتَانِ بِتَارِيخِ الْقَبَائِلِ فِي الْجَاهِلِيَةِ وَالْإِسْلَامِ . وَهُمَا يَخْلُطَانِ الْعَصَبِيَّاتِ بِالسِّيَاسَةِ . وَقَدْ سَاقَتِ الضَّرُوفُ تَغْلِبَ لَتَقِفَ فِي صَفُوفِ بَنِي أُمَيَّةٍ ضِدَّ قَيْسٍ ، عَلَى نَحْوِ مَا سَرَّ بَنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، كَمَا سَاقَتِ الْأَخْطَلَ التَّغْلِبِيَّ لِيَكُونَ شَاعِرُ بَنِي أُمَيَّةٍ مِنْذُ عَصْرِ مَعَاوِيَةَ وَلِسَانَهُمِ النَّاطِقُ فِي الْخَزِيرَةِ وَالْعِرَاقِ . وَرَبَّمَا كَانَتْ قَصِيدَةُ خُفِّ الْقَطِينِ ، لِلْأَخْطَلِ أَرْوَعَ نِقَاطِصِهِ مَعَ جَرِيرٍ ، وَنَرَاهُ يَسْتَمِلُهَا بِالنَّسِيبِ وَوَصَفَ حَزَنَهُ لِفِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَهُوَ يُشَبِّعُهُمْ طَرَفَهُ مَوْلَاهَا . حَتَّى لِيُشَبِّهَ نَفْسَهُ بِالسَّكْرَانِ الْمُنْتَشِيِّ ، وَيَصِفَ الْحَمْرَ نَفْسًا قَصِيرًا . وَهُوَ مُوَضَّوعٌ لَمْ يَكُنْ جَرِيرٌ وَلَا الْفَرَزْدَقُ يَلْمَازَانِ بِهِ : لِتَحْرِيمِ الْإِسْلَامِ لِلْحَمْرِ . وَكَانَ الْأَخْطَلَ نَضْرَانِيًّا ، فَانْفَرَدَ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ فِي شَعْرِهِ .

- | | |
|---------------------------------------|------------------------------------|
| (١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ ، وَأَغَانِي | اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقاتص |
| ٣١٥/٨ ونقاتص جرير والفرزدق ص ٨٧١ . | الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من |
| (٢) نشر مساحاتي هذه النقاتص في بيروت | ديوانيهما نقاتص أخرى لها . |
| سنة ١٠٣٢ عن مخطوطة في الآستانة ، وقد | (٣) البيان والتبيين ٨٣/٤ . |

على أنه لم يُعْطَب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف طُعنُ الحبيبة : مستلهماً
 زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء : وإقبالهن على الشباب
 وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فمدحه من حيث
 هو خليفة ، منوهاً بجموده ، وشبهاً له في هذا الجود بالفرات ، وهي صورة يتأثر
 فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر في معلقته . ويمضي فيفصل
 الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الجيوش والظفر بمخصومه .
 ويمدح أسرته الأموية منها بشرفها العريق وأنفها وحمايتها عن الحقوق وبأسها
 وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله
 أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس .
 وكان قد دخل في طاعة عبد الملك ، وكأنه يبنى أن يحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بني أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمنة زُفر

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة : ويزعم
 أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مرّ بنا أنها
 نكلت بتغلب بعد موقعة الحشّاش التي قتل فيها فارسها عمير بن الحُباب وأن
 زُفر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيشه لحرب مصعب ، لافهراً من تغلب ، ولكن
 بُعد نظر . ومضى الأخطل بهجوقيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل
 إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع في هجائها إغذاء شديداً بمثل قوله :

أما كُليبُ بن يربوع فليس لهم
 مخلفون ويقضى الناس أمرهم
 ملطّمون بأعقار الحياض فما
 قوم أنابت إلبهم كل مغزبة
 على العيازات هداجون قد بلغت
 عند التفارط إيراد ولا صلر^(١)
 وهم بغيب وفي عمية ما شعروا^(٢)
 ينفك من داربي فيهم أثر^(٣)
 وكل فاحشة سبت بها مضر^(٤)
 نجران أو حدثت سوءهم هجر^(٥)

لزمها وشرفها .

(١) أنابت : رجعت وتاحت .

(٢) العيازات : جمع مير وهو الحمار ،

يهجون بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل .

الهج : تقارب الخلو .

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ،

والإيراد : ورود الماء . والصلر : الصدور عنه .

(٢) يرهه أنهم لا يستشارون ولا يهابهم .

(٣) يقول إنهم يُلطّمون حيث يكتنون في

مؤخرات الحياض ، تطعمهم دارم عشيرة الفرزدق

ويأخذ في هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقنّذع فيه إقذاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل في نقاضه لجرير بدمٍ عشرينته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نبال الذل والخسة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس في الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات، وكثيراً ما يضم إلى ذلك فخرأبائهما في الجاهلية ، كما يضم انتصاراً للفرزدق وعشيرته دارم . حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقصر عليه كالصقر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في يوم ما كسبب الذي نكل بها فيه عمير بن الحباب أو في يوم الكحيتل الذي نكل بها فيه زفر بن الحارث أو في يوم البشر الذي نكل بها فيه الجحاف السلمي . ضامناً إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع في الجاهلية وملججا في هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيصته السالفة :

نحن اجتببنا حياض المجد مُترعةً من حومةٍ لم يخالط صفوها كدر^(١)
لم يُخزِرْ أولَ يربوعٍ فوارسهم ولا يُقال لهم كلا إذا افتخروا
هل تعرفون بذي بهدى فوارسنا يوم الهذيل بأيدي القوم مُقتسِر^(٢)
خابت بنو تغلب إذ ضل فارطهم حوص المكارم إن المجد مُبتدر^(٣)
الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون يظهرون الغيب ما الخبر^(٤)
الآكلون خبيث الزاد وحدهم والنازلون إذا وارا هم الخير^(٥)
إني رأيتكم والحق مُغضبة تحزون أن يذكركم الجحاف أوزقر^(٦)
كانت وقائع قلنا لن تُرى أبداً من تغلب بعدها عين ولا أثر
حتى سمعتُ بخنزير صفاً جزعاً منهم فقلت أرى الأموات قد نُشروا^(٧)

(١) الحومة : مطم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه

أسرت فارسها الهذيل بن هيرة .

(٣) الفارط : الذي يتقدم قبل الإبل ليملاها

الحوض .

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تديراً، فهم

لا يسألون في شيء، وهم يسألون عن أخبار الناس .

(٥) الخير : الموضع المستقر ، يقول إنهم

ينزلون به فراراً من الضيق والحقائق التي تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنيً ، وقد لُقبه في البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصراني ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضي في نفس هذه التقيضة . فيقول .

رَجَسُ يَكُونُ إِذَا صَلُّوا : أَذَانُهُمْ قَرَعُ النَوَاقِيسِ لَا يَدْرُونَ مَا السُّورُ^(١)
وَمَا لَتَغْلِبَ إِنْ عَدَّتْ مَسَاعِيَهَا نَجْمُ يَضِيءُ وَلَا شَمْسُ وَلَا قَمَرُ
الضَّاحِكِينَ إِلَى الْخَنْزِيرِ شَهْوَتَهُ يَا قُبْحَتْ تِلْكَ أَفْوَاهَا إِذَا كَشَرُوا^(٢)
وَالْمُقَرَّعِينَ عَلَى الْخَنْزِيرِ مَيْسَرَهُمْ بَشَسَ الْجَزُورُ وَبَشَسَ الْقَوْمَ إِذِيسَرُوا^(٣)
جَاءَ الرُّسُولُ بِدِينِ الْحَقِّ فَانْتَكَشُوا وَهَلْ يَضِيرُ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَفَرُوا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انبححراً ، ولم ينقطع له جواباً ، ومن ثم كان جرير يقول إنني أُعِيتُ عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته في التندير على خصمه ، وما يجمع الجانبين جميعاً قوله في تقيضة ثانية :

قَبَّحَ إِلَهُهُ وَجْهَهُ تَغْلِبَ كُلَّمَا شَبَحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالاً^(١)
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِجِبْرِئِيلَ وَكَذَّبُوا بِمِيكَالَ
الْمُرْسَلِينَ إِذَا انْتَشَرُوا بِبَنَاتِهِمُ وَالْدَائِبِينَ لِجَارَةٍ وَسَوَالِ^(٢)
وَالْتَغْلِبُ إِذَا تُنْبِغُ لِلْقَرَى حَكَّ أَسْتِهِ وَتَمَثَّلَ الْأُمَشَالَا^(٣)
وَلَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَرَنْ مَثْقَلَا
تُبَيَّتُ تَغْلِبَ يَنْكَحُونَ رِخَالَهُمْ وَتَرَى نَسَاؤَهُمُ الْحَرَامَ حِلَالَا^(٤)
لَا تَطْلُبُ خَوْلَةً فِي تَغْلِبِ فَالزَّنَجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَحْشَاوَا

(١) يريد سور القرآن الكريم .
(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوةً للحم .

(٣) الميسر : القرب بالنفداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول

إنهم نصارى ولذلك يسرون ويقامرون على الخنزير .

(٤) الرخال : أولاد النساء .

ويقول في نقيضة ثالثة :

إن الذي حَرَمَ المكارم تَغَلَّبَا جعل الخلافة والنبوة فينا
مُضَرُّ أبى وأبو الملوك فهل لكم يا خَزَرَ تغلبَ من أب كَأَيُّنَا^(١)
هذا ابنُ عَمَى في دمشق خليفة لو شئتُ ساقكمُ إلى قَطِينَا^(٢)
وما زالا بهاجيان حتى حضر الأخطل الموت ، فقبل له ألا توصى ؟
فقال تَوًّا :

أوصى الفرزدقَ عند المماتِ بِأُمِّ جَرِيرٍ عيارها^(٣)
ولم يكده يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت
وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالِكٍ فأصبحُ ألامَ زوارها^(٤)
والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً في الهجاء ، وقد شهد له
الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يترَوَّى الرواة : « إن جريراً أَوْقَى من سير
الشعر ما لم نُؤْتَهُ » ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :
قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كَلَبَهُمْ قالوا لأَمهم بُولى على النار
فلم يَرَوْه إلا حكامُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبُ إذا تُنْبِجَ لِلْقِسْرِ حَكُّ أَسْتَهْ وَتَمَثَّلُ الأمثالاً
فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَّه^(٥) . ولعل من الخير أن نلمَّ بحياة هؤلاء
الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرزيه في
الهجاء والمديح جميعاً .

(١) الخزر : ضيق في مؤخر العين ، يكنى
به جرير من اللوم .
(٢) القطين هنا : الخدم والمبيد .
(٣) أعيار : جمع عير وهو الحمار .
(٤) أبو مالِك : كنية الأخطل .
(٥) أغافى ٣١٨/٨ .

الأخطل (١)

واضح مما قلنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهي إحدى القبائل العربية الكبيرة التي كانت تكون مجموعة قبائل ربعية ، وكانت تنزل في الجزيرة ، وتمتد بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة بغرباً إلى الشام ، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بتكررت جلتى فيها المهلهل . وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قتل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمر بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها في الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة . ولما فتحت الفتوح لحقت في أول الأمر مع الفرس والروم : وسرعان ما اضطرت إلى الدخول في طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقبيل منها أن تؤدى الصدقة أسوة ببقية العرب . ودخلت طائفة منها في الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية في حروبه مع علي بصيفين . ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُهَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحد الألسنة في جيش معاوية على خصومه (٢) :

وقد مضت تغلب بعد صيفين تحطّط في جبل الأمويين ، من سفيانيين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قلنا نزحت إلى منازلها مع الفتوح وراحمتها في

أشعاره نقائص جرير والأخطل وديوانه نشر صالحاني .

(٢) انظر في أشعار كعب بصيفين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفي مواضع متفرقة . وانظر في ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٦٣١/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والمخزاة ٤٥٧/١ وراجع فهرس الطبري والأغاني .

(١) انظر في ترجمة الأخطل أغاني (دار الكتب) ٢٨٠/٨ وكذلك في ترجمة جرير ٣/٨ وما بعدها وفي خبر الجعاف ويوم البشر ١٩٨/١٢ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ٤٥٤/١ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة ومخزاة الأدب ٢٢٠/١ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس : Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بني أمية السيد مصطفى غازي وانظر في

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكذب تقدم بهما الأيام في أثناء فتنة ابن الزبير : حتى سلاً سيفوهما . واخدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس في طاعة عبد الملك وتكافأت القبيلتان عن المغازي في الجزيرة .

وفي هذه القبيلة وفي فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفي عشيرة من هذا الفرع تسمى بنى الفَدَّ وكَس وُلِدَ الأخطل في بادية الحيرة حوالي سنة ٢٠ للهجرة . وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهى من قبيلة إباد . ومن ثمَّ نشأ نصرانياً ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل في الإسلام . وفي أخباره أنه كان يُكثِر الشُّجار في صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبِلَا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوج أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه ، فإننا نراه يطلق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة . واقرن بها سَفَّهٌ شديد : فكان يُكثِر من هجاء الناس . ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعْمَيْل الأخطل ومعناه السفيه . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبى مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد : لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموى ويتعرض لنساء بنى أمية . وكان ممن تعرض لمن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلاً مفتحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسى ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبني أمية منذ وقوفهم مع على في صفين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يرد عليه : فاستعلاه ابن حسان . فقال يزيد لكعب بن جُعْمَيْل : أجبني عنى وأهجه : فقال : « أُرَادَى أَنْتَ إِلَى الْإِشْرَاكِ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، لَا أَهْجُو قَوْمًا نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنِّي أَذْكَاءُ عَلَى غَلَامٍ مَنَا نَصْرَانِي ، كَأَنَّ لِسَانَهُ لِسَانُ ثَوْرٍ » . يعنى الأخطل . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

في الإسلام ؟ أخافهم على نفسى ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتى ، فنظم في هجائهم قصيدته التى يقول فيها :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان ممن صحبوا معاوية في حروبه ضد على وولاءه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكوه هجاء الأخطل لقومه ، فقال ما حاجتك ؟ قال لسانه ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إني جعلتُ له ذمتك وذمتى ، إذرْ دَ عنى ، فقال معاوية للنعمان : لا سبيل لى ذمة يزيد . وردَّ النعمان على الأخطل - كما أسلفنا - ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكان الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بنى أمية ، فهو يعيش لم يملحهم ، وهم يُغْدقون عليه . وليس في ديوانه مديح لمعاوية ، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى في أماليه روى له فيه هذين البيتين ^(١) :

إذا مت مات العز وانقطع الفنى فلم يبق إلا من قليل مصرد ^(٢)
وردت أكف الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مجد ^(٣)

وفي ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحس في قصائد الأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبني أمية ، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية في صيفين وأن الله اختار بينهم للخلافة ، حل شاكلة قوله :

تمت جلودهم والله فضلهم وجسد قوم سواهم خايل نكيد
ويوم صيفين والأبصار خاشعة أمدهم - إذ دعوا من رهم - مدد
وأنتم أهل بيت لا يسوازنهم بيت إذ عُدت الأحساب والعدد

(١) أمال المرتضى (طبعة الحلبي) ٢/٢٤ .
(٢) مصرد : مقل .
(٣) الخلف : واحد أعلاف الناقة ، ويقال تجددت أعلاؤها إذا ذهب لبنها .

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلاً ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه في الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده في الفترة التي احتلَّت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقعاً في صفوف قومه يناضل عنهم الراعي وابن الصَّفَّار المحاربي وابن الصَّيْق وغيرهم من شعراء قيس . ومراً بنا أن القبائل اليمنية في الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نَحْزَتْ عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطلم الطرفان في موقعة مَرَج رَاهِط . وانصرفت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها في تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تنحرض بها قيس في الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَسِيٍّ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت ألسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِيع في تغلب على نحو ما أسلفنا في الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُدْعُون ويدخلون في طاعته ، فهتأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفراً ، ويحاول في سنة ٧٣ أن يصلح بين الفتيين ، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل في هذا الاختصاص ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَافُ السَّامِيُّ ، فينشد :

ألا سائلِ الجَحَافَ هل هو ثائرٌ بَقَتْلِي أَصِيبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وعامرٍ
أجحاف إن نَهِيْطُ عليك فتلتقي عليك بحورُ طاميات الزواجر

ووثب الجحاف يَجْرُ مُطَرَفَهُ غضباً ، وذهب تَوّاً إلى قومه في الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلاً فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وَبَقَر من النساء من كانت حاملاً . ومن كانت غير حامل قتلها . وتسمى تلك المعركة معركة البشر ، باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضلَّ من أسروه إذ قال لهم إنه عبد ، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمنه ، فعاد على أن يؤدّي الحملات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتصور من هذه الوقعة تصورا شديداً ، حتى لراه يهدد بني أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحافُ بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعولُ
فسائلُ بني مروانَ ما بالُ ذمةٍ وحبلُ ضعيفٍ لا يزالُ يوصلُ
فلألا تغيّرها قريشُ بملكها يكن عن قريشٍ مُستردُّ ومزحلُ^(١)

واستطاع عبد الملك أن يرمّ الفتنة ويحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلاً علياً ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يستلّ بين يديه « وعليه جبة خنزٍ وحُرُز خنزٍ ، في صفه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمرًا^(٢) »

وعصرُ عبد الملك يمدُّ العصر الذهبي للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفي الأغاني أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبني أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهي دعوة بنال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما بنال من قبيس وشاعرهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خفّ القطين » التي أسلفنا الحديث عنها ، وقد أحكم نسجها حتى لتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله في الأمويين :

حُفِدَ على الحق عَيَافو الخنا أنفُ إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجّت على الآفاق مظلمة كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصِرُ^(٣)

(١) بملكها : هزنتها . مسترد : مرمى .
(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٩/٨ .
(٣) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

أعطاهم الله جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَفَرٍّ^(١)
 شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا^(٢)
 والأخطل في مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجري ، بل لاشك
 في أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ، وكان يعتز بأبائه اعتزازاً شديداً ،
 فلم يبرع في المديح . إنما برع في الفخر . أما جرير فكانت نفسه لينه ،
 ومن ثَمَّ يُمَدُّ هو والأخطل في المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ في الوقت
 نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة ، إذ كان ينفق على خصميه جميعاً في
 حلالة الألفاظ وجمال النظم ورشاقة اللفظ ونعمته . أما الأخطل فيمتاز
 برصانة الألفاظ وفخاشتها وجزالتها ، ومدائحه في عبد الملك تُعَدُّ درره الشعرية ،
 وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلة قوله :

وقد جعل الله الخلافة فيكم بأبيض لا عارى الخوان ولا جذب
 ولكن رآه الله موضع حقها على رغم أعداء وصدادة كُذِبَ^(٣)
 ونراه 'يلم' في هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً بمدح ولائهما
 وأجودهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي ، ويشر بن مروان
 والحجاج ، وسمك الأسدي ، وهو من أجواد الكوفة. ونراه بنوه بمصقلة بن هبيرة
 الشيباني أحد قواد طرمستان ، كما بنوه بمكرمة بن ربيعة الفياض وجوده الفمسر ،
 ومن قوله فيه :

إن ابن ربيعة كصفاني سببه ضغن العدو وعذرة المُخْتَالِ^(٤)
 وإذا عدلت به رجالاً لم تجد قيص الفرات كراشع الأوشال^(٥)
 ومن نوه بهم جرير بن عبد الله السجلى وجدار بن عتاب التغلبي وهام بن
 مطرف .

(٤) السب : العطاء . العذرة : الاعتذار ،

يشير إلى من يسألم فيعتذرون .

(٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وذل

وهو الماء القليل . والراشع : الذي يسيل في قلة .

(١) الجد : الخط .

(٢) شمس : جمع شمس وهو العبر في

عداوته . استفاد له : أعطاه مقادته ودمائه ،

فغضب وذل .

(٣) كذب : جمع كذوب .

وتُطوى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفى عبد الملك، ويخلفه ابنه الوليد، فيأفل نجمه، إذ يُقْصيه عنه، ويقرب منه شاعراً شامياً مسلماً هو عدى بن الرقاع العامل، وبذلك انزوى الأخطل، ولم يعد له كبير شأن. وقد مدح الوليد، ومدحه فيه فائزة.

وحل نحو ما كان الأخطل يحيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودنانها وننداماها، ويطليل المديح في عتقها والسرور بشرها، يقول:

صهبا قد كلفت من طول ما حُبست في مخدع بين جنات وأنهار^(١)
عنراء لم يَجْتَلِ الخطاب بهجتها حتى اجتلاها عبادى بدينار^(٢)
وأقرأ له القصيدة الأولى في ديوانه، فستراه يصور فيها زقاق الخمر تصويراً بديعاً، إذ يقول،

أناخو فجرؤا شاصيات كأتها رجال من السودان لم يتسربلوا^(٣)
ويصف تمشياً في دمه وجسمه وعظامه، فيقول:

تدب دبيبا في العظام كأنه دبيب زمال في نفا يتهيل^(٤)
ويترسم صورة المتشئ بها نشوة تفقده حسه ووعيه، على هذا النحو:

صريع مدام يرفع الشرب رأسه لينحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحيانا وحينئذ نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل^(٥)

إذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها مخبل
وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغوفاً شديداً، حتى لراه يذكر في حديث

له مع عبد الملك أنها هي التي تمنعه من إعلان إسلامه^(٦). وفي أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا، فقد كان يتمسح بالقساوسة تبركاً، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان. وزراه يذكر الصليب في ديوانه كما يذكر قديم قبيلته مارسرجيس، ويُقسم بالمسيح والرهبان. وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفى سنة اثنتين وتسعين للهجرة.

(١) الصهبا: الخمر. كلفت: تغير لونها.

(٢) عنراء: لم تخلص. العبادى: نسبة.

إلى قوم في الحيرة كانوا يتجرون في الخمر، وهم

نصارى، سمو العباد.

(٣) الشاصيات: المظنة.

(٤) النفا: الكتب من الرمل.

(٥) نهاده: نسقه. الحشاشة: بقية النفس.

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٩٠/٨.

الفهرزدي (١)

شاعر نيمى ، وكانت نيم تنزل في الجاهلية بشرق الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها من البصرة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل في نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل اليمنية والمصرية والرابعة في أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتعد أكبر القبائل المصرية ، وهي في حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بمجراتها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ، ومن أشهر هذه القبائل دارم وبربوع ومازن ومنقر وبنو الهجيم وبنو أنف الناقة . ويفيض كتاب شرح قفاض جرير والفهرزدي في الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ، ومن أهمها « أواره » بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و« الرحرحان » بين دارم وعامر و « ذونجب » بين ربوع وعامر و « النجاج » بين منقر وبكر و « إراب » بين ربوع وتغلب و« جبلة » بين نيم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عيس و« طخفة » بين دارم وربوع . وكانت وثنية إلا نفرأ قليلا تنصروا ، وهم يسمون في الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حجر وسلامة بن جندل وعلقة الفحل وعدي بن زيد العبادي ، ومن شعرائها في صدر الإسلام عبدة بن الطبيب وتميم

ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ والمجد
ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ،
٢٩٢ والأسالي ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن
عبد البر ص ٤٦٩ ومجم الشعر للفهرزدي
ص ١٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها . وقد
طبع ديوانه طباعت مختلفة ، طبع بوشة جزءاً
كبيراً منه وأكله حل . وطبع في مصر وبيروت
طباعت مختلفة ، أهمها طبعة الصاوي . ولشعر
يظن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبي
صبيدة ، والديوان والنقائض جسيما في حاجة
إلى نشرة علمية محكمة .

(١) انظر في ترجمة الفهرزدي الأغاني (طبع)
سأسي ٢/١٩ وما بعدها وأخبار مع ابن الزبير
وزوجه التوار في أغاني (دار الكتب)
٢٢٤/٩ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء
٤٤٣/١ وأين سلام ٢٤٩ وما بعدها والمؤرخ
ص ٩٩ وما بعدها . سيم الأدباء لياقوت
٢٩٧/١٩ و« غزاة » ١٠٥/١ و« راة »
الحنان اليافى ٢٣٨/١٠ وأسالي المرتضى
٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة
في الأغاني انظر الفهرس ، وراجع الإصابة
٢٨٠/٥ والطبرى ١٨٠/٤ وما بعدها و

ابن نويرة . وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجاح . وتبعها كثيرون ، فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام . مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة في فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة في معارك صيفين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج في زمن علي بن أبي طالب ، ثم فيما تلاه من أزمته ، وخاصة في صفوف الأزارقة . وقد مررنا أنها تحالفت في البصرة مع قيس ضد الأزدي وربيعة ، وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اضطلعت بالأزد ، وظلنا متنافرين طول العصر لا في البصرة فحسب ، بل أيضاً في خراسان .

وكانت دارم تتشعب شعباً أهمها بنو فُقَيْمٍ وبنو هَشل وبنو مجاشع ، وفي بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة ولد الفرزدق وهو لقب لقّب به بلهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الحُبْرَة الغليظة التي يتخذ منها النساء التفتوت . واسمه هَرام ابن غالب بن صَعَصعة بن ناجية بن عِقَال ، وجميعهم في ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فُتدَى الموهودات في الجاهلية ونهى عن قتلهن ، ويقال إنه فُتدَى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوّه الفرزدق في شعره بهذه المكرمة بلحده طويلاً ، من مثل قوله :

أَبَى أَحَدُ الْغَيْثِينَ صَعَصَعَةُ الَّذِي مَنَى تَخْلَفَ الْجُوزَاءِ وَالنَّجْمُ يَمْطُرُ
أَجَارِبِنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجِرُّ عَلَى الْقَبْرِ يُعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفِرٍ

وكان لصعصعة قبون منهم جَبَبِيرٌ وَقَبَابٌ وَدَيْسَمٌ ، ومن ثم جعل جرير مجاشعا قبونا كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أنوا النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر في الجاهلية كان ابنه غالب في الإسلام وأمه ليل أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، وما يروى من جوده السيّال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جودهم ، فأكاد يسمع مسألهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويروى أن دارما وبربوعا أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سحيم بن وكيل فصنع صنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سحيم مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحر إبله كلها في مكان يسمى صَوَّار ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربع مائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً في شعره . ولم يكن يتلغع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جَعْدَن ، وتصادف أن أحد أشرار بني مِثْقَر رآها فضرب يده على نحرها . فصرخت ومضى ، وقد عبر جربير الفرزدق بذلك كثيراً حتى لراه يرميها بالفحشاء إذا ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التي وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالي سنة عشرين للهجرة ، في أخبارة أنه قال : كنت أهاجى شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان ، وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفي أخبارة أيضاً أن أباه قدّمه إلى علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابني هذا شاعر ، فنصحته أن يعلمه القرآن .

وواضح مما قلنا أن الفرزدق نشأ في بيت كريم ، مآثره ومفاخره لا تُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه إذ كان يعتدُّ بأبائه اعتداداً شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم في هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المصروف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُعَبِّرُ على قبر أبيه غالب . على نحو ما كان أجداده يُعَبِّرون . ولما توفى صديقه بشر بن مروان نحر دأته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاق الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التي حرّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة الذي لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلاً بعيداً عن قصر بني أمية في دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تنقل عن أسرة بني أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمَّ عم له يسمى الحُتَات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفى قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكده يسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة في معاوية يقول فيها :

فما بال ميراث الحنات أخلته وميراث حَرْبٍ جامد لك ذائبة^(١)
 فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرء القليل حلايته^(٢)
 ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله "رزق نظمه في ذنب ذهب بكبش
 من غم لأهله ، وهو يستله بقوله :

تلوم على أن صَبَّحَ الذئب ضأنها فألوز بكبش وهو في الرغوى راتع
 وهي أبيات جيدة الصياغة . وفي أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد
 اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن
 هجأهم وأسرف في هجائهم بنو فُقَيْمٍ وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لم في قوم ،
 فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبت وفودُ بني فُقَيْمٍ يَأْكُم ما تؤوبُ به الوفودُ
 ومضى يهجوم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رَمَيْلة النّهشل ،
 واستمر الهجاء والتفاخر بينهما ، حيث ردعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك
 في سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو
 البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ،
 وأعانوه على الفرار ، فولّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قبيل
 معاوية ، وكان سيداً ممدّحاً ، فأمنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

ترى الفرّ الجحاجج من قريش إذا ما الأمر في الحدّثانِ غالا^(٣)
 قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالاً
 وصحه الخطبة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ
 لا ما نعلل به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رقى له وقال : لو أتاني لآمتته وأعطيته ،
 فقال في كلمة :

دعاني زيادٌ للمطاء ولم أكن لآتيه ، ما ساق ذو حَسَبٍ وفراً^(٤)

(١) حرب : جد معاوية . وهو السيد الكريم . الحدّثان : - رادث الدهر

(٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم في القبيلة . وفوائيه . وقال : أصاب بشر .

(٣) الفرّ : جمع أفر وأصله أبيض الفرّة . (٤) الفرّ : المال الكثير . وأراد التأنيب أي

لا آتيه أبداً .

وهريد به الشريف . الجحاجج : جمع جحاجج

ومضى في المدينة ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القبان ،
وذكر ذلك في شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غَنَانِي من العاجِ قاصفٌ على مِصْمِ رِيَانٍ لم يَتَّخِذْ^(١)
وقوله :

هما دُلَّتَانِي من ثَمَانِينَ قَامَةً كما انقَضَ بازٍ أَقْدَمُ الرِّيشِ كَامِرُهُ

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثُّغرة في خلقه وسلوكه . وكان معاوية يحمل
المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمرwan بن الحكم ، فَوَلَّى مروان ، وكانت فيه
شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفي طريقه إليها
أتاه نعي زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه
مسكينا الدارمي يتفجّع على زياد بمثل قوله :

رَأَيْتُ زِيَادَةَ الْإِسْلَامِ وَطَّتْ جِهَارًا حِينَ ودَّعَهَا زِيَادُ

فحنق عليه حنقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أَمْسِكِينَ ! أَبَكَى اللَّهُ عَيْنَكَ إِنَّمَا جَرَى فِي ضَلَالٍ دَمْعُهَا فَتَحَدَّرَا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهتدم شطر حبه . ونراه
يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له في مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بني
مِثْقَر ، ويغضب لهم مِرَّةً بن مَحْكَن^(٢) شاعر بني رُبَيْع التميميين وسيدهم ،
فيهجوه وشيئته بكلمة يقول في تضاعيفها :

تُرَجِّى رُبَيْعٌ أَنْ يَجِيءَ صِفَارُهَا بخَيْرٍ وقد أَغْنَا رُبَيْعًا كِبَارُهَا

ويشتمل بينهما الهجاء . وتدخل في فترة فتنة ابن الزبير ، وتبته العراق كما
تبته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعب ابن مَحْكَن . ونرى الفرزدق في هذه الأثناء

(١) أراد باللاج أساور العاج . قاصف :
من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة
الأساور . زيان : يملأ . يتخذ : يتجعد .
(٢) انظر في ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥
والشعر والشراء ٦٦٧/٢ وأغانى (ساسي)
٩/٢٠ ومصمم الشعر ص ٢٩٥ .

بدخل - كما مر بنا - مع جرير في معركة الهجاء التي استمر شررها يتطاير حتى توفي ، والتي أورتنا نقائضهما آفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النوار وهي ابنة أعبن بن ضبيعة المجاشعي . وكان قد تزوجها راعمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليها ، فأنهز القرصة . وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الخلدق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور بن زبآن الفزاري ، وتشققت إليها . وتبعها الفرزدق فترل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة . فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقبلْ شفاعتهم وشُققتْ بنتُ منظور بن زبانا
ليس الشفيعُ الذي يأتيك مُؤتِزرا مثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عُريانا
وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله في العراق فحُضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا في مكة ، غير أنها ظلت تشاره وتشاجره ، إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حذراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرض بالنوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حذراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حذراء قبل أن يبني بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكبة ، وتزوج ربيعة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزنا منه فطلقهما ، وما زالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً : يقول في كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسميِّ غَدَتُ مني مَطلَقَةٌ نَرَرُ^(١)
وكانتُ جَنَّةً فخرجتُ منها كآدم حينَ أخرجه أَسْرارُ^(٢)

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبطة وسبطة وخبطة وركضة من النوار ووُلد له أيضاً زمنة . وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه في الشعر . وفي تسميته

(١) الكسمي : شخص يضرب به المثل في الندم . (٢) الضرار : العصيان والتمالقة .

لأبنائه هذه الأسماء ما يدل من بعض الوجوه على غِلَظِ نفسه ولا شك في أن فضله المبكر في حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذي ولي العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به على العدو وغِيثُ بُنِيت الشَّجَرَا
وولّى العراقَ الحِجَاجُ ، وكانت فيه قسوة ، فخشى بطشه ومضى بمدحه
مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلّاتقُهُ سِيانٍ معروفُهُ في الناس والمطرُ
هو الشهابُ الذي يُرْمَى العدوُّ بهِ والمشرِقُ الذي تَعَصَّى به مُضَرٌ^(١)
ونوّهُ طويلاً بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل : حتى
إذا توفّي رثاه رثاء حارّاً ، يقول فيه :

ومات الذي يَرْمَى على الناس دينهم ويضربُ بالهندي رأسَ المخالِفِ^(٢)

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التقييمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلي الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، واجتمع معه الحجاج وولاته في المشرق ، وتصادف أن توفّي الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولي لم يكن له هم إلا أعمال الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي بخراسان ، فقتلته تميم وردت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع في هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لتمييم . وكان يستشعر هذه العصبية داسماً إلا أن يضطرراً اضطراباً للترول عنها . ويتأثيرها نجده يشد على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدي الـيد الجواد والفراس الشجاع الذي لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه في جرجان ، ليضنّي عليه من نواله ، فيأبى قائلاً :

دعاني إلى جُرجان والرُّى دونه لآتيه ، إني إذن لزمور^(١)
 سَلْبِي وتَأْبِي لِي تَمِيمٌ وربما أبيتُ فلم يقدر على أمير
 حتى إذا ولي يزيد العراق لعمر سليمان بن عبد الملك مضى يملحه مسرفاً
 في مدبجه على شاكلة قوله :

إني رأيتُ يزيدَ عند شبابِه لَيْسَ التَّقَى ومهابةَ الجبارِ
 وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم خُضَعَ الرُّقاب نواكسَ الأبصارِ

ودار الزمن فثار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته
 مسلمة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازني الذي تعقب آل المهلب
 في قتلايل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حيثئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع
 تميم، هاجباً يزيد بن المهلب وأمرته هجاء مرا^(٢).

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلاً لا يفد على قصر بني أمية في دمشق ، وأول
 من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بني حَرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتبه والمتخيراً
 أباك وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤمن أوتجراً^(٣)
 فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمراً

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بني أمية الذين يدعون لهم ويدافعون
 عن خلافهم ، مضيقين عليهم حالة قلمية من التقوى والبر ، تحفها المبالغة
 المسرقة من مثل قوله في سليمان :

أنت الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزُّبرِ
 كم كان من قَسْ يخبرنا بخلافة المهدي أو خبر
 جعل الإلهُ لنا خلافته برء القروح وعصمة الجبر

(٣) الأوجر : الخائف .

(١) زور : كثير الزيادة .

(٢) الديوان ص ٥٧٥ .

وقوله في يزيد بن عبد الملك ، ولوه ومجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عبادي نبي لهم منهم لأمر العزائم
لكنك الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام
ورثتم خليل الله كل خزانة وكل كتاب بالنسوة قائم
ولعل في هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعياً ماثلاً إلى
بني هاشم وإنهم ليسرسلون في ذلك فينسبون إليه قصيدة في علي بن الحسين
وهي القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
وقد أنكر أبو الفرج الأصبهاني نسبة القصيدة إليه^(١) ، والذي لا شك فيه
أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسه إذ كان لا يتمصب لشئ سوى قبيلته
وأبائه ، وقد مدح بني أمية بأخوة ، أما ولاية العراق فكان إذا خاف بطشهم
مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصية ضد
نجم ، ومن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزاري وإلى يزيد بن عبد الملك ،
وفيه يقول :

أمير المؤمنين وأنت عفو كريم لست بالطبع الحريص^(٢)
أوليت العراق ورافدينه فزارياً أحذ يد القميص^(٣)

وولّى بعده خالد القسري لحشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية للبنية ،
وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخر الناس في شق نهر
المبارك ، وانتهر القرصة الفرزدق ، فأخذ يهجوهم بالعلمين جميعاً ، يقول :

بنى بيعة فيها الصليب لأمة وهدم من كُفّر منار المساجد
ويقول

أهلك مآل الله في غير حقّه على نهرك المشثوم غير المبارك

(٢) أخذ : سريع ، يصف بالسرقة وأنه غير
أمين على أموال الأمة .

(١) أغاني (سأسي) ٧٥/١٤ .

(٢) الطبع : التميم الذئب .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبس ، فألقى به في السجن ، فانقلب يستعطف مالكا وخالدا وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حج خالد وأتاب عنه أخاه أسدا ، فرد إليه حريته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أتاب أنه أتاب إلى ربه في سنه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خبر ما يصور ذلك قصيدته في إبليس ، وفيها يقول :

أطعنك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شبي وتم تمامي
فرزت إلى ربي وأيقنت أنني مُلاقٍ لأيام المَنون جماعي
وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قدمناه من خشونة نفسه وصلابها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت عملة بمرارة مسرقة . إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المختد ، فكان ينصب عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجارح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زير غنوان وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعش امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا »^(١) . وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لبنة رقيقة . والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بأبائه وقبيلته اعتداداً لأحد له ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وكنّا إذا الجبار صغر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع^(٢)

صفحة الست . واستفاة الأخادع كناية عن

المضوع والذل .

(١) البيان والتميز ٢٠٨/١ .

(٢) صغر عده : أماله كبراً وغطرية .

الأخادع : جيع أمدع وهو المرق البارز في

وقوله :

ترى الناس ماسرنا يسبرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا^(١)

وقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا حللُ الملوك لبأسنا فى أهلنا والسابقات إلى الوغى نَسْرِبُلُ^(٢)
أحلامنا تَزِنُ الجبالَ رزانه وتخالنا جِنًا إذا ما نَجْهَلُ^(٣)
فادْفَعْ بكفك - إن أردت بناءنا - ثَلانَ ذا الهضبات هل يَتَحَلَّلُ^(٤)

والحق أن الفرزدق كان نبعا كبيرا من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صلبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر فى أساليبه ، من مثل قوله المشهور فى مديح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله فى الناس إلا مُملِكًا أبو أمه حى أبوه يُقارِبُهُ
فإن البيت لا يَفْهَمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعياً على هذا النحو :
« وما مثله (الممدوح) فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعَصْ زَمَانٍ يابنَ مَرَّوانَ لم يَدَغْ من المال إلا مُسْحَتًا أو مُجْرَفًا^(٥)

وكان القياس أن يقول مجرفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف تمثيلاً مع روى قصيدته . وكان ابن أبى إسحق الحَضْرَمِي يراجع فى ذلك ومثله كثير ، فكان يَسْخَرُ منه . وقد عدّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب ، ومن ثم دارت أشعاره فى كتب اللغويين والنحاة كما دارت فى كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

(١) وقفوا : وقفت ركائهم لا يتقدمون . (٢) سمك : رفع . (٣) السابقات : الدروع الكاملة . نسرِبُل : (٤) نجل هنا : نضب حية . (٥) ثَلان : جبل . يحلّل : يتحرك . (٦) المسحت والمجرف : المهلك المتأصل .
نلبس ..

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها . بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان . وله مدائح وأهاج مختلفة في ولائها وولاء فارس ، أمثال عبيد الله بن أبي بكثرة والحرّاح الحكيم وعمر بن عبيد الله بن معمر والحنّيد ابن عبد الرحمن المُرّي . وقد نوّه طويلاً بأسد بن عبد الله القمري وعلال بن أحوّز المازني . وأشاعره رغم فقه مطبوعة بروح الإسلام . فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب . كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء . وهو يضمن ذلك مدائح وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف : مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضيّق ناشئ من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التي قلما تعرف الرقة واللين

٦

جرير (١)

شاعر تيمى من عشيرة كلّيب البربرية ، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأجداد ، أما العشيرة فعُرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة في الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفرسانها طويلاً . وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً ، أما جدّه الحطّطي فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أثناه من قبيلة الشعر ، وما برّوى من شعره قوله :

عجبتُ لإزراه العيّى بنفسه وصمّتُ الذى قد كان بالقول أغلماً
وفى الصمت سترٌ للعيّى وإغما صحيفةٌ لُبُّ المرء أن يتكلما

وراجع فهرس الأغاني ومواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نُشر ديوانه في القاهرة سنة ١٣١٣ هـ ونشره الصاوى بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيض نقائضه مع الفرزدق بشرح أهبصيدة ، ونشر صالح نقائضه مع الأعطل برواية أبي تمام .

(١) انظر في ترجمة جرير الأغاني (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢٣٥ وابن سلام ص ٣١٥ والمؤرخ الفرزباني ص ١١٨ وغزاة الأدب ٣٦/١ والعيى ٩١/١ وراجع فهرس الكامل للبرد والبياناتيين - وانظر ذيل الأمل ص ٤٣ والطبرى ٥/٢٦٧، ٢٧٣

وكانت أمه تسمى أم قيس، وهي من نفس عشيرته، وقد ولدت جريراً في بادية
اليمامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد، كانا
ينظمان الشعر.

فجرير إن لم يكن نشأ في بيت مجد فقد نشأ في بيت شعر، وظل الشعر
يتوارث في أبنائه، وأشعرهم بلال. وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين في
العصر العباسي، وعنه أخذ الرواة شعر جده وأكثر أخباره، ويقول ابن قتيبة
كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور.

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة، وقد وجد في جده الخطابي
خبر من يلقنه الشعر، ويقال إن من أوائل ما نظمهم مमारواه له الرواة أبياناً عاتبه
بها، وذلك أنه كان ذا مال كثير، وكان يتنحل أبناءه وأحفاده من ماله،
فاستنحله جرير، فأعطاه بعض ماله، ثم رجع فيه، وقيل بل أعطاه قليلاً فاسترده
فلم يزد، فتسخطه، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها، وقد وصلها بعد
ذلك بسنوات بأبيات نظمها في الفرزدق وغسان السليطي، وفيها يقول معاتباً
جده:

وإني لمغرورٌ أعللُ بالمُنَى لِيَالِي أَرْجُو أَنَّ مَالِكَ مَالِيَا
وإني لَعَفُ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغِنَى سَرِيحٌ - إِذَا لَمْ أَرْضَ دَارِي - ائْتَقَالِيَا

ويقال إنه وقد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة، فأنشده هذه
الآبيات، فقال له: كذبت إنها لجرير، فقال له: أنا جرير. ومن قوله فيها:

وَلَيْسَتْ لِسِنِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ وَلِلسَّيْفِ أَشْوَى وَقَعَةٌ مِنْ إِسَانِيَا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف، فالسيف إنما يقطع الشوى
أى الأطراف، فيبقى على من طعنه، أما لسانه فلا يبقى بقية فيمن يقطعنه.
وهو استهلال لحيانته الشعرية. يدل على أنه مقتحم بها فن المجاء، وقد ظل
يجول ويصوّل في هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفي بعد
الفرزدق بنحو ستة أشهر. ونراه بها جى غساناً السليطي، وبعينه البسيث، فيقطعنه
ويقطعن نساء عشيرته مجاشع طعنات نجلاء، فيضطّر الفرزدق أن ينأزله،

ويجئهم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجوهم وهو مقيم بالمروث من بادية الحامة بضع سنوات . فأرسلت بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمروث ، ليس عندك أحد يَرْوِي عنك . والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فاعلمنا إلى العراق ، فأقام بالبصرة . منشدا :

ولإذا شهدت لثغرٍ قوى مشهداً آثرتُ ذاك على بنِي ومالي

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق في طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الملقب بالقُبَاع (٦٥ - ٦٦هـ) يأمر - حين رآه يتوقف مع الفرزدق بالمربد - صاحب شرطته عبَّاد بن الحُصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ داري مَرَّتَيْنِ هدمتها وكنتَ ابنُ أُختٍ لا تُخافُ غوائله
ويقول جرير :

وما في كتاب الله هَدْمٌ بيوتنا كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مَدَاخِلُهُ
ولم يهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد هاجى - كما أسلفنا - مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان بهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرى بهم واحداً واحداً ، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبلدهوني ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إنني لا أبئدي ولكن أعئدي ، ويرَوِي أن الراعي سمع راكباً يتغنى :

وعايَ عَوَى من غير شيءٍ رميته بقافية أنفاذها تنقطر الدُّمَّا^(١)
خروجٍ بأفواه الرواة كأنها قرأَ هُنْدُوَانِي إذا هُزَّ صَمًّا^(٢)

كثيرة الإنشاد . قرأ : سنن وظهر . الهندوان : السيف ؛ كانوا يحملون سوطهم الجيدة من الهند . صم : قطع اللحم وبرى النظم .

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلام الذي تحدثت عليه .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها

فسأل عن صاحب البيت ، فقيل له جرير ، فقال : والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً ، هل ألام على أن يغلبني مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة في نساء عشائهم ، كقوله في نساء عشيرة سُرّاقة البارق ، وكان ممن رفعوا الفرزدق عليه :

يُعْطَى النساءُ مهورهن كرامةً ونساءُ بارقَ مالهن مهورُ

ولم يثبت له - كما أسلفنا - سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن بلحأ التَّبَّسَّى إلى حين ويقال لإنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأتهما يتهاجان ، فأمر بأن يُضْرَبَا تأديباً ، فضربا وأقبا على السُّلُس^(١) مقرنين . وعادا إلى العراق ، وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قومٌ إذا حَضَرَ الملوك وفودهم نُتِفَتْ شواربهم على الأبوابِ

واستغاثت تبسمُ بجرير وتوسلت إليه وتضرعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد أن ثَلَبَهَا وشاعرها ثلَباً قبيحاً . وويل للعشيرة التي كانت تتعرض له ، روى الرواة أن الفرزدق أتى مجلس بني المُجَيمِ في مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريراً ، فأنامهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلاً له : انتقِ الله ، فإن هذا المسجد بُنيَ لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ، وهو يقول :

إن الهُجِيمَ قبيلةٌ ملعونةٌ حُصَّ اللَّحَى متشابهو الألوان^(٢)
لو يسمعون بأكلةٍ أو شربةٍ بَعْمَانُ أصبح جمعهم بَعْمَانُ
متوركين بنيهم . وبناتهم صُغَرَ الْأَنْوَفِ لريح كلِّ دُخَانٍ^(٣)

(٢) متوركين : يريد أنهم يحلون بناتهم وبينهم ويذهبون يألون بهم . صر : جمع أصمر وهو الذي ينظر بوجهه لاوياً منه .

(١) السُّلُس : غرائر كبار تحشى تبناً ، كان يرضع عليها الجناة تشجيعاً لم وتأديباً .
(٢) الأحص : قليل الشرى ذقته وعارضيه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ - ٨٩٥) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والمجاء وما يقدم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أظلم هذا العصر، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة، فيمدحه برجز، يقول فيه :

خليفة الحجاج غير المتهم في معقِدِ العِزِّ وبُوبِ الكَرَمِ^(١)

واستنطقه فأعجبه ظرفه وشعره، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعث به إلى، فقدم عليه، فأكرمه. وصرعان ما حاش له جرير بمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ^(٢)
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِظَةً إِذْ لَا يَثْقَنَ بِخَيْرَةِ الْأَرْوَاجِ^(٣)
إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَبَيَّنُوا ماضٍ البصيرة واضحُ اليَسْهَاجِ
ماضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُمَضَى هَمُّهُ وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي^(٤)
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمُ سُبُلَ الْهُدَى وَاللَّصُّ نَكْلُهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ^(٥)
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا سَبِيلَ الضَّجَّاجِ أَقَمْتَ كُلَّ ضَجَّاجِ^(٦)
دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ غِبْرَاءَ ذَاتِ دَوَاخِنٍ وَأَجَاجِ^(٧)
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحَجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التي يجلها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسة وولايته للعراق، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق، مع شجاعة فائقة وحفاظة على اللئام. ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد، ويصور كيف أقام العدل في الناس ومنع

(١) بوبو: أصل.

(٥) الإدلاج: السير ليلا.

(٢) المطلع: المنفذ من أجل، أو المصد.

(٦) الضجج: الباطل.

(٣) الحفيظة: الغضب.

(٧) الأجاج هنا: من أجة النار. والدواخن:

جميع داخن وهو الدخان

(٤) الغمرات: الشدائد. داجي: مظلم.

الرشوة وقضى على اللصوص وقطّاع الطريق في الليل المظلم . ويقول إنه قوّم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطّم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيشون في الأرض فساداً . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجاجُ مثلَ دُعاءِ نوحٍ فأسمع ذا المَعارِجِ فاستجابا^(١)
صبرتَ النفسَ يابنَ أبي عَقيِلٍ محافظَةً فكيف ترى الثَّوابِ
ولو لم يَرَضْ رَبُّكَ لم يَنْزِلْ مع النُّصرِ الملائكة الغِيضابِ
إذا سَمَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ رأى الحجاجُ أثَقَبَها شهابِ
وكان عبد الملك بن مروان في دمشق يفسح في مجالسه للأخطل شاعر تغلب النصارى . ويُنقَلُ إليه شعر جرير في الحجاج فيفِيطُه عليه لروعة شعره ومهارته في المديح . ورأى الحجاج أن يهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة في أن يَمَثُلَ بمدحِهِ بين يديه ، فصحبهُ معه في وفادته التي وفدها على عبد الملك ، ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له في التشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه في الحجاج واحدة بعد واحدة . ثم أنشده قصيدته التي يقول في استهلالها :

تعزّت أمُّ حَزْرَةَ ثم قالتُ رأيتُ المُرَدين ذوى لِقاح^(٢)
تعطلُ ، وهى ساعِبةٌ ، بَنِيها بأنفاسٍ من الشِّيمِ القَراح^(٣)
سَأمتِ ساحَ البحورِ فجَنَّبيني أذاةَ اللومِ وانتظري امتيَاحي^(٤)

ونخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك : فقال

وإني قد رأيتُ على حَقًّا زيارتيَ الخليفةَ وامتداحي
أَلستم خَيْرَ من ركبِ المطايا وأُنَدَى العالمين بطونَ راح^(٥)

-
- (١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يفلحوا إلا فاجرًا كفاراً)
ذو المَعارِج : الله جل جلاله .
(٢) المُرَدون : أصحاب الإبل يوردونها الماء .
(٣) القَراح : جمع لقمة وهي الناقة في أول نشاجها .
(٤) أمتاح : أسقى من المصح وهو المطاء .
(٥) أُنَدَى : أجود .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير بصور فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقوم قد سموت لهم فدانوا يدهم في مللمة رداح^(١)
أبحت حتى نهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح^(٢)
دهوت الملحمدين أبا خبيب جماحاً ، هل شفيت من الجماح^(٣)
فقد وجدوا الخليفة هيرزياً ألف العيص ليس من النواحي^(٤)
فما شجرات عيصك في قریش بعشات الفروع ولا صواحي^(٥)
رأى الناس البصرة فاستقاموا وبينت المراش من الصباح^(٦)

وأعجب عبد الملك بحرير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومحبلاً من فضة . وجرير في هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه في الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر في مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم في الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يعدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين في الحكم ويتناضل عنهم وما يزال بسد سهامه إلى خصومهم ، وهو في تضاعيف ذلك يخففهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقررأ أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشيع أهل باطل وضلال وأهواء ويدع ، يقول في عبد الملك :

لولا الخليفة والقرآنُ نقرؤهُ ما قام للناس أحكام ولا جُمعُ

- (١) دانوا : أطاعوا . الدم : الجيش الكثير .
مللمة : مجتمعة . رداح : خنفة . يقصد من ثاروا عليه .
(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك على ما كان في يده من نجد والحجاز .
(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماح : الصناد والخلائ .
(٤) هيرزيا : نافذاً في الأمور ماضياً .
ألف : ملتف . العيص : الشجر . يريد أنه في صميم الغز وليس في نواحيه .
(٥) الشجرة مئة الفروع : دقيقة الأغصان .
والصاحبة : بادية الميدان ولا ورق عليها .
(٦) بينت : تبينت .

أنت الأمين أمينُ الله لا سِرْفُ فيما وَلَيْتَ ولا هَيَابَةُ وَرَعٌ^(١)
 أنت المبارك يَهْدِي اللهُ شِيعَتَهُ إذا تَفَرَّقَتِ الأَهْوَاءُ والشَّيْعُ
 فكلُّ أمرٍ على يُخَنُّ أَمْرَتَ به فينا مُطَاعٌ ومهما قَلَّتْ مُسْتَمَعُ
 يا آلَ مروانَ إنَّ اللهَ فَضَّلَكَم فَضْلاً عَظِيماً على مَنْ دِينُهُ البِدْعُ

وواضح أنه يُزْرَى على أصحاب الأهواء الذين يحادون بني أمية من الزبيريين والخوارج والشيعية ، ويسمهم أهل بدع وضلالة . ويتوقى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد . ويظهر أنه كان يجفوه في أول الأمر . فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لحاء عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يتصرف جريراً عنه ، فقد كان يلزم به في دمشق ، وكان يراه يقرب عدى بن الرقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عدواً أثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقعاً حسناً بما دبّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إنَّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى بالنَّصرِ هُزْ لَوَاوُهُ وَالْمَغْنَمِ
 ذو العرشِ قَدَّرَ أنْ تكونَ خليفةً مُلْكَتَ فاعِلُ على المنايرِ واسْلَمِ
 ونراه يلزم ابنه عبد العزيز . ويقدم له مدائح كثيرة . حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليها عبد العزيز رأيناه يحطّب في حبله بمثل قوله :

إذا قيلَ أيُّ الناسِ خيرُ خليفةً أشارتْ إلى عبد العزيز الأصابعِ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوقى الوليد ويتولى سليمان ، فيفقد عليه مادحاً ، محاولاً أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصور من تقواه ومن عدله وكيف أطلق مَنْ سَجَنَهُم الحجاجُ وكيف ردّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

(١) الهياية : الجبان وكذالك الورع يمنع الرأى .

إلى الناس ، وهو في تضاعيف ذلك بنوه بأن الله اختاره للأمة ناعثاً له بأنه المهدي المنتظر ، يقول (١) :

سليمانُ للبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضع السبيلُ
أجرتَ من المظالم كلَّ نفسٍ وأدبَتَ الذي عهدَ الرسولُ
صَفَّتْ لك بيعةٌ بشباتِ عهدِ فوزنُ القَدَلِ أصبح لا يميلُ
وتدعوك الأرامسلُ واليتامى ومن أمسى وليس به حَوِيلُ (٢)
ويدعوك المكلفُ بعد جَهْدٍ وعانٍ قد أضُرَّ به الكِبُولُ (٣)

ونراه يمدح ابنه أبوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله في دينه ويزهد في الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفّة وحنّ دينه، ومعرفته به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة، وله فيه مدائح مختلفة، يصورُ فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله :

أنتَ المبارك والمهديُّ سِيرَتُهُ تَعَصِي الهوى وتقوم الليل بالسُورِ
نالَ الخلافةَ إذ كانتَ له قَدَرًا كما أتى رَبَّهُ موسى على قَدَرِ
ويشير إلى سياسة عمر في طرح العُشور عن الرعية وكل ما كان يُجَبِّي منها
غير الخراج (٤) ، فيقول في مدحة أخرى :

إن الذي بعث النبيُّ محمدًا جعل الخلافة في الإمام العادلِ
ولقد نفعت بما منعتَ تَحَرُّجًا مَكَّسَ العُشور على جسور الساحلِ (٥)

طاقته . والمافي هنا : السجى . والكبول : القيود . وهو يشير هنا في وضوح إلى عصف الهجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناول به الهجاج على نحو ما صنع الفرزدق في مبيته .

(٤) انظر الطبري ٣٢١/٥ .

(٥) موضع المكس حيث طريق المارة في قطرة أو جسر .

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولد الخليفة أطلق الأسارى وأهل السجون وأول الناس بإحسانه . انظر الطبري ٣٠٤/٥ وراجع مبيعة الفرزدق التي نظمها في قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها في الكلام . على التناقض .

(٢) حويل : حيلة وقوة .

(٣) المكلف بعد جهد : الذي كلف فوق

وسرعان ما توفّي عمر ، فندبه ندباً حارّاً ، بصور فجیعة الأمة فيه حتى
ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنَمَّى النُّعَاةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا بِأَخْبَرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقَمَتْ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا^(١)

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه في العراق يزيد بن المهلب ،
ويَقْضَى على ثورته مسلمة : ويصيح به جرير مراراً في قصائد مدح بها يزيد
ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التي صور بها سابقيه من الخلفاء ، من
مثل قوله :

زَانَ الْمُنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمَنْتَجِبٍ مَثَّبَتْ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورِ
وَيَصِفُهُ بِالْعَدْلِ وَأَنَّهُ وَرَثَ الْمَلِكِ عَنْ آبَائِهِ بِعَهْدِ مَنْهُمْ . ودائماً ينوّه في مدحيه
لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة في الأمة ولا في قريش ، بل هي وراثية
في بني أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد
الملك ، وفيه يقول في آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :
إِلَى الْمَهْدِيِّ نَفَزَ أَنْ فَرَعْنَا وَنَسْتَمِيقُ بِغُرَّتِهِ الْغَمَامَا
وَحَبْلُ اللَّهِ يَغْصِمُكُمْ قُوَاهُ فَلَا نَحْشَى لِعُرْوَتِهِ انْفِصَامَا^(٢)

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك
وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ،
ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ
عرف عبد الملك داعية للأمويين لم تكن مبالغين . وليس له في سواهم إلا مدائح
قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالد القسري
مستشفعا للفرزدق كي يُطْلَقَ ، ومدح بعض أشراف قيس وتيم مثل المهاجر بن

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر أريد (٢) قري الحبل : طاقاته .

عبد الله الكلّابى والجنيد بن عبد الرحمن المُرّى وهلال بن أحوّز المازنى الذى نكّل
بآل المهلب فى ثورتهم . وبظل أضخم صوت فى ديوانه تغنى به مادحاً صوته
فى الأمويين . ولعل فيها قلمتا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون
الشعر حتى برّز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفى
رأينا كما قلمتا أنه كان فيه مع الأخطل فرسى رهان ، بل لقد كان يتقدمه فى
كثير من الأحيان بعدوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحه من إطار
الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطل والفرزدق جميعاً فى الموضوعات التى تتطلب
دقة فى الإحساس ورقة فى الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ،
وكان الفرزدق - كما أسلفنا - صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق فى
الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته
كأها العواصف القاصفة والصواعق المدمرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته
ولا لآبائه شئ من المآثر الحميدة ، فانطورت نفسه على حزن عميق صقّ
جوهرها ، وزاد فى هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان ديناً عفيفاً طاهر النفس .
وانزلاً رثاءه لزوجته أم حنّرة ، إذ يقول :

لولا الحياء لعادنى استعمارٌ ولزرتُ قَبْرَكَ والحبيبُ يزَارُ
ولَهَتْ قَلْبِي إِذْ عَلَنِي كَبْرَةٌ وذوو التَّائِمِ مِنْ بَنِيكَ صِغَارُ
ولقد أَرَاكِ كُسَيْتِ أَجْمَلِ مَنْظَرٍ ومعَ الجمالِ مَكِينَةُ وِوَقَارُ
صَلَّى الملائكةُ الذينَ تُخَيِّرُوا والنَّسَالِحونَ عَلَيْكَ والأَبْرَارُ

فإنك تحس تفجعه المرير ، لقيام صور الموت الصفيق بينها وبينه هو وأولادها ،
وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محبباً فيها جمالها وخلفها الرفيع . وتدل
دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حنّرة هذه وأمامة التى أهداها إليه
الحجاج وأم حكيم الدبلمية أم ابنه بلال ونوح ، كانت علاقات ودّ وعبة .
ولم تنشز عليه سوى جارية اشتراها بأخرة ، وقد عابت عليه عيشه وكبيرة سنه ،
ففارقها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكن يبادلنه ودّاً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدم به بين يدي قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطوائها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه بتألف ويستعطف ويشكو ويتضرع على شاكلة قوله :

بنفسي من تجنبه عزيز على ومن زيارته لمام^(١)
ومن أنسى وأصبح لا أراه ويطرفني إذا جمع النيام
وقوله :

لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يضرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن ضعف خلق الله أركاناً
أتبعنهم مُقلّةً لإنسانها غريقٌ هل ما ترى تارك اللين إنساناً^(٢)
وكان إذا هجا نساء من يهجونه سما دعاها لا يطاق ، فإذا أشاد
بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة الدّوار زوجة الفرزدق إغاظة له وكيداً نثر فوقهن
زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يشغف القلوب ، ومن
بارع قوله فى نساء عشيرة النّوار :

وهنّ كماء المزن يشغى به الصدى وكانت يلاحاً غيرهن المشارب^(٣)
ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على
نحو ما صور ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تشنه أمه يشقى الصداق ريحُه وشمه^(٤)
ويذهب الهموم عنى ضمه ينفع ريح المسك مستحمة^(٥)
يُفصى الأمور وهو سام همة بحرُ البحور واسع مجمة^(٦)
يُفرج الأمر ولا يغمه فنفسه نفسى وسى سمة^(٦)

(٤) يشير إلى أن أمه أجنبية ، ولم تشنه
عجبها .

(٥) الهم : الصدر .

(٦) يمه : يبهه ويستره .

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو قائم فى الحين
بعد الحين .

(٢) إنسان الدين : سواد خلقها .

(٣) المزن : الحباب . الصدى : العطش .

وواضح أن جريراً كان لا يبارى في جميع الموضوعات التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما في الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يترشّس سهامه ويسدّها إلى محور خصومه ، محمّلاً لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبني منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى يربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تنبذ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق في هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نبيماً ثراً من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل - مع أنه استطاع أن يثبت له - يأتي دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه في التندرة من قطع مديح متوهجة . وساق نفس هذا الحكم عليهم قديماً بشار ، فقال حين سألته سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلها ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه » ونفى بفضل جريراً على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار (زوجة) فقاموا يوحون عليها بشعر جرير : إذ لم يجدوا للفرزدق شمرأ يصلح . فقال له السائل : وأى شيء لجرير من المرائي إلا التي رثي بها امرأته : أم حنزة ، فأورد عليه بشار مرثيته في ابنه سواده التي يقول فيها :

فارتنتي حين كف الدهر من بصري وحين صيرت كعظم الرمة البالي
فاقتنع سائله (١) .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعنى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وقد أتاه ذلك - كما أسلفنا - من

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرد الطاغى . وما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة
 فى نقد الشعر وتميز جيله من رديته ، حتى قالوا إنه كان يَسْطُو على بعض أبيات
 معاصريه ، حين يبهه حسنها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره
 بجزالة لفظه وشدة أسرهِ . أما جرير فإنه لا يبارى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ؛
 فلذا قرأته أحسست اللذوق المهلب للصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن
 الكريم وأصاليه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرت
 أشعاره صافية ، كأنها الجدول الرقاق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرسها وتلذ
 النفوس والأفئدة .

الفصل الرابع

شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضةٌ حادةٌ لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته ، فخلا الجحش لابن الزبير الذي عاد بمكة ، وقد اتخذ من قتل الحسين أداةً للتشجيع على يزيد وعُثمّاله ، وثارَت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحرة المشهورة . فانتسعت الجروح في الحجاز ، وبدأ للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيف وكتّاب وغيرها من قبائل الشام الجنية ، وكأنه لم يتعدّ قریش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم . وحقق أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق ، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قریش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام الجنية ويحكمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يمدّون الخلافة كما وليها يزيد ، لا بساطان شرعى ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتي أولاً بين أبناء كبار الصحابة فينبههم من يتفضّلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . وانبجس الجحش الذي نكسب المدينة في وقعة الحرة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهب كثير من العرب حتى من الخوارج للدّؤد عن البلد الحرام . وضرب من حوله حصار ،

غير أن الأبناء جاءت بموت يزيد ، فرُفع الحصار ، وعاد الجيش أدرجه .
وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذي اختير للجماعة ، فأبوه من
كبار الصحابة المقدمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله
عليه وسلم . وكان قوى الشخصية تقياً وشارك في فتوح إفريقية ، وسرعان ما
انضمت تحت لوائه قيس في الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته
خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السلمي القيسي . وولى بعد يزيد ابنه معاوية
بعهد منه ، ولكنه توفى سريعا ، وبدا كأن حكم بني أمية قد انتهى ، حتى ليقول
ابن عرادة بخراسان ^(١) :

أَبْنَى أُمِيَّةً إِنَّ آخِرَ مُلْكِكُمْ جَسَدٌ بِحُورَيْنِ ثُمَّ مَقِيمٌ ^(٢)
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وِسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌ رَاعِفٌ مَرثُومٌ ^(٣)
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ ^(٤)

وظل ابن الزبير يقود الولايات التي تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن
الحكم أن ظهر بالشام تستنده كلب والقبائل اليمنية ، وأوقع بقيس الشام وقعة
مترج راحط المشهورة ، فخلصت له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ،
وولّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفينيين إلى
بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفى وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان
سياسياً أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال في جمع الناس من حوله ، وكان في
ابن الزبير غل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويتقرب
الرواة لذلك مثلاً هو أن فضالة بن شريك الأسدي ، وقيل بل ابنه ، وقد عليه ^(٥)

(١) طبري ٤/٢٢١ .

(٢) حورين : قرية من قرى حمص توفى بها

يزيد .

(٣) راعف : سائر . مرثوم : انكسر حق

تقطعت منه الحمر .

(٤) مرنة : مغنية .

(٥) انظر في هذه الرواية ترجمة فضالة بن

شريك في الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١٢

وما بعدها وتهذيب ابن حبان ٤٢٤/٧ والإحصاء

٢٢٤/٣ وسجع للشراء ص ١٧٦ .

مساعداً حربية ولسانية . وحين تنصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدها تقطر عصبية^(١) عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو في تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدَل الذي يناصر بني أمية ، يقول^(٢) :

أَفَى اللَّهِ أَمَا بَحْدَلُ وَإِبْنُ بَحْدَلٍ فَيَحْيَى وَأَمَّا ابْنُ الزَّبِيرِ فَيُقْتَلُ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ لَا تَقْتُلُونَهُ وَلَا يَكُنْ يَوْمَ أَفْرُ مُحَجَّلُ^(٣)

ولما يكن للمشرقية فوقكم شعاعُ كَفَرَنَ الشمس حين ترجل^(٤)
وعلى هذا النحو كانت تختلط في أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة .

وظلوا يمتزجون ذلك طويلاً ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحامياً يشن هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذي انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا في النقائص .

وكان مصعب بن الزبير من فتيان قريش شجاعة وصخاء ، فلما ولي العراق لأخيه أنهلت غيـوته على الشعراء ، فدحه منهم كثير ونـ مثل أعشى همدان ودُكْبَن الفُحَيْمِي ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمننا ، إنما يهمننا الشعر السياسي الذي كان يدافع عن نظرية ابن الزبير في الخلافة . هاجباً ابني أمية مؤبلاً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظر إليهم السياسية غير مدافع ، ومن ثم ينبغي أن نقف عنده قليلاً .

ابن^(٥) قيس الرقيات

اختلف الرواة في اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن في أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا في اسمه اختلفوا في

١/ ٥٣٣ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب

٢/ ٢٠٥ والمؤرخ ص ١٨٦ وشواهد المغني ص

٣١١ حديث الأربعماء له حسين (طبعة الحلبي)

١/ ٣٦٦ وكتابتها الشعر والمناة في المدينة ومكة

ولمصر بن أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ .

وله ديوان نشره رودكاكس في فينا سنة ١٩٠٢

وحققه تحقيقاً علمياً وأعاد نشره في بيروت محمد

يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فيزيون

قيس وإما مضافة . راجع في ذلك الخزانة

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف

للبلادري في مواضع متفرقة والأغاني (سأى)

١٧/ ١١٢ ، ٢٠/ ١٢٤ .

(٢) طبري ٤/ ٤١٩ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبر كلباً ولا يتج

ولا يفر

(٤) المشرقية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر في ترجمة ابن قيس الأغاني (طبع

دار الكتب) ٥/ ٧٣ وما بعدها والشعر والشعراء

سبب نعته بالرقيات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبب بغير فتاة تسمى رقية ،
 فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤي ، وُلد بمكة
 في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شريح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن
 أهيب بن ضباب بن حُجَير بن عبد بن عيص بن عامر بن لؤي . وأقدم أخباره
 تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تك
 تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا
 مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين حتى شُغف بها ، وسرعان ما
 أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلاً ، ولعل الذي دفعه
 إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب
 خاثر وبُدَيْع وفيند ، وهم من مغنى المدينة المشهورين ، وزراه يذكر في بعض
 شعره داراً له بها ^(١) ، ويبدو أنه لم يتزلاً وحده ، بل تزلاً مع أخيه عبد الله ونفر
 من عشيرته . وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية في
 المدينة ، وزراه يشكو من مروان بن الحكم الذي كان يُعقِب معاوية بينه وبين
 سعيد بن العاص في حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت في مروان
 شدة وغلظة فكان إذا ولي يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد ، ومن ثم تعرّض
 له ابن قيس يصف شدته وقسوته ^(٢) ، وهو في أثناء ذلك ينظم مقطوعاته في
 الغزل ، ويرنم بها المغمون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً .
 وزراه يرحل إلى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد
 عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد . وهناك جماعته الأتباء بوقعة
 الحرّة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله ،
 فهزته تلك الأنباء هزاً عنيفاً ، فإذا هو يبكي من ماتوا من أهله بكاءً حاراً ،
 يقطر بالثورة على يزيد وبني أمية ، يقول :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقسر عن مروية ^(٣)

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ . (٢) المروة : حبر أبيض تفتح منه النار .
 (٣) الديوان ص ١٧٧ والأغاني ٧٢٧ وما بعدها . وهو مثل يضرب لمن نزل به شعر .

يُنْعَىٰ بَنُو عَبْدِ وَإِخْوَتُهُمْ حُلَّ الْهَلَاكِ عَلَى أَقَارِبِهِ^(١)
 وَنُعَىٰ أَسَامَةُ لِي وَإِخْوَتُهُ فَظَلَلْتُ مُسْتَكَا مَسَامِيهِ^(٢)
 نَبِكِي لَهُمْ أَسْمَاءُ مُقُولَةً وَتَقُولُ لِي : وَأَرْزُبِيَّةَ
 وَاللَّهِ أَهْرَحُ فِي مَقْدَمِهِ أَهْدَى الْجِيوشِ ، عَلَى شِكِّيَّةِ^(٣)
 حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأَسَوَّقَ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيَّةِ

ولم يلبث يزيد أن توفي ، وتحولت الجزيرة إلى مبادين حروب بين قيس
 وتغلب على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن
 الحُبَاب بطل قيس في بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى
 فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان
 طبيعياً أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنفاً على بني أمية منذ موقعة الحرّة ، يريد
 أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثأر لابني أخيه ، ويسبي نساءهم . وجعله ذلك
 يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغي أن تكون في قريش روحاً وواقعاً
 عملياً ، بحيث تكون حاضرتها في الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على
 كُتَلٍ وأخواتها من قبائل الشام النجنية التي أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرّة المشنومة .
 وهو يصدر في ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التي أصابت فؤاده من أهل
 الشام من جهة أخرى ، ومن ثمّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ،
 وهو اعتناق يشوبه الحقد على بني أمية والرغبة الشديدة في أن ينقض حكمهم
 في الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته المهزبة التي يفتتحها
 بقوله :

أَفَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كَدَاءُ فَكُدَيْ فَاالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ^(١)
 وَمَضَى يَطِيلُ فِي ذِكْرِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي هَجَرَهَا الْأُمُويُّونَ إِلَى دِمَشْقَ وَرَبُوعَ

السلح النام .

(١) كداء، وكدي : جبلان بمكة . والركن .
 ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل
 أشراف مكة حول البيت في الجاهلية .

(١) بنو عبد : عشيرته نسباً إلى جده السابع .

(٢) استنكت السامع : صت وضاعت ، هو
 مثل يضرب لقباً الشديد يترك سامعه .

(٣) مقامة : يريد مقدمة الجيش . الشكة :

الشام منوهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش . فقد تفرقت بلداناً وشيعاً ، حتى طمع فيها الطامسون ، وبصرح بذلك فيقول :

حَبَدًا الْعِيشُ حِينَ قَوَى جَمِيعُ لَمْ تَفَرَّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُدِّكِ قَرِيشٍ وَتَشْتَتِ الْأَعْدَاءُ
وَيَفْضَى فِرْدٌ عَلَى الْخَوَارِجِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا يَرُونَ أَنْ تُتَنَزَّعَ الْخِلَافَةُ مِنْ
قَرِيشٍ وَتُرَدَّ إِلَى الْعَرَبِ ، بَلْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً . يقول :

أَيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قَرِيشٍ يَبْدُ اللَّهُ عُمْرَهَا وَالْفَنَاءُ^(١)
إِنْ تَوَدَّغَ مِنَ الْبِلَادِ قَرِيشُ لَا يَكُنْ بِعَدَمٍ لَحَى بَقَاءُ
فَقَرِيشُ هِيَ عُمُودُ الْخِلَافَةِ ، وَلَوْ أَنَّهَا زَالَتْ عَنْهَا لَسَقَطَ رُكْنُهَا سَقُوطاً لَا
يَرْتَفِعُ بَعْدَهُ . وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِخَطَابِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ هَاجِياً :

قَدْ عَمِرْنَا قَمْتُ بَدَائِكَ غِيظاً لَا تَحْمِتُنْ غَيْرَكَ الْأَذْوَاءُ^(٢)

وَيَأْخُذُ فِي الصَّخْرِ بِقَرِيشٍ وَفَضْلُهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْخِلَافَةِ ، فَيَذْكُرُ الرُّسُولَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاءَهُ الرَّاشِدِينَ وَحِمَازَةَ عِمِّ الرُّسُولِ وَجَعْفَرَ الطَّيَّارَ وَالزُّبَيْرَ بْنَ
الْمُوَّثَّقِ حَوَارِئَ النَّبِيِّ وَأَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَمَصْعَباً . وَيُشِيرُ إِلَى انْتِصَارِ مَصْعَبٍ عَلَى
الْمُخَارِجِ ، وَيَعْرُضُ لِمَا كَانَ يَزْعُمُ مِنْ أَنَّهُ يُوْحِي إِلَيْهِ ، وَيَمْدَحُ مَصْعَباً ، فيقول :

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الْأَلْبَانِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مَلِكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بَرُوتٌ كَبِيرَاءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالاتها في الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببنيها
الحرام الذى يحجُّ إليه الناس من كل فجٍّ عميق ، وبأسى لحرق جيوش الشام
هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرَّة ، ويُشيد ببناء ابن
الزبير له بعد هذا الحصار ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَدْعُو دَعْوَةَ عَنِيْفَةَ لِحَرْبِ عَبْدِ الْمَلِكِ

(١) عمرها : يريد بقاءها .

(٢) عمرا : عشراً ، زناً طويلاً ، يشير إلى
خليفة ابن الزبير وأنها استقرت له أمراً .

وبنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا الحسين في كربلاء يقول :
 كيف نَوَى على الفراش ولَمَّا تَشَمَّلِي الشَّامَ غَارُهُ شَفَوَاهُ
 تُذْهِلُ الشَّبِيعَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْسِدِي عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعَذْرَاهُ^(١)
 أَنَا عَنْكُمْ بَنَى أُمِيَّةَ مُزَوِّرٌ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسَى الْأَعْدَاءِ
 إِنْ قَتَلْتَ بِالطُّفِّ قَدْ أَوْجَعْتَنِي كَانَ مِنْكُمْ لَشَنْ قُتِلْتُمْ شَفَاهُ^(٢)

وهذه هي الأنغام السياسية التي كان يوقّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشي بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيقاً إليها وقعة مَرَجٍ راعط التي هُزِمَ فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات المهيبة، ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجأ المهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل القاضع برملة أخته وسيلة إلى المهجاء المقدّح ، فحاكاه في هذا الانجاء بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفي الوقت نفسه كان يشبب بزوجه مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيهاً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء ، يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيري السياسي ومن قوله في عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهي غاضبة عليه لبرئها^(٣) :

جَنِيَّةٌ بَرَزْتُ لِنَقْتَلِي مَطْلِبَةُ الْأَصْدَاغِ بِالْيَسْكِ
 عَجَبًا لِمِثْلِكَ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمِنْبَرُ الْمُلْكِ^(٤)
 نَرَى لِنَقْتَلَا بِأَسْمَهِمَا وَنَزْنُهَا بِالْحَلَمِ وَالنُّسْكِ^(٥)

القطعة بأبيات في أم البنين لاشك في أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .

(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة كأنه يتناها لمصعب .

(٥) نزنها : ننسبها إلى .

(١) البرى : الخلاجيل . وقد كنى بذلك عما يصيحين من فزع شديد .

(٢) الطف : مر . راحى الكوفة حيث كربلاء التي قتل فيها الحسين .

(٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

١٧٦/١١ وقارن بالهيوان ص ١٤١ وقد وصل

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرب هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذي كان يسوقه في مقدمة مدائمه لمصعب ، فإنك ستراه يمرضهما في صورة تؤذيهما كقوله في عاتكة :

بَدَتْ لِي فِي أَثَرِهَا فَتَلَّنِي كذلك يقتلن الرجال كذلك
وقالت لو أَنَا نَسْتَطِيع لَزَارَكُم طبيين منا عالمانِ بدائِكَا^(١)

ويتخيل أم البنين جاءته في الحلم ، فقال منها كل ما أراد ، وكانت امرأة مبتذلة ، لا يمكها طهر ولا عفاف ، فهي تمنع معه في اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أَتَنَى فِي النَّامِ فَقَدْ تَ هذا حين أعقبها^(٢)
فلما أَنْ قَرَحْتُ بِهَا ومال على أعذبها^(٣)
شربتُ بِرِيقِهَا حَتَّى نَهَلْتُ وَبِتُ أَشْرِبَهَا^(٤)
وَبِتُ ضَجِيعَهَا جَذَلَا نَ نَعَجِبِي وَأَعْجِبَهَا^(٥)
وَأَيْقِظُنَا مَنَادٍ فِي صلاة الصبح برقبها^(٦)

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذي يمثل الحكم القرشي الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه في ديار الجاثليق ، وقد انفخر عنه أكثر أنصاره ، ولم يبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويقتل مصعب ويفر ابن قيس إلى الكوفة متفجعاً على صاحبه آسياً لا نفاض المراقين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظناً

(١) طبيان : يريده رسولين ، ويريد بالداء
الحب الذي سرى في نفس عاتكة له .
(٢) أعقبها : صارت عقيبها لى صارت إلى .
(٣) أعذبها : فيها .
(٤) نهلت : رويت . أشربها : استعيا .
(٥) جلان : فرح .
(٦) برقبها : أى يرقب الصلاة .

أنها زوجة^(١) على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يهجرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثم رأيناه يخرج من غبته ، مبهماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر في المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كي يشفع له عند أخيه ، ولبياه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفي رواية أن ابن جعفر هو الذي شفع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مثل بين يديه بنشده بائته التي يقول فيها :

ما نَقَمُوا من بنى أُمَيَّةٍ لَآ أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْلَيْنِ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلَحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنْ الْفَنِيْقَ الَّذِي أَبَوْهُ أَبَوَالِ مَاصَى عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحَجْبُ^(٢)
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنْبَرِهِ جَفَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ
ويظهر أن عبد الملك لم يطع نفسه له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، ويُعطيه الجزيل . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش في ظل ابن جعفر يُغْدق عليه من بَرِّه ونواله ، ويجلبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلاً ، حتى إذا فكر عبد الملك في صَرْف ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يشور معه على أخيه ، إذ يقول في بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتَهْنُو مِصْرُ وَالْعِرَاقُ وَمَا بِالشَّامِ مِنْ بَرْزِهِ وَمِنْ ذَهَبِهِ^(٣)
يَخْلُفُكَ الْبَيْضُ مِنْ بَنِيكَ كَمَا يَخْلُفُ عَوْدُ النُّصَارِ فِي شُعْبِهِ^(٤)
نَحْنُ عَلَى بَيْعَةِ الرُّسُولِ وَمَا أُعْطِيَ مِنْ عُنْجَمِهِ وَمِنْ عَرَبِهِ

(١) انظروفيات الأيمان لابن خلكان (طبعة أوربا) ص ٤١٢ .
(٢) الفنىق : أصله الفعل من الإهمل الكريم على أصحابه .
(٣) البز : الثياب والمتاع .
(٤) النصار : يريده الشجر النضر ، ويخلف الثانية : يهتب عوداً يهد به مرد .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوَعَّده ، وهرف ذلك ابن قيس ، فلم يقر له
قرار وضاعت الدنيا في عينيه فنظم قصيدة بديعة يذم فيها من يغتابونه عند
عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله

بَشَّرَ الظُّبْيُ والغُرَابُ بِسُغْدَى مَرَجٍ أ بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها بصور ما يلزمه من نَحَسٍ رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد
على عبد الملك من حين إلى حين في ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه
يسهلُ بعضها بغزله بأَم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن
يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف
جمالها ووقارها متلطفاً . وليس في ديوانه مدائح في الوليد مما يدل على أنه إن
كان لحق عصره فإنه لم يعش فيه طويلاً . وفي ديوانه قصائد مختلفة مدح بها
عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به ويجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أَتَيْنَاكَ نُثْنِي بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ عَلَيْكَ كَمَا يُثْنِي عَلَى الرُّوضِ جَارُهَا
إِذَا مِتَّ لَمْ يَوْصَلْ صَدِيقٌ وَلَمْ تَقُمْ طَرِيقٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْتَ مَتَارُهَا

ومن مدحهم ونوه بهم طويلاً طلحة الطلحات الخزاعى وإلى سجستان ، وهو
يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفى بيته المشهور من مرثية
فيه بديعة :

نَصَرَ اللَّهُ أَعْظَمًا دَفَنُوهَا بِسَجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله
ابن خالد حين هُزِم في حربه للأزارقة ، وهو لا يقو فيها قسوة المجائنين في
عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو في الطليعة من شعراء الغزل المكيين ،
ولو أنه لم يشغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وحلَّص للغزل على شاكلة
عمر بن أبى ربيعة لما قصَّر عنه في هذا الفن ، وقد رأيناه في مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع في موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى في مدائحه ومراجه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطَبِّع شعره بطوايع الغناء التي عاصرت ، إذ نجد عنده حلوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقِيْ بَعِيْشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَصُنِيْنَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شئتُ إِنَّا نُحِبُّ - وَإِنْ مَطَلْتِ الْوَاعِدِينَا
فَلَمَّا تُنْجِزِي عِلْقِيْ وَإِمَا نَعِيشُ بِمَا نُوْمِلُ مِنْكَ حِينَا

وقوله :

رُقْبَةُ نَيْمَتْ قَلْبِي فَوَاكَبْدِي مِنَ الْحُبِّ
وَقَالُوا اِدَاوُهُ طَبُّ أَلَا بَلْ حُبُّهَا طَبِي

وقوله :

حُبُّ ذَاكَ الدَّلِّ وَالْفُنْجُ وَالتِّي فِي عَيْنِهَا دَعَجُ^(١)
وَالْتِي إِنْ حَدَثَتْ كُنْزَتْ وَالتِّي فِي وَعْدِهَا خَلَجُ^(٢)
خَبَرُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٍ فِي قُبْلَةٍ حَرَجُ

ودائماً يجرى غزله على هذه الصنورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّيَ باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلاً يملؤه بالصباغة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

(٢) الخلع : الاضطراب وعدم التثبيت هل حال .

(١) الدل : الدلال . الفنج : حسن الدل والمنزح . للدمج : شدة سواد العين .

شعراء الخوارج

رأينا في غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وصُفَرِيَّة ونَجْدَات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد في سبيل عقيدتها في ولاية الأمة وأنه ينبغي أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً . وقد أخذوا بتصويرون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الديني الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر للحرب ، مستحلين دماء إخوانهم المسلمين ، وهي معيشة طبعت شعرهم بطوايع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوار ترافقهم السيوف في غدوم ورواحهم وفي استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا، ومن ثم كان شعرهم في جملته حماسياً ، وهي حماسة لا تحركها العصبيات القديمة ، عصبيات القبيلة التي كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التي تعمقهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الخفيف وأن عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المهجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلُونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا في معسكراتهم ، وبذلك مزقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من خبير شك كانوا غالبين في نضالهم، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطنين أنفسهم على طلب الشهادة في ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسمى فيه إلى

قائله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربُّ لترضى) ^(١) وكأنا وهبوا أنفسهم للموت . ولم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصفرون فيها الحياة ويهوتون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأشد ^(٢) :

ما رغبة النفس في الحياة وإن عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما كان بَراها بالأَمس خالقها ^(٣)
يوشك من فَرٍّ من منبتِه في بعض غسراته يوافقها
من لم يمت عِبْطَةً يمت هـرما والموت كأمر والمرء ذائقها ^(٤)

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمانة كل خارجي ، الموت قَعَصًا بالرماح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، بقول يزيد بن جُبَّاء وكان من الأزارقة :

أبيتُ وسِرْبالي دِلاصَ حصينة ومَغْفَرُها والسيف فوق الحيازم ^(٥)
أريد ثواب الله يوما بطَعْنَةٍ غموس كَشِدْقِ العنبريِّ بن سالم ^(٦)
فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطري بن الفجاءة ^(٧) :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معاراتها تدعو إلى حِمَامِيا ^(٨)
أنارُعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاء على حالٍ لمن ليس باقيا
ولو قَرَّبَ الموتَ القِرَاعُ لقدأنى لموقَ أن يدنو لطول قراعيا ^(٩)

(٧) انظر في ترجمة قطري وأشعاره وفيات الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠ وأمال المرتضى ٦٣٧/١ وفهارس الكامل للمبرد والطبري والبيان والتبيين .

(٨) تعاريني : تطلبني عارية . الهام : الموت .

(٩) القِرَاع : مضاربة السيوف في الحرب . أنى : آن .

(١) المبرد ص ٥٦٤ .

(٢) المبرد ص ٤٣ .

(٣) بَراها : خلقها .

(٤) عِطَّة : شاي .

(٥) الدلاص : الدرع الملاء اللينة . المنفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو خلق يتقنع به المشعل .

(٦) غموس : واسمة . العنبري بن سالم : رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لشدته .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويترج عنها إلى الحياة الباقية التي لا تزول ، وهو لذلك يستعطي الموت ، وكأنما ملّ دنياه . ونصوّر لنا هذا الملل إحدى نسايم المقاتلات ، وهي أم حكيم ، إذ تقول ^(١) :

أَحْمَلُ رَأْسًا قَدْ سَمْتُ حَمَلَةً وَقَدْ مَلَيْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَتَى بِحَمَلٍ عَنِ ثِقَلَةٍ

وكانما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحفوا بالملأ الأعلى ويمن سبغهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس في خروجه ^(٢) :

أَبْعَدُ ابْنِ وَهَبٍ ذِي النَّزَاهَةِ وَالتُّقَى وَمَنْ خَاضَ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْمَهَالِكَا
أَحَبُّ بَقَاءٍ أَوْ أَرْجَى سَلَامَةٍ وَقَدْ قَتَلُوا زَيْدَ بْنَ حِصْنٍ وَمَالِكَا
فِيَارْبُ سَلَمٌ نَيْقَى وَيَصِيرِقَى وَهَبٌ لِي التُّقَى حَتَّى أَلَاقَى أَوْلَاكَا
فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعد الله بن وهب الراسبي والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طلبته ، فيقتل في سبيل عقيدته ، وكان الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازها إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يكون قتلاهم ولا يرثوهم بالصورة التي نجدوها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة ، وهي سعادة بطلها كل خارجي لنفسه ، لذلك مضوا بمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الراسبي حين قُتل ابنها في يوم دولاب ^(٣) :

اللَّهُ أَيُّدُ عِمْرَانَا وَطَهْرُهُ وَكَانَ عِمْرَانُ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحَرِ
يَدْعُو سِرًّا وَإِعْلَانًا لِيَرْزُقَهُ شَهَادَةً بِيَدِي يُلْحَاذُهُ غَدْرٌ ^(٤)

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء ، إذ يصوّرون استشهاد قتلاهم زائناً إلى الله راسمين فيهم مثلاً أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٠/٦ وترديد (٣) أغاني ١٤٥/٦ .

أم حكيم يدهن شعرها ما تدعنه به من الطيب . (٤) ملحادة : من الإلحاد والثناء للعبادة .

(٢) المعرد ص ٥٨٦ . غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قُتل من أصحابها ^(١) :

يَا رَبُّ ائْتِكُنِي سَبِيلَهُمْ ذَا الْعَرْشِ وَاشْدُدْ بِالْتَقَى أَزْرَى
فِي فَتْيَةٍ صَبَرُوا نَفْسَهُمْ لِلْمَشْرِفَةِ وَالْقَنَسَا السُّنَرِ ^(٢)
مُسَامِينَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ نَاهِينَ مِنْ لِقَا عَنْ التُّكْرِ
وما يزال يصور خشوعهم وخشيئتهم من النار وإنكباهم على العبادة انكباباً
لا ينامون فيه إلا اختلاصاً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كَمْ مِنْ آخِرٍ لَكَ قَدْ فُجِّتَ بِهِ قَرَامٍ لِيَكُنْ إِلَى الْفَجْرِ
مِثْلَهُ يَتْلُو قَوَارِعَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَفْرُوعِ الصَّدْرِ

ويعمى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى
إذا أُشْرِعَت الرماح وُكِّلَت السيوف ورَعِدَت الحرب بعواقر الموت تهاوتوا
على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب في أن هذه صورة جديدة في الرثاء ،
تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا ييكون فيمن يرثونهم خلال
الكرم والمروءة ، وإنما ييكون فيهم المثل الأعلى للخارجي من التقوى ورفض الحياة
الدنيا وزهوتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذي يتمنونه لأنفسهم ،
الموت الذي يفتح لهم أبواب الفرديس والجنان ، فهو موت موصول بآلامهم في
حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسي ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء
بفيض بالحنين إلى القتال والمضي قدماً حتى تفيض أرواحهم على أعتاق أفراسهم ،
وتتخضب بالدماء صدورها وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماسهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى
القعدة منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تحيز القعود عن الحرب . ولكن
نحسُ دائماً كأن هذا القعود هدنة مسلحة إلى حين ، وبذلك نفسر كثرة ثورات
الصفيرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

(١) أغاني (س) ١١١/٢٠ وما بعدها . (٢) الشريفة : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتنبؤاً للقتال ، إلا نفرأ منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق بُردٌ في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يُقلَّب لهم الدهر المِجَنّ من بعدهم ، وكان لا يزال نُؤَاهِم بِمَحْسُونِهِمْ ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين في رأيهم ، وبصور ذلك ما رواه المبرد (١) من أن أبا خالد القتاني استحبَّ القعود ، فلامه قَطَرِيّ بن الفُجاءة بمثل قوله :
 أبا خالد يا انفِرْ فلستَ بخالد وما جعل الرحمنُ عُذْرًا لقاعدٍ (٢)
 أنزعم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين ليص وجاجد
 فكتب إليه أبو خالد .

لقد زاد الحياة إلى حُبّا بناتى لمن من الضعافِ
 أحاذر أن يَرَزْنَ الفقر بعدى وأن يَشْرَبْنَ رَنقاً بعد صافٍ (٣)
 ولا يتحول مثل هذا الاختلاف في الرأى بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقاً بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الذمّاء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً في الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا في مقاتلهم دون رفق ودون تفكير عميق في المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتناذب فرقاً وتتقطع شيعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة في أشعارهم ، هي أنهم يُبدئون ويعيدون في معانيهم إلى صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسنا في أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب في أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هي صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين حل الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجى أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

مناذى مثل يا أخی .

(١) المبرد ص ٥٢٩ .

(٢) يا انفِرْ بالفتية أو في تقدير حذف (٣) الرنق : القدر .

في الأغاني فسترى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، تختلف الرواة في نازليها ، أما المبرد فنسبها إلى قطري بن الفجاءة ، ونسبها المدائني إلى صالح بن عبد الله العَبَّاسِيَّ . وقال خالد بن خيداش : بل قائلها عمر والقتنا ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم ^(١) . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح .

عمران ^(٢) بن حِطَّان

بَصْرِيٌّ سَدُّوسِيٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل في مقالة الخوارج . ونلقاه في عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه ^(٣) . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابتنة عم له تسمى جمره ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردّها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُروى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت في الجنة ، قال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أعطيت مثل فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر في الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ، وفي طعنته له يقول ^(٤) :

يا ضربةً من نَقِيٍّ ما أراد بها إلا ليلغ من ذى العرش رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
ونراه يتأثر متأثراً بليفاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر في الخروج وامتناع الحسام ، يقول :

(١) أغاني ١٤٧/٦ وما بعدها .
(٢) انظر في ترجمة عمران الأغاني (سأسي)
١٤٦/١٦ وما بعدها والمبرد ص ٣٠ وما
بعدها والإصابة ١٨١/٥ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢
وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وماش أمال
المرتضى ص ٦٣٥ .
(٣) البيان والبيان ١١٨/١ .
(٤) انظر في نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١
والهزأة ٤٣٦/٢ .

لقد زاد الحياةَ إلى بُغْضاً وحبّاً للخروج أبو بسلام
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت دُرى العوالى^(١)
ولو أنى علمت بأن حَتْنى كحشف أبى بلالٍ لم أبال
فمن يك هَمُّه الدنيا فإنى لها والله ربُّ البيت قالى^(٢)
فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج
الشريفة قصصاً بالرماح ، ميتة أبى بلال ، وقد ظلت ذكراه عالقة بنفسه طويلاً ،
حتى ليقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناس
وكان الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ،
ومن ثمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرى ودعا إلى القعود ، حتى عُددَ رئيس قَعَدَتِهِمْ . ولم
تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبى خالد^(٣) ، إنما قعد به — فى أغلب الظن —
حبه لزوجته جمره ، فقد كان يُشْفَف بها شغفاً شديداً ، ويعلم أبو الفرج
ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن
الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن
كان قعد فقد مضى فى شعره بصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى
يحسن لغيره الخروج ويزيئنه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى
الحروب ويُفْخرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهدهم الحجاج ، فطلبه ،
ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ،
فهلج الحجاج وتحصن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدُّ على وفى الحروب نعمةً رِبْداءُ تنفر من صَفير الصافر^(١)
هلا برزت إلى غزالة فى الضحى بل كان قلبك فى جناحى طائر^(٢)

(١) العوالى : الرماح .

(٢) قال : كاره .

(٤) رِبْداء : من الرَبْدَة وهو لون إلى الغبرة .

(٥) هذا مثل غربه عمران لتصوير فزع
الحجاج وروحه .(٣) نسبت أبيات أبى خالد إلى عمران فى
ترجته بالأغاف ، والأرجح أنها لأبى خالد كما

وغضب الحجاج واشتد في طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبه سنة ٧٧ للهجرة ففر منه على وجهه يتنقل في القبائل منتسباً في كل حى نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل في سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامي بالشام . فانتسب له أزدياً فأنزله منزلاً آمناً نحو عام وبالع في إكرامه ، وكان روح سميراً لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه في أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإني تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفاً لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جارك حَوْلاً ما تروغنى فيه روائع من إنيس ومن جان^(١)
حتى أردتَ بيَ العظمى فأدركنى ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث في قريسيب ، فانتسب له أوزاعياً ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزدى رأيته عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى ؟ إن كنت خائفاً أمناك وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديدة يستهلها بقوله :

إن التي أصبحت يَغْبَى بها زُفَرُ أعيتُ عباء على روح بن زنباع
وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قوماً من الأزد في روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفي سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة تروى كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها لولا جمره ، ومن ثم نشأ في نفسه صراع عنيف بين الرغبة في الحياة الكريمة التي يحياها

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفرع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكره وبين الرغبة في الموت ، وعبر عن ذلك في صور مختلفة ، كأن يصور نهارك الناس على الدنيا ، وهي ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُ العيش فيها وألغنا بحرصٍ وانتظارٍ
ولا نَبْقَى ، ولا نَبْقَى عليها ولا في الأمر نأخذ بالخيارِ
كركبٍ نازلين على طريقٍ حثيثٍ رائعٍ منهم وسارى^(١)

\ ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى جباهم وعمراتهم فأف لم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوى . ولا يُحْشَى أنه يسر على كره منه في نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شيء من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عُرَاةٌ وجُوعُ
أراها وإن كانت نُحْبَبُ فلإنها سحابة صَيْفٍ عن قلبٍ نقش^(٢)
وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتى على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتى الموت نفسه . يقول :

لا يُعْجز الموتُ شيءٌ دون خالقيهِ والموتُ فإن إذا ما ناله الأجلُ
وكلُّ كَرْبٍ أمام الموت متَضَعٌ للموت ، والموت فيها بعده جَلَلُ^(٣)
فالموت سيموت في النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التي تلقانا دائماً في شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائلاً به مضطرباً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدري شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة يشهد بعض مدائمه ، فتعرض له يقول :

أيها المادح العبادَ لُبِطَى إن لله ما بأيدي العبادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلاً . (٣) جلال : عظيم .

(٢) نقش : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا في عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجي الذي تعمقته مقالته حتى الشغاف .

الطرمّاح^(١)

شاعر طائي نشأ في الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فترل في بني تميم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سمّت وفيه وقار ، فكان الطرمّاح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحّه حتى مات عليه . واختلف الرواة في الفرقة التي دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل في فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصفّورية ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يجرّمونه ولا يجيزونه . ولم يُمنّص قعوده في مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفّريّ مسلم . ويظهر أنه كان يعضي في السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفّر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادّهم ويصادقهم ، حتى لراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميّ ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالاً من الكميّات والطرمّاح ، كان الكميّ عدنانياً عصبياً ، وكان الطرمّاح خازجياً من الصفّورية ، وكان الكميّ يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرمّاح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الحاصل إليه . » وأكبر الظن أن الذي وثّق بينهما هذه الصلة احترامهما مونة واحدة . هي تعلّم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويروي عن الطرمّاح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرثي بفارس حيث عُني بتأديب الناشئة

٣٢٣/٢ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٢/٧
والخرقة ٤١٨/٣ وله ديوان نشره كرتكو في
لندن سنة ١٩٢٧ . والطرمّاح : الطويل القامة .

(١) انظر في ترجمة الطرمّاح أمان (دار
الكتب) ٣٥/١٢ والشعر والشعراء ٤٦٦/٢
والعيني ٢٧٦/٢ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموضح
لعرزبني ص ٢٠٨ والبيان والتيسير ٤٦/١ ،

فيها ، وَيُروى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرؤى فلم أر أحداً أخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّاه عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففي أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحاه مخلد ، ودعى الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفي أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسري الذي ولي العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجنان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحاً في طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزد قبيلة المهلب بن أبي صفرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل في معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزد والقبائل القحطانية عامة . ومرّ بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت في البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تتعمقه هذه العداوة وما يُطَوّي فيها من عصبية وهو خارجي ، والخوارج لا يعتدون بالعصبيات القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجي يأتي على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله في تميم :

لو حان وِرْدُ تميم ثم قيل لها حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ
أو أنزل الله وخياً أن يعذبها إن لم تُعَذِّبْ لقتال الأَزْدُ لم تُعَذِّبِ
لا نأمننّ نميمياً على جَسَدِ قد مات ما لم تُزَايِلْ أَكْظَمُ الجَسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مغرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلاحه في الحروب على شاكلة قطرى إنما يتحدث فيه عن خلقه معتداً بشماله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادني حُباً لنفسى أننى بَغِيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائِلٍ^(١)
وأنى شقٌّ باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كَرِيمَ الشَّامِلِ

والطرماح بذلك كله يتعدى عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من حوله ، وبضطرب فيما بضطربون فيه من خصوصيات ومن طلب للدنيا ، ولعله من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى لينمى الخروج ، يقول :

وإنى لَمُقْتَادُ جَوَادَى وَقَاذِفُ به وبِنَفْسِي الْعَامَ إِحْدَى الْمُقَاذِفِ
لَأَكْسَبَ مَالاً أَوْ أَوَّلُ إِلَى غِنَى من الله يكفينى عِدَاتِ الْخِلَائِفِ^(٢)
فِيَارِبُ إِنْ حَانَتْ وَقَاتِي فَلَا تَكُنْ عَلَى شَرْحِمٍ يُعَلِّ بِخُضَرِ الْمَطَارِفِ^(٣)
ولكن أجزئ يومى سعيداً بِعُصْبَةٍ يصابون فى فَجٍّ من الأرض خائفٍ
فَوَارُسُ من شِيَانِ أَلْفِ بَيْنَهُمْ تُقَى الله نَزَالِينَ عِنْدَ التَّزَاحِفِ
إذا فارقوا دَنِيَاهُمْ فَارْقُوا الْأَذَى وصاروا إلى موعود ما فى الْمُصَاحِفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح غنياً مريضاً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله دُرُّ الثَّرَاةِ لَهُمْ إِذَا الْكَرَى مَالٌ بِالطَّلَا أَرْقُوا^(٤)
يَرْجِعُونَ الْحَنِينَ آوَنَةً وَإِنْ عَلَا مَسَاعَةً بِهِمْ شَهَقُوا
خَوْفاً تَبَيَّتْ الْقُلُوبُ وَاجِفَةً تَكَادُ عَنْهَا الصُّدُورُ تَنْفَلِقُ

(١) غير طائِل: خيس .

(٢) الشرح : التمش .

(٣) عِدَات : جمع عدة ويريد بها الصلة .

(٤) الطل : الأعناق ، مفردها طلبة .

الخلايف : جمع خليفة .

كيف أرجى الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسي فأنطلقوا
 قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا
 وعلى قبس من زهد الخوارج في الدنيا ومثاعها الزائل وما جاء في القرآن
 الكريم من ذم الشحيح الذي يجمع مالا ويدخره دون أن ينفعه على المحتاجين
 والمساكين ، وما جاء فيه أيضاً من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت
 يده يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فن عمل
 صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كل حى مستكمل عدة العنة ر ومود إذا انقضى عدده^(١)
 عجباً ما عجبت للجامع الما ل يباهى به ويرتفده^(٢)
 ويضع الذى يصيره الا ه إليه فليس يعتقده
 يوم لا ينفع المخول ذا الثر وة خلائه ولا ولده^(٣)
 يوم يؤتى به وخصمه وسط ال جى والإنس رجله ويده
 خاشع الصوت ليس ينفعه ذ م أمانيه ولا لدده
 وكل من يقرأ شعر الطرماح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ،
 فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن
 حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ وحشيتها ،
 وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد
 به أن يدور في أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور في أفواه المتأدبين
 حتى ينفخوا على الألفاظ اللغوية الغربية . فهو قسم تعليمى محض . ويصور
 اللغويون مدى إغرابه في شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابي العالم اللغوى المشهور
 سئل عن ثمانى عشرة كلمة آتت في شعره ، فلم يستطع تفسيرها ، ورتبنا
 في غير هذا الموضع أن حيسه اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغولاً بإدخال
 الألفاظ البطيّة في كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

(٣) الخول : اثنى .

(١) مود : ميت .

(٢) يرتفده : يكتسه .

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقية وأصحابها الشرعيين ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغي أن تُردَّ عليهم . وتكوّنت في أثناء ذلك فرقة الكيسانية التي دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر ، وأنه ورث عن عليّ علمَ الباطن وأن به قسماً من روح الله ، وهو قيس ينتقل في أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفى قالوا يرجعته ، وأنه سيعود فيملاً الأرض علماً ونوراً . ونغضى إلى أواخر العصر الأموي فتظهر فرقة الزيدية ، ولم تكن غالية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك في حديثنا عن السياسة . وعلى نحو ما كثّر شعراء الخوارج في هذا العصر كثّر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيرٌ شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة في أشعاره بكل ما أوغلت فيه من نظرف في العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ في أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يترعون فيهم إلا ولا ذمة ، وقد تحولوا ييكونهم ويندبونهم بدموع لا تترقئاً ولا تجف . وربما كان هذا الطابع أهم ما يميز الشعر الشيعي في هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولاً ثم على زيد بن علي وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قسّة يرثي الحسين (١) :

(١) ساسي (١٥٧/١) ود بعده والمجرد ص ٢٧ .
والاستيعاب ص ١٤٦ .

(١) مقاتل الطالبين لأب الفرج الأصبهاني
١ ضمة الخلفي ص ١٢١ وانظر أيضاً في
سرايا الحسين الطبري ٢٠٩/٤ وما بعدها وأغاني

مررتُ على أبيات آلِ محمدٍ فلم أرَها كمهدما يومَ حُدَّتْ
وكانوا رجاءَ ثم صاروا رَزِيَّةً وقد عظمتُ تلكَ الرزايا وجَلَّتْ
ألمَ تر أن الشمسَ أضحتْ مريضةً لفقْدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرتْ
وقد أهولتْ نبكى الممياءَ لفقْدِهِ وأنجُنْها ناحتْ عليه وصلَّتْ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه وبكائه تحريضا على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة في سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح ومن خير من يصورها عوف^(١) بن عبد الله بن الأحمر الأزدي ، وله في الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضر الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لَيْلِكَ حُسَيْنًا كلما دَرَّ شارقٌ وعند غموق الليل من كان باكبيا
وباليتنى إذ كان كنتُ شهيدته فصاربتُ عنه الشانئين الأعاديا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهداً وأعملتُ سِنِيَّ فيهمُ ومينانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون في الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الحرّ ، ويروى أنه خرج في جماعة من أصحابه حتى أتى كربلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ، ثم مضى وهو يشند^(٢) :

ويا ندى أن لا أكون نصرته ألا كلُّ نفسٍ لا تسدُّ نادمه
ولاني لأنى لم أكن من حُماته لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقتلُ زيد بن علي بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعْولين منذرين لبني أمية ومهددين من مثل قول المُضَلِّ المطَّلبي^(٣) :

(١) انظر ترجمة عوف في معجم الشعراء (٢) طبري ٤/٣٦٠ .
(٣) مقاتل الطالبين ص ١٤٩ .

ألا يا عينُ لا تَرَقَى وَجُودِي بدمعك ليس ذا حينَ الجمود^(١)
وكيف تَضُنُّ بالعَبْرَاتِ عيني وتطمع بعد زَيْدٍ في الهجود^(٢)
وكيف لها الرُقَادُ ولم تَرَأِي جِيَادَ الخيلِ تَعْدُو بالأَسود
بأَبْدِهِمْ صفائحُ مرهفاتُ صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهدِ هود
بها نَسَقُ النفوسِ إذا التقينا ونقتل كلَّ جبارٍ عِنْدِ
وَنُحْكَمُ في بنى الحَكَمِ العوالِ ونجعلهم بها مثلَ الحَصِيدِ^(٣)

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعي يَطْوَى في نفسه حزناً عميقاً على أئمة
المستشهدين ورغبة عنيفة في سفك دماء من قتلهم ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف
بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبونهم وولاتهم أحياءهم
ويعدون أنفاسهم عدداً . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هي نظرية
الثقية ، فمن حق الشيعي أن يخفى عقيدته ويكتمها ، حتى لا يعرض نفسه للخطر
بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سئرى عند كثيرٍ والكبت
عما قليل ، إذ ملحا بنى أمية ، وهما يكتئنان لهم العدو والبغضاء .

وهذان المترعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلهم كان
ينطوى فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهي أحياناً إلى دعوة
الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميته حين
ولى خالد القسري أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مرو
يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها^(٤) :

ألا أبلغ جماعةَ أهلِ مرو على ما كان من نأى وبُعْدِ
رسالةَ ناصحٍ يُهْدِي سَلاماً ويأمر في الذي ركبوا بجِدِّ
فلا تَهْنُوا ولا تَرَضُوا بِخَسَفِ ولا يَغْرُرْكُمْ أَسَدُ بِهَمْدِ
وإلا فارقعوا الراياتِ سُوداً على أهلِ الضلالةِ والتعدي

(١) ترقى : من رقا الدمع إذا جف وسكن .

جمود العين : بخلها بالدمع

(٢) الهجود : النوم .

(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم .

العوال : الرياح . الحصيد : الزرع المحصد

(٤) طبري ٥/٤٣٣ .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمثل بالحقد والغبط على بنى أمية فقد كانت تمتلئ بالحب لآل البيت حباً يملك على نفوسهم أهواءها وهواطفها وإحساساتها ومشاعرها، على شاكلة قول أبي الأسود الدؤلى وقد عابه قوم بشيعه: ^(١)

أحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا وعباسًا وحمزة والوصيا ^(٢)
أحبهمُ لحب الله حتى أجىء إذا بُعثتُ على هوى ^(٣)
هوى أعطيته منذ استدارت رَحَى الإسلام لم يُعدلُ سويًا ^(٤)
بنو عم النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلهم إليسا
فإن يك حبهم رُشدًا أصبهُ ولستُ بمخطئٍ إن كان غيا
ويقول عبد الله بن كثير السهمي في نفس المعنى ^(٥):

إن امرؤا أمست معايبه حبَّ النبي لغير ذى ذنب
وبنى أبي حسن ووالديهم من طاب في الأرحام والصليب
أبعدُ ذنبًا أن أحبهم بل حبهم كفارة الذنب

فهم يحبون آل البيت بلخدم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استعمار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفرًا منهم إلى الزهد في الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سئرى عند أبي الأسود الدؤلى في حديثنا عن شعراء الزهد ، وبما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان بشيع ، في كلمة له ^(٦) :

فحسبى من الدنيا كفافٌ يُقيمى
وشبى ذوى قرْبى النبي محمدٌ
وأدوبُ كنان أذورُها قبرى ^(٧)
فما سأتنا إلا المودة من أجر ^(٨)

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٦٠ .

(٦) البيان والتبيين ٣/٣٦٥ .

(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .

(٨) سأتنا بالتخفيف : لمت في سأل وهو

يشير إلى الآية "كريمة" : (قل واسئلكم عليه

أجرًا إلا المودة والرحمة) .

(١) المبرد ص ٥٥٤ .

(٢) يريد بالوصى على بن أبي طالب ، إذ كان

الشيعة كانوا يظنون أن الله أوصى له

بالخلافة .

(٣) على هوى : على هواه .

(٤) لم يعدل سويًا : لا مثل له .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم في عصر بني أمية منازع قوية من حب آل البيت حباً قد ينتهى إلى الزهد في الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بني أمية ، ثورة تتطوى في داخلها رغبة شديدة في أن تُسْفَكَ دماؤهم كما سُفِكَت دماء شهدائهم : الحسين وزيد بن علي ، ومن قبلهما على نفسه. ودائماً سيكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شيء ، ولأنهم ليدلّعون في قلوبهم ناراً لا تُنطفئ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند كثير شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كُثَيِّرُ (١)

هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، شاعر حجازي من خِزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر عمقاً وفي الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لحميل بن مَسْعَر العنزي ، وهو في جمهور غزله يترسم بعزة بنت حُصَيْل الضُمَيْرية ، وقد اشتهر بغزله فيما حتى سُمي كثير عزة ، وأروع أشعاره فيها تائيته التي يقول في تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت
وهو يلتزم في رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان مثكلاً في غزله ، ويقول ابن سلام : إنه كان يقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصباية .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفي لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكيسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

والخزانه ٣٧٦/٢ ورمّة الجنان ٢٠٢/١
ومعاهد النصيب وابن خلكان والمثل والنحل
ص ١١١ وحديث الأربعماء ٣٥٨/١ وما
بعدها . وقد نشر بيريس ديوانه في الجزائر .

(١) انظر في ترجمة كثير أغاني (دار
الكتب) ٢/٩ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفي
مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ وما بعدها
والشعر والشعراء ٨٨٠/١ والفرق بين الفرق
ص ٢٨ والموشح ص ١٤٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤٢

قبس النبوة لا يزال ينتقل في علي وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر وفيه يقول :

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأخبار في الحقب الأولى^(١)

وزراه يمثلي حقداً على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه في سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفي له في الكوفة وإخراجه وإليه منها . وكان ابن الزبير كما مرّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثير يقول :

نخبر من لا قيت أنك عائد بل العائد المظلوم في سجن عارم
وصي النبي المصطفى وابن عمه وفكأك أغلال ونفأخ غارم
أبي فهو لا يشرى هدى بضلالة ولا يتقى في الله لومة لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف خيف المحارم^(٢)
بحيث الحمام آمن الرّوع ساكن حيث العدو كالصديق المسالم
وما فرح الدنيا بباقي لأهله ولا شدة البلوى بضربة لازم

وواضح أنه يسجل على ابن الزبير خرقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لا ذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصي على أو بعبارة أخرى وصي الرسول الكريم الذي يأخذ بأيدي العتاة ، والذي يتقى الله حق تقواه .

ويرد ابن الزبير لابن الحنفية حرّيته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك في دمشق ، وكثير في ركابه ، فيكرمه ويتزله منزلاً علياً هو بشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التي انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأخبار ، كان من (٢) الخيف : ناسحين من بمكة .
مقصود في العهد الأول .

وأخذ يثيرة على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ أراه بعد جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ تَشْنِ هَمَّهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُهَا^(١)
نَهْتَهُ فَلَمَّا لَمْ تَرِ النُّهْيَ عَاقَهُ بَكَتُ فَبَكَا مِمَّا شَجَاهَا قَطِينُهَا^(٢)

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز والبا
وظن بعض المعاصرين في مديحه لبني أمية ضرباً من النفاق^(٣) ، وهو لم يكن
في مديحه لم منافقاً ، إنما كان تابعاً في ذلك لإمامه الذي رآه يمنح عبد الملك
ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية في بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقية
لا نفاقاً ، ومربى أن الشيعة كانوا يميزون التقية خشية على أنفسهم ، وبين
أيدينا أخباره مع عبد الملك وهي تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بشيعة
وأنه بصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمل مديحه له كثيراً من السوم ،
كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يَقْلُبُ عَيْنِي حَيَّةٍ بِمَحَارِيرِ إِذَا أَمَكْنَتْهُ شِدَّةٌ لَا يُقْبِلُهَا^(١)

وفراه حين يعرض لخلافته بسلوكه من طرف خفي في مجموعة الخلفاء الذين
لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اعتصاباً من ورثتها الشرعيين ،
إذ كان يعمل السابع الخلفاء مسقطاً خلافة علي ، لأنها الخلافة الصحيحة في
رأيه بين تلك الخلافات الظالة ، يقول :

وَكُنْتُ الْمُعَلَّى إِذْ أُجِلَّتْ قِدَاحُهُمْ وَجَالِ الْمَنِيحُ وَسَطَهَا يَتَقَلَّقَلُ

والملقى هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح
فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ،
بل موته بذلك في الظاهر ، وحتى في الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

(١) الحسان : العفيفة .

(٢) القطين ، الخدم والوصفاء .

(٣) انظر حديث الأربعة لعه حين (طبة)

(٤) الحارة هنا : جحر الحية . الشدة :

المحنة على المدح . بقليلها : يفسخها . أراد أنه

يبرم هزيمته ولا يتروى .

المحبى ٣٦٣/١

ترفض الشيعة إمامهم . ومن ثمَّ يقابل عبد الملك في ترتيب هؤلاء الخلفاء القدر السابع بين القداح وهو المعل ، وقد صرح بذلك في مدحة له أخرى ، إذ يقول

وكان الخلائف بعد الرسو ل لله كلهم تابعاً
شهران من بعد صديقهم وكان ابن حَرْب لهم رابعاً^(١)
وكان ابنه بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعاً
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعاً

وعلى هذا النحو لم تتخل عن عقيدته في مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له في مديحه لبني أمية ، وهو إخلاص مرجعه في رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ في إكرامهم ومنع عماله من أن يأتوا من سبهم على المنابر ، وكان صالحاً تقياً ، وفيه يقول كثير مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمِ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفِّ
وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي
وَقَدْ لَبِستُ لُبْسَ الْهَلْوَكِ ثِيَابِهَا
وَتَوَمَّضَ أَحِبَانًا بَعَيْنِ مَرِيضَةٍ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مُشْمِئزًّا كَأَنَّمَا
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْتَنِي وَإِنْ كَانَ مُونِقًا
وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي
بَرًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ إِشَارَةَ مُجْرِمٍ
أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِيًا كُلِّ مُسْلِمٍ
تَرَامَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمَقْصَمٍ^(٢)
وَتَبَيَّعْتُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ^(٣)
سَقَتَكَ مَلُوفًا مِنْ رِيَامٍ وَعَلَقَمٍ^(٤)
وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بَرًّا مَصْمُومٍ
أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمٍ

والحق أن كثيراً ظل غلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلاص لا يقف عند إشارات بابن الحنفية ووصفه بأنهم مهدي أو وصي ، أوصى له علي . بل يتجاوز ذلك إلى استشهاده ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) الشهران : عمر وشان . الصديق : أبو

(٢) الجمان : القوز .

(٣) المذوف : المخلوط . السام : جمع سم .

(٤) الهلوك : المرأة تشف بالرجال .

ماتهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول في ابن الحنفية حين لبى نداء ربه :

ألا إن الأئمة من قريش
على الثلاثة من بنيهم
فيسبط ، يسبط . إيمان وير
وسبط لا تراه العين حتى
يرضوى عنهم زمانا
ولا الحق أربعة سواء
هم الأسباط ليس بهم خفاء
يسبط قبيته كربلاء
يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا
برضوى عنده غسل وماء

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين وابن الحنفية : وهم متساوون في هذه الولاية . وبأنى إلا أن يسمى قتل الحسين في كربلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يتطعم العسل والماء : وسيعود في جيش كثيف يقوض الحكم الأموي ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته بنشد :

برئت إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا^(١)
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنين^(٢)
وواضح أنه يجعل لعل وبنيه وحدهم الحق في لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم في رأيه بعدد من مقتضين . وعلى هذا النحو كان يغلو في تشييعه غلوًا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْت^(٣)

هو الكُمَيْت بن زيد الأصدى ، ولد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة . ولم يكن

لجاسط (انظر تفهيم) وأمال المرتضى (طبعه الحلبي) ١ / ٦٦ ، ٩٩ ، ٢٤ / ٨٠ ومعجم الشعراء : برزبان ص ٢٣٨ وسامع التنصيص بكتابت النطور والتجديد في الشعر الأموي (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مدائمه في بيتي هـ ثم مرأيا باسم المناسبات .

(١) ابن أروى : ميثان بن عثمان ، وأروى : أمه .
(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .
(٣) انظر في ترجمة الكبت وأخباره أغاف (ساسي) ١٤ / ١٠٨ والشعر والشعراء ١٠٢ / ٦٢٢ والمنزه ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ ونزارة الأدب ١ / ٦٩ ، ٨٦ والبيان والتهجين والحيران

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوي وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل . علماً ، يعلم الناشئة في مسجد الكوفة . وزراه يتشددوا الشعر . وتتعدد مودة بينه وبين الطير مراح على نحو : تحدثنا عن ذلك آنفاً .

ولا يلبث أن يبرع في الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففى أخباره أنه وفد على محمد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالاً في مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك . ويقال إنه لقي على بابه أربعين شاعراً . كلهم ينتظر الإذن له ، وتروى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . وزراه في مطلع القرن الثاني يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشمين بدأت مبكرة ، ففى أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفى سنة تسع وتسعين . ونصى معه إلى ولاية خالد القسرى على العراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) فنجده قد أصبح شيعياً خالصاً . وقد استخلصه لنفسه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع . ويعيش لهذا النضال والدفاع . إذ أشرب قلبه حبّه وحب الهاشمين . حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا ليعباً منى وذو الشيب يلعبُ
ولم تلهنى دارٌ ولا رثم منزلٍ ولم ينطربنى بَنَانٌ مُحَضَّبُ
ولكنْ إلى أهل الفضائل والنهى وخيرِ بنى حَوَاءٍ والخيرِ يُطَلَّبُ
بنى هاشمٍ رهطِ النبي فإننى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

فلم بعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بنى هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، ويتقطع له ، ويشتمر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد أجراً وجِصاً فبنى . أى أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن في نظمه . وزراه في تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بنى أمية وواليتهم خالد القسرى . إذ كان ما بنى يؤلّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة . حتى ليراه يكتب - كما أسلفنا - إلى أهل مروان يثوروا في وجه أسد القسرى حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره النائرة لا تصل إلى سمع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سمع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحجبه ، فألقاه في غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه في ثياب وهيئة حتى عرفها الحُرَّاس ، فلخلت في غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها ونمياً بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبُستَه على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بشياهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستمطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذي توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفي بني أمية مدائح نظمها جيتند : من مثل قوله :

الآن صرْتُ إلى أُمِيَّةَ والأمور لها مصائرُ
أهلِ التجارب في المحا فل والمقاوِلِ بالمخاصر^(١)
أنتم معادنٌ للخلافة كابرًا من بعد كابر

وهي مدائح تُحتمَلُ على التقيَّة ، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّتْ إليه حريته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشبُّعه يتنَّسَّح لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليميني هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمني هو حنظل بن عبيَّاش الكلبي كان يتعصب للأُمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن علي هجاء^(٢) مرّاً . فرأى الكميت أن يصرفه عن ذلك بفتح معركة معه في اليمن والمضربة . وبذلك دفعه عن هجاء بني هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يكرر به فيفخر عليه ببني أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه . وقد ظهر عليه فعلاً لا بذلك فحسب ، بل بما نظم في عصيته لمضري وهجائه لليمن من قصائد دوَّتْ بعيداً ، وعلى رأسها مذهبته^(٣) : (ألا حبيبنا عينا يا مدينا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجلها ووصمه بها وصفاً .

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفعول .
والمقاوِل بالمخاصر : الخيلاء لاتخاذهم لها في الخطابة .
(٢) في خزانة الأدب ٨٦/١ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغاني (طبع الساسي) ١١٢/١٥ .
(٣) المسعودي (طبعة دار الراجاء بمصر) ١٦٢/٣ .

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشميانه ، وهي تمتاز بصدق العاطفة وبراعة
الحجاج والاستدلال في بيان حق الهاشميين الشرعي في الخلافة ، وهو استدلال
وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه في شعره وفي هاشميانه خاصة يخرج على
المألوف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون في الشعر هذه الصورة من الجدل ،
إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثم قالوا إن شعره أشبه بالنثر ،
كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد
سهج بشعره نهجاً جديداً ، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشَفِّعُ به
من براهين وأدلة . وهو في ذلك يُعَدُّ صَدَقِيَّ قَوِيّاً لما شاع في عصره من الجدال
بين المتناظرين في مسائل العقيدة ، فقد مثل هذا الجدال تمثيلاً باهراً . ومن
غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدال ، فقد كان إمامه زيد يتتلمذ
لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميّ في هذه التلمذة ، فهو الآخر
تلميذ لواصل ، تلقّن منه الكلام والجدل في المسائل العقيدية ، وتحول يستخلمه
في هاشميانه ، فإذا هي ليست أشعاراً في مديح زيد إمامه ، إنما هي مقالة
الزيدية بكل أصولها العقيدية : وبكل ما تستخلمه من أسلحة العقل في دعم
هذه الأصول . ومرت بنا أبيانه التي يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال
يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌ على بني هاشم ، وبذلك كان أول
شاعر دعا إلى نيل الوقوف على الديار سُنَّةً من سبته ، وهو يمضي ، فيسوق
الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمي من سلالة فاطمة رضي الله عنها في
الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعي :

فلم أَرْ غَضَباً مثله يُنْصَبُ	بخاتمكم غَضَباً تجوز أمورهم
تأولها منا رِقِيٌّ ومُعْرَبُ	وجدنا لكم في آل حاميم آية
لكم نَصَبٌ فيها لذي الشك مُنْصَبُ	وفي غيرها آباءٌ وآباءٌ تتابعتم
وما ورثتهم ذاك أم ولا أبُ	وقالوا ورثناها آباءنا ولمنا
به دان شرقي لكم ومغربُ	ولكن مواريث ابن آمنه الذي
لقد شَرِكت فيه بكيّل وأزْحَبُ ^(١)	يقولون لم يورث ولولا ثرائه

(١) بكيّل وأزْحَب : مشيرتان من هذان .

وَعَكَ وَلَحْمٌ وَالسُّكُونُ وَجَمِيرٌ وَكَنْدَةٌ وَالْحَيَّانُ بَكَرٌ وَتَغْلِبُ
 وما كانتِ الْأَنْصَارُ فيها أَذْلَةً ولا غُيْبًا عنها إِذِ النَّاسُ غُيِبَ
 فَإِنْ مَيَّ لَمْ تَصْلَحْ لِحَيِّ سَوَاهِمُ فَإِنْ ذَوَى الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
 وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بآى القرآن
 الحكيم فى سُوْرَةِ « حَامِى » وغيرها التى تُشيد بأهل البيت وقرابته من الرسول ،
 مفررة حق ذوى القربى من مثل : (وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) ومثل : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى ، وأنهم لا
 يُدْلون للرسول كما يدل آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً
 وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية
 تارة وبحكم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلاً محاولاً الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك لجَّ
 فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت - فى أصلها - من
 أكثر العقائد الشيعية اعتدالاً وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان
 زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا ببداء ولا برجعة على نحو ما كان يؤمن الكيسانية ،
 وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان بثبت نظرية
 الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم
 غدير خم^١ ، وفى ذلك يقول الكميّ :

وَيَوْمَ الدُّوْحِ دَوَّحَ غَدِيرِ خُمٍ أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أَطِيعَا^(١)
 وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضل مع وجود الأنفل وبذلك
 صحَّ خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيها ، ولا دفع إلى شتمها كما تصنع
 الرافضة ، وفى هذا يقول الكميّ :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرَا
 ومعروف أن زيدا كان بشرط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتم
 أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخياً^(٢) ، ويردّد الكميّ فى هاشميّاته هذه
 الصفات : يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

(١) غدير خم : بين المدينة ومكة ، فزله الرسول . (٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .

الحُماة الكُفَّاء في الحرب إن لُ
والفيثُ الذين إن أمحلَّ النَّا
غالبين هاشمين في العِلِّ
وهمُ الآخذون من ثقة الأذِّ

ويضيف الكميّ إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا
الناس لم يظلموهم نقيراً . وكثيراً ما يقف في تقريره لهذه الصفة عند جور بني
أمية وظلمهم للناس . وأنهم لا يتقون الله في رعايتهم لهم : بل يعاملونهم كأنهم
أغنام ، مبتدعين دائماً بدعاً لم يحمي بها الإسلام ، يقول

لهم كلُّ عامٍ بدعةٌ يُحدثونها أزلُّوا بها أتباعهم ثم أوحلُّوا
ودائماً يجارل ربّه أن يكشف غُصَّتْهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطفوا ،
وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب . وإنه ليسأل الله أن يُحلَّ
الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أجاء الله من أشبعتموه وأشبع مَنْ يَجْوزِكمُ أجبعا
بمرضَى السياسة هاشمى يكون حياً لأمته ربيعاً^(١)

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحق
المذهب الذي ذهب إليه الكميّ في مديح النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السراج المنير أحمد لا تغدلى رغبة ولا رهب
عنه إلى غيره ولو رفع إذ نأص إلى العيون وارتقبوا
وقبل أفرطت بل فصدت ولو عتفى القائلون أو ثلبوا

(١) الوثق لا انفصام لها .

(٢) الحيا : المطر .

(١) دبو . نعوامن التربية .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر

بالتأفوت ويؤمن بالله فقد استسك بالعمرة

فنى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه^(١) . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته^(٢) . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤبداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، فتمعد عن نصرته ، وفي هاشميته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه . من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبة تظل لها الغريبان حولي تحجبل

وخرج زيد وقتل ، فجزع الكميت ، وذهب يكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفى محمداً الناس أن ينفصوا عنه وعنه . وضيق عليه يوسف الخناق ، وظل^٣ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستل^٤ صغته دس^٥ إليه من قتله .

٤

شراء لورة ابن الأشعث

مر بنا في حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان المراقبون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فلمهم فقلدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام ، ولم يعد لهم من الأمر شيء . وسلط عليهم الأمويون ولاية^١ يعنفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم ، فتملقوا بكل نائر على الأمويين . وسرعان ما كانت بجيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الح^٢ : يأخذهم بسياسة قاسية لارحمة فيها ولا شفقة ، ويحس^٣ كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستلهم^٤ ، فيأفنون لأنفسهم أنفة شديدة ،

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشراف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه ونهياً وخيلاء . وواتته الفرصة كي يقود هذه الثورة التي كانت تغلوها نفوس الأشراف في الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبي بكرة حامل سجستان أخفق في حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل ببيشه حتى يقال إنه مات كدأ .

وفكر الحجاج في قائد عنك بوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهذا تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان في كرمّان ، فأمدّه ببيش عظيم كان يسمى بجيش الطواويس ، تمام أهبة وعُدته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى - خشية على جيشه - أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبي بكرة . ولم يكد يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالخور والضعف ، وهدّده إن لم يخلص في القتال بغزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّثهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينظرون على بغضه ، ويتمنون أو عادوا إلى أهلهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالي بموتنا ، ويريد أن يعرّضنا للخطر ، حتى نسوق له وتحليلفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

ووادع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لحاً وأصحابه إليه ، فمنهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه في طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بخاميات الأمصار ، ولما صار في فارس خلّع عبد الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش - مثل السيل المنحط من علّ - ليس يردّه شيء حتى انتهى إلى قراره ، وأعشى همدان وأبو جيلدة الشكرى في مقدمته يثيران الناس ويمحّسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينا أخرجوا منها

للحرب والموت في سجستان وخراسان على نحو ما نرى في قول أبي جريدة^(١) :

أيا لهني ويا حزني جميعاً وبيا غمّ الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً وخلقنا الحلال والبئينا^(٢)

فما كنا أناساً أهل دينٍ فتعصيرٌ للبلاء إذا بلينا
ولا كنا أناساً أهل دنيا فتمنعها وإن لم نرج دينا

تركنا دورنا لطفام عك^(٣) وأنباط القرى والأشعرينا^(٤)
وتقدم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دجيل في ذي

الحجة سنة ٨١ وانصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده ، فاستولى على البصرة ،
ومضى الحجاج فترك بجيشه في ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية، وحدثت فيها بين
الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جريدة يحرض على قتال الحجاج بمثل قوله^(٥) :

نحن جلينا الخيل من زرنجا مالك يا حجاج منا منجى^(٦)

لتبعجن بالسيف بفعجا أو لتغيرن فذاك أخجى^(٧)

وما زال أبو جريدة يحمس الجنود ويحث الغيرة فيهم لنسائهم ، حتى شددوا

على عسكر الحجاج شدة ضعفته ، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام ،

فراجعوا وثبتوا ، وكانت الدائرة له . وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة

وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دبر الجماجم ، وفيها هزم هزيمة ساحقة .

ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة ، والتي به في « مـ مـ مـ » فحالفته

الهزيمة ، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان ، فالتجأ إلى زنبيل ،

وبعد محاولات منه لرجع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج ، وقطعت رأسه ،

وقيل بل مات انتحاراً . وبلغنا بجانب أبي جريدة شعراء كثيرون بلّحوا في هذه

الثورة لعل أهمهم أعشى همدان ، وهو يحقّ يعاد شاعر هذه الثورة .

الشام اليمنية . وثلثها الأشعر قبيلة يمنية . وسام
أناطاً يريد أنهم ليسوا بدواً ، فهم فلاحون .

(٤) أعان ٣١٢/١١ .

(٥) زرنج : قصة سجستان

(٦) البج : الشق . أحمى : أغلق وأجدر

(١) مرت في الفصل الثالث مصادر
ترجمته وانظر في الأبيات أعان (دار الكتب)

٣١٢/١١

(٢) الحلال : الزوجات .

(٣) الطغام : الأوغاد . وعك : من قبائل

أعشى^(١) همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الهَمْدَانِيّ الْقَحْطَانِيّ. نشأ في الكوفة، وعُني في أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن. شُعبِي فقيه الكوفة المشهور بِصُفْهِير إليه، فيتزوج أخته ويزوجه أخته. وتيقن فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوي، وأقبل عليه. وأخى أحمد التَّصَنُّبِي مَغْنِي بَلْدَه، فكان إذا قال شعراً غَنِيَّ له فيه. وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصاري الذي ولي على الكوفة سنة تسع وخمسين، وفيه يقول:

مَنْ أَكْثَرُ النِّعْمَانِ لَمْ أَلَفْ شَاكِرًا وَمَا خَيْرُ مَنْ لَا يَقْتَدِي بِشُكُورٍ
وله أشعار يتزع فيها مترع زهد في الدنيا، فهو ينفّر منها ومن التعلق بمتاعها، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار في أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعظاظ الكوفة، ومن أطرفها قوله:

وَبَيْنَا الْمَرْءُ أَمْسَى نَاعِمًا جَدَلًا فِي أَهْلِهِ مُغْجَبًا بِالْقَيْشِ ذَا أَنْقِي^(٢)
غُرًّا، أُنْبِيعَ لَهُ مِنْ حَيْنِهِ عَرَضُ فَمَا تَلَبَّثَ حَتَّى مَاتَ كَالصَّيْقِ
فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ إِلَّا حَنُوطًا وَمَا وَاوَاهُ مِنْ خِرْقِ^(٣)
وغير نفحة أعواد تُشَبُّ له وَقُلْ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمَنْطَلِقِ

وزاه حين هُزِمَ التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين يبيكهم بقصيدة كانت إحدى المكتّمات التي كتبت في ذلك الزمان^(٤). ويتولّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه في سلمه وحرره للمختار الثقفى ناظماً أشعاراً كثيرة، رواها الطبري، يصور فيها شعوزة المختار الثقفى وما كان يتخذ من

(١) انظر في ترجمة أعشى همدان الأغاني (طبع دار الكتب) ٣٣/٦ والاشتقاق ص ٤٢٣ والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١ وراجع فهرس الطبري والمجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلذرى وله ديوان نشره جابر ملحفاً

بديوان أعشى قيس.

(٢) أنق: فرح وسرور.

(٣) الحنوط: طيب يتخذ ليعتق خاصة.

(٤) طبري ٤/٤٧٢.

كُرْسَى وَحَمَامَاتٍ بِيضًا تَمْوِيًا عَلَى جَنْدِهِ^(١) . وَيُدَالُ الْبَصْرَةَ مِنَ الْكُوفَةِ ،
وَيَفْتَحِرُ الْبَصْرِيُونَ بِانْتِصَارِهِمْ ، فَيَغْضَبُ لِبَلَدَتِهِ . وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِم بِالْخُطَابِ قَاتِلًا :
وَإِذَا فَانَخَرْتُمُونَا فَادْكُرُوا مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ^(٢)

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب
وغيره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر
سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ رآه في موقعة جملولاء . وقد
انتصر الخوارج ، فضى بهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن
عتاب بن ورقاء أصبهان : وكان صديقه . فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه
يخفوه ، فهجوه . ونراه في شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بدائها .
ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبحث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مكّران ، فيمرض هناك . وينظم
قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغبة ،
خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج في بلاد الديلم ،
فيقع أسيراً ، وتهاوى بنت للعيلج الذي أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرقاتاً تعرفها ،
وبذلك تخلصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يؤل وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى
سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبي بكره زبيل ملك الترك ، ولما دارت
على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبي بكره
سواء في قيادته غير الحكيمة أو في إهداره لمسئوليته . إذ انتهى ما كان فيه جيشه
من ضيق ، فباع القفيز من الشعر بدرهم ، كما باع لم العنب الحصرم ، وم
يتساقطون جوعاً ، يقول :

أَسْمَعَتْ بِالْجَيْشِ الذِّبْنَ تَمْزُقُوا وَأَصَابَهُم رَرَبُ الزَّمَانِ الْأَعْوَجِ
حُسْبُوا بِكَابِلٍ بِأَكْلُونِ جِيَادَهُمْ بِأَضْرُ مَنْزِلَةٍ وَشَرُّ مُعَرِّجِ^(٣)
لَمْ يَلْقَ جَيْشٌ فِي الْبِلَادِ كَمَا لَقُوا فَلَمَثَلَهُمْ قُلُوبُ النَّوَائِحِ تَنْشِجِ

بأمل الكوفة حل أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زبيل ملك الترك .

(١) انظر النجدي ١/٤٥٠ ، ٥٦١ .

٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار حل فيها

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وَلَيْتَ شَأْنَهُمْ وَكُنْتَ أَمِيرَهُمْ فَأَضَعْتَهُمْ وَالْحَرْبُ ذَاتُ تَوَهُّجٍ
وَتَبَعِيهِمْ فِيهَا الْقَفِيزَ بِدَرَمٍ فَيُظَلُّ جَيْشُكَ بِالْمَلَامَةِ يَنْتَجِي^(١)
وَمَنْعَتُهُمْ أَلْبَسَانَهُمْ وَشَعِيرَهُمْ وَجَرَّتْ بِالْعَنْبِ الذِّى لَمْ يَنْضَجْ

ومات ابن أبي بكره كما قدمنا ، فَوَلَّى سَجِسْتَانَ ابْنَ الْأَشْعَثِ ، فَسَأَلَهُ أَنْ
يَزِيدَ فِي عَطَائِهِ ، فَلَمْ يُلَبِّسْ سَوَالَهُ ، فَضَى يَمَانِيَهُ فِي قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ ، يَقُولُ لَهُ فِي
نَضَاعِيهَا :

مَالِكٌ لَا نَعْطِي وَأَنْتَ أَمْرُؤُ مُثَرٍّ مِنَ الطَّارِفِ وَالتَّوَالِدِ
تَجْبِي سَجِسْتَانَ وَمَا حَوْلَهَا مَتَكُشًا فِي عَيْشِكَ الرَّاعِدِ

وتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج : فيضع الأعشى
يده في يده وكأنه صَدَرَ في ثورته عن أمنيته : فقد وقف من قديم في صفوف
المعارضة الأموية : وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن
الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاء بني أمية ، وبراهم ظالمين لارعية بسومونها
العذاب على نحو ما رأينا في هجائه لابن أبي بكره . وهذا الحجاج على العراق
قد بنى وطني ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج في
بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مُرْغَمًا ، لا يعرف متى يأذن له في العودة لتقر عينه
بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر
محمساً بلحنه ، فلما توجه مقبلاً إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إِنَّا سَفَوْنَا لِلْكَفُورِ الْفَتَانَ حِينَ طَغَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ^(٢)
بِالسَّيِّدِ الْفُطْرِيْفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَارِبِجْمَعٍ كَالدَّبْيِ مِنْ قَحْطَانِ^(٣)
أَمْكُنْ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانِ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ يُسَسُّ مَا كَانَ
إِنْ ثَقِيفًا مِنْهُمْ الْكَذَّابَانِ كَذَّابُهَا الْمَاضِي وَكَذَّابُ ثَانِ

(٣) الدبى : الجراد .

(١) ينتجى : يقار ، من النجوى وهو السر .

(٢) سفا : غف وأسرع .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يُشِيرُ بها الجند ويحرضهم على القتال ، ونجده في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم : وما كان لآبائه من مُلكٍ وشرفٍ وسِيادةٍ في الجاهلية : وهو بذلك يضع في يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين انحدروا من أُسَرِ العصر الجاهلي النبيلة : يقول :

يَا بَنِي الْإِلَهِ وَعِزَّةُ ابْنِ مُحَمَّدٍ وَجُدودُ مَلِكٍ قَبْلَ آلِ ثَمُودِ^(١)
أَنْ تَأْذَنُوا بِمُدَّ مِمينَ عُرُوقِهِمْ فِي النَّاسِ إِنْ نُسِبُوا عُرُوقُ عِبدِ
كَمْ مِنْ أَبٍ لَكَ كَانَ يَعْقِدُ نَاجَهُ بِجَبِينِ أَبْلَجٍ يَقُولُ صِنْدِيدِ^(٢)
مَا قَصُرَتْ بِكَ أَنْ تَنَالَ مَدَى الْعُلَا أَخْلَاقُ مَكْرَمَةٍ وَإِراثُ جُدودِ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يُلبِنَ قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نَوْرُهُ وَيَطُوقَ نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتَحْمُودَا
وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلَهُ لِمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمَوْكُودَا
وَمَا نَكَلُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ إِذَا صَبَّحُوا الْيَوْمَ خَاسِرِينَ غَدَا^(٣)
وَمَا أَحَدُوا مِنْ بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَصْعَدْ إِلَى اللَّهِ مَصْعَدَا
وَمَا زَاخَفَ الْحَجَّاجُ إِلَّا رَأَيْتَهُ مُعَانًا مُلْقًى لِلْفَتْوحِ مَعُودَا
لِبَهْنَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ظَهُورُهُ عَلَى أُمَّةٍ كَانُوا بَغَاةً وَحُسُودَا
ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فازداد وجهه واهترئ منكباه ، وأمر
الحرسى فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

(٢) أبلج : طلق الوجه . حبل : حبل .
صنديد : الجواد الشجاع
(٣) خاس : خسر وتكث

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بآل ثمود قبيلة ثقيف قوم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود .

شعراء بني أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بني أمية ، فالمدح شيء ، والشعر السياسي شيء آخر. المديح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعتاء ، أما الشعر السياسي فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس بمجرد مدح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعنتها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون في الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسي المناصر لبني أمية ما أخذ بنظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا بها جملون الثوار ، الذين قتلوه : جاعلين أنفسهم أصحاب الحق في الثأر من قتلته ، فهم أهل الأقربون ، ومن ثمَّ فهم أولياء دمه . وكان على^١ قد بسَّويع بالخلافة وانتش عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انتش زعيم بني أمية معاوية أمير الشام بسنده جيش بمضى موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيعتاً ، وأخذت كل شعبة تحاول أن تفرض رأيها السياسي باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا في وقعة الجمل ، فخلا الجو لمعاوية ومطالبته بالثأر من قتل ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صفين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة تكاد ينتصر فيها على^٢ انتصاراً حاسماً لولاما لحاً إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفي هذه الموقعة نظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته في الحكم وعن إمامه الذي ارتضاء مسئلتها خصوصاً الشام والعراق في الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جعيل التغلبي :

أرى الشامَ تكروه مُلْكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا
وقالوا على إمامنا فقلنا رضيْنَا ابنَ هِنْدٍ رضيْنَا
ورد^١ عليه بعض شعراء العراق ، فقال بنقص ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين
الطرفين من عداوات قديمة :

أناكم على بأهل العراق وأهل الحجاز لما تصنعونا
فإن يكره القومُ مُلْكَ العراق فقد ما رضيْنَا الذي تكرهونا^(١)

وتطورت الظروف وقتل على بعد التحكيم ، وبإيع الناس معاوية ، ودخلت
العراق في طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ،
وكلمة استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة
مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضهم الحجاز في
عهد يزيد بن معاوية وتجمعت معارضتها في عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون في هذه الصفوف المعارضة يناضلون من
نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر .
وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأكتصار
حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفي رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ،
فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصراني التغلبي ، على نحو ما مر بنا في غير هذا
الموضع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أموياً يناضل عن السياسة
الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية في بيته ، وأن يأخذ للبيعة
لابنه يزيد في حياته . وكان ذلك في رأى كثيرين بدعة منكرة ، إذ تَخْرُجُ
الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند
الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعرف معاوية نفور المسلمين من ذلك ،
فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع
من لبأه منهم مسكين الدارمي فأنشأ يقول في كلمة له^(٢) :

(١) انظر الأخبار الطوال لدينويه (طبع) (٢) الأغانى (س١) ٧١/١٨ .

بني خلفاء الله مهلا فلما
إذا المنبر الغرني خلّى مكانه
يُبَوِّئُهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يَرِيدُ^(١)
فلان أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ
لكلّ أناس طائرٌ وجدود^(٢)
ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير
الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلا صلته .

ومن شعراء آل أبي سفيان المتوكل^(٣) الليثي وعبدالله^(٤) بن همام السلولي
« وكان مكيناً حظيًّا فيهم وهو الذي حدّا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية »
في أشعار يروها الرواة ، كان يرى فيها أباه ويحضره على البيعة لابنه من مثل قوله^(٥) :
اضيرُ يزيد فقد فارقتَ دَامِقَةً واشكر حياء الذي بالملك حاباكا
لا رزء أعظم في الأقوام نعلمه كما رزئتَ ولا عقي كعقبأكا
أصبحت راعي أهل الدين كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفي معاوية الباقي لنا خلفٌ إذا نعبتَ ولا تسمع بمنعأكا
ونغضى إلى عصر المروانيين : وأول من تلقاه من شعرائهم أبو العباس^(٦)
الاعمى الشاعر المكي مولى بني الدُّثُل يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان من
شعراء بني أمية المعدودين المقدّمين في مدحهم والتشجيع لهم وانصباب الهوى إليهم »
ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان
ابن الحكم يبيكهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

ولم أر حياً مثل حَيٍّ تحمّلوا إلى الشام مظلومين منذ بُرِيت^(٧)
أهز وأمضى حين تشتجر القنا وأعلم بالمسكين حيث يبيت

(١) يبويها : ينزلها .
(٢) الجد : الحظ .
(٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/١٥ ونكت المبيان لمفدى ص ١٥٣ ومسم الأدبا ١٥٩/١٢ .
(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ١٣٣/٢ ٢٣٢/١ ٢٣٣ .
(٥) وابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٦٣٨/٣ .
(٦) تحمّلوا : ارتحلوا . برّيت : خلقت .
(٧) المبيان والتبيين ١٣٢/٢ والمبرد ص ٧٨٥

إذا مات منهم سيّد قام سيد بصير بعَوَرات الكلام زَميت^(١)
وقوله :

ليت شعري أفراح رائحة اليَمِّ لكِ وما إن أخال بالخيف أني^(٢)
حين غابت بنو أمية عنه والبهاليل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فُرِسا ن عليها وقالة غير خُرس
لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
ويبلغ ابن الزبير نُبْدً من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوارحه
وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهجو وآله هجاء مرّاً ، محرضاً عبد
الملك على حربه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن
بني هاشم ، وفي ذلك يقول لأبي الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعياً :

لعمرك إنني وأباطيل لمختلفان والله الشهد
لقد ضلُّوا بحب أبي تُراب كما ضلَّت عن الحق اليهود
ويقال إنه أدرك دولة بني العباس ، وتروى له أشعار مختلفة - إن
صحت - في بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم وينحسر تحسراً شديداً من
مثل قوله :

خلت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى المات سلام
ومن كان يلهج بهم ويقف في صفوفهم نابتة بني شيبان^(٣) عبد الله بن الحارث ،
ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانياً ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التي
يخلف بها النصاري ، وفي ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل
قوله :

ويزجرى الإسلام والشيب والتقى وفي الشيب والإسلام للمرء زاجر

(٢) انظر في ترجمته الأغانى (طبع دار
الكتب) ١٠٦/٧ وقوله نشرت دار الكتب ديوانه .

(١) زميت : وقور .
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همَّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مثَّل بين يديه يشده قصيدة طويلة يقول في تصاعيفها :

لَا بُدَّكَ أُولَى بِمُلْكٍ وَالِدِهِ وَنَجْمٌ مِنْ قَدِّ عَصَاكَ مَطْرَحُ
فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَأَى عَبْدِ الْمَلِكِ . وظل من بعده يمدح أبنائه ، وله
تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . ولزم بعده ابنه الوليد ،
وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه في الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .
وعلى شاكلته في الانتصار لبني مروان أعشى قبيلته عبد^(١) الله بن خارجة ،
وكان شديد التعصب لهم ، وله في عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على
حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

أَلْ الزَّبِيرُ مِنَ الْخِلَافَةِ كَالْتِي عَجَلَ النَّتَاجُ بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا^(٢)
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلغَوَاةِ أَطْلَمُ لِإِهْسَالِهَا
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ مَا زَلَمْتُ أَرْكَانَهَا وَثِمَالَهَا^(٣)
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلاً مَغْلَقاً فَانْهَضْ بِبَيْمُنْكَ فَافْتَتَحْ أَقْفَالَهَا

ومن شعراء بني أمية أبو عطاء^(٤) السُّنْدِيُّ مولى بني أسد ، وكانت فيه
لُكْنَةٌ سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاية
الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مرثى بديعة . وقد عاش إلى أيام
المنصور ، ونراه يبيكي بني أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين في أشعار
كثيرة من مثل قوله :

يَا بَيْتَ جَوْرٍ بَنَى مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنَّ عَدَلَ بَنَى الْعَبَّاسَ فِي النَّارِ
وقوله :

بَنَى هَاشِمٌ عُدُوداً . إِلَى نَخْلَاتِكُمْ
فَإِنْ قَلَمْتُ رَفَعْتُ النَّبِيَّ وَقَوْمَهُ
فَإِنْ النَّصَارَى رَهَطُ عَبَسَى بْنِ مَرْيَمَ

(١) انظر ترجمة أبي عطاء أغاني (سأسي)
٧٨/١٦ والشعر والشعراء ٧٤٢/٢ والخزانة
١٧٠/٤ وسجع الشعراء للرزوقي ص ١٥٦
والصنعة ٥٦٠/١ .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني طبع (سأسي)
١٥٥/١٦ وقد نشر جابر ديوانه ملحفاً
بديوان أعشى قيس .

(٣) أحياناً : جعلها لا تنتج .

(٤) النبال : الهبات التي يهزم بأمر قومه .

ويجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبني أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولأنهم لما سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص في الوليد بن عبد الملك^(١) :

نَحْيَرُهُ رَبُّ الْعِبَادِ لَخَلْقِهِ وَلَيْسَا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا
وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم في سليمان^(٢) :
سُمِّيتَ بِاسْمِ امْرِئٍ أَشْبَهْتَ شَيْئَهُ عَدْلًا وَفَضْلًا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ
أَحْمَدُ بِهِ فِي الْوَرَى الْمَاضِينَ مِنْ مَلِكٍ وَأَنْتَ أَصْبَحْتَ فِي الْبَاقِينَ مَعْمُودًا
وكان في زهد عمر بن عبد العزيز مدد لم لا ينفذ في تصوير تقواه وانصرافه
عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثير ، ويقول العنبري في هشام بن
عبد الملك وأسلافه^(٣) :

يَقْطَعُونَ النَّهَارَ بِالرَّأْيِ وَالْحَزْمِ وَيُخَيِّرُونَ لِبَلِّهِمْ بِالسَّجُودِ
والغريب أن نجد هذا التصوير يمتد حتى إلى من عرفوا منهم بالمجون مثل
الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبة^(٤) :

إِسْمَامُ يُوَضِّعُ الْحَقُّ لَهُ نَسْرًا عَلَى نَوْرٍ
ولما اضطربت الدولة في عهده وعهد خلفائه ، وأخلوا بحريون ويقتل بعضهم
بعضاً ، وابتدت في الأفق الشرير بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على
خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك
الشيعة في دياره قائلا^(٥) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِضَ جَمْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ اضْطِرَامٌ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شَعْرَى أَلَيْقَاطُ أُمَيْيَّةُ أَمْ نِيَامُ
فَإِنْ كَانُوا لِحَيْثُمْ نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ طَالَ الْمَنَامُ

(١) انظر ترجمته في الأغانى ٩٥/٧ وما

بعدها .

(٥) البيان والخبير ١٠٨/١

(١) أغانى (دار الكتب) ٢٩٨/١ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٢٨٨/١٢ .

(٣) أغانى ٣٠٦/١١ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضت حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين حويل كثير من الشعراء وبكاثم ، على نحو ما أسلفنا عند أبي عطاء السندی ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

عبد الله^(١) بن الزبير

كوفي المنزل والمنشأ ، بنى أسد ، كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عذرهم ، ونراه بلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن قُتل ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجموه ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراخت مني
أبأدى لم تُمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذا التعلُّ زلت
رأى خلقي من حيث يخفى مكانها
فكانت قدّى عينيه حتى تجلت^(٢)

ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكنف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مَجْدٌ إلا مَجْدُ أسماء فوقه
ولا جَرَى إلا جَرَى أسماء فاضله
فتى لا يزال الدهر ما عاش مُخَصِّباً
ولو كان بالمواة تَخْدَى رَواحله^(٣)
وهزل ابن أم الحكم عن الكوفة وضُمَّتْ إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه بمدحه وينوّه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ الله والمجدُ صفوة الـ
وأنت إلى الخيرات أولُ سابق
حليفين ما أَرَسَى نَبِيرٌ وَيَشْرِبُ^(٤)
فأَبَشِرُ فقد أدركت ما كنت تطلبُ

(٣) المياة : المغارة . تَخْدَى الناقة : تسرع فى سيرها .

(٤) نَبِير : جيل يظهر مكة . يَشْرِب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ٢١٧/١ وما يملها والخزانة ٣٤٥/١ وما

التنصيص ٢٠/١ .

(٢) الخلة : الحاجة والمصاصة . والقلى : ما يقع فى العين .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفي فيتحول إليه ابن الزبير بتوعده ويهدده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤتى به أسيراً ، فيمن عليه وبصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجوه حين يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أَيُّهَا الْعَائِذُ فِي مَكَّةَ كَمْ مِنْ دَمٍ أَهْرَقْتَهُ فِي غَيْرِ دَمٍ
أَيُّدُ عَسَائِدُهُ مَعْصَةٌ وَيَدُ نَقْتِلِ مَنْ حَلَّ الْحَرَمِ
ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلا :

كَأَنِّي بَعِيدُ اللَّهِ بِرَكْبِ رَذَعِهِ وَفِيهِ سِنَانُ زَائِعِي مُحَرَّبٍ^(١)
وَقَدْ فَرَّ عَنْهُ الْمَلْحَدُونَ وَحُلِقَتْ بِهِ وَبِحِنْ آسَاءِ عَنَقَاءِ مُغْرِبٍ^(٢)
تَوَلَّوْا فَخَلَّوْهُ فَشَالَ بِشُلُوبِهِ طَوِيلٌ مِنَ الْأَجْذَاعِ عَارٍ مَشْدُبٍ^(٣)
بِكُمِّي غَلَامٍ مِنْ ثَقِيفٍ نَمَتْ بِهِ قَرِيشٌ وَذُو الْمَجْدِ التَّلِيدِ مَعْتَبُ
ويلزم بشر بن مروان في ولايته على العراق . ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفى في خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يمض طويلا بعد بشر ، ويقال إنه عمى بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يرهبُ شره .

عدي^(١) بن الرُّقَاع

من عاملة إحدى قبائل قُضاعة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يُسَلِّك في حاضرة الشعراء . وكان مقدماً عند بنى أمية — كما يقول أبو الفرج مدحاً

- | | |
|--|--|
| (١) يقال ركب رذعه : إذا سطت قتيلا يشخب دمه . والزراعية : ضرب من الرياح . محرب : محدد . | أغان (طبع دار الكتب) ٢٩٩/١ وما بعدها و ٢٠٧/٩ وما بعدها و (طبع الناس) ١٦٥/١٧ والطبري ٢/٥ والشعر والشعراء . |
| (٢) يقال منقاسفرب على الوصف والإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم . | ٢/٦٠٠ وابن سلام من ٣٢٤ ، ٤٣٥ ، ٥٥٨ ، ٥٥١ ومعجم الشعراء للرزاني ص ٨٦ والاشتقاق ص ٣٧٥ والموسم ص ١٩٠ والطرائف الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ . |
| (٣) التلوي : الجسد . شال به : رفته أي أنه صلب على جذع طويل . مشذب : مصلح مقوم . | |
| (٤) انظر في ترجمة عدي وأخيه وأشعاه | |

لم، خاصاً منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك في مخاصمات أشراف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أشرعت الأكنة بين القبائل اليمنية وقيس في الشام ناصر قومه وبني أمية . ونراه مع عبد الملك في حربه لمصعب بن الزبير ، وله يمدحه مفاخراً بنصرتهم له :

لعمري لقد أضحرت خيلنا بأكنافٍ دجلة للمُصعب^(١)
يَهْزُونُ كُلَّ طَوِيلِ القَنَا ة ملتئم النُضْل والثَغَلَبِ^(٢)
تقدّمنا واضحُ وجهه كَرِيمُ الضرائبِ والمنصبِ^(٣)
أعِينَ بِنَا وَنُصِرْنَا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرِ اللهَ لَمْ يُغْلَبْ

ولا نكاد نخفى في عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجدّه يقربه منه ويتخذّه شاعره الرسمي ، حتى ليُعلمه على جرير في بعض مجالسه ، ويثور جرير ، وبهجه ، فيتدخل الوليد وينهده إن عاد إلى هجائه . ويظل في رعايته يصفيه مدائح ، ويتغنى له فيها المثنون ، وما غنّى له ابن سُرَيْج فيه قوله :

صَلَّى الَّذِي الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا مَا جَمَعُوا الْجُمُعَا
هُوَ الَّذِي جَمَعَ الرَّحْمَنُ أُمَّتَهُ عَلَى يَدَيْهِ وَكَانُوا قَبْلَهُ شِيعَا
إِنَّ الْوَلِيدَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُلْكٌ عَلَيْهِ أَعَانَ اللهُ فَارْتَفَعَا

وقوله :

صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى أَمْرِهِ وَدَعَتْهُ وَأَنْتُمْ نَعَمْتُهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا
أَوَّلَا تَرَى أَنَّ الْبَرِيَّةَ كُلَّهَا أَلَقَتْ خِزَانِيَهَا إِلَيْهِ فَقَادَهَا^(٤)
وَلَقَدْ أَرَادَ اللهُ إِذْ وَلَاكُمَا مِنْ أُمَّةٍ إِصْلَاحَهَا وَرَشَادَهَا
أَعْمَرَتْ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ فَأَقْبَلَتْ وَنَفَيْتَ عَنْهَا مَنْ يَرُومُ فَسَادَهَا

(٤) الخزانم : جمع خزنة . وهي البيرة يخزّم بها البئر في أنفه . كمن يترك عن الانقياد والطاعة .

(١) أضحرت : برزت
(٢) الثغلب : رأس الفرج
(٣) الضرائب : البلاء

وَأَصْبَتْ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ مَصِيَّةً عَمَتْ أَقَامَى غَوْرَهَا وَنِجَادَهَا
ظَفَرًا وَنَضْرًا مَا تَنَاولَ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ كَانَ أَرَادَهَا
وَإِذَا نَشَرْتُ لَهُ الشَّاءَ وَجَدْتُهُ جَمَعَ الْمَكَارِمَ طَرَفَهَا وَتِلَادَهَا^(١)

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، يحاول بكل ما
يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره
لسياستها وصلاحيات شؤونها ورشاد أمورها والثام شعها ، وقد انقادت إليه بأزمته ،
والله يتم عليه نعمته ، وهي تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله في علاه ليصل
عليه كما يصل على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ،
وكيف أعمار أرض المسلمين حتى ازدهرت وآنت أكلها ، وإنه ليعوطها بمجده
متزلاً على أعدائها صواعقه ، فتتحققهم محققاً .

وفي أشعاره ما يدل على أنه كان يُعَتَنِي بها عناية شديدة إذ ما يزال يصفقها
ويشذبها حتى تلبس له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلاً عقله ، يقول :

وَقَصِيدَةٌ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقُومَ مِثْلَهَا وَسِنَادَهَا^(٢)
نَظَرَ الْمُتَقَفِّ فِي كُتُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مَنَادَهَا^(٣)
وَأَشْهَرُ بَيْنَ الْقِدَمَاءِ بَأَنَّهُ كَانَ بِحَسَنِ وَصْفِ الْإِبِلِ وَحُسْرِ الْوَحْشِ وَالْقَبَاءِ ،
وَمَنْ بَدِيعَ وَصْفِهِ لَظْفِيَّةٍ تَزْجِي وَمَعَهَا شَادِنُهَا أَوْ ابْنُهَا قَوْلُهُ :

تُزْجِي أَغْنَى كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاءِ مِدَادَهَا^(٤)
ويشبه امرأةً بجؤذر ، فيقول :

وَكَأَنَّهَا وَسَطَتْ النِّسَاءَ أَعَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاوِدِ جَاسِمِ^(٥)
وَسَنَانُ أَقْصَدِهِ النَّعَاسُ فَرَنْقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ^(٦)

(١) طرفها : حادتها . تلادها : قايها .
(٢) السناد : من جوب الروى .
(٣) المتقف : الذي يشغل الريح والسيوف ويقومها . منادها : موعجها .
(٤) تزجي : تسوق . الأغنى : الشادن في
صوته نغمة . الروق : القرن . إبرته : طرفه
المحدد .
(٥) الجاود : جمع جؤذر وهو ولد البقرة .
وجاسم : من قرى دمشق .
(٦) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت .

ونراه يصف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويثيران من
حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول :

يتعاوران من الغبار مُلأَةً غَبْرَاءَ مُحْكَمَةً هـمَا نَسْجَاهَا
تُطَوِّى إِذَا عَلَوْا مَكَاناً نَاشِزاً وَإِذِ السَّنَابِكُ أُسْهَلَتْ نَشْرَاهَا

وله فى النسيب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تببت يَدُ الفتاة وسادةً لى جاعلاً يُسْرِى يَدَى وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب

فى شعره أن يأتى بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل العرّيع

رأينا في حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما في الرفق والنعم ، بتأثير ما صبّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبي ، وكيف أخذ هذا الرقيق "بسد" حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربي القديم وما تفرّقه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التي وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مهيمنة على غنائنا العربي قروناً طويلة .

وينجّل إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان في الحجاز للغناء ، فالتاس يختلّفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه في مجالسهن . وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصور كيف سلك المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل^(١) . وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجة واسعة من المرح ، ورقبت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويسهرى الناس من رجال ونساء . وبذلك كادت تختفي من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثيره مقطوعات قصيرة ، وعُدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرمل السريع والخفيف والتقارب والمزج

(١) انظر في ذلك كتابا : الشعر والماء في

ص ٩٤ . ٢٢٧

المدينة ومكة لعنبر بنى أمية (طبع دار المعارف)

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلاثموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية . فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الخمر . وليس ذلك فقط ما أثر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره . فتند دفع الشعراء إلى اصطناع الالفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يحاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من الفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية نحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيهاً بالدبار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلهم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلتقي الرجال وتعاودهم ، وكانت - شأن المرأة في كل عصر - تُعجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها . وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يبردها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة في مكة والمدينة لأشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الشَّريِّ بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنى بأُم البنين في مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالاً ونساءً في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وهواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه في نفسه ، فإذا هو حب عنري نقي طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبي عمَّار الجُشَمي ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهي المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لحبوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب ، وهم جميعاً يُلْقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفروا أهلها بما يثيرون في نفوسهم من ريبة : وبلغ من تبه عمر في ذلك أن رأيتاه يصورها متهاكة عليه تنضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلا عنده وعند صاحبيه ، لتضجع لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر^(١) بن أبي ربيعة

في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بني مخزوم ، ولد عمر في سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبي ربيعة . ولأم بمنة أوحضرية تسمى بجدا . وكان أبوه في الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل عليه في عهد عمر وعثمان . حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله في مكة بعد هجرتهم^(٢) ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة . وكان جميلاً فدلته . يؤازرها في ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكّي ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

ويشعر الغزل (في سلسلة اقرأ) نفاذ محمد العقاد
وكذلك : انظر والتجديد في شعر الأحرار
(طبع في بيروت) ص ٢٣٩ والشعر بعد في
سبيل ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شعر عمر
دريج وحق به دراسة عن حياته وشعره وبلغته
وغيره . وشاعر الجند في شعر وفي بيروت
(٢) ابن سعد ٣٢٨/٥ .

(١) انظر في ترجمة عمر الأعرجي (طبع دار الكتب)
١/٩١ وما بعدها ، ٢/٩٩ وما . والشعر
والشعر ٢/٢٣٥ والموتى ص ٢٠١ والغزاة
١/٢٣٨ ودراسة الجنان لثاني ١/١٨٢ وابن
خلكان وشعرات الذهب ١/٤٠ وأمال القائل
٢/٥١ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمال ص ٩٨ ،
وحديث الأرباء (طبعه الخليل) ١/٣٧٢ وما بعدها

بعض المعاصرين ، وبنوا دراساتهم له على هذا الوهم^(١) ، وفي الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً^(٢) وما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤ بِقَرَارٍ مَكَّةَ مُسَكِّنِي وَلَهَا هَوَايَ فَقَدْ سَبَبْتُ قَلْبِي
وقد عاش حياته للفرز الصريح ، ويسر له تراءؤه هذه المعيشة ، فالدنيا
دائماً مشرقة باسمه من حوله : والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سُرَيْج
وابن مِسْجَع والغريض يلزونه ويغنون في شعره . حتى لنظن أنهم كانوا
يقاسمون حياته ، فضلاً عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة^(٣) . ويقول الرواة
إنه كان بيته مغنيتان تغنيانه في أشعارهما بتغوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله
إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل مَعْبُد وجميلة يغنون فيه ، ويلم
بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبر غزِلٍ في عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلُف
أضخم ديوان لا في عصره فحسب ، بل في جميع العصور العربية .

وهو في غزله يُخضع ملكانه للفن الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان
الخفيفة والحزوة ، حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من الحان وإيقاعات
كما يستخدم لغة سهلة : فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تنسج لهم في روعة النغم .
ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظهرنا على حقيقته في غزله
وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحول إلى مواسم الحج ،
يعلن حبه لإعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِدُ النَّاسَ لِلطَّوْفِ احْتِسَاباً وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةٌ فِي الطَّوْفِ
وتذهب مواسم الحج ، فيتصدى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الأثريا
بنت على الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل
سُكَيْنَةَ بنت الحسين وزَيْنَبِ الحُمَيْمِيَّةِ . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل
في فتيات قریش النبيلات ، ومن ثم وصف ترفهون وما كن فيه من نعيم ، وديوانه
من خبر الدواوين التي تصور ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر مر بن أبي ربيعة حياته وشعره

أخباره في الأغاني مع مكي مكة ومع الأثريا .

(٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

(٣) ٣٠٩/١ ، ٣٢٢/٣ ، ٣٢٦/٤ ، ٣٠٩/٨ ، ٣٠٩/٨

لجور طبع بيروت .

(٤) الكامل ص ٢٧١ ، ٥٧٠ ، وراجع

وحُلِّي وطيب : على نحو ما نرى في قوله :

قالتُ ثُرِيًّا لأتُرابٍ لها قُطْفُ قُمْرٍ نَحْيِي أبا الخطَّابِ من كَثْبِ^(١)
فَطِرْنٍ طَيِّرًا لما قالتُ وشايِعها مثلُ التَّائِيلِ قد مُوَهَّنَ بالذهبِ
يَرْفُلْنَ في مَطَرَفَاتِ السُّوسِ آوَنَةً وفي العتيق من الدِّيباجِ والقَصَبِ^(٢)
تَرى عليهن حَلَى الدُّرِّ مَتَسِقًا مع الزُّبرجدِ والياقوتِ كالشَّهَبِ
ونراه أحيانًا يُلْهَجُ بَصَابِنَتِهِ وَجْهَهُ وما يَذوقُ من وَجْدِ وألمٍ ، متلطفًا لصاحبته ،
ملحنًا على أن تواصله بودها ، مستعطفًا ، متضرعًا ، بمثل قوله :

ما كنتُ أشعرُ إلا مذ عرفتُكمُ أن المصاحج تَمْسِي تُنْبِتُ الإِبْرَا
قد لمتُ قلبي وأعياني بِـواحدةٍ فقال لي : لَأَتْلُفَنِي وَادْفَعِ القَدْرَا
ولكن هذا يَأْتِي نادرًا في غزلِهِ ، إذ قلما يشكو من هَجَرٍ أو يَتَأَلَّمُ لَصَدٍّ ،
فقد تحول بشعره بملؤه تَبَاهً بِنَفْسِهِ . ويقال إنه كان جَمِيلًا ، وكأَنما انعَكَست
فيه صورةُ الحبِّ ، فهو لا يشكو الغرام والعشق : بل محبوبته هي التي تشكو من
ذلك ، فهي التي تحيطه بشباك التضرع والاستعطاف ، وهي التي ما نَبَى
مِسْهَدُهُ تَعَمُّدًا في حبه وتتمنى لو نراه . واسمعه يقول على لسان إحدى صواحيبه :
تقول إذ أَبْقَنْتُ أُنَى مَفَارِقُهَا بِالْبَنَى مِتُّ قَبْلَ الْيَوْمِ يا صَرا
ويقول على لسان ثانية :

ما وافقَ النَّفْسَ من شَيْءٍ تُسَرُّ بِهِ وَأَعْجَبَ الْعَيْنَ إِلَّا فَسَوْهَ عُمُرُ
ويقول عن ثالثة :

قد حلفتُ ليلة الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً وما على المرءِ إِلَّا الحَلْفُ مُجْتَهِدًا^(٣)
لأُخْتِهَا ولأُخْرَى من مَنَاصِفِهَا لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا^(٤)
لو جُمِعَ النَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ شَخْصًا من النَّاسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدًا

(١) قُطْفُ : جمع قُطُوفٍ وهو بطنية الخطوط . (٣) الصُّوران : موضع قرب المدينة .

كثب : قريب . (٤) مناصف : جمع نصف كبير ، وهو

الحادة . (٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد

بالمغرب . القصب : الحرير .

ويعصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكبرى أتعرفنَ الفنى قالت الوُسطى نعم هذا عُمَرُ
قالت الصُغرى وقد تَبِمْتَهَا قد عرفناه وهل يَحِقُّ القمر
ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ يعصور ككفها به وتصديها
له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو في أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ،
وهى تسمى إلى الوصول منتبهة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :
قالت لِتَرْبٍ لها تحدثنا لِنُفْسَدَنَّ الطَّوافِ فى عَمَرٍ
قوى تصدئى له ليعرفنا ثم اغيـزيه يا أخت فى خَفَرٍ
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسمى على أثرى^(١)
وعلى هذا النحو نراه فى غزله ، يوقد قلوب الفتيات حباً ، وهن يتمنين عطفه
وحبانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة فى الغزل العربى ، إذ لا يزال الشاعر
يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والهيام
مسترحماً مستعطفاً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا فى تصوير حبه
هو وإنما فى تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقد به قلوبهن من العشق والعصابة .
فعمر فى غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل فى جمهور هذا الغزل ،
ويستتمُّ خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء حبهن له فحسب ، بل
أيضاً بما يصفن من خطوط هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يذقن
مرارة الغيرة ويصطابين بناهما اغرقه ، وهن يتألمن من الوشاة ومن فقدهن
لعطفه وأهن لا يجدن عنده إلا الإعراض والصدوف ، يقول على لسان إحداهن :
أمن أجلى وإشـر كاشحٍ بِنَيِّمَةٍ مَشَى بيننا صدقته لم تكذب
وأناح له ذلك أن يعصور عواطف المرأة ونفسيها وما يتعمقها من دقائق
الحب وما يثير فى قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لامتراض
عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول
أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

(١) اسبطرت : أسرعت

قالت على رِقَبَةٍ يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلب قد سُفِلَا^(١)
 فجوابتها حصانٌ غير فاحشةٍ بِرَجْعٍ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطِلا
 اقنئني حياءك في سِتْرِ وفي كرمٍ فليستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلا^(٢)
 لا تظهرى حُبّه حتى أراجعه إني سأكفيكه إن لم أمت عَجلا
 وترضى خطئها وتوصيها أن تكذّب عنده الرِشاة ، وتتوصل إليها أن لا تسرف
 في لومه وعذله :

فإن عهدي به والله يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العذلا
 وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته في ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهم ،
 على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كُتِبُ إِلَيْكَ مِنْ بِلَدِي كِتَابٌ مَوْلِيهِ كَمِيدٍ
 كَثِيرٍ وَكَافٍ الْعَيْنِ يَنْ بِالْحَصْرَاتِ مَنْفَرْدٍ^(٣)
 يُوَرِّقُهُ لَهَبُ الدُّمْرِ قِي بَيْنَ السُّحْرِ وَالْكَبَدِ^(٤)
 فَيَمْسُكُ قَلْبَهُ بِيَدٍ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِبَدٍ

وتردُّ عليه الثريا شعراً^(٥) ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من
 تبادل الرسائل بينه وبين صواحه : وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يَطَّيْعُ غزله هذا الحوار القصصي الذي رأيناه على لسان محبوباته
 يصفن فيه بلحارتهن وأخواتهن وجواريهن حبين له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً
 إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحه على نحو ما
 نعرف في قصيدته :

أمن آل نَفْمٍ أَنْتِ غَايَ فَمُبَكِّرُ غَدَاةٍ غَدَاةٍ أَمِ رَائِحُ فَمُهَجَّرُ^(٦)

-
- (١) رِقَبَة : انتظار .
 (٢) اقنئني حياءك : احتفظي به .
 (٣) واكف العينين : سائل الدموع .
 (٤) السحر : الرقعة .
 (٥) أغاف (دار الكتب) ١/ ٢٣٥ وما بعدها .
 (٦) غدا : من الندوة وهي الهكرة أو أول النهار ، رائح : من الرواح وهو المشي أو من الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهجرة وهي نصف النهار . وانظر في هذه القصيدة وشرحها المبرد ص ٢٨١ ، ٥٧٠ .

ويعمى فيصور قضاء الليل في الحديث معها حتى تبشير الصباح ، وكأنه في ذلك يحاكي امرأة القيس في معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثم كنا ننفي القصص التي تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظناً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها^(١) ، وإذا صح ذلك يكون قد توفي حوالي سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص^(٢)

أوسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجده عاصم حمي الدبر أي النحل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني لحيان في نقر ، فحاربهم في يوم يسمى يوم الرجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحتمه الدبر منهم نهراً حتى إذا جسن الليل أمطرت السماء فاحتلمه السبل ، فسمي حمي الدبر . وخال أبيه حنظلة بن أبي عامر الذي قتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَلَتْ خَالِي الْمَلَائِكَةُ الْأَبْسَرَارُ مَيْتًا طَوْبَى لَهُ مِنْ صَرِيعٍ

وَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَمَتْ لَحْمَهُ الدُّبُرُ قَتِيلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ

وإنما لقب الأحوص لحوص كان في عينيه ، وهو ضيق في مؤخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبي ربيعة عاش للحب

سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ١/٤٩٩
والموشح ص ١٨٧ والاشتقاق ص ٤٣٧ والخزائن
١/٢٣١ وحديث الأربعماء ١/٣٢٩ وكتابتنا
الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
ص ١١٤ .

(١) الأغاني (دار الكتب) ١/٧١
(٢) انظر في ترجمة الأحوص وأخباره
الأغاني (طبع دار الكتب) ١/٢٩٤ ،
٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٢٢٤/٤ وما بعدها ،
٢٥٤/٦ وما بعدها و٦٤/٩ وما بعدها وابن

والغزل، غير أنه فيها يظهر لم يكن ثرياً، ومن ثم كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بني أمية وينال عطاياهم الجزيلة، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتخذاً
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ مَلَأَ الأرضَ معروفاً وجوداً وسُوداً
وله مدائح مختلفة في الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه
وزيد بن عبد الملك . وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد، ولعله من
أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه، فيهجوم هجاء قبيحاً . وهو
في غزله شديد الصبابة، يستأثر الحب بقلبه وبملك عليه كل شيء، حتى
ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى فكُن حَجَرًا من يابس الصخر جَلَمَدًا
فالحب الحياة ومن لم يعشق عُدَّ من الأموات، بل من الجماد، بل من
الحجارة أو أشد قسوة . وهو يعلن حبه إعلاناً، يعلن صبوته وثورة نفسه . وكان
فاسد الخلق، فانصرفت الفتيات والنساء عنه، إذ رأيته يذهب بعيداً في
التصريح، على شاكلة قوله :

تعرَّضُ سلامك لما حرم تَضَلُّ ضلالك من مُحَرَّمٍ^(١)
تريد به البرَّ يا ليتَه كفافاً من البرِّ والمأثمِ^(٢)
وأشاعره في أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً،
وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن، حتى ليرَوَى أنه أصلاه يوماً سياطاً حامية،
وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُ
وما كنتُ زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

فخرجت غير بار ولا آثم .

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت .

(٢) يقول : ليتني تعادل إني وبري ،

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فَأُبْهَتْ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
لِلَّهِ اللَّهُ إِنِّي وَاصِلٌ مَا وَصَلْتَنِي وَمُثْنٍ بِمَا أَوْلَيْتَنِي وَمُثِيبُ
أَبْشُكَ مَا أَلْتَنِي وَفِي النَّفْسِ حَاجَةٌ لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيبُ
ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهي تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . وفراء مشغولاً
بجميلة المغنية وزادها المشهور في المدينة ومن كن فيه من الإمام مثل الذئفاء
وعقيلة وسلامة القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله
في الذئفاء :

إِنَّمَا الذَّئْفَاءُ هُمِّي فليدعني من يلومُ
حُبِّ الذَّئْفَاءِ عِنْدِي مَنْطِقٌ مِنْهَا رَخِيمُ
حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ مُسَكِّنٌ لَا يَسْرِيمُ^(١)

وكانت سلامة القس أكثر من عطفاً عليه وبيراً به ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ،
يصور كلفه بها أشد الكلف ونها لكة عليها أشد الهالك على شاكلة قوله :

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْهَا لَسْتُ ذَاكِرُهَا إِلَّا تَرَقُّقُ مَاءِ الْعَيْنِ أَوْ دَمْعَا^(٢)
لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعاً عَنْ مَحَبَّتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا
وَزَادَنِي كَلْفاً فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعْتُ وَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنَعَا
وهو في هذا الغزل بالإمام والحواري يختلف عن ابن أبي ربيعة الذي كان
لا يتغزل كما مر بنا إلا بالحرائر النبيلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف
عنه أيضاً في بعده في التصريح ، إذ كان لا يتخرج أحياناً من إباحة ، ومن
ثم شكاه أهل المدينة لأبي بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على
البُلس للناس . ولما ولي عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال
خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سلامة — وقد صارت إليه —
عنده فعفا عنه . ولما رُدَّتْ إليه حريته زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على
ابن المهلب طويلاً . ويقال إنه توفي حوالي سنة ١١٠ للهجرة .

(٢) دين فنا : دا .

(١) لا يريم : لا يبرح .

المرجبي^(١)

لُقِّبَ هذا اللقب لفصحة له قرب الطائف تسمى العَرَجَ كان يتزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهر بالزلزل ونحاه فيه نحو عمر بن أبي ربيعة ونشبه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته في أهله ، وكان مشغولاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسة ، حتى عُذَّ في الفرسان ، ومن ثمَّ اجتذبت حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أنرس الناس وأرامهم وأبراهم لستهم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالت رَضِيتُ ولكن جئتَ في قمرٍ مَلَأَ تَلَبُّثَ حَتَّى تَدْخُلَ الظُّلُمُ
وقوله :

بانا بأنهم ليلةٍ حتى بدا صُبْحُ نَلُوحِ كالأغرِّ الأشقرِ
فتلازما عند الفراق صَبَابَةً أَخَذَ الغريمُ بفضلِ ثوبِ المُعْصِرِ^(٢)
وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرى بها حتى الحواجج الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سمرت عن وجه جميل :

أماطت كساء الخَزَّ عن حُرِّ وجهها وأدنت على الخدين بُرْدًا مُهْلَهلاً
من اللاه لم يَحْجُبْنَ بِيغِينِ حِمْبَةً ولكن ليقتلن البريء المغفلاً
ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تنقسم أن لا تدخله منزلاً لكثرة عبثه وسفهه ، ويتشفع له الأحرص عندهما ، فتستقبله وتغنيه في قوله :

والشعر ٥٥٦/٢ . والاشتقاق ص ٧٨ وسدس
الأرباب ٣١٦/١ . قد طبع ديوانه في العراق .
(٢) تلازما : تعالفا . الغريم هنا : الدائن .

(١) انظر في ترجمة المرجبي وأخباره
الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٨٣/١ وما
يلحقها ، ١٨٤/٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ . والشعر

ألا قاتل الله الهوى كيف أخلقا فلم تُلغه إلا مَشوياً مَذقاً^(١)
وما مِنْ حبيبٍ يستزير حبيبه يعاتبه في الودِّ إلا تفرقاً
لقد سَنَّ هذا الحبُّ من كان قبلنا وقاد الصِّبا المرء الكريمَ فأعَنَّقاً^(٢)
وكان يَمْضِي في التَغْيى بهذا الغزل لا يَنْجِل ولا يَسْتَحْي من الجموح فيه ،
إِذْ كان جريئاً ، بل كان عَنيفاً ، وهو عَنف نراه في تتبعه للنساء المتزوجات
يَتَغَزَل بهن ، كما نراه في ظلمه لمولٍ لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً
فلإننا نرى هذا العنف في هجائه لمحمد بن هشام المخزومي ، إِذ أخذ يَتَغَزَل بزوجته
جَبْرَةَ المخزومية وأمه جَبْدَاء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجى على فسلمى جَبْرُ فِيمَ الصُّدُودُ وَأَنْتُمْ مَفْرُ
وقوله :

عوجى علينا ربَّةُ الهَسُودِجِ إنك إن لا تفعلنى تحرجى
أَبْسَرُ ما نال محبٌ لدى بَيْنِ حبيبٍ قوله عَرَّجِ
نَقْضُ إِلَيْكُمْ حَاجَةً أَوْ نَقْلُ هَلْ لِي مِمَّا بِي مِنْ مَخْرَجِ
فلما ولي محمد إمارة مكة هشام بن عبد الملك أقامه على البُلُس وجبه ،
وظل في سجنه تسع سنوات إلى أن مات ، وله أشعار كثيرة يَأْسِي فيها على ما صار
إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بَيْتُهُ المشهور :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فِتْنَى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيمَةٍ وَسَيِّدَادِ ثَغْرِ^(٣)
وما يستجاد له قوله :

ارْجِعْ إِلَى خُلُقِكَ الْمَعْرُوفِ دَبْنَهُ إِنْ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ
ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصر^٤ للعرجي من محمد بن هشام المخزومي حين
صارت الخلافة إليه ، إِذْ لم يَرْعَ حرمة قرشيته ونسبه في بني أُمِيَّة .

ميدانه .

(١) أخلق : بل . ملقا : مشوياً ومخلوطاً .

(٢) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد

(٢) أمتق : ساريراً منبسطاً ، يريد أن

الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

الصبا إِذَا قاد المرء الكريم انقاد له وجرى في

شعراء الغزل العذري

الغزل العذري غزل نقي طاهر ممن في النقاء والطهارة. ، وقد نُسب إلى بني عُدْرة إحدى قبائل قضاعة التي كانت تنزل في وادي القُرَى شمالي الحجاز ، لأن شعراءها أكثرها من التغنى به وتنظيمه ، ويُرْوَى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العذري صاحب عَفْرَاء : أصحح ما يُروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عُدْرة وحدها ، فقد شاع في بوادي نجد والحجاز ، وخاصة بين بني عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة نحتاج إلى تفسير ، ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس ، وبرأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يُطَوَّى فيها من لُهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرَّ بنا عند الأحوص والعرحي ، وهي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتدينها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللونين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامي الذي يَصِلُ إلى الحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه عنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفي كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوحة هؤلاء المهبين وظلمهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمناً لا يقف عند حد ، ظمناً نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا يني يتغنى بمعشوقته ، متدللاً متضرعاً متوسلاً ، فهي ملائكته السماوي ، وكأنها فعلاً وراء السحب ، وهو لا يزال يتاجها مناجاة شجية ، يصور فيها وجَّده الذي ليس بعده وجَّد وعذابه الذي لا يشبهه

عذاب . وتمضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها في يقظته ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلاً أو بصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه : لا يؤثر فيه الزمن ولا يرق إليه السلوان ، حتى ليظل يُخَشَى عليه : بل حتى ليُجَنِّ أحياناً جنوناً .

وتقرن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقرن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسذاجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، خَبَلُوا لسامعهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتزولون بهن ، لما يجلبن لمن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعَرَف في جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قَتَلَ السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعفين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرَّم القرآن الكريم والحديث النبوي قَتْلَ النفس بغير حق . ولا شك في أن هذا كله قصص لفق الرواة كي يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طوى فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التي احتلت في الجزء الثاني من كتاب الأغاني تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القيربة وإنما وصفهما الرواة » . ويقول ابن الكلبي : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه قتي من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التي يروونها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العشاق من هؤلاء العذريين حقيقياً . غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذريح : يقول أبو الفرج في ترجمته لمجنون بنى عامر نقلاً عن الجاحظ : « ما ترك أناس شعراً مجهولاً ، انفال في ليلى إلا

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها . ثم رأى أن يغزو في طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكرها لا تفارقه حتى قتل في غزوة واسمها على شفتيه . ومن قوله في عينية له بديعة :

وأذكر أليَّامَ الحميِّ ثم أنشئ على كَبِدِي من خشيةٍ أن تصدعا
ومهم كثير عزة ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له في شعراء الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن ابن أبي عمَّار الجُشَّسِي وعروة بن أذينة وشبيب الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان عبد^(١) الرحمن من نسائك مكة . ولقب بالقسّ لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً إلى سلامة . فشغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة القسّ ، وفيها يقول :

سلامٌ هل لي منكم ناصرُ أم هل لقلبي عنكم زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ
وكان عروة^(٢) من فقهاء المدينة ومحدثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقع شعره ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى في غزله ، فهو ألحان وأنغام على شاكلة قوله :

إن التي زعمتُ فؤادك ملها جُعلتُ هواك كما جُعلتُ هوى لها
فيك الذي زعمتُ بها وكلاكما يُبدى لصاحبه الصبابة كلها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها بلباقةٍ فأدقها وأجلها
منعتُ تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
أما ابن^(٣) عتبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدّمين في المدينة الذين حمل عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريباً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر في سبب سلامة الأغاني (طبع دار

الكتب) ٣٣٤/٨ وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمته الأغاني (طبعة سامي)

١٠٥/٢١ والشعر والشعراء ٥٦٠/٢ والمؤرخ

ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

الكتب) ١٢٩/٩ وما بعدها وصفة الصفوة

٥١/٢ وتهذيب التهذيب ونكت المبيان ١٩٧ .

غزل كثير في زوجته عَشْمَة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمري لئن شطَّتْ بِعَشْمَةَ دَارُهَا لَقَدْ كَدْتُ مِنْ وَشْكِ الْفِرَاقِ الْيَحْ^(١)
أَرْوَحُ بِهِمْ ثُمَّ أَغْدُو بِمَثَلِهِ وَيُحَسِّبُ أَلَى فِي الثَّيَابِ صَحِيح
ومن طريف ما يلقانا في هذا الحب العذري بكاء المعشوقات لمن حُرِّموا
منهن . وماتوا على حبين ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلي^(٢) الأَخْبِيلِيَّة
الخفاجية العامرية : وكان قد تعلق بها من قومها ففى شاعر شجاع يسمى تَوْبَة
ابن الحُمَيْر : وشُغِفَ بها شُغْفًا ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ،
حتى يقول :

ولو أَنَّ لَيْلَى الْأَخْبِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَى وَدُونِ تَرْبَةٍ وَصَفَانِ
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَاشَاةِ أَوْزَقًا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَانِعِ^(٣)
وظل يلهج باسمها إلى أن قُتِلَ في بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته
ليل بقصائد كثيرة تصوّر ما أوقده في فؤادها من جلوة الحب ، من مثل
قولها :

أَبَا عَيْنُ بَكَّى تَوْبَةَ بْنَ حُمَيْرٍ بِسَمْحٍ كَفَيْضٍ ، جَدُولٍ الْمُتَفَجِّرِ
لَتَبْكُ عَلَيْهِ مِنْ خَفَاجَةٍ نِسْوَةٍ بِمَسَاوِ شُؤْنِ الْقَبْرِ الْمُتَحَدِّرِ
وقولها :

وَأَلَيْتُ لَا أَنْفَكَ أَبْيَكِكَ مَا دَعْتُ عَلَى فَتَنِي وَرَقَاءٍ أَوْ طَارِ طَائِرٍ
وَكُلَّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى بَلِيٍّ وَكُلَّ امْرِئٍ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرٍ

٢٠٤/١١ وما بعدها والشعر والشعراء ١١٦/١

والأمال لقال ٨٦/١ وما بعدها .

(٣) زقا : ضاح .

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر في ليل الأخبيلة وأخبارها مع

قوبة ترجمتها في الأغاني (طبع دار الكتب)

ويقال إنها ماتت في إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جنبه . ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذريح عاشق لبُنى وجميل عاشق لبُينة .

قيس^(١) بن ذريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن في ضواحي المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن علي ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هي كل حياته . وهي قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُروى أنه مر في رحلته بديار بُنتى الخزاعية ، فرآها ، ووقعت في قلبه ووقع في قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال مومراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبى . وحاول أن يحدد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يحدد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن علي ، فتوسط له عند أبيه وأبى لبُنتى . وأعظما هذه الوساطة . وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرزقا الولد ، وداخلت أم قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلحِجان عليه بعد شفائه من علته أن يفارقها وصدع لمشيتهما . وتولاه جزع شديد . حتى قبل أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَمَقَ غُرَابٌ قبل رحيلها . فتشام تشاؤماً شديداً ، ونظم في نعيه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ ببُنتى لبُنى فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال : غداً تباعدُ دارُ لبُنتى وتناى بعد وُدِّ واقترابِ
فقلت : تعستَ ويحك من غُرَاب وكان الدهرُ صعبك في تَبَابِ

ورحلت لبُنتى ، فاضطربت جذوة الحب في نفس قيس اضطراباً ، ووجد لبُنتى وحداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

١٠/٢ وأمال القائل ٣١٨/٢ وراجع الموضح
ص ٢٠٦ وبعثت الأربعة ٢٠٦/١ .

(١) انظر في قصة قيس الأمان (طبع دار
الكتب) ١٨٠/٩ وما بعدها والفهر والشعراء .

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول في غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلِّى بلُبنى بلاء ما أَسبِغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبنى عَييتُ فما أطيق له جوابا

وقوله :

ولإني لأهوى النومَ في غير حِينه لعل لقاء في المنام يكونُ
تخلُّقنى الأحلامُ أنى أراكمُ فباليت أحلام المنام يقين
وكانت لبنى تسمع بوجده وشعره ، فلا ينهاها عيش : وتبكي مصبرها
ومصبره . ويُرَوَّى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس
في غراب البين ، وأخذت تتف ريشها وهى تصيح بأشعار مختلفة من مثل
قولها :

ألا يا غُرابَ البين لولئك شاحبُ وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصرٍ كما ليس لى من ظالمى نصير
ولما أضنى الحب قيساً رقى له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار
لبنى لعله يحظى برؤيتها ، فضى معهم وهو ينشد :

لقد عذبتنى يا حبُّ ليل فقَسَّ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ تدوم على التبعاد والشَّتاتِ

ووقعت عينه عليها . فخر مغشياً عليه . وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق
من غشيه . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها . فحجج وراها هناك ، فعادوه
فثونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت
تحفظ له العهد ، وعاد من الحج بتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلق روجى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً فى المهدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا مِنّا بمنصرم العهدِ
ولكنه باقى على كلِّ حادث وزائرنا فى ظلمة القبر واللحدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبه .
 وتمضى القصة فتزعم أنه رأى في بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها
 غايل صاحبته ، فتزوجها ، ولكن حينه إلى صاحبته الأولى عاوده . وكأنما لم
 يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباه شكاه
 إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ،
 ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنسى له ؟ لقد أمضه الغرام ،
 ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على الثراب ،
 وبكى أحراً بكاء منشداً :

وإن تك لبني قد أتى دون قربها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
 فلأن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ونُبصر قرْن الشمس حين نزول
 وأرواحنا بالليل في المحيِّ تلتقي ونعلم أنا بالنهار نَقيل^(١)
 وتجمعنا الأرضُ القَرارُ وفوقنا سماءُ نرى فيها النجومَ تجول
 واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته
 تمنع في القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاق من الهوى ومن حُرِّقٍ تعادني وزفيرِ
 ومن ألمٍ للحب في باطن الحشا وليلي طسويل الحزن غير قصيرِ
 وقوله :

وبين الحشا والتَّخَر منى حراةً ولوعةٌ وجَدٍ تترك القلبَ ساهيا
 تمرُّ الليالي والشهور ولا أرى ولوعى بها يزداد إلا غماديا
 وقوله :

ألا ليت أياماً مَضَيْن نعوذُ فإن عُدُن يوماً إننى لسعيدُ

(١) نقيل : من القيلولة وهي نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبه . حتى رأى رضيعه الحسين بن علي ونفر من قريش تعمقهم التأثير له أن يكلموا زوج لبي في شأنه لعله يردّها عليه . وصدع لمشيئهم راضياً ، فعادت لبي إلى قرة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلاً إلى أن لحق بها . فدفن إلى جنبها .

جميل^(١) بن مَعْمَر

لحن حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين . فقد نشأ في منازل عذرة بوادي القرى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقي ابن أبي ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببني أمية كثيراً ، ففي أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثير عزة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين . وفي أخباره أنه تلقى الشعر عن هذبة بن الحشرم تلميذ الخطيئة ، ونعرف أن الخطيئة تلميذ زهير . وكأنه يمت بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التي كانت تُعنى بصقل الشعر ونجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتأجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الحزبن الكناني .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره : كما عُنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهى أشعار يمضي جمهورها في التغنى ببشنة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته . تحاباً صغيرين ، ولم تلبث أن ألحمت الشعر . إذ أحبا حباً انتهى به إلى الهيام بها ، وعرفت ذلك فنحته حباً وعطفها ، وأخذت تلتقي به حين شباً في غفلات من قومهما . وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء . فضيقوا عليها الخناق . على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقي براء ،

وحدث الأربما ٢٤٩/١ : ٢٨٧ . . وطبع ديوانه بشير يموت في بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر في بعض قصائده الأمازي ٣٠٣ : ٨٧/٢ .

(١) انظر في جميل وأخباره وأشعاره الأغاني (طبع دار الكتب) ٩٠/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ ، والشعر والشعراء ٤٠٠/١ وما بعدها والخزانة ١٩٠/١ والموضح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٩٥

وأخذت الألسنة في الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحايين : فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإني لأرضى من بُشِنَةٍ بالذى لو أبصره الواشى لقرت بِلَابِلِهِ^(١)
بلا وبأن لا أستطيع وبالشئ وبالأمل المرجو قد خاب أمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أو أخسرهُ لا نلتقى وأوائله
وكانت تلمس فرصة من أهلها أحياناً فلتقاه ، فتشرق الدنيا في عينه ،
ويسعد سعادة لاحداها . وخطبها من أبيها فردّه ، لكرامة العرب أن يزوجوا
فتياتهم ممن يتزولون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى في
القبيلة يسمى بُشِنَةً ، فسودَّ الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة . ويصبح
حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ،
يقول :

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
خيلى فيما عشنا هل رأيتا قتيلا بكى من حب قاتله قبل
فلا تقتلنى يا بُشَيْنُ فلم أصب من الأمر ما فيه يحل لكم قتلى
ويقول :

لها في سواد القلب بالحب مَبِعةٌ هى الموت أو كادت على الموت تُشرفُ^(٢)
وما ذكرتك النفس يا بُشَيْنَ مرةً من الدهر إلا كادت النفس تتلفُ
ولما اعترننى زفرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سَجَلٌ من الدمع يندرفُ^(٣)
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلّةٍ أَسْرُ به إلا حديثك أطرفُ
ويعضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتنبله في بعض الأحيان
أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

(١) البلابل : اللباس . قرت : سكنت . (٢) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

(٣) يقصد بالحبية حرارة الحب وقوته .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملا من الجهد في عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصوبته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكرها لا تبرح مخيلته : بل تعيش في قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يسودها عبادته على شاكلة قوله :

ألا ليت شعري هل أبينُ لِيَاءَ بوادى القرى إني إذن لسعيدُ
وهل ألقينُ فرداً بشينةً مرةً تجود لنا من ودّها ونجسود
علقتُ الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينمى حبّها ويزيد
وأقنيتُ عمرى في انتظار نوالها وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد
إذا قلتُ ما بي يابشينةً قاتلي من الحبّ قالتْ ثابتٌ ويزيد
وإن قلتُ رُدّي بعضَ عفى أعش به مع الناس قالتْ ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ولا حبّها فيما يبیدُ يبیدُ
يموتُ الهوى مني إذا ما لقينتها ويحبّها إذا فارقتها فيعود

وشعرٌ جميل كله في بشينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللمحة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بشينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به .

٣

شراء الزهد

تردّد في القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، وهي دعوة تحل في تضاعيفها الحثّ على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للأخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقيم أودّه ، ويعدّد للكفاح في سبيل الله ، ومن ثمّ كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جل وعز : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُروى أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله دُلّنى على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ، فقال : « ازهدْ في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس »^(١) . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحبون حياة زاهدة متشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة^(٢) المسجد منزلاً لهم . وعاشوا على صدقات الرسول والمُترين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آتى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثير من أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفي ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس^(٣) .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الفنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضياع وشيدوا القصور ، وهم في ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم في كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت في كل بلد أقاموا فيه جماعات القراء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش في مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النُسَّاك والقراء لإقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر في ذلك ، وكان قوماً انصرفوا عن الفتن ، خشية على أنفسهم من التورط في الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثير من ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركهم وديارهم ، ومضوا يتعبّدون . وكان الخوارج في

(١) انظر في هذا الحديث رقم ٤١ في الأربعين

(٢) انظر في ذلك كتابنا التطور والتجديد في

الشعر الأموى ص ٦٠ وما بعدها .

التوبة والبيان والتبيين ١٦٦/٢ .

(٣) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

جعلتهم جماعة كبيرة من الأنقياء . ضلَّتْ في اجتہادها وما زعمته من كفر
الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تفضل يوماً في تقواها .

لذلك كله عَمَّتْ في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في الدنيا ونعيمها
المادى زهداً كثيراً ما تطرَّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل في ثنايا هذا الزهد
تأثيرات مسيحية وغير مسيحية : بحكم ما دخل في الإسلام من الموالى
والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه
وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتغال إلى الله وانتظار ما عنده من النعم الحق .
وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ . تعيش حياتها تعظ الناس
وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم ، وهى لذلك مانتى تحدثهم
- مستلهمة القرآن الكريم - عن قدرة الله في خلقه السموات والأرض ، وعن
الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ
وهو في وعظه دائماً يذكر الموت : ويذكر النار حتى لكانه يشاهدها بين عينيه ،
ويحضض حاضاً قوياً على الزهد في الدنيا وحطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ
لا يزالون يستشهدون في وعظهم بأشعار لسييد والناطقة الجعدي وغيرهما تلك التى
تدعو إلى خشية الله وتقواه : بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة
تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلقى فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون
إلى مجالسهم : وقد مرَّ بنا في غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته
الروحية في الشعراء . كما مرَّ بنا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار
زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم
العجلى والعجاج يبدون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول
الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية
وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة ينادى ربه قبل موته ^(١) :

يَارَبِّ قَدْ أَشْرَفْتُ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ علماً يقيناً لقد أحصيت آثارى
بِامْخِرِ الروحَ مِنْ جَسْمِي إِذَا احْتَضَرْتُ وفارج الكرب زحزحني عن النار

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبرى دج)

ونريد الآن أن نقف عند نقر منهم تمثلوا في أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام .
وأول من نقف عنده عروة بن أذينة فقيه المدينة الذي رُوِيَ له - كما أسلفنا - مقطوعات في الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد في هذا العصر : وهو مبدأ التوكل على الله والثقة في أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبلغ من مبالغة بعضهم في هذا المبدأ أن رأوا في السعي والكد نقصاً في التوكل والثقة بربهم . ولا شك في أن هذا المبدأ يفضي إلى طمأنينة نفسية قوية ، كما يفضي إلى طرح الدنيا طرحاً تاماً ، وفي تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتي
أستغنى له فيمضي تَعْلُبُهُ ولو قعدتُ أنا في لا يُعْنِي
خيبي كريمٌ ونفسي لا تحذني إن الإله بلا رزقٍ يخليني
ومن اشتهروا بكثرة أشعارهم في الزهد عبد الله بن عبد الأعلى : ويظهر أنه كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام . إذ نرى من كتبوا عنه يهتمونه في دينه ، ويقولون إنه كان سبيء العقيدة^(١) . وهو في أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيْعَ هَذِي الْأَرْضِ مَا تَصْنَعُ أَكَلٌ حَتَّى فَوْقَهَا نَضْرَعُ
تَزْرِعُهُمْ حَتَّى إِذَا مَا أَتَوْا عَادَتْ لَهُمْ تَحْصَدُ مَا تَزْرَعُ
وقوله :

مَنْ كَانَ حِينَ تُصِيبُ الشَّمْسُ جَبْهَتَهُ أَوْ الْغُبَارُ يَخَافُ الشَّيْنَ وَالشَّعْثَا
وَيَا لَفُ الظِّلِّ كَيْ تَبْقَى بِشَفْئِهِ فسوف يسكن يوماً راعِماً جَدْنَا^(٢)
وفي تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضيء أصحابها بما جاء في الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من ليجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٢/٣٠٥ والمجرد ص ٢٩٤ (٢) الحدث : القبر .

وما بعدها وانظر أمالي القال ٢/٣٢٣ .

الدعوة مسكين^(١) الدارمي القائل :

وُسِّيتُ مِسْكِينًا وَكَانَتْ لِحَاجَةً وَإِنِّي لِمُسْكِينٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ
ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ،
ناسباً قبر كل منهم إلى بلده وسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً
أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . وبما يتردد في كتب
الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قد رله ، وأن الله لا بد أن يكشف
غمته :

ما أنزل الله من أمرٍ فأكرمه إلا سيجعل لي من بعده فرجا
ومن مستحسن شعره قوله :

ولستُ إذا ما سرّني الدهر ضاحكاً ولا خاشعاً ما عشتُ من حادث الدهر
أعِفُّ لَدَى عُسْرِي وَأُبْدِي تَجَمُّلاً ولا خير فيمن لا يعفُّ لَدَى الْعُسْرِ
وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْسِراً صديق وإخواني بأن يعلموا فقري
ومن يفتقر يعلم مكان صديقه ومن يَغْنَى لا يَغْدُمُ بِلَاءُ مِنَ الدَّهْرِ
وهو القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بغير سلاح
وله أشعار طريفة في العبرة^(٢) وأن على الزوج أن لا يبالغ في إتمام زوجته ،
حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبية
القبيلة في فخره بخصاله ، وقد مرّ بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه
في ذلك من شعر . وهو في الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ،
إنما كان متأثراً متأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها في إشدته
بشيئها ، ونحن نتركه إلى أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (سأى) المرتضى ٤٧٢/١ وابن عساكر ٣٠٠/٥ .
(٢) أمالي المرتضى ١/٢٧٥ وما بعدها .
١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١٢٦/١١ .
٦٨/١٨ والشعر والشعراء ٢٩٩/١ ، والخزانة

أبو الأسود الدؤلي^(١)

اسمه ظالم بن عمرو من بني كنانة ، ولي قضاء البصرة في ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعل بن أبي طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه في حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعة لآل البيت . وهو أول من وضع النقط في المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدُّ من وجوه التابعين وفقهائهم وعُدَّتهم . وله مدائح وأهاج في معاصريه وأشعار في أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلاً شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقياً صالحاً ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً فاذعُ الإلهَ وأحسنِ الأعمالا
فليعطينكَ ما أراد بقُدرةٍ فهو اللطيفُ لما أراد فعلا
ودَعِ العبادَ ولا تكن بظلالهم لَهْجاً تضعُضُّ للعباد سؤالا^(٢)
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقبُ الأَحْوالا
وهو في زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعي في الدنيا والمشى في
مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألتِ ذلوك في الدلالة
تَجِنِّك بِملثها يوماً ويوماً تَجِنِّك بِحَمَاةٍ وقليلِ ماء^(٣)
ولا تقعد على كسلي تَمْنَى تُحِيل على المقادير والقضاء

عل أنباء النخاعة ١٣/١ وتاريخ دمشق لابن
حساكر ١٠٤/٧ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيل
ببغداد .

(٢) تضعض : تذلل وتنفض .

(٣) الحماة : الطين الأسود .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار
الكتب) ٢٩٧/١٢ والشعر والشعراء ٧٠٧/٢
وأخبار التنويرين البصريين ص ١٢ وطبقات
ابن سعد ج ٧ ص ١٧٠ وأشد الغاية ٦٩/٣
والإصابة ٣٠٤/٣ والخزانة ١٣٦/١ وروضات
البلدان ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجوزي
٣٤٥/١ ومعجم الأدباء ٣٤/١٢ وأنباء الرواة

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الربط بين العلم الديني والعمل ، فالعلم إن لم يُقَرَّن بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بمسوفٍ بميثاقٍ عليه ولا عهدٍ
وزراه ساخطاً مسخطاً شديداً على من يتلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر
الراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد بجمع المرء مالا ثم يُحرِّمهُ عما قليل فيلقى الذلَّ والحرباً^(١)
وحامسُ العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذرُ منه الفتورَ والسلبا
وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول
الأول هو الصحيح .

سابق^(٢) البربري

ليس بين أبدينا أخبار كثيرة من سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان
قاضى الرقة بالموصل وإمام مسجدها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز
يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التشف
والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، وزراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون
لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فتحى منى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنٌ
وتجمعُ ما لا تأكل الدهرَ دائباً كأنك في الدنيا لغيرك خازنٌ
ويقول :

أموالنا للوى الميراث نجمها ودورنا لخراب الدهر تبنيها
والنفس تكلفُ بالدنيا وقد علمتُ أن السلامة منها ترك ما فيها

٣٨/٦ والخزانة ١٦٤/٤ والبيان والبيان
٢٠٦/١ والمجرد ص ٢٥٣ .

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر في سابق تاريخ ابن صاكر

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغي لكل إنسان أن يعدَّ العُدَّةَ للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحاً ، ومن قوله في ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زابلَ روحه خَوَى وجمالُ البيتِ يانفسُ أهله
وقد كان فيه الروح حيناً يزيئه وما الغمدُ لولا نَصْلُهُ وجمائله
إذا الأرضُ خَفَّتْ بعد ثِقَلِ جبالها وخَلَّى سبيلَ البحرِيا نفسُ ساحله
فلا يرنجى عَوْناً على حَمَلِ وِزرِهِ مُبَيَّءٌ وأولى الناس بالوِزْرِ حامله

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا مَحْدَى عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك في أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا نستطيعان دفعه فلا تَجَزَعَا مما قضى الله واضبراً

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته :
« لو أن شعر سابق البربرى كان مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر .
ونى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع » .

٤

شعراء اللهو والمجون

وأينا في غير هذا الموضع كيف تحضر العرب في هذا العصر : وكيف أن كثيرين منهم أنشرفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تفرق الأئمة في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والمجون . وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد في العصر كان لها آثار عميقة في

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد في الدين ومثاليته الروحية متاعاً ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجة يتهاك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقرّفونها من مثل أبي مخجن الثقفي ، وقصة صلاة الوليد بن عتبة وإلى الكوفة لعمانّ بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبي مخجن في عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نغضى في عصر بني أمية . حتى تظهر آثار الفتوح وما حملت من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أنشأنا ، وتحضر العرب الذين خرجوا في الفتوح واستقروا في البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يتدفع في الاستمتاع بالحياة ، وبالعنف نقر في هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا في العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة في البيئات البعيدة التي رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصده بيثة خراسان . حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها - هوقتيبة بن مسلم - اضطرّ حين وجد نفثي الخمر في جنده أن يعاقب على احتسابها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر في كل البيئات ، وقد نجد لها في مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين هلّوا من كثرتها في هذه البيئة لعهد معاوية ابن أُرطاة^(١) . وعجبتا حاول مروان بن الحكم وإلى المدينة أن يردّها عنها ، وفيها يقول :

إِنَّا لَنَشْرِبُهَا حَتَّى تَمِيلَ بَنَا كَمَا تَمِيلُ وَسَنَانُ بَوَسْنَانِ
وَمِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ^(٢) الَّذِي كَانَ يَهَاجِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانٍ ،
وفيها يقول :

(١) راجع في ابن أُرطاة الأغاني (طبع دار

(٢) 'أدب' في ترجمته أغاني (دار الكتب)

٢٥٩/١٣ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان

الكتب) ٢/٢٤٢ وما بعدها .

والبيان ٣/٣٤٨ .

تري شاربِئِها حينَ يَعتورانِها يَميلانَ أحياناً ويعتدلان
ومن كانوا يَحْتَسِنونَها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميادة^(١) مَدَحَ الوليد
ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضري الدولتين ، وفيها يقول :

وَمَعْتَقِي حُرِّمِ الْوَقْدِ كَرَامَةً كَدَمِ الذَّبِيحِ تَمَجُّهُ أَوْ ذَا جُهُ^(٢)
ضَمَنَ الْكُرُومُ لَهُ أَوَائِلَ حَمَلِهِ وَعَلَى الدَّنَانِ تَمَامُهُ وَنِشَاجُهُ^(٣)
ومثله ابن هرمة^(٤) ، وكان مشغولاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أَسْأَلُ اللَّهَ سَكْرَةً قَبْلَ مَوْتِي وَصِيَا حَ الصَّبِيَّانِ يَا سَكْرَانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر في غير
حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حملتهم من الخطوب باعثاً لهم
على المجون ، حتى ينسوا به عناهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرة
لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة مُحَيِّمِ^(٥) بن وثيل الرباحي التميمي ،
وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرة لغالب
أبي الفرزدق التي مرت بنا ، والتي مضى فيها بنفسه في نحر إبله لقومه ،
ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حذراً راء تراجمه وتكثر من
مراجعته ، فقال :

نَقُولُ حَذْرَاءَ لَيْسَ فَيْكَ سِوَى ۖ خَمْرٌ مَعِيبٌ يَمِيعُهُ أَحَدٌ
فَقُلْتُ : أَخْطَأْتُ بِلَ مَعَاقِرِي ۖ خَمْرٌ وَبَدَلِي فِيهَا الَّذِي أَجِدُ

(٤) راجع في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزانة
٢٠٣/١ والموضح ص ٢٢٣ .

(٥) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩
والإصابة ١٦٤/٣ والخزانة ١٢٣/١ والشعر
والشعراء ٦٢٦/٢ .

(١) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزانة
٧٦/١ والبيان والبيان ٣٤٣/٢ .

(٢) المعتقد : الشراب القديم . حرم الوقود : لم
يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو مرق
في المنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمل .

هو الثناء الذي سمعت به لا سبَدٌ مُخلدى ولا لَبَدٌ^(١)
ويحلك لولا الخمر لم أخيل الـ — عيش ولا أن يَصُننى لَحَدٌ^(٢)
هى الحيا والحياة واللّهو لا أنتِ ولا ثروة ولا وَلَسَدٌ
ويقف السراق الذُّهلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلم أنه لن يكف
عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه^(٣) . ويلقانا في عهد زياد بن
أبيه حارثة^(٤) بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّأحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله
فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج في ترجمته يهاجر فيها بأنه لن يكف عنها ،
مهما أكثر لأموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ على الرَّاح من لو يذوقها لجنُّ بها حتى يغيب في القبر
علامَ نذمُ الرَّاح والرَّاحُ كاسمها تُريح الفتى من همِّ آخر الدهر
فلَمَنى فإنَّ اللوم فيها يزيدي غراماً بها إن الملامة قد تُغري
وكان يذهب مذهبه في الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفي
وواله على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج في ترجمته^(٥) . ولعل
عراقياً لم يشتهر بها كما اشتهر الأقيشر^(٦) الأسدي وكان كوفياً خليعاً ماجناً ،
وفيها يقول :

أفنى يلاذى وما جمعتُ من نَشَبٍ قُرُغُ القوافير أفواه الأباريق^(٧)
ويقول :

كَمَيْتٌ إِذَا فُضَّتْ فِي الكَأْسِ وَرْدَةٌ لها في عظام الشاربين دبيبٌ

(١) لا سب ولا لبَد : مثل أى لا قليل ولا كثير .

(٢) الحد : شق الميت في جانب القبر .

(٣) الشعر والشراء ٢/٦٧٠ .

(٤) انظر ترجمته في الأغاني (طبع الساسي)

١٣/٢١ وأمال المرتضى ١/٣٨٠ وما بعدها

وراجع فهرس الكامل للبرد والبيان والتبيين والطبرى .

(٥) انظر ترجمته في الأغاني (ساسي)

٨٠/١٦ والخزاعة ٢/٤٨٥ ومجم الشعر

ص ٢٢٠ والمشرح ص ٢٠٦/٢ .

(٦) انظر ترجمة الأقيشر أغاني (دار الكتب)

٢٥١/١١ والشعر والشراء ٢/٤١١ ومجم

الشراء ص ٢٧٣ والخزاعة ٢/٢٧٩ والمشرح

ص ١٢١ .

(٧) اتلاد : المال القديم . النشب : النغار

والضباع . القوافير : الكتوس وأواني الخمر التي

تشرب فيها .

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم في الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان في المحون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب . ويترقى البلاذري أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا في جيش الحجاج الذي وجهه إلى الديلم ، وكانوا يتنادمون ، فأت أحدهم ، فدفعه صاحبه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقها على القبر ، وبكى . ومات الثاني فدفعه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء^(١) . ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعارفها والنظم فيها هناك الشَّهْرَدَل^(٢) بن شَرِيك ، وكان قد خرج للغزو في تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فأتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يفرق فيها حزنه . ومنهم أبو جِلْدَةَ البشكري الذي سبق أن عرضنا له في شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدَمِّنُها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال^(٣) :

سَارَ سُرَى التَّقْوَى فِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكَضْتُ إِلَى أَمْرِ الْقَوَى الْمَشْهُرِ
ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المحون في خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرَدَ ويحيى بن زياد . وهم جميعاً ممن عاشوا في الدولتين الأموية والعباسية ، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسي منهم بالعصر الأموي ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتونا في قوة إلى نهالك الناس على المحون في الكوفة في أواخر العصر ، فهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هباً لهذا الانحلال الخلقي على الأقل عند بعض الأفراد في هذا العصر أن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذي أكبَّ على الخمر والمجون لإكباباً ، كما أكبَّ على نظم الخمريات وهو وأبو الهندي شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الخيبة المجنة .

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ . وما بعدها وانظر والشعر ٢/ ٦٨٥

(٢) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب) (٣) أغاني (دار الكتب) ١١/ ٢٣٠ .

الوليد^(١) بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك في سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعم والترف : بل على اللهو والمجون . إذ كان أبوه كلفاً بالخمير والغناء ، حتى في خلافته . إذ كان يستقدم مغني مكة والمدينة ومغنيتهما ، واشترى سلامة القصر وحجابة . وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يصرف في المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذي خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفى سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة . فإذا هو يحول قصره ببادية شرق الأردن مقصفاً كبيراً للخمير والعزف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً في مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبث من كثوس المجنون عبثاً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ توارزه البغاة ثاراً لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، وما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمير والغناء . ويعيش للهو والصيد والقنص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل في نفس الجو الممجون ، الذي كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة . ومن ثم آثر قصره ببادية شرق الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط . بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا في غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما في ولايته الخراسانية من الخيل والبرادين الفارغة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابيط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

٣١٨ وحديث الأربعاء ١٦٩/١ وقد نشر ديوانه في مطبوعات المجمع العلمي بدمشق .

(١) انظر في ترجمة الوليد أغاني (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها والطبري في سنتي ١٢٥ و ١٢٦ وكنا بنا التفسير والتجديد في الشعر الأموي ص

كثيرة ، كانت موضع التنذر بين الشعراء والأنقياء .

وينبغي أن لا ننسى مع الرواة في كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانوياً زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً^(١) ، وفي الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان^(٢) . وفي الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ في وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه في التشجيع على خلفاء بني أمية ، وأنهم انزلقوا إلى اللرك الأسفل من انتهاك ما حرّم الله ومن شرب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التي لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره في الخمر ، وله أشعار في الغزل والحب ، ولكنّها دون أشعار الخمر في الإبداع والروعة ، ويظهر أنه تقف كل ما نُظِم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى^(٣) بن زيد العبادي ، وقد مضى ينمّيه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكانته ما أتاح لفن الحمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنظَّم في مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجلد والسرور ، لسبب طبيعي ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها في غمرة عشقه ، وكأنما تفجّر له ينابيع الفرح تفجيراً . وقرأ له هذه الحمرية :

اصْدَعْ نَجِيَّ الهموم بالطَّربِ وانعمْ على الدهر بابتِنة العِنبِ
واستقبل العيش في غضارته لا تقفْ منه آثار مُعْتَقِبِ
من قهوة زانها تقادُمها فهُوَ عَجُوزٌ تملو على الحِقْدِ .

(١) راجع الأغاني ٤٦/٧ وما بعدها ، ٧٢/٧ . (٢) انظر الأغاني ٦٥/٧ .

(٣) انظر اللبدي ٥٥١/٥ .

أشهى إلى الشرب يومَ جَلَوْنِها من الفتاةِ الكريمةِ النَّسَبِ
فقد تجلّت ورقٌ يَؤوِّهَرُها حتى تبدّتْ في منظرٍ عجبِ
كأنّها في رُجَاجِها قَبَسٌ تذكو ضياءَ في عَيْنِ مُرتَقِبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب
المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرّة .
واقراً أيضاً هذه الحمرة :

علّاني واسقباني من شرابِ أصفهاني
من شراب الشيخ كِسْرى أو شرابِ القَيرواني
إن في الكأسِ لِمُسْكا أو بكفّى مَنْ سقاني
أو لقد غُوِّدِرَ فيها حين صُبّتْ في الدنانِ
كلّاني تَسْوِجاني ويشغري غنّيانِ
إنما الكأسُ ربيعٌ يُثمّطُ بالبَنانِ
وحُمياً الكأسُ دَبَّتْ بين رِجْلي ولساني

وهى تجرى أيضاً في نطاق الفرحة العميقة بالخير ، بل لعلها أقوى
من سابقها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى في رأيه عطر الوجود بل ربيع ، وهو يتلظى
بنشوتها التي تسرى في جسده من فترّعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين
من أمثال أبى نواس في هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً
فقال أبو الفرج : « ولوليد في ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها
الشعراء فأدخلوها في أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فلمّنه
سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره » .

ولم تستم الحمرة عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى
يجعلها كاللهب المتدلّع فحسب ، فلّنها استمتت عنده أيضاً التفاعل الحميم
بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ،
يحسن اللعب على أوتار العيدين والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره^(١) . ومن ثمَّ اجتمع للخمرة عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل التهجرج والرمّل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقي إلى اكتشاف وزن المجتث ، فكان أول من نظم فيه^(٢) . وإذا صحت الخطة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم الجمعة - وهي موعظة^(٣) طويلة - كان أول من أعدَّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي

أبو الهندي^(٤)

هو غالب بن عبد القلوس بن شيب بن ربيعة الرياحي القيسي . وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن : أدرك دولة بني العباس وملت في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرة الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فرَّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتُها لما وليت أنت خراسان . فلما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُتَرَفُّ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متعمداً للويلد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرة بكل شيائها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لنرى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخليل وأبي هفان وطبقته إنما اقتتلوا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقة منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع البة . إذ يقال إنه

(١) الأغاني ٢٧٤/٩ و ٢٧٧/٢ - ١١ . (٤) انظر ترجمته أفان (س) ١٧٧/٢١ .

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهب في الشعر العربي والشعر والشعراء ٦٦٣/٢ وطبقات الشعراء لابن

المعز (طبع دار المعارف) ص ٥٩ . المعز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

(٣) الأغاني ٥٧/٧ .

شرب عند خمار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشرّبوا وناموا
وانتبه ، فزأهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرّعون من الخمر ، فشرّب ،
حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كللك عشرة أيام ،
يفيقون ثم يشرّبون وينامون ، وروى قصته معهم في بعض شعره . إنه يعيش
للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سُقَاتِها ودِنَانِها وأَبَارِيقَها وزِقَاقِها مثل قوله :

يَجُّ سُلَاقًا مِنْ زِقَاقٍ كَأَنَّهُمَا شَبُوحُ بَنِي حَامٍ تَحَنَّتْ ظُهُورُهَا
وقوله :

وَإِذَا صُبِّتَ لِشَرْبٍ خِلَتَهَا حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ
وزأه يصف القيان اللاتي يسمعن في أثناء شربها ، كما يصف من تَصَرَّعَهم
وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينته ، بل فرحته ومسرته
حتى ليتنى أن يضمها إلى صدره في قبره ، فلا تزايله حياً ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا - إن متُّ يوماً - كَفْنِي وَرَقَ الْكَرْمِ وَقَبْرِي مَقْصَرَةً
وَأَذْفِنِي وَأَذْفِنُوا السَّرَّاحَ مَعِي واجعلوا الأقداح حول المقبرة
وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في سكة الخمران إلى الأنفاس الأخيرة
من حياته ، يَصْدَحُ بحمرياته ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير في نفسية
الشاعر العربي : وقد مضى أسلافه في الجاهلية يَصْدُرُون عنها في أشعارهم ، فلم
يتروكوا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا في حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم ، فهم
يصورون فلكواتها بكثبانها ورمالها وغُدْرَانِها وغَيْثِهَا وسيولها ونَحِيبِهَا وجَدَبِهَا
ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيورها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض
مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموي - على سُنَّة آبائهم - يستلهمون صحراءهم ،
مزاجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً
مطلوانه بوصف أطلال الديار التي قضى بها شبابه مع بعض صواحيبه ،
ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته
في الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في وصفها لما لها
من جمال في نفسه ، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو في
ثنايا ذلك يحدِّثنا عن كل ما تقع عليه عينه في ممراته ويخلِّف أثرأ في ذهنه من
طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة :
فإن الصحراء لم تجفّ ينائيبها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول
في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرِّزين من أمثال الفرزدق والأخطل
وجرير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء
ونَهْشِد دُجَيْل وما يجرى فيه من سفن ، موازنة يُعلّي فيها الطبيعة الأولى علواً
كبيراً ، يقول (١) :

لَفَلَجٌ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهِمَا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ (١)
وراحلة قد عودوني ركوبها وما كنت ركباً لها حين تُرحلُ (٢)
قوائمها أبدى الرجال إذا انتحَتْ وتَحْمِلُ مَنْ فِيهَا قَعُوداً وَتَحْمِلُ (٣)
إذا ما تَلَقَّتْهَا الْأَوَادِي شَقَّهَا لَهَا جُوجُؤٌ لَا يَسْتَرِيحُ وَكُلُّكُلُ (٤)
إذا رَفَعُوا فِيهَا الشَّرَاعَ كَأَنَّا قُلُوصُ نَعَامٍ أَوْ ظَلِيمٌ شَرَدَلُ (٥)

وواضح أنه يؤثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الحديثة
وما فيها من أنهار وصفن تحمل الناس في رحلات نهريّة ممتعة . وهو يعبر بذلك

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٢٦ .
(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة
وحصن ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .
(٣) ترحل : تهباً لرحيل .
(٤) القوائم هنا : الهاذيف بأيدي الملاحين .
(٥) الأرافس : الأمواج . الجوجؤ : بطن
السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .
(٦) قلوص النعام : طويقة القوائم ، الظليم :
ذكر النعام ، الشمدل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتِنُوا مثله بالصحراء وسناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة ، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرُّجَّاز . أمثال رُوَيْبَةُ الذى يقول ^(١) :

إِنْ الرُّدَاقِ وَالْكِرَى الْأَرْقَبَا يكفيك دَرَّةَ الْفَيْلِ حَتَّى تَرَكِبَا ^(٢)
فهو بفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَنْفَسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة في شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وتلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثر الثلج ، يقول ^(٣) :

مستقبلين شِمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُهُمْ بحاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْشُورٍ ^(٤)
على عَمَائِمِنَا يُلْقَى ، وَأَرْحَلُنَا على زَوَاحِفَ تُزْجِيهَا مَحَاسِيرُ ^(٥)

وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويبيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صور فيها نُهْبِرَاتٌ شَقَّتْهَا هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ نَهْرِ الْفُرَاتِ ، وخاصة نَهِيرُ الْهَيْءِ ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأحباب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تَطَّرَدُ على هذا النمط ^(٦) :

شَقَقْتَ مِنَ الْفُرَاتِ مَبَارِكَاتٍ جَسَوَرَى قَدْ بَلَّغْنَ كَمَا نَرِيدُ
وَسَخَّرْتَ الْجِبَالَ وَكُنَّ خُرُصًا بِقَطْعٍ فِي مَنَاكِهَا الْحَبِيدُ

(١) شِمَالَ الشَّامِ : رِيحُ شِمَالِيَّةٍ . الْحَاصِبُ :

مَا تَحْمِلُهُ الرِّيحُ مِنْ دَفَاقِ الرَّابِ أَوْ التَّلَجِ .
التَّاهُوتُ : نَبْتُ التَّلَجِ وَالْبَرْدِ .

(٥) فَرَجِيهَا : نَسَبَهَا وَنَدَفَهَا ، مَحَاسِيرُ : كَلِيلَةٌ .

(٦) دِهْرَانُ جَرِيرٍ (طَبْعَةُ الصَّادِقِ) ص ١٥٠ .

(١) الْهَيَّوَانُ ٩٠/٧ .

(٢) الرُّدَاقِ : الْحَادَى . الْكِرَى : الَّذِي يَكْرِى دَابَّتَهُ وَيُزْجِرُهَا . وَالْأَرْقَبُ : غَنِيظُ الرَّقِيَّةِ .

دَرَّةُ الْفَيْلِ : ذَهَبُهُ وَكَفَّهُ .

(٣) الْهَيَّوَانُ ص ٢٦٢ .

بلغت من الهنيء فقلت شكرا هناك ، وسهل الجبل الصلود^(١)
 بها الزيتون في غللي ومالت عناقيد الكروم فهن سود^(٢)
 فتمت في الهنيء جنان دنيا فقال الحاسدون هي الخلود
 يعضون الأنامل أن رأوها بماتينا بؤازرها الحصيد^(٣)
 ومن أزواج فاكهة ونخل يكون لحمه طلع نصيد^(٤)

وجريير يحدتنا عن شق الطرق للنهيرات في الجبال وتحطم ما يعترض من
 الصخور ، كما يحدتنا عن المناظر الطبيعية في تلك البيئة وما حف بها من
 أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموي مع استغراق مناظر الصحراء له لم يغمض عينيه عن مناظر
 البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من
 كانوا يلجئون بالصيد وكلايه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك في حديثنا عن
 الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف القيل ، على شاكلة قول رؤبة
 يصفه^(٥) :

أجرّد كالبحضن طويلُ النَّابِئِ مشرفُ اللَّحْمِ صغِيرُ الْفَقْمَيْنِ^(٦)
 عليه أذنان كفضل الثَّوْبَيْنِ

واشتهر في هذا المجال هرون مولى الأزدي^(٧) . فالطبيعة الجديدة المتحركة
 والصامته ألهمهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيثتهم الصحراوية
 كانت ملهمهم الأول في هذا العصر .

(١) الصلود : اليابس .

(٢) السود : الثمر النخل في إبانة. نصيد : منتظم .

(٣) المحزون ٧٩/٧ .

(٤) الفقمان : الحيان .

(٥) الحيوان ١١٤/٧ وما بعدها .

(٦) الفقل : الماء الجاري تحت الشجر على

وجه الأرض . الكروم : الأعناب .

(٧) الحصيد : الزروع التي تحصد ثمارها

كالقمح .

ذو الرمة (١)

هو غَيْلَان بن عَقِبة من بني عَدِي بن عَيْدِ مَنَاة ، لُقِّبَ بذِي الرمة لقوله في بعض شعره : يصف الوَيْدَ : « أشعث باقي رُمّة التقليد » والرُمّة : القطعة البالية من الحبّل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوَيْدَ يتقلد بها . وقيل : لُقِّبَ بذِي الرمة لأنه كان - وهو غلام - يتغزّع ، فأنت به أمه مقرئ قبيلته ، فكذب له معاذة في جلد غليظ ، وعلّقته أمه على يساره برُمّة من حبل فسمي ذا الرمة . وقيل إن مية التي شغفت قلبه حباً هي التي لقبته بذلك حين ألمّ بحبائنها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كفه رمة ، فلما أته بالماء ، وكانت لا تعرفه : قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد ولد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية النجاة ، لأم من بني أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفي بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس . وقد ولد حوالي عام ٧٧ للهجرة . وتلقن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر في خلاف نشب بين قبيلته وعتية بن طَرْثوث بسبب بئر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله وإلى النجاة مثنياً على حكومتها العادلة في هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة : فلم يكرمهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً في اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرتني : ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان يتزل الكوفة والبصرة - ويظيل النزول فيهما - منذ مطلع القرن الثاني للهجرة مادحاً رجالاًتهما : وأول ما نستقبله من ذلك مدحه

والبيان والخبير والخيرون والكامل للبعد وأمال
المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد في الشعر
الأموي » ص ٢٦٥ وقد نشر سكاكيني ديوانه
في كبريتج سنة ١٩١٩

(١) انظر في ذي الرمة ابن سلام ص ٤٦٥
وما بعدها والشعر والشعراء ٥٠٦/١ وأغانى
(ساسى) ١٠٦/١٦ وابن خلكان في غيلان
والوجع للرزمان ص ١٧٠ والخزانة ٥٠/١
ومرآة الجنان للعاصم ٢٥٣/١ وظهرت الأغانى

لهلال بين أحوز المازني في انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقي منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق في سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزاري فانتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسري منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام ، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البجلي ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبي بريدة الأشعري الذي ولي شئون الشرطة لخالد في البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولي منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفي الشاعر . وقد امتدت رحلاته في طلب النوال إلى دمشق وخاصة في عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومي ، ولما ولي فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا في بعض شعره حكيم بن عياش الكلبي الكوفي الذي كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة في شعر ذي الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالفضلال ، ودائماً يذكر في رحلاته الصحراوية التيمم والقصر في الصلاة وتلاوة آي الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعظ والمتكلمين في عصره ، حتى لراه يعتنق مذهب القدرية في العدل على الله جلّ جلاله وفي حرية الإرادة ، ويناقش رؤبة في ذلك ويعلو عليه في نقاشه^(١) ، وما صدر فيه عن مذهبه قوله في الغزل :

وعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كَوْنَا فَكَانَتَا فَعَوْلَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمَرُ

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرز بذلك من القول بخلاف العدل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويجمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاء حاداً وأنه كان أكثر من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان أكثر من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعي ، حتى قالوا إنه كان راويته

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى
يتفناها إلى أن دُفن في أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف في المديح والمجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق
وجرير ، وكان الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبقيا فيه بقية . ومُلهمته الأولى
في الديوان مَيَّة بنت طَلْبَة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها في بعض رحلاته ، فشغفت
قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبا في كل مكان . وفي الديوان أنثرى تسمى
خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة
أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ
من مثل قوله :

وقفتُ على رَنْعِ لَمِيَّة ناعقٍ فمازلتُ أبكى عنده وأُخاطبه
وأُسقيهِ حتى كاد مما أبثُّ تكلمنى أحجارُهُ وملاعبه^(١)

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعداً كأنها النار تخبو ثم تلتهب
وقوله :

أداراً بِحَزْوَى هِجَتِ للعَيْنِ عبرةً فماء الهوى يرفضُ أو يترفقُ^(٢)

وقوله :

أَجَلْ عبرةً كادتُ لِغِرْفانِ منزلٍ لَمِيَّة لو لم تُسهلِ الماء تَنْبَحُ
ولعل شاعراً عربياً لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً
كان يظنُّ بها نيران الحب المتدلعة في قلبه لَمِيَّة ، وقد مضى يتعزَّى عنها بمحاربا
الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقاً
كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها
ولياليها ورمالها وكتبانها وأجاسمها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحش

(١) أسقيه . أدمو له بالسقيا . يسيل . يترقق : يسكن في المين جاتلا .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض :

وكل ما يُطَوَّى فيها من آبار ومناجم وسراب وطير ورياح وكل ما يلمع في
سماؤها من كواكب ونجوم وصحاب وغيوم .

وكأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها
إلى شعره في لوحات رائعة ، وارجع إلى القصيدة الأولى في ديوانه التي يفتتحها
بوصف دموعه التي تسيل دائماً ولا تفر ، إذ يقول :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ

كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ مَرَبٌ^(١)

فلأنك ستره يخفى محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمدح في نحو مائة
بيت يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التي كانت تبهج
نفسه ، أولها مشهد أتن الوحش ومارها ، وهو يقودها في يوم حار إلى ماء
بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غلثها ، فيتعرض لها صائد
مخف وراء الأشجار بسهامه ، فتفر على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً
تطيش هذه السهام في شعر ذى الرمة حباً للحيوان . والمشهد الثاني مشهد ثور
الوحش في كيناسه مكنناً من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل وواسوه ،
وتخلت أضواء الصباح فيخرج من كيناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه
كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم
وصاحبه يرهقان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهر الجو ، فيسرعان إليها خيفة
أن يسقط عليها برَدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة في المشاهد الثلاثة يشبه
الرسامين اللذين يحدون في لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يحسم صورة
الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمها ومغازاتها وأعشابها ونباتاتها وغدائها ،
وهو إلى ذلك يبت في الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس .
وقد صور في الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثل فيه البدوي
ولاحساسه بكرامته ، كما صور في الظليم وصاحبه عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .
ولعل هذه أهم خاصية تميز وصف الحيوان الوحشي عند ذى الرمة إذ يحمله

الهالة التي لا تتركها الماء .

(١) الكل : الرقة في عروة الزادة . مفرية :

مقطوعة ، يشبه منه التي يسيل منها بريق الزادة

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله في ظبية وابنها أو غيشفها :

إذا استودعته صرّصفاً أو صريمَةً تنحّت ونصّت جيدها بالمناظر^(١)
 حذاراً على وستان بضرعه الكرى بكل مقيلٍ عن ضعافٍ فواتر^(٢)
 ونهجره إلا اختلاسا نهارها وكم من محب رغبة العين هاجر
 حذار المتابا رغبة أن يفتنّها به وفى إلا ذاك أضعفُ ناصر^(٣)

وواضح أنه صور محبة الظبية لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهي تبعد عنه حتى لا تلتصق عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبت في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى في وصف الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتي بذلك في خمود الصحراء ومودها ؟ لقد استعان في النهار بالسراب : فإذا ذرى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل مُتهدى للشحر عند البيت الحرام ، أو لعلها من تجرى في الفرات ، أما إذا جنّه الليل فحسبه النجوم التي يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجرى في الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله في وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأنّ بلادهن سماء ليلٍ نُكشِفُ عن كواكبها النجوم
 وقوله في ظباء أخرى :

كأنّ أذمانها والشمسُ جانحةٌ وذُعْ بأرجائها فُضْ ومنظوم^(٤)
 وقوله في وصف الإبل ورحلتها في الصحراء :

كأنّ مطابانا كل مفازة قراقيرُ في صحراء دجلةَ تسبح^(٥)

(١) المصنف : الأرض المستوية . صريمة : (٣) يفتن . يبيقها .

دلة . نصت : نصبت مستقيمة . (٤) الإنسان : الظباء ، نفس : مطروق .

(٢) الكرى : الترم . المقيل : وقت القيلولة . (٥) القراقير : القلن .

وفي الحق أن غيخته كانت حائلة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة في رؤى غريبة، وهي رؤى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بدیعة من مثل قوله:

وریحُ الخُزای رَشها الطُّلُ بعدما دَنَا اللیلُ حتّی مَسَّها بالقَوادم^(١)
وقوله:

أَلَا طَرَقَتْ لِي هَيُومًا بِذِكْرِهَا وَأَبْدَى الثَّرِيًّا جُنْحًا فِي الْمَغَارِبِ^(٢)
ومن صوره الطريفة صورته للحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهوره إلى بعض العیدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول:

إِذَا جَعَلَ الْحَرْبَاءُ يَغْبِرُ اسْوَنَهُ وَبَخَضَرُ مِنْ لَفْحِ الْهَجِيرِ غَبَاغِبُهُ^(٣)
وَيَشْبَحُ بِالْكُتْمَيْنِ شَبَحًا كَأَنَّهُ أَخُو فَجْرَةٍ عَالَى بِهِ الْجِدْعَ صَالِبُهُ^(٤)

وعنى طويلاً بوصف همس الفلوات وما يُسمع في حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونوا إلى الجن، وزراه يشبهها بواطن الروم وتضرب الطبل وصياح الضرائر وأصوات السم^(٥). ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة في صوره، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض، فتصبح وكأننا حقاً في عالم من عوالم الرؤى والأحلام.

٦

الرَّجَّاز

الرَّجَّازُ مِنَ الْبُحُورِ الْقَدِيمَةِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ، فَقَدْ كَانَ يُسْتَحْدَمُ بِكَثْرَةٍ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ، وَهِيَ كِرَّةٌ تَرَكَّدَ أَنَّهُ كَانَ الْوِزْنَ الشَّعْبِيَّ الْعَامَ الَّذِي يَدُورُ عَلَى

- (١) القوادم: الريش الطويل في جناح الطائر.
(٢) الميرم: ذاهب العقل، وأراد بأبدي
الثرى أوائلها.
(٣) التباعب: الجلد أسفل الخنك،
ومعروف أنه كلما حميت الشمس على الحرباء
رأيت جلده يخضر بينما يظل أعلاه أصفر.
(٤) شبح: يمد يديه.
(٥) المهوران: ١٧٥/٦ وما بعدها، ٣٩٣، ٢٤٧.

كل لسان ، ومن ثمّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزخاف ، لا تلقانا في أى وزن آخر ، فكثُر فيه المشطور والمهوك ، وأيضاً فإنه لم يطلّ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ويجهلون ، حين يحدّون بغير حجب يحولون في ميادين الحروب ، وحين يتناولون أى عمل كحفّ بر أو متّح منها .

وعلى هذا النحو كان أحياناً قليلة تُنظم بديهة وارتجالاً مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثمّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسراها ، وحيّاه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقرانه بالحركة الدأبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيدة شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب ^(١) العجلى . ولا نتقدم في عصر بنى أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يقتصر بعض الشعراء النابيين حياتهم على جويده وتحبيره ، وهم في ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز ذيلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثرها منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد . وقد أخذت الأرجوزة — حين طالت — تتناول كل أغراض القصيدة وتجري

على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة في الصحراء والمديح والمجاء والفخر ، فهي لا تختلف غالباً عنها في النظام وسرّد الموضوعات المتنوعة . ومضت تزحمها حتى غلبتها في باب الصيد بالحوارج ، إذ نجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشمرّدل بن شريك التميمي الذي عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان الشمرّدل صاحب قنص وصيد بالحوارج وله في الصقّر والكلب أراجيز سيرة ^(٢) » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

(١) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٢٠/٩٥٥ ص ٥٧١ وما بعدها والموضح ص ٢١٣ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١٣/٣٩١ .

الغابة ١٠٥/١ والإصابة ٥٦/١ وابن سلام

قد أغشى والصبحُ في حِجابِهِ والليلُ لم يَأوِ إلى مآبِهِ
وقد بدا أبلقُ من مُنْجابه .توجىُّ صاد في شِبابِهِ^(١)
مُعادٍ قد ذلُّ في إصْبابِهِ د. خرقُ الضفَّار من جذابه^(٢)
وعرفَ الصوْتُ اللّدى يُدعى بِهِ ولعنةُ المُلمعِ في أنسابِهِ^(٣)

ولقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلَة^(٤) ، وهو مثل الشمر دل كان يجمع بين الرجز والقصيد ، ويقول ابن المعتز : له في الطُّرْد أراجيز كثيرة مشهورة . وأعاجيبه في القصص وغيره كثيرة . وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز ، ولعل في هذا ما يصحح الفكرة التي كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب . وربما كان أهم من جمع بين الرجز والقصيد في هذا العصر أبو النجم العجلي ، وسنعرض له عما قليل .

ولقانا كثيرين لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد ، منهم دُكَيْنُ^(٥) بن رجاء القُصَيْمِيّ ودُكَيْنُ^(٦) بن سعيد الدارِي ، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظت باقوت في معجمه ، ومنهم الرُّبَيانُ^(٧) السعدِيّ التميمي ، وأبرزهم جميعاً العَجَّاج وابنه رُوَيْبَةُ اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة ، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية ، فلم يعد يُقصد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها ، بل أصبح يُقصد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة ، وشركهما في ذلك من بعض الوجوه أبو النجم ، ولكنه لم يُبعد في الإغراب إبعادهما .

(٥) انظره في معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٣/١١ والشعر والشعراء ٩٢/٢ وتجدب ابن سائر ٢٤٧/٥ .

(٦) راجع معجم الأدباء ١١٧/١١ وابن سائر ٢١٨/٥ والشعر والشعراء ٩٢/٢ وانظر الحامش .

(٧) راجع معجم المرزبان ص ١٤٩ وقد نشر الوراد ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجى: الصغر ينسب إلى توج من قرى فارس .

(٢) خرق: شق. الضفَّار: الحبل يشبه به .

(٣) الملمع: المشرب بنوبة .

(٤) انظر ترجمته الشعر والشعراء ٨٣/٢ .

والأغاني (سأسي) ١٣٩/١٨ والمزاةة ٧٨/١

وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف)

ص ٦٢ وما بعدها والموتج ص ٢١٩ .

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطرمّاح والكُمَيْت ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَعِيُّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب ^(١) . وهو اتجاه تعليمي نظن ظناً أن الذي دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُوْبَةُ يجمعان لم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوّل ديوانهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما يحقّ يَعدّ أن أهم من هياً لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذي صنّفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصّوا وساقوا الحكم والأمثال ^(٢) .

أبو النجم ^(٣) العِجْلِيُّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى القيرك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول ^(٤) :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرَفِ نخطُ رجلاي بخطُ مختلف
تكتبان في الطريق لأمّ ألف

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجمّع الرواة على أنه كان سريع البديهة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثمّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

والموضع ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٥٨٤/٢
وأغانى دار الكتب ١٥٠/١٠ والخزائن
٤٨/١ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها
ومصنف الشعراء ص ١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب)
٢٩٧/٣ .

(١) البيان والتبيين ٣٤٣/١ وانتظر كتاب
المكائنة عند الماكزة لعلّها لي (لشر
جاير) ص ٤٠ .

(٢) انظر كتابنا ه لغز وطائفة في الشعر
العربي (طبع دار المعارف) ص ١٣٩ وما بعدها .
(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦

يَسْتَبْقُونَ فِي مَوْضُوعٍ يَطْرَحُهُ خَلِيفَةُ أَوْ وَالٍ ، وَيُظْفَرُ بِالْجَائِزَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، وَيَقُولُ
ابْنُ سَلَامٍ : إِنَّهُ أُبْلَغَ فِي النَّعْتِ مِنَ الْعَجَاجِ . وَأَمَّ أَرَاجِيْرَهُ لَامِيْتَهُ الَّتِي يَسْتَهْلِمُهَا
بِقَوْلِهِ ^(١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجْزِلِ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يَبْخُلِ

وَالْأَرْجُوزَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَفِيضٌ بِالْغَرِيبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَمُرَاعِيهَا ، وَكَانَ
رُؤْيَا يَسْمِيهَا أُمُّ الرِّجَزِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَإِعْجَابًا بِهَا . وَيُرْوَى أَنَّ الْعَجَّاجَ غَدَا عَلَى
النَّاسِ بِالْمِرْبَدِ يَنْشُدُهُمْ أَرْجُوزَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فُجِبِرَ ^(٢) » وَقَدْ
ضَمَّنَهَا هَجَاءَهُ لِرَبِيعَةَ ، فَاسْتَعَلَتْ عَلَيْهِ رَاجِزُهَا أَبَا النِّجْمِ ، فَبَادَرَهُ يَنْشُدُ أَرْجُوزَتَهُ
« تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجَهْلًا مَا ذَكَرَتْهُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : « شَيْطَانُهُ أَنْشَى وَشَيْطَانِي
ذَكَرَتْهُ » تَعَلَّقَى النَّاسُ هَذَا الشُّطْرَ وَهَرَبَ الْعَجَاجُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى مِنْ
أَرَاجِيْرِهِ أَرْجُوزَتَهُ فِي وَصْفِ فَهْرٍ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشَرَ بْنِ مَرْوَانَ ، وَهُوَ يَسْتَهْلِمُهَا
بِقَوْلِهِ :

إِنَّا نَزَلْنَا خَيْرَ مَنَزِلَاتٍ بَيْنَ الْحُمَيْرَاتِ الْمُبَارَكَاتِ
فِي لَحْمٍ وَحَيْشٍ وَحُبَارِيَّاتٍ وَإِنْ أَرَدْنَا الصَّيْدَ ذَا اللَّذَاتِ ^(٣)
جَاءَ مُطْبِعًا لِمَطَاوِعَاتٍ عَلَّمَنَ أَوْ قَدْ كُنَّ عَالِمَاتٍ
فَهَى ضَوَارٍ مِنْ مَضْرِيَّاتٍ تُرِيكَ آمَاقًا مَخْطُطَاتٍ
سُودًا عَلَى الْأَشْدَاقِ سَائِلَاتٍ تَلْبُو بِأَذْنَابِ مَوْقِفَاتٍ

وَكَثِيرٌ مِنْ رَجْزِهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ لَا يُسْعِدُ فِيهِ وَلَا يَغْرِبُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ
الْحَقِّ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَشْتَرُ بَعْضُهُ مِنْ
بَعْضٍ ^(٤) ، وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ قَرِيبًا مِنَّا فِي جَمْعِهِ رَجْزُهُ ، وَخَاصَّةً بَيْنَ يَمْدٍ إِلَى
التَّنْزِيلِ وَالِدَعَابَةِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ يَوْصِي ابْنَتَهُ « بَرَّةَ » عِنْدَ زَوَاجِهَا :

(١) نُشِرَ هَذِهِ اللَّامِيَّةُ عِنْدَ الْعَزِيزِ الْمِصْنِيِّ فِي
« الطَّرَافِيفِ الْأَدَبِيَّةِ » طَبْعَ بَلَدَةِ التَّأَلِيفِ وَالْفَرَجَةِ
(٢) جَبَرَ التَّأَلِيفُ بِمَعْنَى الْجَبْرِ .
(٣) حُبَارِيَّاتٍ : جَمْعُ حُبَارَى وَهُوَ طَائِرٌ .
(٤) الْخَصَائِصُ ١/٢٣٠ .
وَالنَّشْرُ ص ٥٥ .

أوصيتُ من بَرَّةٍ قلباً خُرّاً بالكلبِ خيراً والحماءِ شُرّاً
لا تسأى ضَرْباً لها وجراً حتى تَرى حُلُوَ الحياة مُرّاً
وإن كسلكِ ذهباً وُدّاً والحي عُمْبهم بشرٌ طُرّاً

وكان يمثل هذه الدعابة بخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له في مجالسهم ويمزلون له العطاء .

العجاج^(١)

هو عبد الله بن رُوْبَة التيمي ، نشأ في البادية ونزل البصرة ، وكان دائب الرحلة إلى منازل قومه في الصحراء ، وقد سخر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية في مدح الخلفاء ، وخاصة سليمان . وزراه ينظم بلسان قومه في خصوصتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولا يلى مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفي ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان وإلى العراق وأخاه عبد العزيز وإلى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبي قُدَيْك زعيم النجيدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصوصات قبلية ، ورمّاً بنا وقوفه بالمريد يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسئل في ذلك فقال : هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوايد اللغة وشواردها التي ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، في وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُشْبَانِها ونباتاتها وحيواناتها الوحشية والأليف ، وكل ما يجري في أرضها من رياح وسموم وطير وفي

٧/٩٤ : زهير بن أبي سلمى والبيان والتبيين والخصائص لابن جني والمزهر السيوطي (طبعة الحلبي) وقد نشر الأوازه ديوانه في مجروح أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) انظر في المعاج الشعر والشعراء ٧٢/٢ وما بعدها وشرح والمؤرخ المرزباني ص ٢١٥ وما بعدها وشرح شعراء المعنى ١٨ وتذهيب تاريخ دمشق لابن عساكر

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعَدُّ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجمعه
 يخوض في كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة
 من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ
 يقيس في اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية .
 ولم يقف في ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض
 الألفاظ الفارسية فيعربها ، وقد يصرف منها أفعالا ، على نحو ما صنع في
 أرجوزته الجيمية : « إذ بلفانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت في الملاء البردجما »
 يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشي الثف » أو تسبجا » يريد لبس قميصاً ، وهو
 بالفارسية شبي ، فعربه بسبيجة ، ثم صرف منه فعلا في بعض أبياته (١) .

فراه يلتزم في أرجوزته الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروى
 في الإعراب واحداً ، بحيث لو أطلقت قوافيا تحركت جميعاً بحركة واحدة ،
 على نحو ما يلاحظ ذلك في أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبر » ،
 وهي في نحو مائتي بيت ، ولو أطلقت قوافيا كانت كلها منصوبة (٢) .
 ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أرجوزته
 بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل في
 ذلك استرسالاً ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة : على شاكلة أرجوزته :

الحمد لله الذي استقلتْ بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ واطمأنَّتْ

وقد تحدثت فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما آفاه الله
 عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه في ثوابه . وهو في ذلك يتأثر مباشرة
 بمواعظ البوعاظ من حوله أمثال الحسن البصري وغيره وقد تولى سنة ٩٧ للهجرة .
 وَتُسَبِّحُ له أرجوزة في مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صححت يكون قد لحق
 أوائل القرن الثاني حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الرواية بين المتن ونصه (طبعة الحلبي) (٢) الظر الأمان (طبع ساسي) ١٨/٦٠
 ص ١٦١ وما بعدها .
 والمختصر ٢/٢٦٠ .

حالية . وزاه في أراجيزه يكثر من بكاء الشباب ، وتصوير شيخوخته وضعفه ،
من مثل قوله :

إِذَا تَرَبَّنِي أَصِلُ الْقُعَادَا وَأَتْنِي .. أَنْ أَنَهَضُ - الإزعادا^(١)
من أَنْ تَبْدَلْتُ بَادِي آدَا لَمْ يَكْ يَنْتَادُ فَأَمْسَى اِنْتَادَا^(٢)
وَقَصَبَا حُتَّى حَتَّى كَادَا يَعُودُ بَعْدَ أَغْظَمَ أَعْوَادَا^(٣)

والجناس واضح في البيت الثاني ، وهو يشيع في أراجيزه ، لكثرة ما كان
يُغْنِي به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا في
الآد وانَاد ، وقد جانس في البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق
من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتي ببعض المزيادات من الحروف ،
وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقصد لذاته ، فإن
قائه في اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رؤبة^(١)

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالي عام ٦٥ للهجرة ،
ويظهر أنه عُني به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ،
إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، وزاه في رقعة
الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين^(٢) . ويظهر
أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فيترل نارة السند ونارة خراسان .

١٧٤/١٨ وما بعدها ٥٧/٢١ والخزانة
٤٣/١ ومعجم الأدباء ١١٤٩/١١ وابن خلكان
وتهذيب التهذيب ٢٩٠/٣ ولسان الميزان ٢/٢٦٤
والموضح ص ٢١٩ وابن حاكم ص ٣٢١/٥ وكتابتنا
٥ التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٣٤٠ .
وقد نشر ديوانه آلواردي ونسخه بالجزء الثالث
من مجلد شعراء العرب .
(٥) طبري ٣٠٥/٥ .

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون
منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالأيدي . انَاد : اعرج
وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذي مخ . حتى :
دق ، يريد أن عظمه وهن .

(٤) انظر في ترجمة رؤبة قصص الشعراء
٥٧٥/٢ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى (ساسي)

ومنذ أوائل القرن الثاني يلزم ولاية العراق بمدحهم ، بمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويمتد في هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى بمدح هريم بن أبي طحمة المجاشعي أحد قوادهم الذين أبلوا في القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا في ديوانه أراجيز كثيرة في مدح خالد القسري وولائه وفي مدح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله وإلى النخاعة ، وبلال بن أبي بردة الأشعري نائب خاند على البصرة ، وأبان بن الوليد البجلي نائبه في شئون الخراج ثم وإلى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان ، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الحارود ، وعمر بن عتبة بن سعيد بن العاص . ويقدم على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلج في هجاء خصومه المارقين . ويتزل خراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذره من أبي مسلم الخراساني في غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراساني أن يذهب عنه روعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح ، وله في مدحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمائة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو في أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأبناء يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبي نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومر بنا أنه كان جبّريّاً ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدره مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة في مذهبه القدرى على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية في شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتأله . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية : إذ تحول به يرضى اللغويين من حوله ويقدم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية في الألفاظ وأبنيتها وهيئاتها وما قد يحدث في بعض الحروف كالهزرة من إعلال ، وكأنما تحول معينا لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثم غدت الأرجوزة

عنده وكأنها من لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبي عبيدة وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيد استغلاقا ، زوائد من تغيير في الحركات أو إعلال في الحروف أو إتيان بصيغ جديدة في التصريف بواسطة المصادر والجمع والأفعال ، كأن يقول في مطلع قافيته المشهورة :

وقاتم الأعماق خاوى المخرق مُشْتَبِه الأعلام لَمَاعِ الخفق^(١)

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتياع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيعمل بفتح العين في قوله : « وما بال عيني كالشعيب العين » والقياس العين بكسر الياء مع التشديد^(٢) . وقرأ قوله في وصف الليل :

وجل ليل يُخسبُ السدوس يَنْتسمع السارى به الجروس^(٣)

هناهما يَمْهَرَن أَوْرَمِيسَا علوت حين يخضع الرعوس^(٤)

قرع يد اللعابة الطسيسا^(٥)

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والريس والرعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعنى بأن يلائم بين الروى

(١) يحدث رؤية من فلاة . قاتم : أسود ،

أعاق المفازة : أطرافها البعيدة . مخرق

الطلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو

الرياح : مهبا . خوازه : غلوه . الأعلام :

الصوت (٢) هامم : جمع مهمة وهي الصوت الخفق ،

الجدال يندى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع

الريس : الحديث غير البين . الرعوس : الذي

الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .

يز رأسه في نومه .

(٣) راجع الخصائص ٢١٤/٣ ، ومبويه

(٤) الطسيس : الطست ، يريد أن التزم

٢٧٢/٢ . الشيب : المزادة والسقاء البال .

يميل رأسه ويلب به كما يلعب اللاعب بالطست .

العين : سائل الماء .

والكلمات الداخلية في البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان
يُعنى بالجناس كثيراً في نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقراً في أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن
تتمكك على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكررأ ، وتنتظر في سبويه وغيره
من عنا بتوجيه الصبغ في شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذى فتح له هذا
الباب ، ولكنه هو الذى انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة في الإغراب ، إذ كان
يكثر من القياس في اللغة والتصرف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولاً أن يأتي بكل
شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى مثنون لغوية كاملة ، وأخذ يفرغ إليه الشعراء
الذين كانوا يُعنون بإدخال الغريب من مثل الطرِّمَّاح والكُمَيْت ،
ياخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه في أشعارهم^(١) . وتحول إليه يونس
وأضرابه من علماء النحو يسجلون رجزه وما يأتي به من مستغلات لغوية ،
كان يحشدها في أراجيزه من أجلهم ، وزاه يصرِّح بذلك ، إذ يقول في أرجوزة له
« يلتمس النحوي فيها قصدي » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤية بغاية تعليمية واضحة ، وهى
غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمى الذى أخذ ينظمه الشعراء
في العصر العباسى ، وكانهم وجدوا في وفرة موسيقاها ما يتلافون به نقص المعانى
الشعرية في هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولدون
من اتحاد مصاريحها صوراً جديدة من المزودج والخميس . ونرى الأندلسيين
حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافي يعتمدون
في هذا الصنيع على نظام الأرجوزة في التصريح ، فيجعلون الشطر وحدة في
الموشحة ، على نحو ما صنع رؤبة ورُجَّاز هذا العصر في أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد
إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هى التى ألهمت ابن دريد حكاياته في تعليم
اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمداني والحريري صنع مقاماتهم المعروفة .

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يتبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشاداته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق في تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتوَّج هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسططاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان في الخطابة ، وبما لا شك فيه أنهم يتحلفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن من فنون النثر القولي .

وعواملٌ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان يُستَظَرُّ لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمهافل والدين ، فأما من حيث السياسة فلأن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقَصَّرُ على بني أمية أو

تكون حقاً شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُردّ إلى بني هاشم وأبناء على خاصة ،
أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولائهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقررون أنها حق
لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكمهم بشريعته . وانبرى لهم
الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام
للمسلمين ، يتولّاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو
كان غير عربي . ومضوا يحاجّون في أول الأمر عليّاً وابن عباس ، ثم أخذوا
يحاجّون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدْداً ، فكان منهم
الأزارقة والتّجذات والصّفرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحنج لرأيه مستعيناً
بدقّة مداخله في حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب
الحق الشرعي في الخلافة . ويتوقّى على ، فيدعون للحسن ، ويحجب ظنهم فيه
حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبون زياد بن أبيه ،
وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوقّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة
إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقتلُ بكربلاء دون غايته . ويتوقّى يزيد
ابن معاوية ، فتتشب حركة التّوايين ، يقودها سلمان بن صُرْد : وتبوء بالخذلان .
حيثنذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثّقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع
عليه خلق كثير ، وينجرد له مصعب بن الزبير : فيتقضى عليه قضاء مبرماً .
ونمضي إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويثور ، وسرعان
ما يُقضى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ،
وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولّاها أحد أبناء كبار
الصّحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا
هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم
من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُفَصَّر على قريش وأن تُردَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدِيُّ يعبر عنه في ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء السنهم في تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بنى أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يتصلون الطريق . وكل ذلك هياً في قوة لنشاط الخطابة السياسية : ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منظرين على نحو ما مرَّ بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة ، وما اندلع من السنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان . وهي — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بنى أمية ونصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقسِّم على الخلفاء الراشدين من يبنونهم بالفتح ، ومن يذكر لهم حاجة قومهم في مصر الجديد . وتدخل في عصر بنى أمية ، فتنحول هذه الوفود إلى سيول ، تقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة في شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تحين له فكرة سياسية كمفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

في بيعة الخليفة الجديد وفي بَيْتٍ شكواها حين يلمّ بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهتة والتعزية. وكانوا يُسمّون محافل هذه الوفود باسم المقامات، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصرون عن رأيه. ويتصاعد في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة، حيثئذ يتبارى خطباؤها، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق في البيان والفصاحة.

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع في الخطابة، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيد، فأَيَّانَ رَكَّزَ الإسلامُ أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة، يُسمّهم في ذلك الخلفاء والولاة، وجمهور كبير من الخطباء. ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مسئلة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصر، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص، كانوا يقصون على الناس مازيج قصصهم بتفسير آي الذكر الحكيم وبكثير من غلغلات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني. وكانوا يسمّون الناس بما يورثون عليهم من أخبار عجيبة، وكان نفر منهم يتزيد في هذه الأخبار تزيداً شديداً، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإضرار على خصومهم^(١)، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية^(٢). ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينشئون في الجيوش لنحميس الجند على القتال، كما كان ينش معهم جماعة من الوعاظ، وفي الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة، إذ نجد عتّاب بن ورقاء حين نازل شيباً الخارجي يقصُّ على جنده محمداً^(٣) كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور^(٤). ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب، ومن كبار قصاصهم صالح بن مسرّح الصُفَرى،

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندي ص

٣٠٤ وخطب المقرئ (طبعة بولاق) ٢/٢٠٣ (٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٢.

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧.

(٣) طبرى ٥/٨٩.

وفي الطبري طُرف من قصصه^(١) ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جتهنم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريج بخراسان^(٢) .

وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رُقُ العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير ينشب في مسائل العقيدة ، كسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان محير في الحياة أو مسير لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجبّرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

والهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة عقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم في جدالهم يستعينون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة ، وهي صور جديدة ضُمّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسمى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم غُدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات ، يقف فيها المناظر وبمعه أصحاب ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رُق الخطابة رُقياً بعيداً .

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأبان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراسين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتزوج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من عموية .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعية وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنه سهم أو من ولائهم وقوادهم . وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزبا لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج ، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم : ولم يندعوا لها سراً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم في وجوه بنى أمية وولائهم . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ : وأيضاً فلإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم ^(١) .

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها

و ٣٦٤/٢ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبَيَّان السُّلَمي والمستورد بن عُلْفَة لعهد المغيرة بن شعبة في ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن فلتقينا بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا - على نحو ما مرَّ بنا - إلى أزارقة ونجدات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم في وجوه ولاية ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاية بني أمية ، وتصدَّى لهم المهلب ابن أبي صُفْرَة وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شر ممزَّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحدث فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن المحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لماعذقه من الثواب . وتلقانا في خطبائهم نفس الروح التي وصفناها في أشعارهم ، إذ تراهم يدعون للزماي على الموت تراهي الفرائش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، إنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة في الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون في سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التي ضلت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير في بعض خطبه ^(١) : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وحيز » . وثقوا بأنكم المستخلصون في الأرض والعاقبة للمعتقين . فهم في رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلّة ، وهم المؤمنون حقّاً وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم في الجنة أما قتل غيرهم في النار . وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجلة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتاعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خفوفهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم ، على نحو ما يلقانا في خطبة قَطْرِيّ ابن الصُّجاعة قائدهم بعد الزبير بن علي ، وهو يستلها على هذا النمط ^(٢) :

٢٥٠/٢ والمقد الفريد ٤/١٤١ .

(١) الكامل للعبد ص ٦٤٠ .

(٢) البيان والبيان ٢/١٢٦ وحيون الأخبار .

« أما بعد فلاني أحتذركم الدنيا فإنها حلوة خَضِيرَةٌ ^(١) ، حُفَّتْ بالشهوات ... مع أن امرأ لم يكن منها في حَبِيرَةٍ ^(٢) ، إلا أعقبته بعدها عَبرَةٌ ، ولم يلق من سَرَّاءِها بَطْنًا ، إلا منحتَه من ضَرَّاءِها ظَهْرًا ، ولم تَطْلُغْ غَيبَةً ^(٣) رخاء : إلا هطلت عليه مُزْنَةٌ ^(٤) بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعلوزبَ واحتلولى ^(٥) أمرٌ عليه منها جانب وأوَى ^(٦) ، وإن آنت امرءاً من غضارتها ^(٧) ورفاها نِعَمًا أرهقته من نوائبها نِقَمًا ، ولم يُمَسَّ امرؤ منها في جَنَاحِ أَمْنٍ إلا أصبح منها على قَوادم ^(٨) خوف ، غَرَّاءَ غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى . »

ونمضي الخطبة وهي طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها فطرى السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباقي ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . ومن أشهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدَةُ بن هلال اليَشْكِرِي وزيد بن جُنْدُب الإيادي وعبد ربِّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُفَرِيَّةِ عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرَّح الذي كان يعظهم ويقص فيهم قصصا كثيرا وكان في وعظه وقصصه يحمل على بني أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء . حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرَّج على الحِجَّاج : وقتل : فخلقه شبيب الذي دوَّخ بجيوش الحجاج طويلا ، ومن قول صالح في بعض مواعظه ^(٩) :

« أوصيكم بتقوى الله والزهدي في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت . وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة في الدنيا ترغَّب العبد فيما عند الله وتفرَّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

-
- | | |
|--|---|
| (١) خضرة : فاضرة . | (٥) احلول : صار حلوا . |
| (٢) حبرة : سرور . | (٦) أوى : من الوباء . |
| (٣) الطل : المطر الغليل . النية : المطرة الغليلة . | (٧) الفضايرة : النضارة والحب . |
| (٤) المطل : المطر الكثير . المزنه : السحابة . | (٨) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر . |
| (٩) المطرة . | (٩) تاريخ الطبري ٥٠٠/٥ . |

يَحْزَارُ^(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حتى على المؤمنين : قال الله في كتابه : (وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) وإن حُبَّ المؤمنين للسَّبَبِ الذي يُنَال به كرامة الله ورحمته : جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بني أمية أئمة الضلال الظلّامة كما يقول ، حائثاً لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطرمّاح بن حكيم وشبّيل بن عزّرة الصَّبْمي والضحّاك بن قيس الذي خرج أهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النّجّادات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، وانجبت جيوشه بقيادة أبي حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردّت الأمر إلى نصابه . ولأبي حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بيّنة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في مكة ، ويقال بل ألقاها في المدينة^(٢) ، وهو يستهلها بالثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعذّين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التي لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكهلون^(٣) في شبابهم غَضِيضَةٌ عن الشرِّ أعيُنهم ، ثَقِيلَةٌ عن

(١) يحّار : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وميون

الأخبار ٢٤٩/٢ والمقد الفريد ١٤٤/٤

والأغانى ١٠٤/٢٠ .

(٣) مكهلون : يريد أن لهم رزاة الكهل .

الباطل أرجلهم، أنضاء^(١) عبادة وأطلاح^(٢) سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شقّ شقة^(٣) كأنّ زفير جهنم بين أذنيه. موصول^(٤) كلالهم^(٥) بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار. حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت^(٦) والرماح قد أشرعت^(٧) والسيوف قد انتضيت^(٨)، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، ومضى الشباب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاء على عنق فرسه، وتخصّبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء. فكف من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكف من كف زالت عن مخصصها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله.

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها في ألفاظ طليّة تستميل القلوب بعذوبتها، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإثراءهم لما عند الله من النعم، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يوم. أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قتلصاً بالرماح، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير، حتى يستحق رضوان ربه.

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة ورسم القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بنى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم. وتندور هذه الأفكار دائماً في خطابهم وخطابة أئمتهم: على نحو ما نجد عند الحسين حين اقرب من الكوفة واجتمع

(١) أنضاء: مهزولون.

(٢) أطلاح: مكثرون.

(٣) للكلال: التيب والإعياء.

(٤) فوق السهم: جبل له فوق وهو مئذنة.

الوقت من السهم يصح به ذلك إذا أعد لرمي.

(٥) أشرعت: سددت.

(٦) انتضيت: اسطلت.

الناس من حوله ولقيته . مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول في كلمة له ^(١) .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تنقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنّ أَرْضَى الله . ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان » .

وتتطور الأمور ويقتتل الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بني أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوقّى يزيد بن معاوية فينتجع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم في تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت في الخلافة لقربائهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صرد في إحدى خطبه ^(٢) :

« قتل فينا ولدنا ولد نبينا وسلالته وعصارتة وبثضة ^(٣) من لحمه ودمه . . اتخذوه الفاسقون غرضاً للنبل . . ألا انهضوا فقد سحق ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلال ^(٤) والأبناء حتى يَرْضَى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتلته أو تببروا ^(٥) » .

وكان من زعماء الثوّابين معه عبيد الله بن عبد الله المُرّي ، وكان خطيباً لا يبارى . فضى يعظ الناس ويحرضهم على الانتفاض على الأمويين بمثل قوله ^(٦) :

« هل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترم ^(٧) إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم ^(٨) إياه بالدم وتجارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(٥) تببروا : نهلكوا .

(١) طبري ٣٠٣/٤ .

(٦) طبري ٤٢٣/٤ .

(٢) طبري ٤٢٨/٤ .

(٧) اجترم : اقترف وارتكب .

(٣) بضة : قطعة .

(٨) قريملهم : من رمه إذا لطمه بالدم .

(٤) الحلال : جميع حليلة ، وهي البروجة .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. إلا أن يتناصح لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العشرة .. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكّل بهم وفرق جمعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقّاهم المختار الثقفي ، زاعماً أن ابن الحنفية - على الرغم من تبرئه منه - بعث على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لفرقة الكيسانية المشهورة في تاريخ الشيعة ، وقد مرّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن علي : وتعهده وصية والإمام المهدي المنتظر . وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً^(١) وكان لسنافصيحاً ، من أهل الدماء ، فجمع الشيعة حوله : وجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم في « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير وإلى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت في المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر في خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم - على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، أنه يُوحى إليه ، مصوراً هذا الوحي في فقرات من السجع يوشّيهما بالآيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله^(٢) :

« أما وربّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه^(٣) والقيفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطّار^(٤) ، ومهند بنّار^(٥) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا يميل أغمار^(٦) ، ولا بعزل^(٧) أشرار ، حتى إذا أقمّت عمود الدين ورأيت شعب^(٨) صدّغ المسلمين ، وشفيت

(١) الميول : جمع أميل وهو الجبان ،

الأهمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .

(٢) العزل : جمع أعزل وهو من لا صلاح معه .

(٣) راب : أسلح . الشعب : الفتق والصدع .

(١) الملل والتحل ص ١٠٩ .

(٢) طبري ٤/٤٥٠ .

(٣) المهامه : القياف .

(٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .

(٥) المهند : السيف ، البشار : القاطع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أخفل بالموت إذا أتى .

وأكبر الظن أنه قد انضحت لنا المعاني التي كان يردُّها خطباء الشيعة ، وهي معان تُردُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر مَنْ قُتلَ الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطبائهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى . وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطبائهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صوحان : صَحْصَعة وزيد وسَيْحَان وكانوا شيعة وفي الثروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المخاصمات واغاورات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي مخاصمات يقلب عليها الانتحال ، ومثلها المخاصمات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعيش حزب الزبيريين طويلاً ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقته ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقَدْح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غلظهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقته وحدة ذكائه ^(١) . وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق بيقينه ، وفيها يقول ^(٢) :

« إِنْ يُقْتَلْ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَابْنُ عَمِّهِ ^(٣) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنْ أَوَّاهُ لَا نَمُوتَ حَتَّى نَأْتِيَنَا ^(٤) ، وَلَكِنْ قَمَصْنَا ^(٥) بِالرَّمْحِ وَمَوْتاً تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ،

وابنه عبد الله قُتل يوم الدار . انظر أسد الغابة

٢١٣/٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قَمَصاً : موتاً سريعاً .

(١) طبري ٤٣٧/٤ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤١٢/٤ وعبود الأخبار

٤٢٠/٢ .

(٣) أبو الزبير قتل عقب موقعة الجمل وعمره عبد الرحمن بن النعمان قتل يوم اليرموك

وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقبِل الدنيا على لم آخذها أخذ الأثير^(١) انبَطر . وإن تُدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخريق المهين^(٢) .

ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة^(٣) ، ولأيهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة^(٤) طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من تلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته في خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . وبلغنا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرَهَا مَفْوَهَا ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شيب بن ربيع . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى في خراسان حاضاً الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب في جنوده يحرضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تنثائر خطيبهم في الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عسَاف وكيف أنهم جميعاً عطّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفتىء ، حتى لرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم^(٥) .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، وثن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

(١) الأثير : البطر .

١٣٥/٤ .

(٢) الخريق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .

(١) طبرى ٣٠/٥ .

(٣) البهان والبهين ٢٩٩/٢ والنقد الفريد

(٥) طبرى ٣٣٥/٥ .

الخطابة مع جهازة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز
وزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية في خطابته فقال ^(١) :

رَكوبُ المنابر وثأبها مِمنْ بخطبته مِجْهَرُ^(٢)
تَرِيحُ إليه هَوادى الكلام إذا ضلَّ خطبته المِهْذَرُ^(٣)

وخطابته قسمان : قسم "سياسة" خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب :
وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا
وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة
بالمدينة ^(٤) . وهو في القسم الثانى ينصّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ،
ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ ^(٥) ، وقد أتهم نسبتها إليه
وقال إنها حرية بأن تنسب إلى على بن أبى طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو
على معاوية ، وكأنه نسى أنه من كتّاب الوحى وأنه من جِلَّةِ الصحابة . وتتردد في
خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم
نفوسهم بالخروج عليه ^(٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ،
يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على
ما قدّم من باده على شاكلة قوله في كلمة له ^(٧) :

« أيها الناس ! إنكم لم تُخلِّقوا عبثاً ولن تُتركوا سُدًى ، وإن لكم معاداً يُحكّم
الله نبيّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شيء
وحُرِّم الجنة التى عرّضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف
الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفائتاً بباقي ، ألا ترون أنكم فى أسلاب المالكين ،
وسيف خلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

-
- (١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) ممن : تمن له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها .
(٣) تريح : ترجع . هوادى الكلام :
(٤) البيان والتبيين ١/١٢٧ والأمال ١/١٢٧ .
(٥) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعبد الأخبار
أوائله .
(٦) المقفد الفريد ٤/٨١ .
(٧) البيان والتبيين ٢/٢٤٦ .

بديدة^(١) يَصور فيها سياسته ودستوره في الحكم معلناً أنه إن وُثِّقَ بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ، ويقول إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وكان ولاية بني أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبي سفيان وإلى مصر وعند ولاية العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسري ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول^(٢) :

« إني لأرى رءوساً قد أَيْنَعَتْ وِحَانَ قِطَافِهَا ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء تفرقُ بين العمامم واللِّحى . إني والله يا أهل العراق والشَّعْبَاق والتَّفَاق ومساوئ الأخلاق ما أُغْمَزَتْ تَغْمَازُ التَّيْنِ ولا يُفْتَعَقُ لي بالشَّئَانِ^(٣) ، ولقد فُرِرْتُ^(٤) عن ذكاء وفُتِّشْتُ عن تجربة . إن أمير المؤمنين كَتَبَ كِيفَانَهُ^(٥) ، ثُمَّ عَجِمَ^(٦) عِيدَانَهَا ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلها عموداً ، فوجَّهني إليكم ، فإنكم طالما أَوْضَعْتُمْ^(٧) في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي . أما والله لأَلْحُوَنَّكُمْ^(٨) لَحْوَ العَصَا ولأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَالِبِ الإِبِلِ^(٩) .. أما والله لتستقيمنَّ على طريق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شُغْلًا في جسده » .

وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زعرت خطبته بأسلوب تصويري قوي ، وهو يُعَدُّ في النُروية من أهل الخطابة والبيان في العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه في طبقة واحدة ، وإن فضله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

(١) البيان والتبيين ١٤١/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وحيون الأخبار

٢٤٤/٢ .

(٣) القمعة : التحريك ، الشَّئَان : جمع

شئ وهو القرية البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا

الإبل للسير . مثل يضرب لمن يروعه

ما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اختبرت .

(٥) الكنافة : جبة السهام .

(٦) عجم : اختبر .

(٧) أوضع : أسرع في سيره أو ساربه القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تقرب من الحرب وعند

الخلاط على الخوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد .

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويرَوَى أن الحسن البصري كان يقول عنه إنه « يعظُ عظة الأزارقة ويبتطش ببتش الجبَّارين »^(١) ومن قوله في بعض مواعظه : « اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه وأرني القى غياً فأجتنبه ولا تنكيتني إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعداً »^(٢) .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة بحث فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً مَنْ يَنْقُصُ حَبْلَ الجماعة . وأكثر في خطب الجمع من المواعظ ، حتى سُمي خطيب الله^(٣) ، ويرَوَى أنه كان يخطب يوماً فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال^(٤) :

« سبحان مَنْ الجُرادةُ مِنْ خلقه . أد مَجَّ قوائمه ، وطوقها جناحها ، وشئى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة واثارين مختلفين حاربوا بنى أمية غضباً لدينهم كما دار على السنة خطبائهم فإن قواد بنى أمية في الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام في وقعة الحرّة : « يا أهل الشام أهدأ القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعزِّزوا به نصر إمامهم »^(٥) وقول المهلب بن أبي صفرة في حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قتلوا عليكم فتقتلهم في دينكم وسفكوا دماءكم »^(٦) . فقواد بنى أمية في هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق في جانبهم وأن أعداءهم أهل غيٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفي بلاد الروم لا يزالون يحشون جنودهم على الاستشهاد في سبيل الله مقتبسين من آى الذكر الحكيم ما يشعل حماسهم ،

(٤) هبرن الأخبار ٢٤٧/٢ .

(٥) طبرى ٢٧٥/٤ .

(٦) الكامل للبرد ص ٦٣٠ .

(١) البيان والنبين ١٦٤/٢ .

(٢) البيان والنبين ١٣٧/٢ والعقد الفريد

١١٥/٤ .

(٣) البيان والنبين ٢٧٥/٢ .

ويذكر جفوة شجاعهم وبسالهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتبية بن مسلم الباهلي وقد تهايا لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول ^(١) :

« وعَدَّ الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعده المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطناً يفيظ الكفار ولا يئالون من عدو نيلاً) إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخير عن قتل في سبيله أنه حيٌّ مرزوق فقال : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتجنزوا موعود ربكم » .

وأشهر في خراسان بعد قتبية غير قائد بالخطابة مثل أسد القسري ونصر ابن سيَّار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته في جنده حين دخلها مشهورة ^(٢) ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من هوض ورنق .

زياد ^(٣) بن أبيه

وُلد في عام الهجرة أو قبله بقليل لُسْمِيَّةَ جارية فارسية كانت للحارث بن كَلْدَةَ الثقفى المشهور بطبته ، ويقال إنه زوجها ثقفياً يسمى عُبَيْدًا ، ومن ثم كان يسمى في بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلد على فراش الحارث وأن عبيداً كان عبداً رومياً . ولم يكن ثقفياً .

٣/١٦ ٢٥٩ والأغانى (طبعة الساسى)

وما بعدها وابن حساكر ٤٠٦/٥ وألفقه للفريد
٤/٥ (راجع المهرس) ومروج الذهب
للمسعودى (طبعة مصر) ٢/٥٥ والطبرى في
« راجع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية
لأيهودن ص ١١٣ وما بعدها .

(١) طبرى ٥ / ٢١٤

(٢) انظر نفع الطليبي ١ / ١١٢

(٣) انظر في ترجمة زياد وتحقيق نسبه
طبقات ابن سعد ج ١ ص ٧٠ رأس الثانية
٢ / ٢١٥ والمعارف لابن قتيبة (طبعة - تونس)
ص ١٢٦ وتهذيب الأسماء والمقامات للزورى

وما نتقدم معه إلى عهد عمر . حتى نجد أبا سفيان ينسب إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أبلدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق . وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلّة تسجيل الغنائم وقسمها في الناس ، مما يدل على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاية البصرة يكتب لهم . ويوفده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر . فيعجب بذكائه ولأسنّه . ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعنّ عجز أم عن خيانة صرفني . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك ^(١) .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر وإليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلی وولّى على البصرة ابن عباس جملة على خراجها . وأتابه عنه أحياناً ، وأظهر في أثناء نيابته له حنكة . ذلك أن معاوية دسّ إلى تميم بعض من أفسدها على علي ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على علي أرسل به إليها وإلياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشّعث ورأب الصدع متوسلاً إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها : فوعدهم من نصره ومنّاه ، وخوفهم وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة . وقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جرحاً ولا حتراباً ، وفعل مثل ذلك بكرمان ^(٢) . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة ^(٣) » . ولما قُتل علي ظل على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحولت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتمص بفارس ، فكانته معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شعبة الثقفي ، ذاكرها ما بينهما من الرّحيم . وما زال به ، حتى دخل في طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ، ولما صار إليه

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .

(٢) طبرى ١/١٠٥ .

(٣) طبرى ١/١٠٦ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمونهم . ولم يلبث معاوية أن ولّاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة . فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفسّاق والحناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعه وقصّته مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقي حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعدد إلى سفك الدماء إلا حين تُعجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقّق أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارى في جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كَلِمَه صوغاً تَهَسُّ له الأسماع وتُصنّى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشّعبي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »^(١) . وخطبته مثل خطاب الحجاج تلور في موضوعين هما السياسة والمواظ على الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر خطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبراء^(٢) ، سُميت بذلك لأنها لم تبدئ بالتحميد والتمجيد^(٣) . وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجمل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي رَدَّتْ إلى البصرة أمّنها بعد أن عاث فيها الفسّاق واللصوص واضطرب حَبْلُ النظام . وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسم الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

(١) البيان والتبيين ٦٥/٢ .
 (٢) انظرهما في البيان والتبيين ٦٢/٢ ومبرور .
 (٣) البيان والتبيين ٦/٢ وانظر ٦٢/٢ .
 الأخبار ٢٤١/١ والعقد الفريد ١١٠/٤ .

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء^(١) والضلالة العمياء والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم وبشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا ينشأ^(٢) عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أهدى الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرم^(٣) الذي لا يزول . أنكونون كن طرفة^(٤) عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرن أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر^(٥) ويؤخذ^(٦) ماله وهذه المواخير^(٧) المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاية تمنع الفتوة عن دلج^(٨) الليل وغارة النهار ؟! قربتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتزرون بغير العذر وتغضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرمة الإسلام . »

وعلى هذا النحو استهل خطبته بتجسيم صور الفساد التي انتهت إليها حياة الناس في البصرة ، وهو في أثناء ذلك يقرع ساءميه بأنهم انبنوا كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترئون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل بصور خطبته في حكمهم وما أعدّه لهم من ضروب العقوبات ، يقول :

« إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى^(٩) والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : (انج ساعد فقد هلك سعيدي) أو تستقيم لي قناتكم . . من نقيب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياي ودلج الليل فلاني لأوتى بمُدلج إلا سفكت دمه .. وإياي ودعوى^(١٠) الجاهلية فلاني لا آخذ

(١) الجهلاء: وصف مؤكد كما تقول أهله ليلاء.

الرية .

(٢) ينشأ : ينفر .

(٦) الداج : السير في الليل .

(٣) السرد : الدائم .

(٧) الولي : السيد ، المولى : العبد .

(٤) طرف عينه : أصابها بشئ . فدمعت .

(٨) دعوى الجاهلية : قولهم ياقيم مثلاً ، إثارة

(٩) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت

من الشجر لقموه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفروا عنى أيديكم وألستكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحسن^(١) جعلتها دبر^(٢) أدنى وتحت قدمي ، فمن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قيناعاً ولم أهلك له سراً ، حتى يبدى لي صفحته^(٣) ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرعوا^(٤) على أنفسكم . فرب مسوء بقدمونا سنسره ، ومسروور بقدمونا سنسوه .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره في حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه مواد العقوبة وأنه سيأخذ بالظن ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرد سيفه لقتل من لا يرعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة في إعادة الأمور إلى نصابها في ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تسيب وبابها مفتوح عليها لا تخشى لعضاً ، وكان الشيء يسقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفي نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش . وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فليكن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته في الحكم بأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وأيضاً حين يجهر في ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانوه . ويمضي في فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولائه ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، وننودعنكم بفقى^(٥) الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

(١) إحسن : جمع إحسن . وهي الحقود نصبت . (٤) أرعوا : أبغوا وأرفقوا .
(٢) دبر : غلف . كناية عن أنه لا يهتم بها . (٥) التقى هنا : الخراج وغنائم الحروب .
(٣) أبنى صفحته : جاهر بمداوته .

فيا أحيينا . ولكم علينا العدلُ والإنصافُ فيما ولّينا ، فاستوجبوا عدلنا وقبيلتنا
بما صحتكم لنا .. وادعوا الله بالصلاح لأنّكم فلأنهم ساستكم المؤدّبون وكهفكم
الذى إليه تأوّن ، ومنى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد
لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا به حاجتكم ، مع أنه لو استجيب
لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يُعينَ كلاً على كلّ . وإذا رأيتموني
أنفذ فيكم الأمر فأنقلوه على أذلاله ^(١) ، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ،
فليحذر كل امرئٍ منكم أن يكون من صرعى .

وزياد في هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلمى المعروفة عند القروس ،
إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قبيل ربهم ، وفي ذلك دلالة
واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية . وهو يلوح لسامعيه بما في يد الدولة
من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنتهزها على رعاياها المطيعين الموالين لما
نشرأ ، ولا يلبث أن يهدّد من تحدّثهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا
فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة ، إذ ترسم سياسة زياد
وطريقته في الحكم من جميع أطرافهما . وهي مقسّمة إلى فقر تتسلسل فيها
الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وكل لفظة تقع في مكانها وقرارها مع جمال الדיباجة
ووضوح الدلالة ، فلا توعر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد يحكم خطابه في الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً ، وهو
فيه يُبدع ، كما يبدع في خطبه السياسية : ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال
إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهي تطرّد على هذا السياق ^(٢) :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولاً عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها
على طاعته ، فالتاسرين بحسن بنعمة الله ومسيء بخذلان الله إياه . والله النعمة
على المحسن والحجة على المسيء . فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه ورأى
العبرة في غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ولا يتكسر

(١) أذلاله : وجبهه .

(٢) البيان والبيان ٢٨٧/١ .

ما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عز وجل ، فأخذ ركب الله الذي حذر ركب نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة ، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة .

وواضح ما في هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وصلاح المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقاً ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه في بعض خطبه ، من أنه أوفى حُسنَ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المماليك

مرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللون من الخطابة ، إذ كانوا يتقدَّمون على ملوكهم وأمراءهم ، فيخطبون بين أيديهم مُشئين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تفتح أوزارها . وكثيراً ما خطبوا في الأسواق وفي عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقفون على الرسول زرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كي يطمئنون إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تتمثل بين أيديهم ، وكانوا يُغدقون عليها إغداً واسعاً . ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تردُّ تباعاً إلى ساحته ، تملن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظلاماً لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضيق عليها من نواله الغمَّر ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سنته . ومن اشتهر بالخطابة بين يديه سحَّبان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبه « الشَّوَاهِد » التي خطب بها عنده ، فلم يُشَدَّ شاعر ولم يخطب خطيب^(١) ،

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء . سَلَفَ من منطقته ^(١) » . ومنهم الأخنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع وصُحار بن عبيّاش العبّدي ، الذي قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ » قال : شيء . تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا ^(٢) » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعه ، ومَصْفَلَة بن رَقَبَة ورقبة بن مصفلة وكَثَرِب بن مصفلة ^(٣) ، ويقول إنه كان لم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ^(٤) ويقابل آل رَقَبَة وصُوحان في بني عبد القيس آل الأهم في تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهم الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات ^(٥) ، ومثله ابنه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبَة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيّناء عبد العزيز بن ذُرّارة الكلابي ، وهو الذي خاطب معاوية بقوله ^(٦) :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا أَلَوَى ^(٧) في الليل فقُبِضَ البصر وعُفِيَ الأثر أقام بدني وسافر أُملي ، والنفس تلومُ والاجتهاد يعنُر ، وإذا قد بلغتك فقطعتي ^(٨) » .

وواضح ما في هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضي خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروى فيها طويلاً حتى يروق لفظه الخليفة ومنْ يحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون في خطبتهم حتى يخلجوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتّاب في دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

(٥) نفس المصدر ١/ ٣٥٥ .

(٦) البيان والتبيين ٢/ ٧٥ .

(٧) ألوى هنا : استأثر .

(٨) قطي : يكفى .

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٩٦ .

(٣) نفس المصدر ١/ ٩٧ .

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٤٨ .

البيعة لابنه يزيد^(١)، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العنزي في خطبته التي صدر فيها عن رغبة عبد الملك في خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد^(٢). ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولي الكوفي، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخلف والناس مجمعون على ما به ينهيبن القول، فقال^(٣):

« يا أمير المؤمنين أجرك الله على امرؤيتي، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رُزئت عظيمًا، وأُعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبر له على ما رُزيت، فقد فقدت خليفة الله، وسُحنت خلافة الله، ففارقت جليلا، ووُهِبَت جزيلا... »

وبذلك افتتح باب الكلام للخطباء. وتلقانا من هذا التأين المزوج بالتعزية نصوص متعددة في المناسبات الماثلة. ومن أشهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر، وكان الحجاج كثيرًا ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطباؤهم بين يديه. وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبي حازم^(٤)، ولم يكثر الوعاظ على باب كثرهم على باب عمر بن عبد العزيز^(٥)، منهم خالد بن صفوان وعبد^(٦) الله بن الأهم ومحمد^(٧) بن كعب القرظي. وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن^(٨) صفوان في مجالسه، ولا فتر الكعبت من سجن خالد القسري وضاقته به الأرض بما رَحِبَتْ لها إلى ساحته متوسلا ببعض أهله، حتى إذا مثل بين يديه خطب خطبة طويلة^(٩) يستنزل بها عطفه عليه، فرق له وعفا عنه.

-
- | | |
|---|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وحيون الأخبار | (٦) البيان والتبيين ٢/١١٧. |
| (٢) ٢١٠/٢ والمقد الفريد ٤/٣٦٩ والآمال | (٧) نفس المصدر ٢/٣٤١/٣ و ١٤٣/٣ |
| (٣) ٧٢/٢، ١٧٧/٣. | ١٧٠ وحيون الأخبار ٢/٣٤٣، ٣٧٠. |
| (٤) البيان والتبيين ١/٤٨. | (٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وحيون الأخبار |
| (٥) زمر الآداب ١/٤٩. | ٣٤١/٢. |
| (٦) البيان والتبيين ٣/١٣٥. | (٩) أغاني (سأسي) ١٥/١١٣. |
| (٧) زمر الآداب ١/٧. | |

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يفدون على الولاة . واشتهر عمران بن حِطَّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة ^(١) . ومن وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربين وقلة نسخته ببعض قوله ^(٢) ، وكان قواده لا يسنون يرسلون إليهم من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن مَعْدان الأشقرى ينبئه بقضائه على الأزارقة ^(٣) .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم في المصاهرات ^(٤) وفي إصلاح ذات البين ^(٥) . وهناك خطب تأخذ شكل المنافرات القديمة . وهي تلك التي يقال إنها حدثت بين بعض بني هاشم وعمر بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعفناها ، ورجحنا انتحالها ، ومثلها ما يروى في بعض كتب الأدب من خصومة أبي الأسود الدؤلي وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر في هذه المحافل الأحنف بن قيس . ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحنف ^(٦) بن قيس

اسمه محضر ، وقيل الضحاك ، من بني سعد إحدى عشائر نعيم نُقْب بالأحنف لحنف ^(٧) كان في رجليه جميعاً ، وكان دميم الهيئة تفتححه العين . ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُسْنَة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولاتها في وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال في مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

١٣٥/٢ .
(٦) انظر في الأحنف طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ٤٦/١ ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبري (راجع فهرسهما) .
(٧) الحنف : الاهوجاج في الرجل .

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .
(٢) نفس المصدر ١٣٥/٢ .
(٣) الكامل للبهرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ .
(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٧٣/٤ وعيون الأخبار ٧٢/٤ والمغنى الفريد ١٤٩/٤ .
(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ .

الأرزاق ومن شقَّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقته إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ: «نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف ملتفٌ في بَتٍّ»^(١) له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبعق^(٢) منه ما تبعق، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد الرئاسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا^(٣). ويقولون إنه استبقاه عنده حولاً كاملاً ليبالغ في تصفح حاله. وعاد إلى البصرة وأخذ يتقيد على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش، إذ كان النصر دائماً يرافقه.

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أغمدت استجابة لرأيه، حتى إذا انتصر على دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صفين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه. وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علي أن يحكم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبث عمرو بن العاص ودهائه. وما زال على ولائه لعل إلى أن لبي ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولائه وخاصة زياداً يكبرونه إكباراً عظيماً، ونراه يصبح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يتقيد عليه من حين إلى حين، ويومع له في مجالسه، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره.

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة، بعد ولاتها، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب. وبلغ من مؤدده أنه لم يكن يُدارى، وأنه كان يجهز برأيه

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٣٧ وانظر ١/ ٢٥٤.

(١) البت: كساء صوف غليظ.

(٢) تبعق المطر: تفجر وانسال.

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله في شيء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريد ، جاهره برأيه في رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال ^(١) :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسيره وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضا ولمذه الإمامة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزهده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكانه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفى يزيد ، ويضطر عبيد الله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويسلم أمورهما إلى الأزدي وزعيمهما مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزدي ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويحقق الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامة الأحنف في طاعته ، ويقر به مصعب ويصبح من خدصائه ، فيقف معه في حرب المختار الثقفي ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى في أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكياً من قومه وعارفيه ، ويروى أن فرغانة بنت أوس بن حجر النخعية وقفت على قبره ، فأبنته قائلة ^(٢) :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر ^(٣) من مجن ^(١) في جسن ، ومدرج في كفسن ، فوالذي ابتلانا بفقدك ، وأبلفنا يوم موتك ، لقد عشت حميداً ، وميتاً فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، وارى الزناد ، منبع الحریم ، سليم الأديم ، وإن كنت في المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفاً ، ومن الناس لقربيا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوداً ، وإلى الخلفاء لموفداً ، وإن كانوا لقولك لستمعين ، ولزأيك لمتبعين » .

ومر بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه أنف مضر الذي تحطس عنه وأبسن العرب والعجم

(١) ابنه . ستره . تريد أنه ستر في الجن أي

وضع في القبر .

(١) العقد الفريد ١ / ٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٠٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

قاطبة^(١) . ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدي الخلفاء ، حتى يروعا منطقته ، لقدرته على حَوَكِ الكلام ونوشيته أحياناً بالسجع وأسابيل التصوير . ولم يكن يُطِيلُ في هذه الخطب ، بل كان يعتمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقته ، فقد وفد على معاوية مرة ، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه في الخليفة من مدد يد العون والمساعدة^(٢) :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير ، مع تتابع من المحول واتصال من الذحول^(٣) ، فالكثير فيها قد أطرق^(٤) ، والمقل قد أملق ، وبلغ منه المحتق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنمَّشَ الفقير ، ويَجْبَرَ الكبير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعتاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء^(٥) . وإن السيد من يم ولا يخلص ومن يدعوالجفلكلى^(٦) ، ولا يدعو النقرى^(٧) ، إن أحسن إليه شكر وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرجيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المضلات .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأنيبه في تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيستضونه في الترو والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على معاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصفح الجميل ، مستعطفاً ، ولكنه الاستعطاف الذي يَبْقَى فيه الرجل الكريم على مروته . ودائماً كلما قرأناه أحسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد ، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعاني التي يعبر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التي أشرنا إليها كما صورته كلمته الآفة ، وقد أتى بها حين ادلحم الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزدي بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه^(٨) :

- | | |
|---------------------------|-------------------------------------|
| (١) البيان والبيان ٦٠/١ . | (٥) اللأواء : الشدة . |
| (٢) زهر الآداب ٤٦/١ . | (٦) الدعوة الجفل : الدعوة العامة . |
| (٣) اللسول : الثارات . | (٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة . |
| (٤) أطرق : هزل وضعف . | (٨) البيان والبيان ١٣٥/٢ . |

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدين وشركاؤنا في الصبر وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار، وبدننا على العدو. والله لأزد البصرة أحب إلينا من نعيم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من نعيم الشام، فإن استشرى^(١) شتاً نكم، وأبى حَسَك^(٢) صدوركم في أموالنا وأحلامنا سَعَدَ لنا ولكم ».

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً، فأغمدت الأسنة وحفنت الدماء. وعلى هذا النحو تُنَبِّه خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه، إذ اعتبره سيد قومه وخطيب مصره.

٤

خطباء الوعظ والقصاص

نشط الوعظ والقصاص^١ الديني في هذا العصر نشاطاً عظيماً، فقد كان الوعاظ والقصاص في كل بلدة إسلامية لا يَسُونُ عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ في بيانه صفحاً كثيرة، أورد فيها أسماء طائفة من مبرزهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس. ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسود بن سريع وهو أول من قصّ بالبصرة^(٢)، وكان يقابله في الكوفة زيد^(٣) بن صُوحان في المدينة عُبَيْد بن عَسِير^(٤) وكان عبدالله بن عمر يتأثر بقصصهم وعظه حتى ليبيكى من شدة تأثره. ومن القصاص أيضاً إبراهيم^(٥) التيمي الكوفي وسعيد بن جبير، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر^(٦)، وسلم^(٧) بن جندب قاص مسجد المدينة، ونز^(٨) بن عبدالله، وكان بليغاً، وهو الذي كان يقص في جند ابن الأشعث حاثاً الناس على حرب الحجاج، ومطرف

-
- (١) استشرى : تفاقم . الشتان : العداوة .
 (٢) حَسَك الصدور : الحقد .
 (٣) ابن سعد ج ١ ص ٢٨ .
 (٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
 (٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين .
 (٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٨/٢ .
 (٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٨/٢ .
 (٨) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٨/٢ .

ابن عبد الله الشَّخِيرُ وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة^(١)، ومنهم وهب^(٢) بن منبه ويزيد بن أبان الرقاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه^(٣). ولينا لم نُخلِّق، ولينا إذ خلِّقنا لم نَمُصْ، ولينا إذ عَصِينَا لم نَمُتْ، ولينا إذ مَتْنَا لم نُبْعَثْ، ولينا إذ بُعِثْنَا لم نَحْمَسَبْ، ولينا إذ حوسبْنَا لم نَعْدَبْ، ولينا إذ عُدْبْنَا لم نَخْلَدْ.

فالقصاص كانوا وعظاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ، ومن اشتهروا بوعظهم عبد^(٤) الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء^(٥) ابن حنيفة والأوزاعي^(٦) في الشام وسعيد^(٧) بن المسيب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانيهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سئل ما مالك؟ قال: مالان: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس^(٨). ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد^(٩) بن كعب القرظي وعاظ عمر بن عبد العزيز. وكان العراق يمجج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن^(١٠) شبرمة ومورق^(١١) العجلي وبكر^(١٢) بن عبد الله المزني والشَّعبي^(١٣) وأيوب^(١٤) السخثياني ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتبية بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وسان طرير^(١٥). ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك^(١٦) بن دينار، وكان يقول في قصصه: ما أشد فِطام الكبير، وينشد:

وتروى عِرْسُكَ بعد ما هَرمتَ ومن العناء رياضةُ الهَرَمِ

- | | |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ١٧٠، ١٤٣/٣. | (٢) ٢٨٩/٢. |
| (٣) انظر في مواضعه عيون الأخبار ٢/٢٧٢. | (٤) وما بعدها ٢/٢٨١، ٣٢٨. |
| (٥) البيان والتبيين ١/٢٦٢. | (٦) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٣/١٤١. |
| (٧) عيون الأخبار ٢/٢٩٤. | (٨) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٤٠/٣. |
| (٩) انظر طوقاً من مواضعه في صفة الصفوة ٤/١٨٦. | (١٠) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢. |
| (١١) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨. | (١٢) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والمقد الفريد ١٧٠/٣ وطرير: محمّد. |
| (١٣) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤. | (١٤) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ١٩٧/٣. |
| (١٥) البيان والتبيين ٢/٣٤٤. | (١٦) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤٤. |

ومهم إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضربُ به المثل في الذكاء وصدق الفراسة^(١)، ومهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه الأهمتيان التميميان. وفيهما يقول الجاحظ: « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه للذي يحفظه الناس ويدور على السنتهم من كلامهما^(٢) » ويقول في خالد: « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدّمين في الخواص خالد بن صفوان . . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الورّاقين^(٣) » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمّاره، ويؤثّرُ عنه أنه كان يقول: « احذروا مجانيق الضعفاء يعنى الدعاء^(٤) » ومن قوله: « بيتٌ يلقي كلها أتمنى فلأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يكفني من ذلك رغيان وكوزان وطيمران^(٥) » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه^(٦).

ومن كبار وعظاء العصر وقُصّاصه الحسن البصري، وفيه يقول الجاحظ: « أما الخطب (الدينية) فلأنا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصري فيها^(٧) » ومن يأتي بعده في الوعظ عبد الله بن شداد، وهو القاتل: « أرى داعي الموت لا يُقْلَع وأرى من مضى لا يرجع^(٨) ». ومن كبار القُصّاص والوعظاء الفضل بن عيسى الرقاشي، وكان يسجع في وعظه^(٩)، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً^(١٠) » وهو الذي يقول في قصصه: « سَلَ الأرض فقل من شتّى أنهارك، وغرس أشجارك . . . وجنى ثمارك، فلن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً^(١١) ». ومن أشهر الوعاظ وأنبيهم واصل^(١٢) بن عطاء رأس المعتزلة، وكان أغزر خطباء عصره

-
- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| (١) البيان والتهيين ٩٨/١ وما بعدها . | (٨) نفس المصدر ١١٣/٢ . |
| (٢) البيان والتهيين ٣١٧/١ . | (٩) البيان والتهيين ٢٩٠/١ . |
| (٣) نفس المصدر ٣٣٩/١ - ٣٤٠ . | (١٠) البيان والتهيين ٣٠٦/١ . |
| (٤) البيان والتهيين ٢٧٤/٣ . | (١١) نفس المصدر ٣٠٨/١ . |
| (٥) نفس المصدر ١٦٤/٣ والطبر : | (١٢) انظر في ترجمة واصل الملل والنحل |
| النوب الليالي . | لشهرستان ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمان |
| (٦) عيون الأخبار ٣٤١/٢ . | وابن خلكان ولسان الميزان ٢١٤/٦ . |
| (٧) البيان والتهيين ٣٥٤/١ . | |

وَابْلَغَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ وَأَيَّنَهُمْ ، وَرُوتَى أَنَّهُ حَضَرَ يَوْمًا مَجْلِسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي إِمَارَتِهِ عَلَى الْمَرْقِ (١٢٦ - ١٢٩ هـ) وَحَضَرَهُ مَعَهُ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ وَشَيْبَةُ بْنُ شَيْبَةَ وَالْفَضْلُ بْنُ عِمْسَى الرَّقَاشِيُّ ، وَتَبَارَى الْإِبْرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْخُطَابَةِ ، فَفَضَّلَهُمْ بِخُطْبَتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي جَانِبَ فِيهَا الرَّاءَ ، إِذْ كَانَ يُلْتَمَسُ فِيهَا لَتَشَاءَ فَاحْشَاءَ ، وَفَوْهُ بِذَلِكَ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ طَوِيلًا ، قَبْلَ أَنْ يَفْسُدَ رَأْيُ وَاصِلٍ فِيهِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ (١) :

أَبَا حُلَيْفَةَ قَدْ أُوتِيَتْ مُعْجَبَةٌ فِي خُطْبَةٍ بَدَّهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرٍ
وقوله :

تَكَلَّمُوا الْقَوْلَ وَالْأَقْوَامُ قَدْ حَلَلُوا وَجَبُوا خُطْبًا نَاهِيكَ مِنْ خُطْبٍ
فَقَامَ مُرْتَجِلًا تَقَلُّ بَدَاهَتُهُ كَمِيرٍ جَلَّ الْقَيْنَ لِمَا حَفَّ بِاللَّهَبِ (٢)
وَجَانِبَ الرَّاءِ لَمْ يَشْمَرْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلَ التَّصَفُّحِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الطَّلَبِ
وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَزِمَ كَمَا زَعَمَ بَشَارُ أَنْ وَاصِلًا أَلْقَى هَذِهِ الْخُطْبَةَ عَلَى الْبَدِيَّةِ
فَإِنْ مِنْ يَرْجِعُ إِلَيْهَا بِحَسْبِ أَثَرِ التَّرْوِيَةِ وَالتَّحْضِيرِ وَأَنَّهُ نَأْتَى لَهَا فِي آثَانَةٍ حَتَّى اسْتَفَتْ
فِي نَسْقِهَا الْبَدِيعَ ، وَهِيَ مِنْ خَيْرِ مَوَاقِعِ الْعَصْرِ وَأَجْمَلِهَا وَأَبْرَعِهَا ، وَقَدْ اسْتَهْلَاهَا
بِتَحْمِيدٍ وَتَعْبِيدٍ أَطْنَبَ فِيهِمَا إِنْطَابًا لَا تَعْرِفُهُ لِأَحْمَدَ رُصَصَاتِهِ ، عَلَى هَذَا الْفِعْلِ (٣) :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَدِيمِ بِلَا غَايَةٍ ، وَالْبَاقِي بِلَا نِهَايَةٍ ، الَّذِي عَلَا فِي دَنُوهِ ، وَدَنَا
فِي عُلُوِّهِ ، فَلَا يَحْوِيهِ زَمَانٌ وَلَا يَحِيطُ بِهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَسْتَوْدُهُ (٤) حِفْظُ مَا خَلَقَ ،
وَلَمْ يَخْلُقْهُ عَلَى مِثَالِ سَبْقٍ ، بَلْ أَنْشَأَهُ ابْتِدَاعًا ، وَعَدَلَهُ اصْطِنَاعًا ، فَأَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ
خَلَقَهُ ، وَتَسَمَّى مَشِيئَتُهُ ، وَأَوْضَحَ حِكْمَتَهُ ، فَدَلَّ عَلَى الْوَهَيْتِهِ ، فَسَبَّحَانَهُ لَا مَقْصَبَ (٥) الْحَكْمَةِ
وَلَا دَافِعَ لِقَضَائِهِ ، تَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِسُلْطَانِهِ ،
وَوَسَّعَ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلُهُ ، لَا يَعْزُوبُ عَنْهُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لِمَا تَعَدَّ سَمَائُوهُ ، وَعَظُمَتْ آلاؤُهُ ، وَعَلَا عَنْ صِفَاتِ

(١) انظر في هذا البيت وما يليه في بيان والحقين

٢٤٨/١ .

الرسائل القادمة لعبد السلام مروان وبجهره خطب

المروان لأحمد ذكي صفوت ٢/٤٨٢ .

(٤) يجهو : يبتله .

(٥) لا سحب : لا راد .

(٢) لقتين : المبدأ .

(٣) انظر في هذه الخطبة المعلقة الثالثة من

كل مخلوق ، ونزّره عن شبه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحبط به العقول والأفهام ، يُعصَى فيَحْلُم ، ويُدْعَى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

وواضح أن أوصالاً يستظهر في هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم في وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرّره من ثبوت التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثل شيء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلاً في صلاته كما أطال في حمده . وبِفَيْتَسِر من صنيعه أخذ الكتاب من أمثال عبد الحميد يطيلون في تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته ، وأحضركم على ما يُدْثِيكم منه ويُرْزُقكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد وأحسن عاقبة في معاد ، ولا تُلهيكم الحياة الدنيا بزينتها وتُخَدِّعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شيء فيها يزول . فكم غايتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من حياتها ، وأهلكتم من جنح إليها واعتمد عليها ، أذاقتم حلواً ، ومزجت لهم سماً . »

وواصل في هذه الفقرة يردّد ما كان يَجْرِي على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حتى تقواه ، ويحذر من الدنيا ويرفها الخُلْب وما يُطَوِّر فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم في غوايات الشهوات ، والمائل من ازور عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمماً قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزود كلُّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيّلوا المنافع ، وأوثقوا الأبواب ، وكانوا الحُجَّاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبيضهم بحمليها^(١)

(١) المثل : الشقان حل الجبر يحمل فيها شخصان . والمضى احتوت عليهم .

وطحنهم بكتلكلها^(١)، وعصّتهم بأيابها، وعاضّتهم من السّعة ضيقاً، ومن العزة ذلاً، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللّحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُرى إلا مساكينهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تُحسّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم نَبْأً.

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقصص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصّتهم، وما صبّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جلب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة. ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، وكفى به واعظاً هادياً.

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته، إذ كان فاحش اللّشعة في الرأى، فخلّص كلامه منها تخليصاً، بحيث لم يكن أحد يظن للذك ليبيانه الرائع، يقول: إنه كان داعية ورئيس نحلة. وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لا بد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، ومن أجل الحاجة إلى ذلك «رام إسقاط الرأى من كلامه وإخراجها من حروف منطق، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأنّى لستره والراحة من هُجنته حتى انتظم له ما حاول واتّسق له ما أمّل. ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له. ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة، لأن ذلك يشمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة^(٢) الأكفء ومفاوضة الإخوان.. وذكر ذلك أبو الطرّوق الصّبّيّ فقال

علمٌ بليدال الحروف وقامعٌ لكل خطيب يغلب الحقُّ باطله^(٣)،

ولا شك في أن علول واصل عن الكلمات ذوات الرأى في جميع معاوراته آية بينة على تمام آله في البلاغة وإحكام صنعته. وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(١) الكلّكل: الصدر.

(٢) مناقلة: مدافعة.

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٤ وما بعدها.

معاً ، وخرّج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعطون الناس ويدعون إلى مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق في منزلة بين منزلي المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه فيقول (١) :

له خلفَ شَعْبُ الصِّينِ في كلِّ ثَغْرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر (٢)
رجالٌ دعاةٌ لا يَفْلُ عَزَمُهُمْ نَهْكُمْ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكِرٍ
وأوتادُ أَرْضِ اللَّهِ في كلِّ بِلَدَةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلمُ التشاجر (٣)
وما كان سَحْبَانٌ يشقُّ غبارَهُمْ ولا الشَّدَقُ من حَبِيٍّ هَلالٍ بنِ عامرٍ (٤)

وهو لا ينوه بوعظهم فحسب ، بل ينوه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة في عقول الناس . ويمضى فيصور براعة واصل في هذا العلم الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشبهة عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تلقب بِالْغَزَالِ واحدٌ عصره فَمَنْ لِلنِّبَايِ وَالْقَبِيلِ الْمُكَائِرِ (٥)
وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ وَآخَرَ رَافِضٍ وَآخَرَ مُرْجِيٍّ وَآخَرَ جَانِرِ (٦)
وأمرٌ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْكَارٍ مَنْكَرٍ وتحصين دين الله من كل كافرٍ
يُصْبِيونَ فَضْلَ الْقَوْلِ في كلِّ موطنٍ كما طَبَّقَتْ في العظمِ مَدْيَةُ جَازِرٍ
وسباهمُ مَعْرُوفَةٌ في وجوههم وفي المشي حُجَّاجاً وفوق الأباغرِ
وفي ركعةٍ ثَانِيٌ على الليلِ كُلِّهِ وظاهر قونٍ في مثالِ الضمايرِ

(٥) خير الأقوال في تلميح واصل بالغزال
أنه كان يجلس في سوق الغزالين ليعرف المتعفات
من النساء فيجمل صدقته لهن . انظر المبرد
ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

(١) البيان والتبيين ٢٥/١ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يرميه به علم الجدل في العقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجةً واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحرورية ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل في العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلاح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامه الحسن البصري، وظهر المرجئة بزعامه غيلان اللعشى وغيره من دعاة هذا المذهب في العراق وخراسان. وفي كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بني أمية^(١). واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بيّنة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصري في مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقاً، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافراً، لأنهم كما قدمنا كانوا يَفْصِلُونَ الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عبّيد من تلاميذ الحسن البصري، فجمع بينه وبين واصل لينظره في رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة^(٢)، ويقدم لها بأن واصل أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عبّيد، فحاوره في رأيه، وردّ عليه واصل ردّاً مفحماً مستخدماً بعض آي الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقي دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رموس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعَدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعّاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوالاته فحسب، بل أيضاً في آرائه، فإن فكرة الميزلة بين المنزلتين التي وضع فيها مرتكبي الكبائر فكرة لا يُؤْتَنَاهَا إلا من استبصر المعاني وعرف حدودها ومقاديرها ومدخلها ولطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة في الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا «الفن وفنائه في النثر» (٢) أمال المرتضى ١/١٦٥.

العربي، (طبع دار المعارف) ص ٧٩.

لا يأتي عفواً ، وإنما يأتي من تصفُّح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعِمَت فيها الأدلة ودقَّت المعاني ، واستمتت شعباً كثيرة من خيانتها ودفائها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التي كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثمَّ فتحت الأبواب واسعة للأسلوب المولَّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم في حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعَدُّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق ، وهياً لم ذلك شيئاً من الروي والتمهل كان له أثره في روعة الأداء ، حتى لرى فريقاً منهم يعمد إلى السجع في وعظه مثل أسرة الرقاشيين^(١) ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشي . ولكن هذا ليس الأسلوب الذي شاع في تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح في خطبة وأصل التي مرَّت بنا ، وفي خطابة الحسن البصري وغيَّيلان^(٢) الدمشقي ، وإنما ألجأهم إليه ضيق معاني الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدُّوا لهذا الأسلوب الذي نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومنَّ تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ : ولا أغلو إذا قلت إنهم أعلوا لشيوع لون الطباق في كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني .

(١) انظر في هذه الأسرة البيان والبيان (٢) انظر في مواضعهم الأخبار ٢/٢٤٥ .

٣٠٦/١ وما بعدها .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدوا إليه أيضاً كثيراً من
 الوصايا البلاغية التي بموجبها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلّمون
 شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابهم سواء من حيث إشاراتهم أم من
 حيث منطقتهم أم من حيث تنفيج معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف
 يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعهم وطبقاتهم، ومتى يُستحبُّ
 الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعول دائماً على وضوح الدلالة حتى يصنع
 الكلام في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هيأوا لظهور قواعد
 البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بمهايتها تصاف
 إلى أحد متكلميهم ووعاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن
 عبّيد ما البلاغة؟ فأجاب^(١):

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشك وعواقب
 غيئك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير
 اللفظ في حسن إلهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في
 عقول المكلفين وتخفيف المثونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب
 المريدن بالألفاظ الحسنة في الأذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم
 ونقمتي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت
 فصل الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب ».

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات
 البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاورة والمناظرة،
 ويؤثّر عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: « اعلم - رحمك الله - أن البلاغة
 ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة »^(٢)
 وكان شبيب بن شيبّة يقول: « الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح
 صاحبه، وأنا موكّل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظُّ جودة القافية
 وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت »^(٣). ولم يكونوا يتفقدون

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٤ وانظر المقد

(٢) المقد الفريد ٢/ ٢٦١.

(٣) البيان والتبيين ١/ ١١٢.

الفريد ٢/ ٣٦٠ وزهر الآداب ١/ ٩٣.

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناباه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلاً عند الحسن البصري وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن^(١) البصري

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمي يسمى يساراً من سبي ميسان بيجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة في وادي القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت تروى أحاديث عن أم سلمة وتُدبجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق في نفس ابنها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفي أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما في المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة على حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يمتنع عن المشاركة في الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك في الأحداث والفن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمداواة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولاً الوقوف على جوانب التشريع الإسلامي . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية في الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة في خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

والمقد الفريد وعيّن الأغبيار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصري لابن الجوزي والحسن البصري لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربي) .

(١) انظر في ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ وفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وآمال المرتضى ١٥٢/١ والكامل فيبرد والبيان والتبيين

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبعاً من يتابعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالاً منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ في مصره إذ كان لا يجارى في بلاغته وبيانه .

ويُكبره عصره كما تكبره العصور التالية لزمه الذي لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاء من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازع ، حتى تسوّغ آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله يتنظم بين رؤاها الأولين ، فالجبرية يقولون إنه كان بنى حرية الإرادة وينهب إلى أن كل شيء بقضاء من الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويعمله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَرِيّاً ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوه به الجاحظ المعتزلي هذا التنويه العريض الذي تلقاه دائماً كلما ذكره في صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه في القدر ، فكتب إليه رسالة ضمّمها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله^(١) ، وتلقّى بهذه الرسالة في نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك^(٢) .

والذي لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد في عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شيء والزهد شيء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صور إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيّناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعفّت تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه في مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر) (٢) انظر مصورة هذه الرسالة في دار الكتب
المصرية بقرم ٢٢١٠ أدب .
آباد) ص ١٢ .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عياداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقبيل أن يتولى القضاء إلى فترة في عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه وعربي محكك^(١) . ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص^(٢) البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكنت^(٣) » وهو إنما يتعنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أنصح من الحسن والحجاج^(٤) . وكان يجمع إلى فصاحته حساً لغوياً دقيقاً ، وما بصور ذلك ما يروى عن رجل من بني مجاشع قال : « جاء الحسن في دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تغفل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجوهكم ، وأجرك الله^(٥) » .

وتعرج بعضاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تنوج بها ترجمته في الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وقد نوه به الغزالي في الإحياء مراراً . وهو في مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم ومحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب : فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته^(٦) .

وهو في وعظه ينفر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثاً على التفتوى والعمل الصالح والتأسي بالرسول ومحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكريمة التي حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التي رواها له الجاحظ قوله^(٧) :

« يا بن آدم بيع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس

(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .

(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .

(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .

(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون

الأخبار ٢/٣٤٤ .

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٢) النصيب : البيت من نصيب ، وكان في

البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها

الحسن زهداً وورعاً .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .

والساعة تسوقكم، وإنما يستنظر بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً راتحاً ^(١) لم يضع لبيبة على لبنة ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) . يابن آدم طأ الأرض بقدمك فلمها عما قليل قبرك، وأعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرت ففكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . يابن آدم اذكر قوله : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عدل ، والله ، عليك من جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . لقد صحبت أقواماً ^(٢) ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن تُردَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم ^(٣) ، تهادبتم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوئنا . أعبدوا الجواب فلأنكم مسئولون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتقى ، ولكنه ما وقَّرت في القلوب وصدَّقته الأعمال .

وواضح كيف كان يمزج عظته بأى الذكر الحكيم مستعبراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم » وفى الحديث النبوى : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتى بها فى تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) ثم عقَّب عليها بقوله ^(٤) :

(٣) يريد لو تكشفت حبوب بفسكم لبعض
لاستقلتم المشى فى الجنائز .
(٤) آمال المرتضى ١/ ١٥٤ .

(١) يريد أنه كان يمشو ويروح فى كسب
ميشه الضرورى .
(٢) يريد صحابة الرسول .

« إن قوماً غَدَّوْا في المطارف ^(١) العِتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيقون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمَّة أزلوا دينهم وأضنوا برأذنيهم ^(٢) وسعوا دورهم وضيقوا قبورهم . ألم ترم قد جندَّ دوا الثياب وأخلفوا الدين ، يتكئ أحدكم على شماله : فيأكل من غير ماله .. يدعو بحلِّو بعد حامضٍ وبحارٍ بعد باردٍ وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكِظَّة ^(٣) تحشَّأ من البِشم ^(٤) ، ثم قال يا جارية هاتِي حاطوماً ^(٥) بهضم الطعام ، يا أحييِّمق لا والله لن نهمم لإدينك أين جارك ؟ أين يتيملك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزَّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكمهم ظلموم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الحنيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعشَّف بالأغنياء عنقه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلَّ ورقها وكثر شوكها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسيلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلعها الرابحة ، ومن قوله ^(٦) :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قصداً ، وقدَّم فضلاً ، وجَّهوا هذه الفضول حيث وجَّهها الله ، وضَعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ، ففضَّحها ، فلا والله ما وجد ذو لب فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جِماعها الضلالة وميعاها النار . أدركتُ من صدَّ رَهْذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم ^(٧) . . . يابن آدم إن كان لا بُغْيَنيك

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من غز . (٥) الحاطوم : الماضوم المهضم .

(٢) برأذنيهم : دواجم (٦) كلبان والتبيين ١٣٥/٢ .

(٣) الكِظَّة : الشح . (٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا

(٤) البِشم : الامتلاء . أو من حذاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغْنِيكَ ، وإن كان يُغْنِيكَ ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من
 ١ . وما أعدَّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويحُلِّلُ الحزن مواعظه ، فهو
 دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره و لقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ،
 فطُوبَى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوّه ورواحه المعاد ، وأعدَّ هذته ليوم الحساب
 يوم موقفه بين يدي الله ، وهو لا يدرى أيُّ مَرٍّ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن
 التذكير في ذلك حرى أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والم آتاء الليل وأطراف
 النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصري ،
 وقد كان يختار لها كُسُوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ،
 كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من
 مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما ابتلاه ، وعمره
 فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه . »

وهو بلا ريب أكبر من ثبتوا في هذا العصر ذلك الأسلوب الموزن الذي تأثر
 به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع
 السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع
 تحلية لفظه بالمزاجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتفسيات الدقيقة .

الفصل السابع الكتابة والكتاب

١

التلويح

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم - كما مر بنا - على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتح بالأعاجم مهبطاً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه مصف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أمية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والإسلامية واضحة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار ^(١) ومن أشهرهم دغفل ^(٢) بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت في كتاب له اسمه « التضايف والتناصر » ^(٣) وهي تدور بينهما في أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويحبيه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريفة ^(٤).

الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .

(٣) انظر التنقيح للبهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ١/ ١٢١ ، ٢٤٧ ، ٤٨٠/٢ .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/ ٢١٨ وما بعدها

(٢) راجع في ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال المهدي ٢/ ٢٧٣ والإصابة ، وفي

ويجانب ذلك نجد القبائل تُعَنِّي بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها، وتكاثُر هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام^(١) . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يُكْتَبُ ويدون ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذى الرمة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أحب إلي من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم يشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »^(٢) ، وفي أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حينئذ بإعداد ألواح ودواة ليحمل عليه بعض أشعاره^(٣) وأنه كان يقول لسامعيه بـالمِرْبَد قَيِّدُوا قَيِّدُوا أي اكتبوا^(٤) ، وفي الأغاني أن خالد بن كلثوم الكلبي كان يدون شعره وشعر الفرزدق^(٥) . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة ، يُعَنِّي بتدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثلهُ أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ (تسك) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »^(٦) .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بديهم الخفيف فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيَت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقين الناس الفقه وشؤون التشريع . وكان كثيرون من المعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون . وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم ، وحمل عنه تفسيره نفر من التابعين

(١) أغاني (دار الكتب) ٩٤/٦ .

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .

(٢) الحيوان ٤١/١ .

(٥) أغاني (سامي) ١١/١٩ - ١٢ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيلن)

(٦) البيان والتبيين ٣٢/١ .

ص ٤٣٠ وانظر أغاني (دار الكتب) ٣٢/٨ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل: «مصر مصيصة في التفسير عن ابن عباس رواها على بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً»^(١). ولا يتحمل تفسير الطبرى تفسير ابن عباس وحده، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب. وقد أخذت معظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون، وما نشك في أن كثيراً منها دون في هذا العصر، وإلا ما وصلت إلى الطبرى. وكان الصحابة والجليل الأول من التابعين كما مر بنا في غير هذا الموضع يترددون في تدوين الحديث، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتبون بالحفظ خشية النسيان، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصور لنا ذلك البغدادى في كتابه «تقييد العلم». ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث، ويُعنى بذلك كما مر بنا الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه، ويتابع التدوين فيه. وعلى نحو ما أخذوا في تدوين الحديث والتفسير أخذوا في تدوين الفقه، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية، فلأنهم حرروا فتياه ومذهبه في التشريع^(٢). ويذكر جولدتسيهر أن عروة^(٣) بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة^(٤). ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم في أنهم هم المهادون المهديون الذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عونا بفتاوى على وأقضيته: ويظهر أن أول من ألفت فيها سليم بن قيس الهلالي معاصر الحجاج^(٥)، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد في المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر في الفقه اسمه «مجموعة زيد بن علي»^(٦).

وأخذت تدون منذ القرن الأول مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عونا

-
- | | |
|---|---|
| (١) انظر النوع التاسع والسبعين في كتاب الإختقان للسيوطي. | وصفة الصفوة ١٧/٢ والمعارف لابن تينية ص ١١٤ |
| (٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام المظمين لابن قيم الجوزية. | (٤) انظر مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |
| (٣) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب | (٥) الفهرست ص ٣٠٧. |
| | (٦) مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية |

بها عروة بن الزبير وأبان^(١) بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة وهوب^(٢) ابن منبّه المتوفى سنة ١١٤ . وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين ، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المختصون الذين عاشوا في العصرين الأموي والعباسي كتبهم التاريخية التي يُفِيضُ القهرست لابن النديم في بيان أسماؤها ، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ . وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ . ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة ، وتمثلت هذه العناية في معاوية ، إذ استقدم عُبَيْدُ^(٣) بن شَرِيَّةَ الجهمي اليمنى ليحدثه في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين ، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم ، فتألف من ذلك كتابه « أخبار الأمم الماضية » وكان متداولاً في عصر المسعودي^(٤) . وقد طُبع له في « حيدرآباد » كتاب باسم « أخبار عبيد بن شريّة الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وهو يدور في أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية ويحيى عبيد ، ويستهلُّ بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تُبَعِّعُ إلى زمان مملكة طسم وجديس ، وتتخلله أشعار كثيرة . ومن نمطه كتاب التيجان لهوب بن منبه ، وهو مطبوع معه ، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة . ولهوب كتاب يسمى « المبتدأ في الأمم الخالية » ذكره المقدسى^(٥) وقال السخاوى إنه كثير الخرافات^(٦) . وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المقصرون كثيراً ، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسَبُ إليه باسم « قصص الأنبياء » . ويلمع في هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب^(٧)

(٣) راجع في ترجمته القهرست ص ١٣٢ والمصريين لأبي حاتم السجستاني وسميع الأديب . ٧٢/١٢ .

(٤) مروج الذهب (طبعة أوروبا) ٨٩/٤ .

(٥) أحسن التقاسيم المقدسى ص ١١٥ .

(٦) الإعلام بالتأويخ ص ٤٨ .

(٧) انظر في ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ ..

(١) انظر في ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والقهرست ص ٤٥ وابن سعد ١١٢/٥ والنورى (طبعة وستفولد) ص ١٢٥ .

(٢) انظر ترجمته في كتاب المعارف ص ٣٠١٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥ وبيزان الاحتفال ٢٧٨/٣ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ السيوطى ١٧/١ وشلوات ابن العباد ١٥٠/١٥٠ .

الأخبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق في حديث ذى الكفيل .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وضعُ زياد بن أبيه لكتاب في المثلث ^(١١) ووضعُ ابن مفرغ الشاعر قصة تُبَّع وأشعاره ^(١٢) وتأليف كل من علاقة الكلاني ^(١٣) معاصر يزيد بن معاوية وصُحار ^(١٤) المتبدي كتاباً في الأمثال . ومن ذلك كتاب ^(١٥) في الوصايا والحكم للمستورد بن علفة الخارجي . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبه لكتاب في القدر ^(١٦) ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان ^(١٧) المرجيء رسائل في ألئى ورقة ^(١٨) ، ومع أنها كانت تدور في المواعظ ^(١٩) تؤمن بأنها حملت آراءه في الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة ^(٢٠) . ومربنا في الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصري أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك محتج لرأيه في القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمل عنه ^(٢١) . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب في الغناء ^(٢٢) ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب ^(٢٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين في عصر بني أمية ، ولا نشك في أن القوم دونوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يرووها وكذلك قل في رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتاب البلقاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة ^(٢٤) . وبالمثل كانوا يدونون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

-
- | | |
|---|---|
| (١) انظر الفهرست ص ١٣١ . | (٩) انظر عين الأخبار ٢/ ٣٤٥ . |
| (٢) أغاني (سأس) ١٧/ ٥٢ . | (١٠) البيان والتبيين ١/ ١٥٠ . |
| (٣) الفهرست ص ١٣٢ . | (١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ . |
| (٤) نفس المصدر ص ١٣٢ . | (١٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) |
| (٥) المبرد ص ٥٧٨ . | ٣٩٨/ ٤ . |
| (٦) انظر معجم الأدباء ١٩/ ٢٥٩ . | (١٣) الفهرست ص ٢٠٧ . |
| (٧) مفتت مصادر ترجمته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . | (١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها . |
| (٨) الفهرست ص ١٣١ . | |

الخلفاء والخطباء النابيين وعظماً وغير وعظاً ، من مثل الحسن البصري وواصل ومثل خالد بن صفوان^(١) المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : « لكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين »^(٢) ومثرت بنا في الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا في حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغولاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحراوات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة »^(٣) . ومثّر بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهون في الطب ، ويروى الرواة أن ثيادوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم في علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا^(٤) وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسططاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية^(٥) . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية^(٦) . ومعنى كل ما قدمنا أن التلويين أخذ يذيع ويتشرب بين العرب لهذا العصر في جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لتحدث عما خُصّص العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل الملوّنة

ترخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أثرت عن هذا العصر .

- | | |
|---|---|
| (١) انظر في خالد الماروف ص ٢٠٦ | (٤) انظر طبقات الأعيان لابن أبي أصيبعة ١٢١/١ وابن القفطي ص ١٠٥ . |
| (٢) البيان والتبيين في مواضع متفرقة (راجع الفهرست) وابن خلكان ومعجم الأدباء ٢٤/١٢ | (٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة الحلبي) ص ٦٩ . |
| (٣) البيان والتبيين ٣٤٠/١ وانظر الفهرست ص ١٥١ . | (٦) النظره صفحات من ليرانه لصادق نشأت ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١ |
| (٣) الفهرست ص ٤٩٧ . | |

وحقاً هناك كتب تزيّدت في هذه الرسائل ونقصت كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة. ولكن إذا نحّينا هذين الكتابين وأضرابهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبري والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة في الطبري سيول من هذه الرسائل كتبها على مرّ العصر وأحداثه فرق الخوارج والشيعة والزبيريين ومنّ ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بني أمية وولاهم وقوادهم .

ولن نستطيع أن نعرض كل ما رُوي للخوارج من رسائل ، لكثرتها ، ومن ثمّ سنكتفى بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شتجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هي الأزارقة والنّجديّة والصّفّورية والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق بحرمون القعود عن الخروج ويستحاثون دماء المسلمين وقتل أطفالهم ، وخالفهم في ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد في تصوير هذا الخلاف رسالتين^(١) متبادلتين بين نّجدة بن عامر الحنفي زعيم النّجديات ونافع بن الأزرق ، فنّجدة يراجعها في مقالته ، ونافع يمتحنها . والرسالتان وثيقتان طريقتان في بيان مقالتي النّجديات والأزارقة . ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع في وقعة دولا ب ، فقد ظلّوا بحاربين قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق في طاعة عبد الملك مضوا في ثورتهم ، وظلّت الجيوش توجّه إليهم ، يوجهها ولاية العراق وخاصة الحجاج ، وكان زمرهم لعنده قطرى ابن الفُجاءة ، ونرى الحجاج يرأسه مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قَطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعّد ، ونحن نسوق رسالتين^(٢) لهما تصوّران كيف كان يرأس الولاية مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجرى على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فلنذكّ مَرَقَتَ من الدين مَرَوَقَ المَهم من الرّميّة ، وقد علمت حيث تَجَرَّعَتُمُ ،^(٣) ذاك أنك عاصي لله ولولاه أمره . غبر أنك أعرابي

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

ص ٢١٤ .

(٢) البيان والتبيين ٣١٠/٢ وانظر المبرد

(٣) تجرّعت الشيء : أخذت معظه .

جِلْفٌ^(١) أَمْ تَسْتَظِمُ^(٢) الْكَيْسِرَ وَتَسْتَشْفِي^(٣) بِالْمَرَّةِ ، وَالْأُمُورَ عَلَيْكَ حَسْرَةً ،
خَرَجْتَ لِنَتَالِ شُبَّةٍ^(٤) ، فَلَحِقَ بِكَ طَعَامٌ^(٥) صَلَّوْا بِمَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ الْعِيشِ
فَهُمْ يَهْزُونَ الرِّيحَ وَيَسْتَنْشِدُونَ^(٦) الرِّيحَ ، عَلَى خَوْفٍ وَجَهْدٍ مِنْ أُمُورِهِمْ ،
وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِنَزْحَتَيْنِ^(٧) .
وَالسَّلَامُ .

وَأَجَابَهُ قَطْرِي :

« سَلَامٌ عَلَى الْمُتَدَاةِ مِنَ الْوَلَاةِ الَّذِينَ يَتَرَعَّوْنَ حَرِيمَ اللَّهِ وَيَرْهَبُونَ نِقْمَتَهُ ،
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ دِينِهِ ، وَأُظْلِمَ بِهِ أَهْلُ السُّفَالِ^(٨) وَهَدَى بِهِ مِنَ الْفَضَالِ
وَنَصَرَ بِهِ عِنْدَ اسْتِخْفَاكَ بِحَقِّهِ . كُتِبَ إِلَى تَذَكُّرِ أَفَى أَعْرَابِي جِلْفٍ أَمْ
أَسْتَظِمُ الْكَيْسِرَ ، وَأَسْتَشْفِي بِالْمَرَّةِ ، وَلَمْ تَسْمُرْ يَا ابْنَ أُمٍّ الْحِجَااجَ^(٩) لِمَنْتَبِهِ فِي
جَبِيلَتِكَ^(١٠) ، مُطْلَخِيْمٌ^(١١) فِي طَرِيقَتِكَ ، وَاهٍ فِي وَثِيقَتِكَ^(١٢) ، لَا تَعْرِفُ اللَّهُ
وَلَا تَجْزَعُ مِنْ خَطِيبَتِكَ ، يَسْتَوِي سَيْسَاتُكَ مِنْ رَبِّكَ ، فَالْشَّيْطَانُ قَرِينُكَ ،
لَا تَجَاذِبُهُ وَتَأْكُلُ ، وَلَا تَنَازَعُهُ خِثَاقُكَ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أَهْرَزَ لِي
صَفْحَتَكَ ، وَأَوْضَعَ لِي صَلْعَتَكَ^(١٣) ، فَوَالَّذِي نَفْسُ قَطْرِي بِيَدِهِ لَعَرَفْتُ أَنَّ
مُقَارَعَةَ الْأَبْطَالِ لَيْسَ كَتَصْدِيرِ^(١٤) الْمَقَالِ ، مَعَ أَفَى أَرْجُو أَنْ يَنْدَحْضَ اللَّهُ
حُجَّتَكَ ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي مُهْجَتَكَ .

وَوَاضِعُ أَنْ كَلَا مِنْهُمَا يَرَى صَاحِبَهُ بِالْفَضَالَةِ وَالْغَوَايَةِ ، وَقَدْ عُيِنَا جَمِيعًا
بِالتَّائِقِ فِي أَسْلُوبِهِمَا . وَمِنْ ثَمَّ زَيْنَتَا كَلَامِهِمَا بِالسَّجْعِ . وَإِذَا تَرَكْنَا الْأَزَارِقَةَ
إِلَى الصُّغْرِيَّةِ وَجَدْنَا شَبِيهًا بِرِاسِلِ صَالِحِ بْنِ مَسْرُوحٍ حَاضِرًا عَلَى الْخُرُوجِ^(١٥) .
وَلَمْ تَحْتَفِظِ الْمَصَادِرُ بِرِسَالَتِ لِلنَّبْجَاتِ وَالْإِبَاضِيَةِ .

-
- | | |
|--|---|
| (١) جِلْفٌ : جَافٌ . | (٨) أَظْلَمَ : مِنَ الظُّلْمِ وَهُوَ الْمَرْجُ . السَّفَالُ : |
| (٢) تَسْتَظِمُ النَّاسَ : تَسْلُمُ أَنْ يَطْمَؤُنَا . | سَفَوْنُ الظُّلْمِ . |
| (٣) تَسْتَشْفِي : تَطْلُبُ الشِّفَاءَ . | (٩) يَقُولُونَ ذَلِكَ إِذَا أَرَادُوا الظُّلْمَ فِي النَّسَبِ . |
| (٤) الشُّبَّةُ : مَا يَشِيعُ مِنَ الطَّعَامِ . | (١٠) مَنِيهِ : مَضَلُّ . الْجَبَلَةُ : السَّبِيَّةُ . |
| (٥) طَعَامُ النَّاسِ : أَرْدَاهُمُ . | (١١) مُطْلَخِيْمٌ : مُتَعَجِّفٌ . |
| (٦) يَسْتَنْشِدُونَ الرِّيحَ : يَسْتَسْمِرُونَهَا ، كِتَابِيَّةٌ | (١٢) الْوَثِيقَةُ : الثَّقَلُ . |
| مِنْ جَوْهَرِهِمْ . | (١٣) كِتَابِيَّةٌ عَنْ ذَلِكَ وَانْكَشَافُ أَمْرِهِ . |
| (٧) يَشِيرُ الْحِجَااجُ إِلَى مَزْمِنَتَيْنِ هَزَمَهُمَا | (١٤) تَصْدِيرُ الْمَقَالِ : تَطْيِيرُهُ وَتَحْيِيرُهُ . |
| الْأَزَارِقَةَ أَمَامَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي سَفْرَةَ . | (١٥) طَبَرِي ٥٢/٥ . |

ورسائل الشيعة في هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات ^(١) تحض على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين. ونمضي بعد مقتله فتلقانا حركة التوآبين ، وبصور زعيمهم سليمان بن صرد في مكاتبته لبعض أصحابه ندمهم على خذلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالتآمر من قاتليه ^(٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفي لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويكثر من المكاتب إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول ^(٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبيلته ، فيسلم أنتم : أما بعد فويل أم ربيعة من مضر ^(٤) ، فإن الأحنف مورد قيمه سقر ^(٥) ، حيث لا يستطيع لم الصدر ^(٦) ، وإني لأملك ما خط في القدر ، وقد بلغني أنكم تسموني كذاباً : وإن كذبت فقد كذبت رسل من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » .

وفي الرسالة خصائصه التي مرت بنا في خطابته ، إذ كان يعنى باختبار ألفاظه والسجع في كلامه : وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفي إلى أنه يوحى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً في خطابته وأخاذه كما استخدمه في الرسالة الآتية ^(٧) .

وأثرت عن ابن الزبير ولولته في العراف رسائل كثيرة احتفظ بها الطبري ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار ^(٨) الثقفي . ونرى ولاته يكتبون من وجههم إلى الخوارج ^(٩) . ونلتقي في عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القريّة المشهور بسجعه .

- | | |
|---|------------------------------|
| (١) طبري ٢٥٧/٤ وما بعدها . | من قبائل مضر . |
| (٢) طبري ٤٢٩/٤ . | (٥) سقر : جهنم . |
| (٣) طبري ٥٣٩/٤ . | (٦) الصدر : الرجوع . |
| (٤) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التمجيد منه . وكان المختار يمل من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها تتكلم بتسم وغيرها | (٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها . |
| | (٨) طبري ٥٤١/٤ . |
| | (٩) طبري ٤٨١/٤ وما بعدها . |

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت في البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون باليهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم^(١)، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بني أمية . وكذلك كانوا يكتبون باليهود إلى من يولونهم على الولايات^(٢) . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آية بينهم وبين ولائهم في كل كبيرة وصغيرة . وكان قوادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولائهم وقوادهم من مراسلات يتطنجح بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية في شأن حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة^(٣) ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته في الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن علي^(٤) ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد في وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه^(٥) . ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولائهم كما كثرت في عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يكثر من الكتابة إلى قواده ، ويكثر من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآنفة التي أرسل بها إلى قطرى . ولا بد أن نقف قليلاً عنده إذ كان يُعنى بتحرير رسائله على نحو ما كان يعنى بتحرير خطبه . ونراه يكثر من مراسلة المهلب وحسنه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة^(٦) ، كما يكثر من مراسلة قواده في حروب الخوارج الشيبية^(٧) وفي فتنة ابن الأشعث^(٨) وحروب خراسان^(٩) . ورسائله مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدة وحدة ، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سامان بن عبد الملك — وهو لا يزال ولياً للمهد — من رسالة له : « إنما

(١) طبرى ٣٠٧/٥ .

والكتاب الجيوشورى ص ١٠١ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .

(٣) طبرى ١٢٠/٤ راجع ص ٦٦٧ وما بعدها

(٤) طبرى ٢٠٢/٤ وما بعدها .

(٥) طبرى ٧٩/٥ وما بعدها .

(٦) طبرى ٢٥٠/٤ وما بعدها .

(٧) طبرى ١٤٩/٥ وما بعدها .

(٨) طبرى ٢٦٥/٤ وما بعدها والوزراء

(٩) طبرى ١٢٠/٥ ، ١٤٦ .

أنت نقطة من مباد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت
لها ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتك^(١) .
وكان الخلاف دب^٢ بينهما ، ومن ثم حاول كما قلنا أن يصرف ولاية العهد عنه ،
ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة .
ومعروف أنه كان صنيعه عبد الملك ، فهو الذي أظهره ، وما زال يرفع من
أمره حتى ولاه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأتق ما استطاع في
تعبيره ، ومن خير ما يصور ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها
لعبد الملك خصباً بعد جدب ومطرأ بعد قحط ، وهي تجرى على هذا
النمط^(٣) :

« أما بعد فلما نخب أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وإبل^٤ منذ كتبت أخيره
عن سُفيا الله إيانا إلا ما بسل وجه الأرض من الطس^٥ والرث^٦ والرذاذ^(٧) ، حتى
دُكعت^(٨) الأرض واقتشمت^(٩) واغربت^(١٠) ونارت في نواحيها أعاصير تندرو^(١١)
دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها^(١٢)
وامتناعها ، وأرضنا أرض سريع تغيرها ، وشيك تنكرها ، سبي^{١٣} ظن أهلها عند
قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(١٤) يوم الجمعة ، فأنارت زبرجاً متقطعاً
منمصرأ^(١٥) ، ثم أعقبته الشمال^(١٦) يوم السبت ، فطحت^(١٧) عنجهما^(١٨)
وألقت متقطعته ، وجمعت منمصره ، حتى انتضد فاستوى ، وطأ وطأ^(١٩) ،
وكان^(٢٠) جونا^(٢١) مرفعتنا^(٢٢) ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابل منهل

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمنصر :
المتقطع .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(١٢) طمطحت : بددت وقرقت .

(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(١٤) طأ : امتلأ وزخر ، وطأ : انبسط
وملأ الأرض .

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

(١٦) الجهن : الضارب إل السواد

(١٧) مرفعتنا : سائلا .

(١) البيان والتبيين ١/٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٩ .

(٣) الطس والرث والرذاذ : المطر الغليل .

(٤) دكعت : غلت من البات .

(٥) اقتشمت : تقبضت من الجذب .

(٦) اغبرت : تربت من الغبار .

(٧) تدر : تسلى وتعمل .

(٨) الامتزاز : من المزاز ، وهي الأرض

الصلبة .

(٩) القبول : الريح الشرقية .

مُنْجِل^(١) ، يردف^(٢) بعضه بعضاً ، كلما أردف شُبوب أردفته شَائِب^(٣) لشدة وقعه في العِراض^(٤) . وكتبْتُ إلى أمير المؤمنين ، وهي ترى بمثل قِطْعِ القُطْن ، قد ملأَ اليَتَاب^(٥) . وسدَّ الشَّعَاب^(٦) ، وسقَى منها كلُّ ساقٍ . فالحمدُ لله الذي أنزل غَيْبَهُ ونشر رحمته من بعد ما قَنَطُوا^(٧) ، وهو الوليُّ الحميد ، والسلام .

ويتضح في الرسالة ما اشتهر به الحجاج في خطبه من ترتيبها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يمتثلون لكلامهم ، وينمونه صوراً مختلفة من التمني ، وسرى عما قليل طبقةٌ من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتّاب الدواوين .

وأخذت تشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّظ أن يرسلوا إليه بعضاتهم ، ويُرَوِّى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّح له رسالة طويلة أسهلها بقوله^(٨) .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِيَامَ كل مائلة وقَصْدَ كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفَ كل مظلوم ، ومفرج كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرقيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويدودها عن مراتع الملكة ، ويحميها من السباع ، ويكفيها من أذى الحرِّ والقُرِّ^(٩) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة بولدها ، حملته كرها ، ووضعت كرها ، وربته طفلاً ، تشهر به سره ،

(١) منجل : منصب .

(٢) يردف : يمتنع .

(٣) الشَّائِب : جمع شُبوب وهو النفة

من المخر .

(٤) العِراض : جمع عرض وهو الناحية .

(٥) اليَتَاب : الموضع الخالي لا نبات فيه .

(٦) الشَّعَاب : المسالك والسبل .

(٧) قَنَطُوا : يمتنوا .

(٨) المقطع القرطبي ٣٤/١ .

(٩) قصد : هداية .

(١٠) تَصْلَوْ : من الإنصات .

(١١) القُر : القبر ، مثلث القفاذ .

وتسكن بسكونه، تُرُضِعُهُ نَارُهُ ونَفْطَمُهُ أُخْرَى، ونَفْرَحُ بِمَافِيْتِهِ، وَنَغْنَمُ بِشِكَايَتِهِ .
ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت
والبعث والوقوف بين يدي الله وما ينبغي أن يترود لذلك من التقوى والحكم الصالح .
والحسن في هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذي مرّ بنا وصفه ،
والذي يقوم على الازدواج وتزيين المعاني بالصور حتى تتمكن في النفس ، وكان
يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطباقاته الكثيرة . وكان يجاريه - كما قدّمنا - في هذا
الأسلوب كثير من الوعاظ ، وعلى رأسهم غنبلان الدمشقي ، ويُروى أنه كتب
إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة، منها قوله (١) :

« اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خيراً كثيراً ، ورسمها عابياً ، فياميتُ
بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع ، طغيى أمر السنة ،
وظهرت البدعة ، أُخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يُعطي الجاهل فيسأل » .

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته (٢) ، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسي كانوا
يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصري ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة
البائية (٣) . وما نشك كما أسلفنا - في أن بلغاه الكتاب في عصرهما كانوا
يجارونها في أساليبيهما هما وأغرابهما من الوعاظ ، فنحن لا نقرأ في
سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذي يتحلى
بالطباق والتصوير والذي يقوم على التوازن في الكلام توازناً ينسج به إلى الازدواج ،
حتى يؤثر في أنفس من يقره وهما ويستوليا على ألبابهم .

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت في هذا العصر الكتابات
الشخصية ، بحكم تباعد العرب في مواطنهم ، وبتأثير بعض الظروف من موت
يقضى التعزية أو ولاية تقضى التهنة ، أو شفاعة عند وال لقریب أو صديق ،
أو عتاب أو اعتذار . وطبيعي أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها ،
لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة ، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية
قليلة ، فن ذلك رسالة عقاب بن شبة إلى خالد القسري في شفاعة تجري على
هذه الصورة (٤) :

(١) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفحت ٤١٦/٢ .

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٩٥/١ .

« إن الله انتجبك^(١) من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً^(٢) شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية : وأعان خطرك بقدرة مقسومة، ومترلة ملحوظة، فجميع أكتافك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار^(٣) الله لك، وليس كلهم أداله^(٤) الزمان ولا ساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية^(٥) قرأني، وذوى الهيئة من أسرق، عرف معروفك، وأجبت أن تأيسته نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعني وإياه ما تجده باقياً على النشر، جميلاً في الغيب^(٦) ».

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى : والفقه الحسن بمدخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغي أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولى على عقله، فيقضى له حاجته. ومن أشهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي قتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لسيئاً بليغاً، يعرف كيف يحرك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول^(٧) :

« أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خيرة، ثم أعقبتني جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولك في إختائك : وأبأسني آخرك من وفائك، فلأنا في اليوم بجمع لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام » .

—

(١) انتجبك : اختارك .

(٥) دنية : لاسق .

(٢) خطراً : قدراً .

(٦) الغيب : العاقبة .

(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .

(٧) البيان والتبيين ٨٤/٢

(٤) أداله : نصره وأعانه .

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحلقه ، وأنه يعرف كيف بتخيّر ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جلب المعاني الطريفة ، التي تروّع بما فيها من منطلق عقلي دقيق ، وهو يعرضها في أسلوب من الازدواج الرشيق تزيّن الاستعارات والطباقات .

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترقّى لاف الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحقّقون نفس الرق ، وسرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتحبير .

٣

كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين في الإسلام ، وتؤكد الروايات التي وافقت صنيعة بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم^(١) ، إذ أحسّ حاجته إلى سجلات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموال القبيّ والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديواني الخراج والجند ، حتى إذا ولى معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم^(٢) ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكتب في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان ، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخثمي كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومي^(٣) ، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

(١) الوزراء وكتّاب الجيوش ، ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

الفارسي ^(١) ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر ^(٢) هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهمشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن في الواقع إنما يهمنا ديوان الرسائل : لأن أصحابه هم الذين كانوا يدرسون الكتب على السنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللسان والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تابعت أجيالهم على مرّ الزمن في هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسلم إلى خلفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتّاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يتلقّوا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يسمّونهم في دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه ^(٣) ، وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد ^(٤) بن يزيد الأنصارى . ولم يعترض علينا الجهمشيارى آثار هؤلاء الكتّاب إلا قليلاً ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفي عهد كل خليفة يسردُ أسماء

١٨٧/٥ والمجدد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٢٠٨/٥ .

(١) الجهمشيارى ص ٣٨

(٢) الجهمشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢٨٧/١ والطبرى

كُتَابُ الْوَلَاةِ . وَإِذَا رَجَعْنَا فِيهِ إِلَى أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ وَجَدْنَاهُ يَذْكُرُ بَيْنَ كُتَابِهِ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ الْمَلَقَبَ بِالْأَشْدَقِ لِفَصَاحَتِهِ وَرَوْعَةِ مَنْطِقِهِ وَجَهَارَةِ صَوْتِهِ ، وَكَانَ خَطِيباً لَا يَبَارَى ^(١) . وَلَمْ يُؤْتَرَّ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّسَالِ فِي عَهْدِ مَعَاوِيَةَ ، وَقَدَرُوا لَهُ الْجَاهِظَ رِسَالَةً فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ خَرَجَ عَلَيْهِ ، إِذْ كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ يَتَوَعَّدُهُ ، فَأَجَابَهُ عَمْرُو ^(٢) :

« أَمَا بَعْدَ فَإِنْ اسْتَدْرَجَ النَّعَمَ إِيَّاكَ أَفَادَكَ الْبَغْيُ ، وَرَائِحَةُ الْقُدْرَةِ أَوْرَثَكَ الْغَفْلَةَ . زَجَرْتَ عَمَّا وَقَعْتَ مِثْلَهُ ، وَنَدَبْتَ إِلَى مَا تَرَكْتَ سَبِيلَهُ ، وَلَوْ كَانَ ضَعْفُ الْأَسَابِغِ بِؤْيُسِ الطَّلَابِ مَا انْتَقَلَ سُلْطَانٌ وَلَا ذُلٌّ عَزِيزٌ . وَعَمَّا قَلِيلٍ تَبَيَّنَ مَنْ أَسِيرُ الْغَفْلَةِ ، وَصَرِيحُ الْخُدْعِ ، وَالرَّحِيمُ تَعَطَّفَ عَلَى الْإِبْقَاءِ عَلَيْكَ ، مَعَ دَفْعِكَ مَا غَيْرُكَ أَقْدَوْمٌ بِهِ مِنْكَ وَالسَّلَامُ » .

وَالرِّسَالَةُ عَلَى قَصَرِهَا تَصَوَّرُ مَهَارَتَهُ الْبَيَانِيَّةَ وَقُدْرَتَهُ عَلَى التَّعْبِيرِ الْمَوْجِزِ السَّرِيعِ مَعَ طَلَاوَةِ اللَّفْظِ وَحُسْنِ الدِّيَابِجَةِ . وَكَانَ يَتَوَلَّى دِيْوَانَ الرِّسَالِ لِمَعَاوِيَةَ وَابْنِهِ يَزِيدَ عُبَيْدٍ ^(٣) اللَّهُ بْنُ أَوْسِ الْبَغْسَانِيِّ ، وَرَوَى لَهُ الْجَهْشِيَارِيُّ رِسَالَةً عَلَى لِسَانِ يَزِيدَ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ لِيَتَخَذَ الْعُدَّةَ فِي مَقَاوِمَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ حِينَ نَزَلَهُ الْعِرَاقَ وَهِيَ تَمُضِي عَلَى هَذَا النُّحُو ^(٤) :

« أَمَا بَعْدَ فَإِنْ الْمَمْدُوحُ مَسْبُوبٌ يَوْمًا مَا ، وَإِنْ الْمَسْبُوبُ مَمْدُوحٌ يَوْمًا مَا
وَقَدْ انْتَمَيْتَ إِلَى مَنْتَهَبٍ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

رُفِعَتْ فَجَاوَرَتْ السَّحَابَ وَفَوْقَهُ فَمَا لَكَ إِلَّا مَرْقَبَ الشَّمْسِ مَرْقَبُ
وَقَدْ ابْتَدَأَ بِحُسَيْنٍ زَمَانُكَ دُونَ الْأَزْمَانِ ، وَبِلَدِّكَ دُونَ الْبُلْدَانِ ، وَتُكَبِّتُ
بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعُمَمَالِ ، فَلَمَّا تُعْتَقَرُ أَوْ تَعُودُ عَبْدًا ، كَمَا يُعْبَدُ الْعَبْدُ ، وَالسَّلَامُ .
وَالرِّسَالَةُ قَصِيرَةٌ ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحْبُونَ الْقَصْرَ فِي الرِّسَالِ الدِّيْوَانِيَّةِ
حَتَّى هَذَا الْعَهْدِ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ أَطَالَ فِيهَا كَاتِبٌ لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ يُسَمَّى
عَمْرُو ^(٥) بْنُ نَافِعٍ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الطُّوْلَ رَمَزَ لِمَا كَانَ يَأْخُذُ بِهِ الْكُتَّابُ
أَنْفُسَهُمْ فِي هَذَا التَّارِيخِ مِنَ التَّنْفِيزِ فِي الْقَوْلِ ، وَهُوَ تَفَنُّنٌ كَانَ يَفْتَقِرُ إِلَى تَرْتِيبِ

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ وراجع

(٢) الجهشيارى ص ٣١٤ .

(٣) الجهشيارى ص ٣١٤ .

(٤) طبرى ٤/٢٨٥ .

(٥) البيان والتبيين ١/٨٧ .

ورياضة في نَسَقِ الكلام وضبط أساليبه ، حتى يخلدوا ألباب من يقرءونهم .
ونمضي إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتابيه رَوْحُ بن
زِنْبَاع الجَلْدَامِي ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي ^(١) الكتابة ، وليس بين
أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهمشياري وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد
غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمَّ به ، فقال له ^(٢) :
« لَا تُشْمِتَنَّ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقَمْنَتَهُ ^(٣) ، وَلَا تَسُوهُنَّ بِي صَدِيقًا أَنْتَ مَسْرُوتُهُ ،
وَلَا تَهْدِمَنَّ مَنِي رَكْنًا أَنْتَ بَسَيْتَهُ ، هَلَا أَقَى حَلْمُكَ وَإِحْسَانُكَ عَلَى جَهْلٍ وَإِسَامَتِي ؟ » .
فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتَّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الحُشْتَنِي كاتب
رسائله الذي حوَّل الدواوين من الرومية إلى العربية ، ولم تنصِّ المصادر القديمة
على ما كتبَ به بين يدي الخلفاء . وما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة
والبيان ، وفي الجهمشياري أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك
قبل تولُّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد
والى الخراج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله ^(٤) : « لِمَ بَعَثَ أمير المؤمنين
إلى أسامة بن زيد ؟ فقال : لا أدري ، قال : أفترى ما مثلك ومثل أسامة ؟
قال : لا . قال : مثلك ومثله مثل حِيَّةٍ كانت في ماء وطين وبَرْدٌ ، فإن رفعتُ
رأسها وقع عليها حافرُ دابَّةٍ ، وإن بقيتْ ماتت بِرَدٍّ ، فَرَّ بها رجل ، فقالت :
أدخلني في كَمِّكَ حتى أدفأ ثم أخرج ، فأدخلها ، فلما دفنت قال لها :
اخرجي ، فقالت : إني ما دخلت في هذا المدخل قط فخرجت حتى أنقُصَ
نقرةٌ ، إما أن تسلم منها ، وإما أن تموت ، ووالله لئن دخل أسامة لَيَنْقُصَنَّكَ
نقرةٌ إما أن تسلم معها وإما أن تموت » .

والكلمة تدل دلالة بينة على دقة مداخلة ومسالكة إلى الإقناع ، وإن
في نقله الدواوينَ ما يدل على سعة ثقافته وهي سعة كانت تقترن بعذوبة المنطق
وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائقة على نحو ما توضحه كلمته .

(٢) وقه : فهره وأذله .

(١) الجهمشياري ص ٣٥ .

(٤) الجهمشياري ص ٥٦ .

(٢) البيان والبيان ٣٥٨/١ والجهمشياري

ص ٣٥ والأمال ٢٥٩/٢ .

وإذا ولينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتاب يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، وما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القيربنة كاتبه حين ثار على الحجاج : « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجماً أعرفه فيه سوء فعله وأبصره فبح سريرته » ويُسند ابن القيربة مشيخته ، ويردُّ عليه الحجاج رسالة مسجوعة^(١) . ولا تهمنا الرسلتان بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كتابه .

وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقتن بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن يحيى بن يعمر - أحد علماء اللغة الأوائل - كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في « بادغيس » انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكُتب^(٢) : « إنا لقينا العدو ، فنحننا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقنا طائفة بعرائر^(٣) الأودية وأهضام^(٤) الشيطان ، وبتنا بعرعر^(٥) الجبل وبات العدو يحضضه^(٦) » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة ، وشجّعته على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوايد الألفاظ . على نحو ما قدّمنا في غير هذا الموضع . وفعلنا راعت الرسالة الحجاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأني عذرة هذا الكلام . فقبل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يُشخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنتي لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي^(٧) .

-
- (١) الأخبار الطوال لدينوري (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .
 (٢) البيان والبيان ٣٧٧/١ والمبرد ص ١٥٨ والطبري ١٨٧/٥ .
 (٣) عرائر الأودية : أسافلها .
 (٤) أهضام الشيطان : مداخلها . والشيطان .
 (٥) جمع مائط وهو المستوى من الأرض .
 (٦) عرعر الجبل : أعلاه .
 (٧) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .
 (٨) البيان والبيان ٣٧٨/١ .

وعلى هذا النحو كان كتاب الولاية والقواد في الشرق يجبرون رسائلهم ، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوان الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرج فيها الكتاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهمشيارى : « كان عامة كتاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبي قرّة كتب ليزيد بن المهلب (في ولايته لسلیمان بن عبد الملك) ومنهم قُحْدُم بن أبي سُلَيم وشيبة بن أئمن كاتباً يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم »^(١) .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعَنِّون بالطّوامير والقراطيس^(٢) التي كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفي الجهمشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظم كتبه ويحمل^(٣) الخط الذي يكتب به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض^(٤) . ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على كتبهم ، حتى لئرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالانقصاد في القراطيس ، طالباً من الكتاب أن يوجزوا^(٥) ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهي مدرسة رَفَقَ فيها النثر الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيئته هو ابنه عبد الله والثاني من غير بيته ، هو صهره ونحنته عبد الحميد .

وكان سالم يحميد اليونانية ، ونقل منها - كما مر بنا - بعض رسائل لأرسططاليس ، وتروى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول^(٦) ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة^(٧) . ومن يرجع إلى الجهمشيارى

(١) الجهمشيارى ص ٣٩ .

(٢) الطوامير والقراطيس : الصحف

(٣) يحمل : يعظم .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) الفهرست ص ١٧١ .

(٦) الجهمشيارى ص ٤٧ .

(٧) الفهرست ص ١٧١ .

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له^(١).

فإنخليفة لم يعد يُملى كتبه على كتابه كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثم لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول في مسهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزع أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يَنْصَحُ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصت المصادر على اسمه . ونحو عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية . ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تُطَبَّعُ بطوابع أسلوبية واحدة ، إذ تَجَرى في أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجحلة الرصينة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفَّ ببعض أهله^(٢).

« حلت هضبة أصبحت تنحو^(٣) بها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يُدْ هذه^(٤) بك قلة شكرك متحطماً وقِيذاً^(٥) ، فهلاً - يا بن جرشة^(٦) - قومك - أعظمت رَجَلهم عليك داخلا ، ووسَّعت مجلته إذ رأته إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاوضته^(٧) مقبلا عليه ببشرِك إكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهي كلها من هذا النسيج الأنيق الذي يَرْبِيه الازدواج والصور البيانية ، وقد أثرتْ لسالم رسالة بشكر بها بعض إخوانه على صنعِ قدَّمه إليه ، وهي على هذا النمط^(٨).

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسم الرجاء فيما بقى لي عندك . قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك ، وجعل

(٦) الجرشة : الماشطة .

(٧) فاوضته : حدثه .

(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ١٣١/٢ .

(١) الجهمشاري ص ٦٢ .

(٢) طبري ٦٨/٥ . وما بعدها .

(٣) تنحو : تشرف وتطل .

(٤) يدعه : يسقط .

(٥) وقِيذاً : صريماً .

ما سلف إلى^١ منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك .
وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه .
فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ
المبرد في كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة
تسع عشرة ومائة إلى خالد القسري حين أخذ ابن حسان النبطي وكيل هشام
على ضياعه بالعراق فضر به بالسياط . وهو يفتحها بقوله^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر^٢ لم يحتمله
لك إلا ما أحب^٣ من رب^(٢) الصنعة قبلك واستقام معروفه عندك . وكان أمير
المؤمنين أحق^٤ من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعدد مثل مقاتلك وما بلغ
أمير المؤمنين عنك رأى في معابذك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالبعد
ممتدة أبطأته ، فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه
إلى حيلته وحسبه وبيته وذهبه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغيرة^(٣) ، وانكشطت^(٤)
عنه عمالة الغنى والسلطان ، ذل^٥ متقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عبده قادراً
عليه قاهراً له . . . »

وأُتِيبَ عبد الله في الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ،
ومصغراً لأمره بالقياس إلى سلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف
أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يخافه ويخفونه . ويمضي
بعدد عليه أخطائه في سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس في أعماله ، وكيف
ضيع أموالاً كثيرة ، هي أموال المسلمين ، في حفر سحر الميازك ، وكيف يبتز
أموال رعاياه باسم هذايا السيروز والميهرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع
بأبن حسان ، ويسجل عليه نقص الخراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان ، مظهراً
بها العصبية البمية متحاملاً على المضرة . وهو في ثنايا ذلك يهدده برواجه
بغيه وأنه إن لم يكف عن غيئه فقبل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبة وعملاً .
وطالت الرسالة ، حتى لكانها ناربع مختصر لخالد القسري وولايته الطويلة

(١) الفبر : حوادث الدهر .

(٢) انكشطت : انكشفت .

(٣) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٤) رب الصنعة : إمامها وتبنيها .

على العراق . وهي جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذي رأيناه في فاتحتها ، والذي ثبتته سالم في دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد ^(١) الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد . من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسي الأصل . ويقول أكثر مَنْ ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق ^(٢) وسكن الرقة . وكان في أول أمره ينتقل في القرى معلماً في كتابتها ، وعرف في نفسه فصاحة ومهارة بيانية : فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك ، وأُعجب به سالم فأصهر إليه . وما زال به حتى خرّجه كاتباً لا يبارى . وعرفه مروان ابن محمد ، وكان عاملاً لهشام . كما مرّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذته كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ في الحكم إذا قلنا إن ما أثبتته الطبري من رسائل مروان في ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه : وتتوالى رسائله الرائعة ، وعبثاً حاول أن يلم الشعث حين انقضت جيوش أبي مسلم من خراسان ، حتى إذا هُزم مروان في موقعة الزّباب ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قُتل معاً في معركة بوصير .

وهكذا كان وفيّاً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض الرواة أنه فترّ بعد موقعة الزّباب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عبور السفاح عليه . وهي مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعلّ مما يدل

(١) الحلبي) ص ٦٩ وصحح الأحمى ٨٥/١ ،
١٩٥/١٠ والنيزة لثمالى (طبعة الصاوى)
١٣٧/٢ والجريدة الثاني من جبهة رسائل
العرب لأحمد زكى صفوت ومن حديث
الشعر والنثر لطلح حسين ص ٤٠ وما بعدها .
(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول
إنه من أهل الشام .

(١) انظر في عبد الحميد الوزراء والكاتب
لجيشيارى ص ٧٢ وما بعدها ووفيات الأعيان
لابن نكبان : نسخة المطبعة الحسينية ٣٠٧/١
والفهرست ص . والمسالك والمسالك
للإسطنبولى ، ص ١٤٥ والبيان
والتيبين ٨٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ وعيون
الأخبار ٢٦/١ والصناعتين لمسكرى (طبعة

على أنه قُتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم ^(١)

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كُتَّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد ساءه الملاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونَصَح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لم ^(٢) ، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المرسلون ولطريقته لزموا » ، وهو الذي سهَّل سبيل البلاغة في الرسل . وقد أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وكأنه تأثر في ذلك بتحמידات واصل وغيره من الوعَّاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور بطائفة منها لا نقل كماً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مرَّ بنا في أول خطبته المتروعة الرائ . ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، عاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أُثرت عن الساسانيين والتي يُقال إنه كان أحدَ نقلها إلى العربية ^(٣) . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنتهي إلى التمثل وصُّع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكُتَّاب ^(٤) وهي رسالة عامة ليست موجهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هي موجهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكُتَّاب في تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية . ونحن لا نقتصر هنا إلى ما استهلَّ به الجهمشاري كتابه « الوزراء والكتاب » من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزرائهم الكُتَّاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تُعدُّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية في سياستها

(١) الجهمشاري ص ٨٢ .

٢٩/٢ .

(٤) الجهمشاري ص ٧٢ وصح الأمتى

(٢) رسائل الملاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

٨٥/١ .

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين

وضبط شئونها في الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغي أن يحسنه الكتاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلوم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فلما ثقفوا ألتستمكم ، وأجيدوا الخط فإنه حليته كتيبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بحلى العلم والأدب ، ويصرح بأن عليهم أن يوسعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيها يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شئون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعين لهم النبايع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتقنوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، ليتقنوا بذلك في كتاباتهم السياسية . ونراه في تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد حضّم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرفقة في العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طيفور^(١) وهي في رأينا تكملها ، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغي أن يجمعهم من ألف الوداد والصداقة ، ومضى في هذه الرسالة بفصل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعائمه التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة ، بما يبرّه الأخ أخاه حين نزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدخل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاق الذي شاع في بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع في كتابه

الأدب الكبير والأدب الصغير ^(١) .

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسائلتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب سياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه ^(٢) . عبد الله حين أسره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصنوبري ، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨ . ولا نكاد نلمح بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طولاً غير مألوف ، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القِطْع الكبير . وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلين دماء المسلمين . وأنه رأى أن يكتب إليه بعهده يؤدي به حق الله الواجب عليه في إرشاده . ويمضي العهد بعد ذلك موزعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة ، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة ، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها . وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده . ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركانه ، ويُنْفِض في بيان الخصال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن يتصف بها طلابه . وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب ، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة ، ويعصور له كيف يُعِيدُ جيشه حين اللقاء وكيف يُقَسِّمُهُ إلى وحدات ، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة . ويشير إلى ما ينبغي أن يتحنى به خازن أمواله من خلال . وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكائدهم ووعده لهم بالمنازل والولايات . ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غدوة وبرأحه ومنازلة خصمه . ويختم الرسالة بالدعاء له .

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش ، وهو دستور إسماعيل

(١) انظر كتابنا « الفن ونزاهة في النثر » (٢) صح الأخطى ١٠/١٩٥

العرف « ص ١٣٩ وما بعدها .

فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسي من وصايا وتعاليم ، كنزاً يديرونها في كتبهم . هي خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكائهم وأموكهم . وقد شفعها بتعاليم الإسلام الرّكيّة . واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذي لا يججب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتبع له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة : وهي صياغة لا تكاد تفرق في شيء عن صياغة الحسن البصري وواصل بن عطاء وأضرابنا من الوعاظ الذين ألانوا اللغة ومرّئوها لأداء معانيهم . وكأنما تحوّل إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفرق عنهم في شيء : فهو يزاوج في ألفاظه : وهو يتخذ إلى ذلك طريقهم في الترادف ، موشياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية^(١) ، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشرها في كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فعرفه عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدام الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهي شائعة في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فمن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذة سالم الذي كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربي ، وهي تنضح في رسالة إلى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصل له ما ينبغي أن تكون عليه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخيَله من صفات : وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً . ومن هذا الباب رسالته ^(١) التي وصف بها الصيد ، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش ، وما وقعوا عليه من بعض الغُدران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار ، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين .

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد . فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تكتسب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد . وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة : فلم تعد الكتابة وحدها كافية ، بل أصبح أساساً فيها أن تُسند بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة : أجنبية وعربية . وأخذت تزحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين ، إذ نرى عبد الحميد يُجسِّد قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد . ودائماً تروعننا براحته البيانية ، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة ، غير أنه ينبغي أن لا ننسى دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة ^(٢) التي كتب بها إلى أهله يعزيهم عن نفسه . وهو مهزم مع مروان :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا مخوفةً بالكُرَّة والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درت ^(٣) نه بحلاوتها ، وساعده الحظ في سكنٍ إليها ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعصفت بأنيابها ، وبوطأنه بشقلها ، قتلاها ^(٤) نافراً عنها ، وذمها سائحاً عليها ، وشكاها مستريداً منها ، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درها أفابيق ^(٥) استحليناها ، ثم شمت ^(٦) منا نافرة ، وأعرضت عنامتكرة ، ورعنتنا ^(٧) مولية ، فمُح عذبا ، وأمر

(١) جبهة رسائل العرب ٢/ ٤٤٤ .
 (٢) الجهشجاري ص ٧٢ .
 (٣) درت : من الدر وهو اللبن .
 (٤) قتلاها : كرمها وأبنتها .
 (٥) الأفابيق : ما ينبعث في الضرع من اللبن .
 (٦) شمت : من شمس الفرس إذا جبح .
 (٧) رعنتنا : من رعمه الفرس إذا ركله .

حللناها، ونحسّن لبيتها، ففرقتنا عن الأوطان، وقطعتنا عن الإخوان، فدارنا نازحة^(١)،
وطيرنا بارحة^(٢)، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تفرّبت، وأعقبت
بالراحة نصبا^(٣)، وبالجدل^(٤) هما، وبالأمن خوفاً، وبالغزّ ذللاً، وبالجدّة^(٥)
حاجة. وبالسراء ضراء، وبالحياة موتاً، لا تترحم من استرحمها، سالكة بنا
سبيل من لا أوبة له، منفبين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء.

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميّز بها في أسلوبه
ومعانيه؛ فالألفاظ متخّبة وليس فيها نوعر ولا غريب وحشي، وإنما فيها
العدوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها
الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يعنى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينهى به
إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات
موسيقية تثبت في ذهن وتجلوها جلاء تاماً. وهو يضيف إلى ذلك حلّ من
طباقات وتصويرات تُضفي على أساوبه روعة بيانية خلاقة، بل إننا لا ندقق في
القول حين نزع أنه يضيف هذه الحلّ، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام،
وكأنها مدّاه ولحمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر
الأموي حل كل ما كان يُنتظر لها من رقي وإبداع فني.

(٣) الجلل : السور .

(٤) الجدة : الميرة .

(١) الطير الباردة : التي تمر من اليمن إلى

اليسار ، والعرب القدماء كانوا ينشأون بها .

(٢) نصبا : تعباً

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامي في هذا الجزء إلى كتابين ، اختصر أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بني أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمِهِ الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية ، مبيناً كيف أخرج العرب من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريداً والعرب ، حتى دخلوا في دين الله أفواجا . وألّمت بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروب الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثالية الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا في مدى تأثيرهم واستلهاهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مسّاً عفيفاً ، ومنهم من مسّ روحه مسّاً خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحُطَيْيئة ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيق الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعدد إلى الإقذاع في الهجاء فحسبه التهمك والسخرية . وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثر في نفوسهم تأثيراً عفيفاً مثل لبيد والناطقة الجعدى فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواظ خلاصة .

وكان تأثير النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائدة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض في معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووَصَف الكون في طريقه من النشأة والدُّنور ورَسَم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمّة التي تحقّق للناس السعادة في الدارين . وكانت خطابة الرسول نارة وعظاً وثارة تشريعاً ، وقد تجنّعت بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخطبون في الجيوش الفاتحة محمّسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة في معاملة الأمم المغلوبة . وسار في نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبي طالب ، وكان خطيباً مفوهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة صفوه وفي الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة في الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسّح طاقة النثر العربي في صدر الإسلام ، ومدّ أطنابها مدّاً واسعاً . وجدّت بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذِّكْر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة مواثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكروهم الجهمشيارى وغيره . وتحدّث الفتح ، وتكثّر الرسائل بين الخلفاء وقوادهم وولاةهم ، كما تكثّر المعاهدات ، وفي أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابي عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابي ، بما أخذ يحتمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثاني الخاص بعصر بنى أمية ، فتحدّث عن مراكب الشعر في هذا العصر ، ووقفت أولاً عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والثرف والتهو والفناء ، مما كان له أثر واسع في نمو الغزل بهما وذبوعه على كل لسان . وكان سكان نجد وبوادي الحجاز يعيشون في شظف من العيش هياً بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العذرى العفيف وشيوعه . وحدّث أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتح إلى الشام والجزيرة فاصطلمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونسبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصية القبلية والحمة الجاهلية ، فاشتعل الفخر والهجم . وكانت الكوفة مستقرّاً للشيعة وثوراتهم ضد بنى أمية فطُبع شعرها في جمهوره

بطابع شيعي حزين . وأخذت العصبية تحتدم في البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون في خراسان ، فكثر الشعر الذي ينطق عنها في البيتين . وكثرت سيول المديح فيهما وفي الكوفة ، ومضت أسراب تنفّس بالزهد أو بالهجون ، وأسراب أخرى تنفّس بنظرية الحوارج السياسية وخاصة في البصرة وبين جيوش الأزارقة في فارس . ولم ينشط الشعر في الشام إلا قليلاً ، فإن أكثر ما أُشيد فيها وقد عليها إما مع مدّاح الأمويين وإما مع العائثر القيسية التي هاجرت إلى الشمال وإما مع بني أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر في المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تنقدها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولايتها مادحين .

وكانت تؤثّر في الشعر الأموي مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب في البلدان المفتوحة بالموالي ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالي لكُنُيات مختلفة وانتشر الالحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم في الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام في أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمسون للجهاد في سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعث بينهم فرق الجبّرية والمُرَجّنة والقدسية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه في الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالي ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكانما مُحِيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأحاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكثُرَ شعراء المديح والمهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدّاحون يَتَعَدّون ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد نافرين ورودَ الثناء محمّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نُصَيْبُ والقَطَايُ وكعب بن مَعْدَانَ الأشقرى وزياد الأعجم . وسمرت العصبيات القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرغ والحكم بن عَبدَل وثابت قُطْنَة . وبما لا ريب فيه أن أربع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء التفاضل النابهون : الأخطل والغرزقي وجريز ، فقد أتاحوا للتقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمدح كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء في صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويناضلون وكانت لكل فرقة نظرية في الخلافة تدافع عنها وتندود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة في حكمه إلى قريش لا إلى كُتَلَبَ وغيرها من القبائل اليمنية التي يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرُقَيْيَاتُ أهم من صدر في شعره عن هذه النظرية . وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌ للمسلمين جميعاً لا لقريش وحدها ، وأنه ينبغي أن يتولّاها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشياً ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذبذبين في أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة في الاستشهاد وزهداً قوياً في الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثلهم عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح . وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌ شرعيٌّ لأبناء علي اغتصبه منهم الأمويون وينبغي أن بُردَ عابهم ، وكان استشهاد أئمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، فضوا يبيكونهم بدموع غزار ، مُحَفِّظِينَ النَّاسَ على أن يثأروا لهم من الأمويين وبذية بهم حتفهم ، كما مضوا يصوِّرون عقيدتهم فيهم وما يكتنون لهم ولأهل البيت بن عواطف حارة متبشّلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثلهم كثير والكُهمَيْت . وكان كثير من أشراف العرب وخاصة في الكوفة متغيظين مُتَحَفِّقِينَ على الأمويين لحمل الخلافة وراثية فيهم من دون العرب جميعاً ، وعبر عن ذلك ابن الأشعث في ثورته وشاعره أَعْنَسَى همدان في شعره واصطف مع الأمويين شعراء كثيرون يدعون لهم ويناضلون ضد كل هؤلاء الخصوم ، على شاكلة ما نرى عند عبد الله بن الزبير الأسدي الكوفي وعدى بن الرِّقَاعِ الدمشقي .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها في اتجاه واحد أو على الأقل

في اتجاه غلبَ على حياتها وصاد : فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبي ربيعة والأحوص والمَرْجِي ، وأصحاب الغزل المصيف من أمثال قيس ابن ذريح وجميل بُشَيْنَة ، وأصحاب الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وصابق البربري ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرِّمَّة . ومن ذلك الرَّجَّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تنسج لكل أغراض التصيلة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطُّرْدِيَّات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرَّروا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآيلة .

وازهزت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعلمت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والوارثين وخطباء الأمويين ، وكلٌ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمت بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعَنِّتُونَ بتجدير كلامهم ، وخيرٌ من يمثلهم الأحنف بن قيس . واحتلَّت خطابة الوعظ والقصص الديني احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثروا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبوتاً قوياً ، وهو أسلوب نهض على حلَّى من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني . وقد مضوا يعلِّمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثلهم الحسن البصري .

ونمى التلوين في هذا العصر نمواً واسعاً ، إذ دونوا معارفهم التي تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التي تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه والمغازي وقصص الأنبياء ، ومضوا يلوِّنون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات في المثالب والأمثال والمواعظ والحكم وفي مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة في الكيمياء والطب والنجوم . وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترقون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبد الملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصاص الديني الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعاني وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والروني والطلاوة ، ومضى يبدع رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم في الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولاً وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية . وقد نظم ابن سلام المخضرمين منهم في طبقات الجاهليين العشر الذين أودعهم كتابه طبقات فحول الشعراء ، وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والحطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والنايفة الجعدي وثني ذؤيب الهذلي والشماخ ، وكلهم عاشوا في العصرين الجاهلي والإسلامي . وخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا في الجاهلية . ثم مضى في الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المراثي وشعراء القرى ، مشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما في الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والحطيئة . كما ترجمنا لاثنتين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والنايفة الجعدي ، وترجمنا لحسان . ولم نترجم لأحلوراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يستدلون في الندوة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثر به الإسلام في أشعارهم. ولم نغفل مَنْ سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفي الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم في الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بني أمية وجدناه يسلكهم في طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرن مَنْ سَماهم في تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا أعرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وحُشِنَّا بآخرين لم يجرؤوا على لسانه ، لأنهم فعلاً يتقدمون من أعرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التي عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثَمَّ اهتمَّ بجمهورهم صاحبُ الأغاني ، ففتح لهم في كتابه فصلاً طويلاً ، وعنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعوه صنعة مُحْكَمَةً . وكثرة من سَماهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجلة ، وهم غالباً من نَجَدَ ، وكأنه إنما عنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثلين بأشعارهم ومستشدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بيّنة ، فقد سلك الراعي في الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلٌّ ، ويدنو عن طبقته درجات . وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به في بيئة اللغويين من إحسانه لنعت الإبل ، وحشده في هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخبره عن طبقته ووضع فيها بدلامنه ذا الرُّمَّة الذي يتقدم جميع شعراء عصره في وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُّمَّة في الطبقة الثانية وقرن به فيها البعث والقطامي وكثيراً ، والبعث مقل ولا يرتفع بمناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جُمَيْل وعمرو بن أحمرو سُهَيْم بن وَكَيْل وأوس بن مَثْرَاء ، وَنَهْشَل بن حَرْمَى وَحُسَيْن بن نور الهلالي والأشهب بن رُمَيْلة وعمر بن بَلْحَا التَّيْمِي ، وأبو زُبَيْد الطَّائِي والمُعْجِيز وعبد الله بن هَمَّام السُّكُولِيَان وَنُفَيْع بن لَقِيط الأَسَدِي ، جميعهم مقلون ، ولا يمثّلون عصرهم لا في أحداثه الجسام ولا في تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل في الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلاً ونصيباً ، وهم أعلى من طبقهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقَرَنَ بالمتوكل الليثي في الطبقة السابعة ابن مفرغ وزباداً الأعجم وعدى بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل في الطبقة الثامنة حَقِيل بن عُلْفَة وشيب بن البرصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك في الطبقة التاسعة أربعة من الرجّاز هم : الأغلب العجلى وأبو النجم والعجاج ورؤبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العُقَيْليّ ويزيد بن الطَّشْرِيَّة وأبي دُوَاد الرُّوَاسي والقُحَيْصَف العُقَيْليّ ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام في طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا في الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونَحْنُ كثيرين يُسَمُّون فيه غناء محموداً ، مسوقاً في ذلك بلبواف لغوية خالصة ، ومن تَمَّ عَنَى بشعراء نجله والوادي ، ولم يكِدْ يُعْنَى بشعراء المدن مع أنهم يُفَضَّلُون بِمَا دفعوا إليه الشعر من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبي ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل في عصره ، وأهمل معه العَرَجِي وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح ، ولم يُعْنَ من شعراء الشيعة إلا بِكُثِير ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤليّ وسابق البربري وشعراء المحبون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهيثم .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبية في عهد بني أمية . وقد ترجمت لكل من ذكرتهم آنفاً ممن أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثل في كل جانب من جوانب العصر وفي كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير مَنْ ترجمت لهم ناثراً في الموامش مراجع كثيرين منهم ، تُعِين على التوسع في دراستهم . والذي لا شك فيه أن شعراء العصر الأموي تطوروا بالشعر في جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثّلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نطقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة	مقدمة
٧ - ٥	.
١٣٥ - ٩	الكتاب الأول في عصر صلر الإسلام
٢٤ - ١١	الفصل الأول : الإسلام .
١١	(١) قيم روحية
١٥	(٢) قيم عقلية
١٨	(٣) قيم اجتماعية .
٢٢	(٤) قيم إنسانية .
٤١ - ٢٥	الفصل الثاني : القرآن والحديث .
٢٥	(١) نزول القرآن وحفظه وقراءاته .
٢٧	(٢) سور القرآن وتفسيره في العهد الأول .
٣٠	(٣) أثر القرآن في اللغة والأدب .
٣٤	(٤) الحديث النبوى
٦٧ - ٤٢	الفصل الثالث : الشعر . .
٤٢	(١) كثرة الشعر والشعراء المخضرمين .
٤٦	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٣	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين .
٦٢	(٤) شعر الفتوح .

صفحة

٦٨ - ١٠٥	الفصل الرابع : الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام
٦٨	(١) كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام .
٧٧	(٢) حسان بن ثابت
٨٣	(٣) كعب بن زهير
٨٩	(٤) لبيد
٩٥	(٥) الخطيئة
١٠٠	(٦) النابغة الجعدي
١٠٦ - ١٣٥	الفصل الخامس : النثر وتطوره .
١٠٦	(١) تطور الخطابة
١١٤	(٢) خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم .
١٢١	(٣) خطابة الخلفاء الراشدين
١٢٩	(٤) الكتابة
١٣٧ - ٤٧٩	الكتاب الثاني في عصر بني أمية
١٣٩ - ١٦٨	الفصل الأول : مراكز الشعر الأموي .
١٣٩	(١) المدينة ومكة
١٤٨	(٢) نجد وبادي الحجاز وزوج قيس إلى الشمال
١٥٣	(٣) الكوفة والبصرة
١٦١	(٤) خراسان
١٦٥	(٥) الشام
١٦٦	(٦) مصر والمراكز الأخرى
١٦٩ - ٢١٤	الفصل الثاني : مؤثرات عامة في الشعر والشعراء
١٦٩	(١) الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرّبها وأثر ذلك في اللغة

صفحة ٤

- (٢) الإسلام وأثره في موضوعات الشعر . . . ١٧٦
- (٣) السياسة . . . ١٨٢
- (٤) الحضارة . . . ١٩٣
- (٥) الثقافة . . . ١٩٩
- (٦) الاقتصاد وموقف العرب من الموالى . . . ٢٠٧
- الفصل الثالث : شعراء المديح والمجاء . . . ٢١٥ - ٢٨٩
- (١) شعراء المديح : نصيب : القطامي ، كعب بن زهير . . . ٢١٥
- (٢) شعراء المجاء : ابن مفرغ ، الحكم بن عبدل ، . . . ٢٢٤
- ثابت قطنة . . . ٢٤١
- (٣) شعراء النقائض . . . ٢٥٨
- (٤) الأخطل . . . ٢٦٥
- (٥) الفرزدق . . . ٢٧٦
- (٦) جرير . . . ٢٩٠ - ٣٤٦
- الفصل الرابع : شعراء السياسة . . . ٢٩٠ - ٣٤٦
- (١) شعراء الزبيريين : ابن قيس الرقيات . . . ٢٩٠
- (٢) شعراء الخوارج : عمران بن حطان ، الطرماح . . . ٣٠٢
- (٣) شعراء الشيعة : كثير ، الكميت . . . ٣١٥
- (٤) شعراء ثورة ابن الأشعث : أعشى همدان . . . ٣٢٩
- (٥) شعراء بني أمية : عبد الله بن الزبير ، عدي . . . ٣٣٦
- بن الرقاع . . . ٣٤٧ - ٤٠٤
- الفصل الخامس : طوائف من الشعراء . . . ٣٤٧ - ٤٠٤
- (١) شعراء الغزل الصريح : عمر بن أبي ربيعة ، . . . ٣٤٧
- الأحوص ، العرجى . . . ٣٤٧

صفحة

(٢) شعراء الغزل العذرى : قيس بن ذريح ، جميل

ابن معمر ٣٥٩

(٣) شعراء الزهد : أبو الأسود الدؤلى ، سابق البربرى ٣٦٩

(٤) شعراء اللهو والمجون : الوليد بن يزيد . أبو الهندي ٣٧٦

(٥) شعراء الطبيعة : ذو الرمة ٣٨٥

(٦) الرجز : أبو النجم العجلى ، العجاج . رؤبة ٣٩٤

الفصل السادس : الخطابة والخطباء ٤٠٥ - ٤٥٠

(١) ازدهار الخطابة ٤٠٥

(٢) خطباء السياسة : زياد بن أبيه ٤١٠

(٣) خطباء المحافل : الأحنف بن قيس ٤٢٨

(٤) خطباء الوعظ والقصص : الحسن البصرى . ٤٣٥

الفصل السابع : الكتابة والكتاب . ٤٥١ - ٤٧٩

(١) التدوين ٤٥١

(٢) كثرة الرسائل المدونة ٤٥٦

(٣) كتاب الدواوين : عبد الحميد الكاتب . ٤٦٥

خاتمة ٤٨٠ - ٤٨٧

(١) خلاصة ٤٨٠

(٢) تعليق ٤٨٥

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- **في الدراسات القرآنية** : فصول في الشعر وتقدمه
الطبعة الأولى ٣٦٨ صفحة
- **سورة الرحمن وسور قصار** : عرض ودراسة
الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات
- **في الدراسات البلاغية واللغوية**
• **البلاغة** : تطور وتاريخ
الطبعة الثانية ٣٨٤ صفحة
- **المعاصر الجاهل**
الطبعة السابعة ٤٣٦ صفحة
- **المعاصر الإسلامي**
الطبعة السابعة ٤٦١ صفحة
- **المعاصر العباسي الأول**
الطبعة الخامسة ٦٦٠ صفحة
- **المعاصر العباسي الثاني**
الطبعة الثانية ٦٥٧ صفحة
- **في مجموعة فنون الأدب العربي**
• **الرشاء**
الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
- **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**
الطبعة التاسعة ٥٢٤ صفحة
- **الفن ومذاهبه في النثر العربي**
الطبعة السابعة ٤٠٠ صفحة
- **التطور والتجديد في الشعر الأموي**
الطبعة الخامسة ٣٤٠ صفحة
- **دراسات في الشعر العربي المعاصر**
الطبعة الخامسة ٢٩٢ صفحة
- **شرق شاعر العصر الحديث**
الطبعة السادسة ٢٨٨ صفحة
- **الأدب العربي المعاصر في مصر**
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات
- **البارودي رائد الشعر الحديث**
الطبعة الثانية ٢٣٢ صفحة
- **البحث الأدبي** : طبيعته ، مناهجه أصوله ، مصادره
الطبعة الأولى ٢٨٠ صفحة
- **المقرب في حل المغرب لابن سبيد**
الجزء الأول - الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
- **الجزء الثاني - الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة**
• **كتاب السعة في القراءات لابن مجاهد**
الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة

في سلسلة اقرأ

- **في الدراسات النقدية**
• **في النقد الأدبي**
الطبعة الثالثة ٢٥٠ صفحة
- **مع العقاد**
• **البطولة في الشعر العربي**